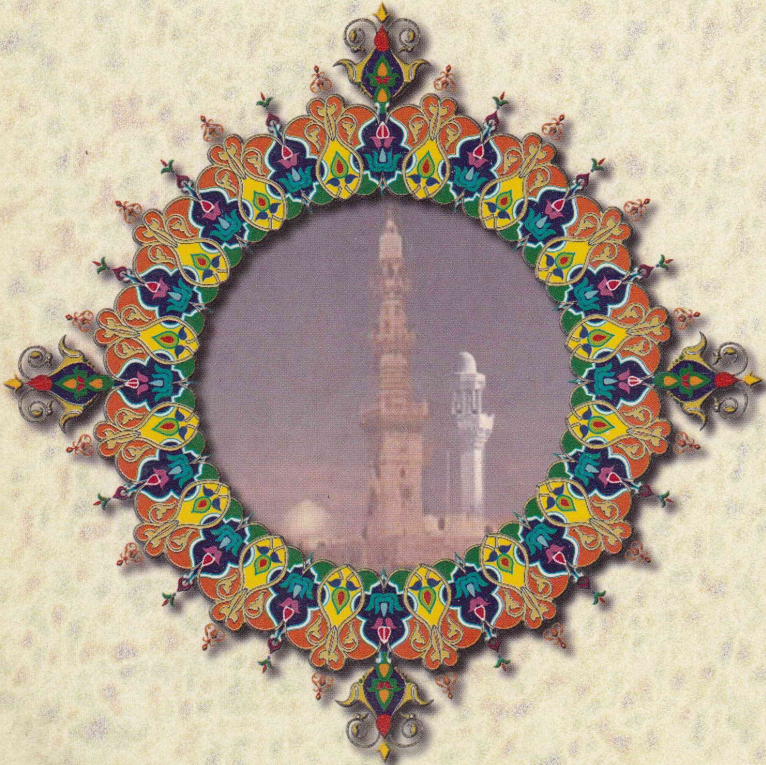


حسن الأمين

من نوافذ خراسان

حرم الإمام الرضا (ع)



توزيع دار التعارف

من نوافل تراويح
حرم الإمام الرضا (ع)

حسن الأمين

من نوافذ خراسان

حرم الإمام الرضا عليه السلام



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

المحتويات

٩	بين يدي الكتاب
خراسان	
١٣	خراسان في التاريخ الإسلامي
٢١	خراسان في العهد الساساني
٢٢	التقسيمات الإدارية لخراسان في عهد السانيين
٢٣	خراسان في العهد الإسلامي
٢٧	خراسان اليوم
٢٩	حدود خراسان الشمالية القديمة
٢٩	مدن خراسان
٣٢	قاعدة خراسان
٣٧	خراسان في عهود الاستقلال، الطاهريون
٣٨	السامانيون
٣٩	الغزنويون والغوريون
٤١	السلجقة والخوارزم شاهية
٤٢	الجنگيزيون
٤٣	التيموريون
٤٧	من تاريخ خراسان
٤٧	أفغانستان
٤٨	آريانا، إيرانشهر، إيران
٤٨	التشيع في غور
٥٠	أبو تمام في خراسان

٥٥ أنا في خراسان وفي نيسابور
٥٩ عامليان في خراسان
٥٩ في نيسابور
٦٢ على أبواب نيسابور
٦٢ نيسابور الحاضر
٦٤ قبر عمر الخيام
٦٥ بعد الروايتين
٧١ على قبر الإمام الرضا <small>عليه السلام</small>
٧٣ مشهد خراسان
٨١ وجود مدينة مشهد:
٨٢ مذهب أهالي مشهد إلى ما قبل الصفويين:
٨٢ الأوضاع العلمية في مدينة مشهد قبل العهد الصفوي:
 تأسيس الحوزة العلمية في مشهد. الحوزة العلمية منذ زمن الصفويين حتى أوائل القرن الرابع
٨٣ عشر الهجري:
٨٨ الوضع العلمي للحوزة من القرن الحادي عشر حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري
٨٩ الحوزة العلمية في مشهد خلال الفترة السابقة
٩٢ زمن الفترة والركود في الحوزة العلمية في مشهد بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٤١ م
٩٤ الموقع الجغرافي للحوزة العلمية في مشهد سبب استقرار الحوزة العلمية في مشهد
 ب - آثار مرقد الإمام علي بن موسى الرضاع (ع) والحوزة العلمية في مشهد: التأثير في
٩٧ مظهر المدينة:
٩٨ المؤسسات التابعة: مكاتب الحوزة العلمية في مشهد:
٩٩ أهم مكاتب الحوزة العلمية في مشهد:
١٠١ الحرم الرضوي:
١٠٢ تاريخ الحرم:
١٠٢ بناء الحرم والتغيرات التي طرأت عليه:
١٠٦ أبنية الحضرة:
١٢٠ الموقوفات:
١٢١ السدانة والمؤسسات الإدارية:
١٢٢ مسجد گوهر شاد:
١٢٥ مشهد منطلق لطريق التحرير الجديد
١٢٧ طريق التحرير:
١٢٨ أروقة ارتكازية:

١٢٨	نقل التكنولوجيا:
١٢٩	ما هو طريق الحرير؟
١٣٥	الخراسانية
١٤٣	العرب والمأمون ثم البويهيون
١٤٨	البويهيون

صفحات من التاريخ العباسي وولاية عهد المأمون

١٥٣	كتابة التاريخ من جديد
١٥٥	الانقلاب
١٥٩	الخراسانية
١٦٠	عروبة نقباء الدعوة
١٦٣	عروبة الدعوة العباسية في خراسان
١٧١	تولية الأمين
١٧٣	المأمون بعد الأمين
١٧٥	كتاب الأمين إلى الرشيد
١٧٧	كتاب المأمون إلى الرشيد
١٧٩	كتاب الرشيد إلى العمال
١٨٠	خروج الرشيد من بغداد ووفاته
١٨٥	كتاب الأمين إلى أخيه المأمون
١٨٦	كتاب الأمين إلى أخيه صالح
١٨٧	دسانس الفضل بن الربيع
١٨٩	الأمين ينقض العهد والمأمون يرد
١٩٣	والمأمون يرد
١٩٥	المسير إلى الحرب
٢٠١	وقع الخبر في مرو
٢٠٢	أثر الهزيمة في بغداد
٢٠٨	الحال في البلاد
٢١٤	الفضل بن الربيع
٢١٧	الالتجاء إلى الشام
٢٢٤	اضطرابات في بغداد
٢٢٩	التقدم إلى بغداد

٢٣١	بيعة المأمون في الحرمين واليمن
٢٣٢	الإطباق على بغداد
٢٤٢	تخيلات وعبر
٢٤٣	نهاية الأمين
٢٥٠	أصداء الفاجعة
٢٥٤	وفاء المأمون
٢٥٥	الشعر في المعركة
٢٦٤	ملحمة بغداد
٢٧١	المأمون وولاية العهد
٢٧٦	قدوم الرضا (ع) إلى مرو
٢٧٧	البيعة
٢٧٧	عهد المأمون للرضا
٢٨٠	وكتاب الرضا (ع) على ظهر العهد
٢٨١	الشهود على العهد
٢٨١	صورة الدرهم الذي ضرب في عهد الرضا (ع) بأمر المأمون
٢٨٢	الإمام الرضا (ع) ودعبل الخزاعي
٢٨٩	مظاهرة مرو
٢٩٠	الصدى في بغداد
٢٩٣	أصولية
٢٩٤	تولية الحسن بن سهل
٢٩٩	من مرو إلى بغداد
٣٠٢	وفاة المأمون
٣٠٣	المعتصم
٣٠٣	نهاية العباس بن المأمون

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

كان هذا الكتاب في طبعته الأولى مقتصراً على الأحداث التي أدت في النهاية إلى تولي المأمون الخلافة واختياره الإمام علياً بن موسى الرضا عليه السلام لولاية العهد، والتي هي جزء من التاريخ العباسي الأول.

وقد رأيت عند العزم على طبع الكتاب طبعة ثانية أن أضيف إليه دراسات مفصلة عن مقاطعة خراسان التي أصبحت حراماً للإمام الرضا عليه السلام ، وعن مدينة مشهد بالذات، المدينة التي نشأت على اسمه، ومضت في نموها منسوبة إليه: (مشهد الرضا)، ثم تداولتها الألسن والأقلام مقتصرة على لفظ (مشهد). كما جرى ليثرب التي نسبت إلى الرسول ﷺ فسميت (مدينة الرسول)، ثم استقر اسمها على (المدينة).

فإلى الإمام العظيم علي الرضا عليه السلام أهدي هذا الكتاب، وحسبي وحسب كتابي أن تعمنا نفحة من نوافح خراسان حرم الإمام الرضا عليه السلام .

حسن الأمين



خراسان



خراسان في التاريخ^(١)

|| لخراسان، في التاريخ الإسلامي، أحداث حاسمة توالى حدثاً بعد حدث حتى أضحت علامة بارزة في هذا التاريخ.

ثم كان أن صارت مدفنًا للإمام الثامن علي الرضا عليه السلام، فأكسبها ذلك قدسيّة جعلت منها مهوى أفئدة ملايين المسلمين الذي يهفون إليها بقلوبهم، ويقبلون عليها بجوارحهم كما قامت فيها حكومات إسلامية منفصلة عن الخلافة في بغداد، كالسّامانيين والصفّاريين والطاهريين وغيرهم، فقصدها الشعراء العرب، فكان لها في الشعر العربي نصيب وافر.

ذلك كلّه جعل التطلّع إلى تاريخها رغبة هواة التاريخ الإسلامي، وأوجب أن يخصّ هذا التاريخ بدراسات مفصّلة، إذا لم يسمح الظرف لنا بها، فإنه سمح بالمامة موجزة قد تغني بعض الإغناء، بعد مشقّات التتبّع والاستقصاء، فليست مصادر تاريخ خراسان في اللغة العربية موفورة، بل هي عسيرة.

ورأينا أن نلّم، أولاً، بتاريخ خراسان القديم وصولاً، بعد ذلك، إلى مراحل هذا التاريخ مرحلة بعد مرحلة.

يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان، في ما يقول، عن اسم خراسان: إن «خُر» اسم للشّمس بالفارسية الدرية، وأسان: كأنه أصل الشّيء ومكانه.

ويقول المسعودي ما مضمونه: إن الإيرانيين أطلقوا اسم خراسان على المناطق الشرقية

(١) من أهم مراجعنا في هذه الدراسة بحوث كل من: كاظم مدير شانه چي، ومحمد رضا قصايبان، ولسترنغ في ما كتبه عن جغرافية بلاد الخلافة الشرقية.

من بلادهم والمناطق المجاورة لها، وكلمة «خُر»: معناها الشمس، ويقولون عن هذه المنطقة: إنها مطلع الشمس، أما المنطقة الغربية فكانوا يسمونها: خُر تبران. إذا كان هذا رأي مؤرّخين عربيين في سبب تسمية خراسان بهذا الاسم، فهو لا يخرج عن آراء المؤرّخين الإيرانيين.

يقول محمد رضا قصايبان: خراسان، أو بلاد الشمس، أو أرض الشمس، اسم بلاد عريقة يتألاً كالشمس منذ القدم في مشرق إيران الكبيرة. ولموقعها الجغرافي الخاص الذي يعدّ في إيران مطلع الشمس، فإن الكثيرين من العلماء الماضين والحاضرين يرون أن كلمة خراسان اقتبست من هذا المعنى. وعلى ذلك، فإنها تنسب إلى مكان شروق الشمس. على أنّ في الإيرانيين من يرى، في تعليل هذه التسمية، آراء أخرى، فموسوعة «دهخدا» تقول: إن كلمة خراسان كلمة پهلووية استعملت في النصوص القديمة بمعنى الشرق أو المشرق مقابل كلمة الغرب أو المغرب. وهناك من يقول: إن معناها الأرض الساطعة أو المنيرة. وحافظ أبرو يقول: إن معنى خوراسان هو: أنّه يشبه الشمس. ومن المؤرّخين من يقول: إن كلمة خراسان مرّبة من كلمتين هما: خور بمعنى الشمس، وآسان بمعنى الشروق. أي أن خراسان هي مكان شروق الشمس.

وإلى ذلك يشير الشاعر العربي القديم الذي كان سائراً إلى خراسان:

أمطلع الشمس تبغي أن تؤمّ بنا؟ فقلت: كلا، ولكن مطلع الجود

ويقول لسترنغ: إن خراسان، في اللّغة الفارسية القديمة، معناها أرض الشرق. وهذه الكلمة كانت في أوائل القرون الوسطى تطلق على جميع البلاد الإسلامية التي كانت إلى الشرق من صحراء لوط امتداداً حتى جبال الهند.

أما عن حدودها فليس ما يدلّ على أنّها، في العصور التاريخية القديمة، قد عرفت حدوداً ثابتة، بل إن حدودها كانت تمتد وتقلّص حسب عوادي الزمن، على أن الأكد أن خراسان القديمة كانت أكثر اتساعاً من خراسان العصور المتأخرة، وقد تعاورتها أحداث قبل الإسلام وبعد ظهوره أدّت إلى تبدّلات في حدودها بين الحين والحين حتى آلت إلى ما هي عليه اليوم.

ويمكننا القول: إن خراسان كانت ممتدة من القرب من السواحل الجنوبية الشرقية لبحر الخزر إلى مرتفعات پامير وهندوكش. وكانت أحياناً تشتمل على الأرض الخصبة في جنوب بحر أرال (خوارزم) والجانب الآخر من نهر جيحون (ما وراء النهر)، على أننا يمكن أن

نقول: إن هذه الحدود كانت تتجاوز بلخ والمنطقة المعروفة بـ«طخارستان». ومن الغرب تصل إلى حدود زاغرس، وأحياناً تشمل قومس وجرجان والرّي ومناطق من طبرستان. وبالرغم من شمول خراسان لما وراء النهر، فإنّ «أمودريا» كان يعرف بأنه الحد الشمالي لها.

لقد استنتج العلماء، استناداً إلى الاكتشافات الأثرية، أن عمران خراسان يعود إلى العصر الحجري، وأنها كانت موطن الإنسان الأوّل، وأنّ ناس العصر الحجري الذين نزحوا من الجبال إلى السهول استوطنوا أطراف صحراء الملح في مسيرة هلالية الشكل. وخلال الألف الثاني قبل الميلاد، وبعد ظهور العناصر الهندية الأوروية بين الإيرانيين ورحلتهم إلى داخل إيران القديمة، كان القسم الأكبر من القبائل الهندية الأوروية قد زحف نحو الشرق، ومع اجتياحه نهر جيحون توطن في حوض نهر كابل. ويقول «غيرشمن» عن هجرة الفرع الشرقي للمهاجرين الآريين الذين يسميهم الهنود الإيرانيين:

«إن القسم الأكبر من القبائل التي كانت تشكّل الفرع الشرقي من الحركة الهندية الأوروية، قد رحل تدريجياً نحو الشرق، واجتاح ما وراء النهر وجيحون (أمودريا). وبعد توقّف قصير في سهل بلخ صعد معابر هندوكوش وسار في الطريق التاريخي الذي كان قد سار فيه المهاجمون نحو الهند وتوطن في بنديشير ونهر كابل. وقد يكون قد طرد بعض القبائل إلى الغرب خلال عبوره من باكتريا (بلخ)».

إن اختلاف الرّأي حول تاريخ انتهاء آخر استيطان في هذا المكان قد يحمل العلماء على الاستمرار في دراساتهم وتحقيقاتهم حول هذا الموضوع؛ إذ - كما تشير التّقنيات - إن هذه المنطقة كانت قد دمّرت تماماً في هجمات عنيفة، وإذا كان تاريخ هذا الهجوم يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، فإن سبب هذا التدمير قد يعود إلى الهجرة الهندية الأوروية المذكورة. وإذا كان التاريخ يعود إلى العهود الأخيرة من هذا الألف، فإن السبب قد يرجع إلى تيار جديد من الهنود الأوروبيين الذين جاءوا بالإيرانيين إلى نجد إيران. وإن الفرع الشرقي من الإيرانيين الذي كان قد جاء من «ما وراء النهر» لم يكن باستطاعته أن ينتشر باتجاه هندوكوش لأن منطقة رُجنخ والبنجاب كانت قد وقعت في أيدي فرع من العنصر الآري - الهندي، وإن هؤلاء كانوا قد استوطنوا هناك في عصر هجوم الهنود الإيرانيين. وبذلك يكون الرّاحفون الجدد مضطّرين إلى التوجّه نحو الغرب، إلى نجد إيران على طول الطريق الطبيعي الذي كان يسير من بلخ إلى قلب إيران.

وبالرغم من أن المستشرق الروسي «بارتولد» لا يعترف بهجرة الأقوام الهندية الأوروبية وكيفية توزعها، إلا أنه يعدّ باختر (باكتريا)، أو بلخ، الذي تقع جنوب آموداريا (جيحون) أقدم مركز للحضارة الإيرانية وأعرقه، ويقول:

«أما عن الآريين، أجداد الهنود الإيرانيين، والفرع الرئيسي الأول من الغصن الكبير للشعوب الهندية الأوروبية، فإننا نتساءل: متى ومن أيّ جاءوا إلى باختر (باكتريا) - التي سميت في ما بعد بلخ - وأسسوا مدينة باختر؟ إننا لا نعلم ذلك».

إن «غيرشمن» يعتقد أن خصوبة أطراف نهر باكتروس (بلخ آب) هي السبب في هجرة الآريين إليها، حيث كانت تمتاز بذلك من غيرها من مناطق هذه البلاد.

ثم يستمر في شرح الأمر بصورة كاملة، ويقول: «... مدينة باختر، بوصفها المدينة الرئيسية في تلك البلاد، كانت قاعدة التجارة مع الهند، رغم أن بعض المناطق العامرة كانت تتصل بحوض نهر الهند بطرق مناسبة سهلة، كما كانت تتصل بالهند عن طريق سهل خلم، وإن مياه الكثير من أنهار السفوح الشمالية لهندوكش كانت تصب في آموداريا. وإذا أمكن الاعتماد على أقوال المؤرخين القدماء فإن مياه نهر بلخ آب (باكتروس) كانت تصب في آموداريا أيضاً، وكانت تستخدم لنقل البضائع التجارية إلى الهند».

ولكن هذه المقولة غير موثوقة. وحسب قول أميان مارسيلين: إن السفن كانت تسير من هرات إلى بحر الخزر.

ومن المستبعد كل الاستبعاد أن تكون أوضاع المياه في إيران قد تغيّرت إلى هذا الحد خلال ألف سنة.

وعن مسيرة هجرة الأقوام الآرية وكيفية استيطانهم في إيران يقول «بارتولد»: «ليس معلوماً كون هجرة الآريين قد تمّت على الطريق نفسه الذي كان قد سار عليه الميديون، وهو طريق الشمال، أو عن طريق الجنوب عبر سيستان وكرمان، ومنهما إلى فارس».

ويضيف قائلاً: «يبدو أن الهدروس والكرمانيين يُعدّون من الإيرانيين الذي استوطنوا فارس. أي أن فرعاً من الإيرانيين الذين كانوا يسمون (الپارسي) كانوا قد احتلوا جميع المناطق الجنوبية من إيران الحالية؛ حيث أن الميديين كانوا قد سبقوا الإيرانيين في خوضهم الساحة التاريخية. إذ أن المحتمل جداً أن تكون الهجرة قد تمت في وقت مبكر عن طريق الشمال».

إن مسيرة الآريين من المنطقة الشمالية في إيران كانت على الطريق القديم نفسه الذي كان الطريق الرئيسي من آسيا الغربية إلى آسيا الشرقية. أي كان على طول السفح الجنوبي للجبّال التي كانت تشكل الحدود الشمالية لهضبة إيران».

إذا؛ فإننا نستنتج من مجموع هذه النظريات أن الطوائف الآرية المختلفة قد دخلت إيران عبر طريق خراسان، وزحفت نحو جنوب خراسان إلى سيستان. ولما كانت قد وصلت إلى مناطق وأراضٍ جافة يابسة زحفت نحو الغرب واحتلت هضبة إيران.

ويقول غيرشمن عن هذه الهجرة بصورة أدق:

«إن نفوذ الإيرانيين، في بداية الألف الأول قبل الميلاد، يعدّ جانباً من الهجمة الأولى قبل ألف سنة، وإن المهاجمين كانوا يدخلون عنفاً على شكل تيارات متتابعة، وكانوا حسب ما يبدو، قد ساروا في الطريق نفسه الذي كانوا ساروا فيه في هجمتهم الأولى، أي القوقاز وما وراء النهر».

ثم يقول: «في بداية الألف الأوّل قبل الميلاد، وقع حادثان مهمّان، لا يرتبطان معاً، كان لهما الأثر في تاريخ شعوب آسيا الغربية، وهما: هجوم الهنود الأوروبيين واستخدام الحديد».

إذاً، فحسب القصص والحكايات الأسطورية فإن خراسان الكبيرة العريقة كانت في عصور ما قبل التاريخ بؤرة مستقلة لأحداث حياة العنصر الآري ووقائعها.

وفي مستهل دخول إيران في العصور التاريخية، فإنه، في بداية الأمر، بعد تشكيل حكومة ما دسته سنة ٨٠٠ قبل الميلاد في الغرب، ثم الحكومة الأخمينية سنة ٦٠٠ قبل الميلاد، انتقلت بؤرة الوقائع والأحداث هذه في البداية إلى الغرب ثم إلى الجنوب.

وحسب اعتقاد «ادوارد مي لير» كانت الحكومة الإيرانية تمتاز بالأهمية في العالم القديم وكانت تعدّ أول امبراطورية عالمية سيطرت على عدة شعوب ودول انطوت تحت رايتها. وإن إيران، في هذا العصر (عصر الإخمينيين)، كانت تقسم إلى دويلات، يحكم كل دويلة حاكم يسمى باللغة الفارسية القديمة (حَشْتَر پاون) أو (شَتَر پاون) باللغة البهلوية، وكان الحكّام ينصبّون من العاصمة. أما اليونانيون فسموه «ساتراپ»، وكانت پترشوه الولاية السادسة عشرة، وتضم البارتيين والخورازميين والسُغديين والهرايين، وكانت تطابق خراسان الشمالية الحالية.

ومن الناحية الجغرافية، كانت جارة لساتراپ ماد من الجهة الغربية، وكانت «خوار» أوّل منطقة من پارت من الجانب الغربي، وكان اليونانيون قد أطلقوا عليها اسم پارتيا أو پارتوا، وكانت مدينة «طوس» قاعدة «ساتراپ پرتو».

إلا أن بار تولد يقول: إن ساتراپ پارت لم يكن مهماً في عهد الأخمينيين. وحسب قول هيرودوت: إن البارتيين والخورازميين والسغديين كانوا في حكومة واحدة.

وعند الإشارة إلى أسماء مقاطعات الدولة في النقوش والكتابات المسمارية، فإن پارت

كانت قد ذكرت بصورة مستقلة، وإن الإيرانيين خلال رحلاتهم في بلادهم كانوا يحاولون أن يمرؤا سراعاً من پارت لفقرها وعدم قدرتها على تأمين زاد موكب الملوك. ولكن بعد سقوط الدولة الأخمينية كان البارتيون هم العناصر السليمة التي تمكّنت من إعادة تأسيس دولة إيرانية قوية نجحت في صد هجمات الروم الشرقيين.

وفي موسوعة «مصاحب»: پارت = پرتوه: الأرض الجبلية القديمة في جنوب شرق بحر الخزر تمتد من جبال ألبرز نحو الشرق حتى هرات، ومن الشمال تتصل بسهل «استرآباد» الخصب وصحراء تركستان، ومن الجنوب بصحراء الملح. وبلاد پارت هي بلاد خراسان القديمة، وكانت في عهد الإخمينيين من ولايات الامبراطورية الأخمينية، ثم خضعت للسلوقيين الذين أسسوا فيها مدناً.

ويعتقد المستشرق الأثري الروسي «مون غيت» أن خراسان هي نفسها بلاد پارت، وأن اسم خراسان أطلق على پارت بعد انتصار أردشير بابكان على الملك الأشكاني. وفي نحوت بيستون جاء اسم خراسان تحت عنوان «برتو». واليونانيون يطلقون على هذه البلاد اسم پارتيا، ويسمونها اليوم پارت.

ويقول بهار في كتابه «سبك شناسي»: پرتوه اسم قبيلة كبيرة، أو أرض واسعة، كانت موطن قبيلة پرتوه، وهي أرض خراسان اليوم التي كانت تتصل من الشرق بصحراء أتك (سهل خاوران القديم)، ومن الشمال بخوارزم وجرجان، ومن الغرب بقومس (دامغان)، ومن الجنوب بالسند وزابل.

كانت قاعدة «پارت» - التي سمّيت خراسان - مدينة نيساية. وكان اليونانيون يسمونها نيسا (مدينة نسا). يقول مون غيت عن دولة پارت ومدينة نيساية: «في الجنوب من جمهورية تركمانستان، وبالقرب من أرض (متره قورم)، على سفح جبل (كويت داغ)، على مسافة ١٨ كلم من الشمال الغربي لعشق آباد، توجد أنقاض مدينتين قديمتين هنا: نيسايه القديمة ونيسايه الجديدة».

ومنذ سنة ١٩٣٠م. يقوم فريقان بالتّقيب في هذه المنطقة.

ويقول دياكونوفو: «إن علماء الآثار الروس ما زالوا يقومون بالتّقيب في نسا، وكانت هذه المدينة تقع على مرتفع، وتشغل مساحة مقدارها ١٨ هكتاراً».

وكانت الدوائر الحكومية والمعسكرات وقصر الحاكم والمعبد في القلعة التي هي أقدم ما في نسا.

وفي الجنوب من مدينة نسا مباشرة، كانت قطعة عظيمة منفصلة هي «مهر داوكرت»، وفيها قصور الملوك الفرثيين والمقابر العائلية.

وفي إحدى التنقيبات عثر على قصر كبير وعلى معبد، ومما عثر عليه تماثيل للإله اليوناني أمنا وتمثال «أبو الهول» المصري.

يقول لسترنغ في «جغرافية بلاد الخلافة الشرقية»: «إن ولاية نسا واد عريض اسمه اليوم دره گز». ويقول ابن حوقل: «إن نسا مساوية لسرخس». ويقول القزويني: «إن نسا يسمونها فيروز لأن الملك فيروز هو الذي أسسها».

وحسب لسترنغ: إن نسا هي مدينة درگز الإيرانية نفسها. ولكن تحقيقات العلماء الروس وآخرون أدت بهم إلى القول: إن مدينة نسا تقع ضمن ما كان يدعى الاتحاد السوفييتي.

وتزامناً مع مجيء «داريوش الثالث»، آخر ملوك الأخمينيين، إلى السلطة، تولّى الإسكندر المقدوني السلطة في اليونان، وبعد اجتياحه آسيا الصغرى استولى على الجانب الغربي من الامبراطورية الأخمينية. وبعد فتح پرسپوليس، توجه إلى الشرق وأخذ بالاستيلاء على مدن خراسان الكبيرة. وحسب قول غيرشمن فإنه أسس مدناً جديدة في كل مكان سمى كل واحدة منها باسم الإسكندرية. وقد قاتل حوالي الستين في هرات وزنگ ورخج في الجنوب من هندوكش للقضاء على تمرّد السغديين.

وبعد موت الإسكندر، تابع ديورتنس الحاكم اليوناني على بلخ طريق الاستقلال، فاستقلّت كل من پارت وجرجان.

وعلى ما يقول بارتولد، فإنّ الحكومة التي أسسها البارتيون، وكانت أوّل دولة إيرانية في المناطق الشرقية في القرن الثالث قبل الميلاد، تختلف عن حكومة الأخمينيين من عدة نواح. وكان نفوذ العناصر الإيرانية من الشمال والشرق قوياً، وكانت تتصف بصفات الحكومة الوطنية التي كانت قبل الأخمينيين.

وعلى هذا، فإن البارتيين الذين كانت الجماعة البارزة فيهم تسمى آپارن، استوطنوا الأراضي الجبلية، في جنوب شرق بحر الخزر، التي يحدها شمالاً سهل استرآباد، الخصب وصحراء تركستان، وجنوباً صحراء الملح، وكانت تمتد من الجنوب من جبال ألبرز نحو الشرق إلى هرات.

ويشير إيزيد روخاراكسي، خلال ذكره أحد طرق المواصلات القديمة، إلى مدينة إستا، أو أراسكا، القديمة الواقعة في مكان خبوشان، أو قوجان المعروفة اليوم، وكانت خلال مدّة من الزمن بؤرة أحداث العصر البارتي.

وفي عصر الساسانيين صارت خراسان القديمة أو (پارت)، بشكل ما، إحدى مقاطعات إيران شهر المهمة. وكان يدير كل مقاطعة كبيرة حاكم يسمى سپهبد، وكانت مدن مقاطعة خراسان هي: نيسابور وهرات ومرو ومرو الروذ وفارياب وطاقان وبلخ وبخارا وبادغيس وباورد (أبيورد) وغرجستان وطوس وسرخس وجرجان، يحكمها إسپهبد خراسان الذي يتبعه أربعة حكام يتقاسمون حكم مقاطعاتها الأربع. ويقول ألتون. ل. بيل: إنها مرو ونيسابور وهرات وبلخ التي ربما كانت تشمل ما وراء النهر وباختر.

أمّا حدود خراسان الجغرافية، في عهد الساسانيين، فيقول كريستن سن، اعتماداً على تنقيبات هرتسولد، إنها بوابات كاسيين بالقرب من الري، وجبال ألبرز والزواية الجنوبية الشرقية لبحر الخزر ووادي أترك، الخط الذي يعبر من صحراء تجن ويصل إلى جيحون عبر قوقى. وحسب المسكوكات الساسانية التي عثر عليها فإن هذا الخط الحدودي يعبر من قم جبال حصار، ويصل إلى پامير، ويميل نحو الجنوب، ويمتد نحو جيحون وبدخشان، ويصل إلى منطقة هندوكش. ومن تلك المنطقة الحدودية، يرجع نحو الغرب، ويصل إلى جنوب هرات على امتداد جبال هندوكش. وفي المنطقة الجنوبية يجتاز ترشيزوخاف وقهستان ويتصل ثانية ببوابات كاسيين.

إن الجبال المتكاثفة التي تشكل سلسلة طويلة تعدّ العمود الفقري لهذه المقاطعة، وهذه الجبال بأوديتها وأنهارها تفصلها عن المقاطعات الأخرى وتمييزها منها. وقد جعلتها مجاورتها للسهول الخصبة في آسيا الوسطى مع هضبة إيران، عرضة لهجمات كثيرة، وجعلت من الخراسانيين مقاتلين أشداء، وجعلت السلاح منتشرًا فيهم. كانت خراسان أكثر أهمية من غيرها في إيران، فأمرء الأسرة المالكة الذين كانوا ينصبون حكاماً على خراسان كانوا يحوزون على لقب «كوشان شاه»، وهناك أسباب كثيرة جعلت خراسان بهذه الأهمية:

أولاً: مساحتها الكبيرة التي كانت تضم خراسان الحالية وجمهورية تركمانستان وطاجكستان وقسمًا كبيراً من أفغانستان وقسمًا من باكستان.

ثانياً: قربها من الهند والصين. والطريق التجاري لهذين البلدين إلى داخل إيران، أو إلى الدول الجنوبية والغربية - كان يمر عبر خراسان.

ثالثاً: أهميتها الاستراتيجية؛ حيث كانت الدرع الواقي من هجمات الأقوام الشمالية. ومن بين الملوك الساسانيين كان شاهپور الأول وهرمز الأول وبهرام الأول وبهرام الثاني، ممن تولّى حكم خراسان قبل وصوله إلى العرش.

خراسان في العهد الساساني

يقول هرتسفلد: إن الدولة الساسانية كانت في شرق إيران الحالية وكانت تشمل على البلاد التالية: جرجان وجميع خراسان حيث كانت خراسان آنذاك متسعة الأرجاء ربما كانت تشمل على: خوارزم والسند وسجستان (سيستان) وولاية مكوران (مكران = كرمان) وتوران.

ثم نقلاً عن نحوت (بايكرلي) والمسكوكات السكائية. يحدد خراسان في العهد الساساني بالحدود التي ذكرناها فيما تقدم من القول. ويقول لسترنغ: إن كلمة خراسان في أوائل القرون الوسطى كانت تطلق على جميع البلاد الإسلامية في الجانب الشرقي من صحراء لوط حتى جبال الهند. وبهذا تضم جميع بلاد ما وراء النهر في الشمال الشرقي عدا سيستان وقهستان في الجنوب.

كانت حدود خراسان في آسيا الوسطى صحراء الصين وپامير، ومن جانب الهند جبال هندوكش. ولكن هذه الحدود تغيرت وأصبحت أكثر دقة وأصغر، إلى درجة يمكن معها أن نقول: إن خراسان في القرون الوسطى لم تكن تشمل من الشمال الشرقي على نهر جيحون وما وراء ذلك، ولكنها كانت تضم جميع مرتفعات ما وراء هرات التي هي اليوم القسم الشمالي الغربي من أفغانستان، على أن البلاد التي كانت تقع في المنطقة العليا من نهر جيحون، أي مقاطعة پامير كانت تعتبر قسماً من خراسان في القرون الوسطى في نظر العرب.

يقول كريستن س: يبدو أن مناطق الساتراپ^(١) في العصر الساساني كما في العهد

(١) مر فيما تقدم المقصور ب(ساتراپ).

الأخميني لم تكن لها حدود ثابتة، فقد كان الملك يرسل حراس الحدود إلى الأقاليم والولايات فيزيد أو ينقص حدود سلطتهم، حسب ما تقتضيه الحاجة.

إن الساسانيين أبقوا التقسيمات الإدارية السابقة التي كانت تقسم البلاد إلى أربعة أقسام حسب الجهات الأربع. ونرى أنهم منذ بداية القرن الخامس أطلقوا على حكام هذه المقاطعات اسم حراس الحدود (مرزبان). وكان منصب هؤلاء الحكام يعادل مناصب أعضاء الأسرة المالكة وكانوا يحملون عنوان الملك. وكانت العادة المتبعة منذ القديم أن يعين أولاد الملوك لا سيما الأمراء الذين كان من المتوقع أن يتولوا الملك في المستقبل - أن يعينوا حكاماً. وقد حكم خراسان من بين الملوك الساسانيين قبل توليهم الملك كل من: شاهپور الأول وهرمز الأول وبهرام الأول وبهرام الثاني^(١).

وكانت حكومة خراسان أكثر أهمية من غيرها من المقاطعات الأخرى، فكان الأمراء الذين يعينون حكاماً على خراسان يلقبون ب(كوشان شاه) كما مر.

وبعد سنة ٢٥٢م عين شاهپور الأول ابنه هرمز حاكماً لخراسان ولقبه بـ (الملك الكبير كوشان). وهذا القلب أرفع من الألقاب السابقة. وهرام الأول وهرام الثاني قبل توليها الملك كانا يلقبان بنفس القلب. وفي عهد وهرام الثاني كان شقيقه هرمز حاكماً لخراسان:

التقسيمات الإدارية لخراسان في عهد الساسانيين

في عهد أنوشيروان تم تعيين أربعة ممن عرف الواحد منهم بلقب: إسپهبد تم تعيينهم في الجيش على أن يحكم كل واحد منهم قسماً من الأقسام الأربعة: إسپهبد الشرق، يدخل في سلطته أفواج خراسان وسجستان وكرمان، وكان لكل إسپهبد معاون يلقب بلقب مرزبان (حارس الحدود).

يقول ابن خردادبه: كانت خراسان بأمره إسپهبد يقال له: (پاروسپان) وكان بأمرته أربعة مرازية يحكمون أربعة أركان من خراسان، هي: مرو الشاهجان، بلخ وطخارستان، هرات وبوشنج وبادغيس وسجستان، ما وراء النهر.

ويذكر اليعقوبي في تاريخه أهم مدن خراسان في عهد الساسانيين وهي: نيسابور،

(١) مرت إشارة إلى ذلك.

وهرات، ومرو، ومروالروذ، وفارياب، وطالقان، وبلخ، وبخارا، وبادغيس، وبادورد^(١) وگرجستان، وطوس، وسرخس، وجرجان. ويقول: كان لهذه المقاطعة حاكم يسمونه سبهيد خراسان.

وفي أوائل القرن الخامس الميلادي كان يشرف على كل ناحية صغيرة من يسمونه (شهريگ). وكانوا يختارون الشهريگ من بين الفلاحين والدهاقين.

وسبب اختلاف المؤرخين في حاكم خراسان هو أن التنظيمات العسكرية في القرون الثلاثة الأولى من حكومة الساسانيين كانت في أيدي كبار قادة الجيش وكانت وظيفة وراثية خاصة بأفراد الأسرة المالكة.

ولقد أجرى خسرو الأول تعديلات على هذه التنظيمات فألغى منصب القيادة العامة وجعل قيادة الجيش لأربعة قواد كانوا يشرفون على المناطق الأربع: الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية وجعل لكل واحد منهم معاوناً.

خراسان في العهد الإسلامي

يقول الإصطخري ما مؤداه: أن خراسان تشتمل على ولايات كثيرة، وهي اسم إقليم يمتد من الشرق إلى سجستان والهند. ومن الغرب إلى صحراء الغز ونواحي جرجان. ومن الشمال إلى ما وراء النهر وبلاد الترك. ومن الجنوب إلى صحراء فارس وقومس (دامغان).

ويقول: ألحقنا قومس بنواحي الديلم الجبلية وجرجان، كما جعلنا ختل وخورزم من ما وراء النهر، حيث أن مدن خوارزم هي في الضفة من نهر جيحون.

ثم يذكر أهم مدن خراسان: نيسابور، ومرو، وهرات، وبلخ. ثم يقول إن في خراسان مدن وولايات أخرى هي أصغر من الأربع المذكورة، وهي: قوهستان، وطوس، ونسا، وبيورد، وسرخس، واسفزار، وبوشنج، وبارغيس، وگنج رستاق، ومروالروذ، والجوزجان، وجرج الشار، وباميان، وطخارستان، وزم، وآمل. وأما خوارزم فيما أن مدنها المهمة تقع في الضفة الأخرى من جيحون فقد اعتبرناها من ما وراء النهر. وبما أن لنيسابور نواحي مختلفة تتبعها في الأعمال الديوانية لذلك فصلناها عن هذه المجموعة.

وينقل ابن حوقل هذه المعلومات نفسها في كتابه (صورة الأرض)، ولكنه يعطينا معلومات أخرى عن حدود خراسان ومدنها وإدارة الولايات فيها هذا مضمونها:

(١) هي أبيورد.

لولايات خراسان ولات لكل واحد منهم موظف لجباية الضرائب والأمور الأخرى، وجميع هذه الولايات ومناطق ما وراء النهر تتبع حاكم خراسان الذي يُولى من السامانيين. ولكل ناحية قاض وجاب وصاحب معونة.

ويقول صاحب كتاب (حدود العالم) ما مضمونه: يحد خراسان من الشرق بلاد الهند ومن الجنوب بعض صحارى كركس كوه (جبل كركس) ومن الغرب جرجان وحدود غور ومن الشمال نهر جيحون.

وخراسان هذه أرض واسعة فيها الكثير من الخيرات، وربما تكون أغنى معمورة في العالم، وفيها معادن الذهب والفضة والفيروز والأدوية، والعقاقير، وفيها منسوجات كثيرة، وفيها خيول كثيرة، وسكانها مقاتلون. وهي تشرف على تركستان وتعتبر بابها.

مناخها معتدل وسكانها أقوياء وكان لخراسان قاعدة ولما وراء النهر قاعدة وكل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى، ثم أصبحت قاعدتهما واحدة هي مدينة بخارا المحكومة من السامانيين الذين ينتشر ولاتهم في جميع نواحي خراسان وفي المناطق الحدودية، ويسمون ملوكاً.

ويذكر المقدسي في كتابه فضلاً كاملاً مشبعاً عن فضائل خراسان وأهلها دون أن يذكر حدودها. ويقول ما مضمونه: لقد قسمنا خراسان إلى تسع ولايات (كُور) وثمانية نواحي. ونذكر كل ناحية بحسب مقدار عائداتها: الكورة الأولى هي في ناحية جيحون وهي بلخ وعائداتها تساوي عائدات نيسابور. وأقوى وأهم ناحية هي بوشنج ثم بادغيس وبعدها غرجستان، ثم مرو الرود وبعدها طخارستان ثم باميان وكنج رستاق واسفزار. ويسمون طوس وإخواتها الاثنتين (وربما يقصدون بذلك نسا وأبيورد) - يسمونها خزينة نيسابور. ونذكر سرخس لوحدها لأن أمرها صعب.

اعتماداً على الأسماء التي ذكرها المقدسي ومقارنتها بما ذكره الإصطخري وصاحب حدود العالم، يمكننا أن نعرف إلى حد ما حدود إقليم خراسان الإسلامية. فالمقدسي يذكر في كتابه أن بلخ وبوشنج وغرجستان هي ضمن حدود خراسان، وكذلك الأمر بالنسبة إلى طخارستان التي تقع شرقي بلخ وغربي نهر جيحون، إذ أوالحد الشرقي لخراسان بات معلوماً، وأما الحد الشمالي فلأنه يعتبر آخر نقطة حدودية في منطقة جيحون هو جيحون نفسه وليس الضفة الثانية لنهر جيحون، فهو يفصل ما وراء النهر عن خراسان، وكان قد أشار لذلك خلال ذكره إقليم الشرق وقال ما مضمونه: إن أبا زيد قسّم الشرق إلى ثلاثة أقاليم: وهي خراسان

وسجستان وما وراء النهر، ولكننا جعلناها إقليماً واحداً، يفصلها جيحون. ونسبنا كل جانب إلى من أسسه ووصفنا كل إقليم بمفرده. وهذا الإقليم كبير جداً ولاياته كثيرة.

ثم يقول ما مضمونه: إذا اعترضوا علينا بأننا لم نقسم خراسان وما وراء النهر إلى إقليمين، نقول: إن المعروف إنهم يسمون قومس (دامغان) إلى طراز: خراسان. ألا ترى أنهم كانوا يطلقون على آل سامان: ملوك خراسان بينما كانت قاعدتهم في جانب آخر. ثم يقول ما مضمونه: إذا اعترضوا وقالوا لماذا جعلت سجستان ضمن إقليم خراسان وخالفت القدماء؟ أقول إن الناس يعرفون سجستان ضمن إقليم خراسان، فإذا اعتبرنا سجستان إقليماً منفصلاً يجب أن نعتبر خوارزم كذلك إقليماً منفصلاً لأن فيها الكثير من العمائر والمدن وتختلف عن الآخرين في اللغة والآداب.

وكتب ابن رسته في كتابه (الإعلاق النفسية) مفصلاً عن مدن خراسان ثم ختم بحثه بأسماء حكام خراسان، ومع أنه لم يحدد حدود خراسان فإننا نلاحظ أنه في كتابه ذكر أسماء سجستان، وحتى كرمان، كما نلاحظ أسماء بعض المدن التي هي في الضفة الأخرى من نهر جيحون وهي بخارا وسمرقند وفرغانه والشاش.

ومهما يكن من أمر فإن الجغرافيين لا يتفقون على تحديد خراسان الإسلامية، وذلك ناجم عن تطورات ما بعد الفتح الإسلامي أولاً، ثم عن الاستقلالات الإقليمية التي قامت بعد ضعف مركز الخلافة. فإن ما وراء النهر كانت غالباً جزءاً من خراسان وكذلك سجستان بما فيها كرمان التي كانت منفصلة عن خراسان بعد الإسلام، ثم كانت على الأكثر بإشراف حكام خراسان، وكذلك خوارزم والمدن الواقعة على الضفة الثانية لنهر جيحون.

ونلاحظ أن المؤرخين أمثال اليعقوبي والبلاذري تحدثوا بشكل منفصل عن سجستان وكرمان وأشاروا إلى حكامها المسلمين، وهذا يدلنا على أن كل واحدة منهما كانت منفصلة عن الأخرى.

وفي العهد الأموي كانت خراسان وجميع أقاليم شمال إيران وشرقها وغربها التي كانت تشمل الأهواز وفارس وكرمان وسجستان والمناطق المفتوحة من الهند وما وراء النهر تتبع والي البصرة.

وأحياناً تكون هذه الأقاليم مع الأقاليم الأخرى من إيران تتبع والي الكوفة والبصرة الذي هو وال للمدينتين معاً.

ويقول صاحب (حدود العالم): إن قاعدة حكومة خراسان في قديم الزمان كانت قاعدة قائمة بذاتها وكذلك قاعدة حكومة ما وراء النهر، ولكن قاعدة الحكومتين اليوم قاعدة واحدة، ومقر حاكم خراسان الساماني هو بخارا، وعماله منتشرون في جميع مدن خراسان.

وياقوت الحموي الذي أمضى فترة من حياته في خراسان يقول في كتابه (معجم البلدان):

خُرَاسَانُ: بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق أَرَاذُوار قصبية جَوَيْن وَيَهَق، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها، وتشتمل على أُمّهات من البلاد منها نيسابور وهرات ومَرَو، وهي كانت قصبتهَا، وبلخ وطاقان ونَسَا وأبِيرود وسرخس وما يتخلل ذلك من المَدُن التي دون نهر جيحون، ومن الناس من يُدخل أعمال خوارزم فيها ويعدُّ ما وراء النهر منها وليس الأمر كذلك.

ثم يقول:

وقال البلاذري: خراسان أربعة أرباع، فالربيع الأول إيران شهر وهي نيسابور وقهستان والطَّبَسَان وهرات وْبُوشَنج وباذغيس وطوس واسمها طابران، والربيع الثاني مرو الشاهجان وسرخس ونسا وأبِيرود ومرو الروذ والطاقان وخوارزم وأمل وهما على نهر جيحون، والربيع الثالث، وهو غربي النهر وبينه وبين النهر ثمانية فراسخ، الفارياب والجوزجان وطخارستان العُلَيَا وْحَسْت واندرابة والباشيان وبغلان والالج، وهي مدينة مُزاحم بن بسطام، ورستاق بيل وِبَدْخُشَان، وهو مدخل الناس إلى تُبْت، ومن أندرابة مدخل الناس إلى كَابُل، والترمذ، وهو في شرقي بلخ، والصغانيان وصخارستان السُفلى وْحُلْم وسِيمَنجان، والربيع الرابع ما وراء النهر بُخارى والشاش والطَّرَارِبُند والصُّغْد، وهوكَس، ونَسَف والروبوستان وأشروسنة وسَنَام، قلعة المقنع، وفرغانة وسمرقند، قال المؤلف: فالصحيح في تحديد خراسان ما ذهبنا إليه أولاً وإنما ذكر البلاذري هذا لأن جميع ما ذكره من البلاد كان مضموماً إلى والي خراسان وكان اسم خراسان يجمعها، فأما ما وراء النهر فهي بلاد الهياطلة ولاية برأسها وكذلك سجستان ولاية برأسها ذات نخيل، ولا عمل بينها وبين خراسان؛ يقول أبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢هـ ما مضمونه: في خراسان مدن كثيرة وإن أهل العراق يقولون إنها تمتد من الري حتى مطلع الشمس. ويقول بعضهم إنها تبدأ من جبل حلوان حتى مطلع الشمس.

ثم يذكر حدود خراسان: من جانب الغرب صحراء تقع بين خراسان وجرجان، ومن

جانب الجنوب صحراء بين خراسان وفارس ودامغان، ومن جانب الشرق سجستان وبلاد الهند، ومن جانب الشمال بلاد ما وراء النهر.

وفي هذا التحديد لا تحسب سجستان ضمن خراسان، وتعتبر قهستان ضمن ولايات خراسان.

خراسان اليوم

بعد حرب هرات سنة ١٢٤٩هـ انقسمت خراسان إلى قسمين: القسم الأول يقع غربي نهر هريروود يتبع إيران والقسم الآخر يتبع أفغانستان. وفي العهد القاجاري سنة ١٨٨١ استولت روسيا على القسم الشمالي من خراسان حتى نهر جيحون، وبهذا انفصلت تركمانستان (بين بحر الخزر ونهر جيحون) بمساحة ٤٨٧٠٠ كلم مربع عن خراسان وفي الوقت نفسه انفصلت ناحيتان إذا لم تكونا من خراسان، فقد كانتا تابعتين لسلطة والي خراسان، وتأسست منهما جمهوريتا أوزبكستان وطاجيكستان.

وهكذا فما بقي من خراسان في أواخر العصر القاجاري كان لا يحتوي إلا أقل من نصف خراسان القديمة، والباقي صار تابعاً لأفغانستان وروسيا في تركمانستان اليوم.

إن خراسان التي تقع غرب نهر هريروود يحدها من الشمال ما وراء النهر والأقسام التي انفصلت عنها، ومن الشرق ما عرف بعراق العجم واسترآباد. طولها من الشمال إلى الجنوب ٨٠٠ كيلومتر ومن الشرق إلى الغرب ٤٨٠ كيلومتر. أي أنها أكبر حجماً من إنكلترا. وفي غرب خراسان تقع صحراء الملح وفي الجنوب صحراء لوط.

لم تكن في إيران قبل النظام الدستوري تنظيمات إدارية مستقرة، وبعد قيام هذا النظام، أقر المجلس النيابي قانوناً قسمت فيه إيران إلى أربع محافظات وعدة ولايات، ثم قسمت إلى عشر محافظات و٤٩ قضاء. وبعد سنة ١٩٤١ زيد عدد المحافظات إلى ثلاث عشرة محافظة وقضائين عامين و٣٠ قضاء. وكانت كل محافظة وكل قضاء عام يشتمل على عدة أفضية وكل قضاء يشتمل على عدة نواحي وكل ناحية تشتمل على عدة قرى.

وفي هذه التقسيمات كانت خراسان هي المحافظة التاسعة، وتقع شرق إيران ويحدها شمالاً تركمانستان، وشرقاً أفغانستان، وجنوباً سيستان (سجستان) وكرمان المحافظاتان العاشرة والحادية عشرة، وغرباً صحراء الملح. وتتألف من الأفضية والنواحي الآتية:

القضاء	الناحية
١ - مشهد	فریمان - أحمد آباد - أرداك - چناران - أردكان - سرخس
٢ - گناباد	بجستان
٣ - بیرجند	درمیان - قائنات - خوسف - نهبندان
٤ - کاشمر	کوه سرخ - خليل آباد - برداسکن
٥ - توجان	شیروان - باجگیران
٦ - سبزوار	جغتای داورزن - شش نمد - بام - صفی آباد
٧ - تربت حیدریة	جاجرم - إسفراین - مانه
٨ - نیشابور	
٩ - دره گز	محمد آباد - لطف آباد - نوخندان - کلات - چاپشلو
١٠ - فردوس	طبس - بشرویه - سرايان
١١ - بجنورد	أسفراین - مانه - جاجرم
١٢ - تربت جام	باخرز - زور آباد - جنت آباد

وأراضي خراسان الإيرانية من أخصب الأراضي الإيرانية وأغزرها ماء ذات جو بارد في الشمال ومعتدل جاف في الجنوب. وتحيط النواحي الشمالية والمركزية منها الجبال الشاهقة والأودية السحيقة. أما النواحي الجنوبية فصحارى منبسطة تشاهد في بعض أنحاء التلال المرتفعة.

وحاضرة خراسان اليوم هي مدينة مشهد التي أقيمت على أنقاض مدينة طوس بعد دفن الإمام الثامن علي الرضا عليه السلام في ضواحيها وانتقال العمران من طوس إلى جوار قبر الإمام. وتقع أنقاض طوس الآن على بعد ٢٤ كيلومتراً شمال غربي مشهد.

وأهم ما يزرع في خراسان الحبوب والقطن والبقول، وعرفت بكثرة فواكهها، كما عرفت بتربية المواشي وحياسة السجاد.

حدود خراسان الشمالية القديمة

لا بد لنا وقد وصلنا في البحث إلى هنا من أن نعود إلى خراسان القديمة وما ذكرناه عن حدها الشمالي وهو نهر جيحون:

إن هذا النهر الذي يسمى أيضاً (أموداريا) وكان يسمى (أكسوس)، ذو طول يبلغ ٢٥٤٠ كيلومتراً، وهو ينبع من جبال هندوكش ويصب في بحيرة أورال، ويضيق في أوائل مجراه جداً ثم يأخذ شيئاً فشيئاً بالاتساع حتى ليبلغ عرضه في بعض الأماكن كيلومتراً واحداً. ويبلغ عمقه ما بين أربعة إلى خمسة أمتار، وخلال مروره في المناطق الجبلية ينحدر في كثير من الشلالات.

وترفد هذا النهر الروافد النابعة من هندوكش ومن هضبة پامير، وهي هذه الأنهار: نهر بدخشان ونهر پامير ونهر آق سراي ونهر خلم وهو أهم هذه الروافد.

ومن أنهاره الرئيسية نهر مرغاب ونهر وختشاب. ونهر جيحون هو اليوم هو الحد الفاصل بين طاجيكستان وشمال شرق أفغانستان، ثم يمر من شمال تركمانستان وغرب أوزبكستان ثم يصب في بحيرة أورال (بحيرة خوارزم).

مدن خراسان

عني الأستاذ المحقق كاظم مدير شانه چي الذي كانت دراساته من أهم مصادرنا واعتمدنا عليها كل الاعتماد - اهتم بتعداد مدن خراسان مستنداً إلى ثلاث كتب جغرافية قديمة، فخرج بالتنتاج الآتية:

يقول الأستاذ كاظم ما تعرييه:

أحد هذه الكتب هو كتاب (حدود العالم) وهو يكفي بذكر أسماء المدن دون أن يتطرق إلى موضعها الجغرافي. والكتاب الآخران هما: (المسالك والممالك للإصطخري)، وكتاب (صورة الأرض لابن حوقل). ولما كان كتاب (صورة الأرض) ينسخ عن كتاب (المسالك والممالك)، فإننا نستنتج أن مدن خراسان منذ أوائل القرن الرابع الهجري هي نفسها التي وردت في (حدود العالم) و(المسالك والممالك) معاً.

ولكن هذه المدن بسبب تعاقب الحكومات المختلفة عليها، أو بسبب الكوارث كالزلازل التي ضربت مدينة نيسابور عدة مرات ودمرتها، أو بسبب زحف الأتراك الغز على خراسان في عهد السلطان سنجر الذي تسبب بتدمير عدة مدن منها مدينة بلخ. بهذه الأسباب

تغير مكان مدن أو توسعت أو ضاقت. على أنه يبدو أن هذه المدن كانت باقية كما هي حتى أوائل القرن السابع الهجري (٦١٦هـ) حيث بدأ الزحف المغولي على هذه البلاد. وإنما لنجد أسماء هذه المدن في الكتب الجغرافية التي تم تأليفها قبل هذا الزحف مثل كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي - نجدها مفصلة. ولكن كثيراً من مدن خراسان زال من خريطة العالم بعد هذا الزحف وانطوى اسمها من الوجود مثل: فارياب وأنبار وقوشنج التي كانت بقرب هرات، ومثل فيروزكوه عاصمة الغوريين ونسا عاصمة القرثيين التي ولد فيها (النسائي) صاحب كتاب السنن. وغير ذلك من المدن.

كما أن بعض المدن تبدلت أسماؤها مثل (أمل) المعروفة اليوم باسم (چهار جوي). ومدن خراسان التي جاء ذكرها في كتاب (حدود العالم) هي:

- ١ - نيشابور. ٢ - سبزوار. ٣ - خسروجرد. ٤ - بهمن آباد ومزینان. ٥ - آزادوار. ٦ - جاجرم. ٧ - سيرابن (أسفراين). ٨ - جرمگان وسپینگان وخوجان وراوینی (من حد نیشابور). ٩ - نسا. ١٠ - باورد. ١١ - طوس (وفيها مستوطنات مثل طوران ونوقان). ١٢ - ميهنة. ١٣ - ترشيز وكندر. ١٤ - بنابندو تون وكري (على حدود قهستان ونيشابور) وقاين. ١٥ - طبسين. ١٦ - كرى. ١٧ - طبس مسينان. ١٨ - خورخسب. ١٩ - پورزگان وخايمند وسنكان وسلومد وزوزن (من حدود نيشابور). ٢٠ - هرى (هرات). ٢١ - بوشنگن. ٢٢ - نوجكان. ٢٣ - فرجرد. ٢٤ - بادغيس (فيها حوالي ثلثمائة قرية). ٢٥ - كاتون. ٢٦ - خجستان. ٢٧ - كوه سيم. ٢٨ - مالن. ٢٩ - إسيزار. ٣٠ - سرخس. ٣١ - بون (وهي قاعدة گنج روستا). ٣٢ - كيف. ٣٣ - بغشور. ٣٤ - كروخ. ٣٥ - شورمين (في هرات). ٣٦ - غرجستان. ٣٧ - دزه. ٣٨ - مرو (ربما مرو رود). ٣٩ - حصن الأخف. ٤٠ - پرکدر. ٤١ - كيرنك. ٤٢ - مرو. ٤٣ - شنك عبادي. ٤٤ - دندانقان. ٤٥ - كشمين (في مرو). ٤٦ - گوزگانان (حوالي بلخ). ٤٧ - ربوشاران (في غرجستان). ٤٨ - درمشان. ٤٩ - تمران وتمازان. ٥٠ - ساروان. ٥١ - مانشان. ٥٢ - طالقان. ٥٣ - جهودان. ٥٤ - بارياب (فارياب = بارياب). ٥٥ - نريان. ٥٦ - كزروان. ٥٧ - كندرم. ٥٨ - أنير. ٥٩ - كلار. ٦٠ - أشبورقان. ٦١ - انتخذ. ٦٢ - سان. ٦٣ - رباط كروان. ٦٤ - سنگ بن. ٦٥ - أزيو. ٦٦ - حوش. ٦٧ - بلخ. ٦٨ - خلم. ٦٩ - تخارستان. ٧٠ - سمنگان. ٧١ - سكاكند. ٧٢ - بغلان. ٧٣ - ولوالج. ٧٤ - سكميشت. ٧٥ - طايقان. ٧٦ - اندراب. ٧٧ - باميان. ٧٨ - پنجهير وجاريانه. ٧٩ - مديوتي.

أما الأسطخري فيذكر مدن خراسان كما يلي :

نيسابور - مرو - هرات - بلخ - قوهستان - طوس - نسا - أبيورد - سرخس - إسفزار -
بوشنج - بادغيس - گنج رستاق - مرو رود - جوزجان - غرج الشار - باميان - طخارستان - زم
- آمل .

ثم يذكر أسماء المدن التابعة لها :

نيسابور: بوزجان . مالن (معروفة بـ كواخرز) . جايمند (في صورة الأرض : خايمند) .
سلومك سنگان . زوزن . كندر . خان زوان . آزادوار . خسروجرد . بهمناباد . مزينان . سبزووار
(سبزووار) . ديواره . مهرجان . إسفرائن . خوجان (قوجان) . رزيله (في صورة الأرض :
ريوند) .

طوس: راذ كان . طابران (في صورة الأرض : طبران) . بزديغره (في صورة الأرض :
ترغوذ) وهي الآن طريقه . نوقان .

مرو: كشميهن . هرمزفره . سنج . جيرنج . دندانقان . قرينين . باشان . خرق . سولقان .
هرات: مالن . خيسار . استرييان . أوفه . ماراباذ . باشان . كروخ . خشت .
إسفزار: أدرسكر (في صورة الأرض : أدرسكن) . گواران . كوشك . گوانشان .
بوشنج : خرگرد . فرگرد . كوسوى . كره .

بادغيس: جبل الفضة . كوفاف (في صورة الأرض : كوه) كوغانباد . بُشت . جاذوى .
كارون . كالودن . دهستان .

گنج رستاق: بين . كيف . بغشور .

مرو الرود: قصر الأحنف . ذره .

طالقان: فارياب .

جورجان: يهودية . شبورقان . (= شاپورگان) .

انخذ (في صورة الأرض : اندخود) اشترج . كند درم (في صورة الأرض : كندرم) أنبار

سان .

غور: (= غرج الشار): بشين . شورمين .

سرخس: نسا . فراوه .

قوهستان: (= قهستان): قاين. نياذ (= كتاباد). طبسين (في صورة الأرض: خور. خست). طبس مسينان.

بلخ: طخيرستان (= طخارستان). ختل. بنجهير. بدخشان. باميان.

مدن طخيرستان: خلم، سمنجان (= سمنگان). بغلان. سكل كند. ورداليز. آرهن. راون. طابقان. سكيشت. روب (في صورة الأرض: روا). سراي عاصم. خست (في صورة الأرض: خسب). اندرآب. ندر. كاه (في صورة الأرض: كه).

مدن ختل: (وهي في ما وراء النهر): هلاورد. لاوكد. كارنك (في صورة الأرض: كاومك) تمليات. هلبك. سكندره. منك. أنديجاراغ. فارغر. رستاق نيك.

مدن باميان: بغور (في صورة الأرض: بغشور) فند (في صورة الأرض: قند). سكاوند. كابل. لجرا (في صورة الأرض: بخرا). فروان. غزنة. بنجهير.

بدخشان:

زم - سرخس.

قاعدة خراسان

يقول لُسترنغ إن إقليم خراسان في عهد العرب كان مقسوماً إلى أربعة أقسام، أو أربعة أرباع، وكان كل ربع يسمى باسم إحدى المدن الأربع الكبرى التي كانت في أزمنة مختلفة قاعدة ذلك الربع أو قاعدة البلاد كلها. وهذه المدن هي: نيسابور، ومرو، وهرات، وبلخ.

ثم يقول: وبعد الفتوحات الإسلامية الأولى كانت قاعدة خراسان مدينتي مرو وبلخ، ولكن الطاهريين نقلوا قاعدة حكومتهم إلى المنطقة الغربية وجعلوا مدينة نيسابور في أقصى الأقسام الأربعة قاعدة حكومتهم.

يذكر كل من البلاذري في (فتوح البلدان) وابن الفقيه في البلدان والگرديزي في (زين الأخبار) أرباع خراسان. وينقل علماء الجغرافيا أرباع خراسان كما ذكره لُسترنغ.

ويبدو أن تقسيم خراسان إلى أربعة أرباع كان قبل سيطرة المسلمين عليها، فالگرديزي يقول: أما سلاطين خراسان: فقد كانت العادة مختلفة منذ القدم، فمن عهد أفريدون إلى عصر أردشير بابكيان كان للبلاد كلها قائد عام واحد ولما جلس أردشير على العرش اختار أربعة قادة للجيش واحد لخراسان وثنان للغرب وثالث لنيروز ورابع لآذربيجان. وجعل لخراسان أربع حراس للحدود: حارس حدود (مرو الشاهگان)، وحارس حدود بلخ

وطخارستان، وحارس حدود (ما وراء النهر)، وحارس حدود هرات وپوشنج وبادغيس. ولما تم الفتح الإسلامي ألغى المسلمون ذلك.

وإذا عرفنا أن الگريدزي الباحثة المحقق يقول إن أرباع خراسان تعود إلى العصر الساساني وأن المسلمين ألغوا ذلك، نقول أن ما زعمه أسترنگ من أن المسلمين هم الذين قسموا خراسان إلى أربعة أرباع هو خطأ، مضافاً إلى هذا أن مدينة بلخ لم تكن يوماً في مختلف عصور خراسان سواء منها الذي كانت فيها مستقلة أو كانت تابعة للخلفاء - لم تكن قاعدة خراسان. وإن كانت بعد الفتح الإسلامي من المدن المهمة، ولقد قيل فيها إنها «أم البلاد» و«قبة الإسلام».

ويبدو أن ازدهارها من ذكريات عصور ما قبل الإسلام، لأنها كانت عاصمة أول حكومة آرية هي حكومة الباكترين ومكان معبد نوبهار ومهد العقيدة الزرادشتية.

أما الأرباع الثلاثة الأخرى في خراسان وهي: مرو، ونيسابور، وهرات فقد تقاسمت المركزية الخراسانية وتداولتها بينها. فالولات الذين كانوا يوفدون من الخلفاء أيام قوة الخلافة الأولى كانوا يتخذون من مدينة مرو قاعدة لحكم خراسان.

هكذا فعل أبو مسلم الخراساني حين أطاح بالحكم الأموي، فكانت مرو قاعدة خراسان في سلطته.

ولما قسم الرشيد في حياته المملكة بين ولديه الأمين والمأمون، كان المأمون والياً قاعدته مرو، واستمر كذلك بعد انتصاره على الأمين وتولية الخلافة.

وبعد انتقال المأمون إلى بغداد وتوالي الخلفاء بعده كانت مرو مقر ولايتهم على خراسان. ويقول اليعقوبي ما مضمونه: إن مرو أهم ولاية في خراسان، وسكانها من النقباء والدهاقين العجم، ويعيش فيها أقوام من العرب من قبائل الأزد وتميم وغيرهم، وولات خراسان كانوا يقيمون في هذه المدينة، وأول من نزلها المأمون ثم بقية من تولوا خراسان إلى أن نقل عبد الله الطاهري القاعدة منها إلى نيسابور.

ويقول ابن حوقل: كانت قاعدة خراسان ودار الإمارة في الأيام القديمة وحتى عصر الطاهريين في مرو وبلخ، ولكن الطاهريين نقلوها إلى نيسابور، وكانت هذه المدينة في عصرهم عامرة كبيرة غنية ونهض منها الكثير من الكتاب والمؤلفين والأدباء والعلماء والفقهاء كما قصدها العديد من أمثال هؤلاء.

وبعد تولي يعقوب بن ليث مؤسس السلالة الصفارية، السلطة واستيلائه على خراسان بقيت نيسابور قاعدة الحكم، وقد زاد عمرو في إعمارها وازدهارها.

وكانت نيسابور أهم مدن خراسان بل أهم مدن إيران في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وقد وصفها ناصر خسرو بأنها تساوي القاهرة عاصمة الفاطميين في مصر.

وبعد استيلاء السامانيين على السلطة جعلوا عاصمتهم بخارا. ولكن قاعدة ولاية خراسان التي كانت في قبضة آل سيجور وحسام الدولة تاش وفائق، كانت مدينة نيسابور. على أنه في بعض الأوقات كان هؤلاء يتداولون المكان في مرو وهرات، فقد كان تاش يحكم من نيسابور في حين كان فائق في بلخ وكان أبو علي سيمجور في هرات، وكان هذا في وقت كان فيه تاش قائداً وأميراً على خراسان، ولذلك كانت نيسابور وتابعها في قبضته، ولما عزل أصبحت في قبضة أبي علي سيمجور^(١).

(١) آل سيمجور كانت لهم مناصب سامية في دولة السامانيين وكانوا فترة من الزمن أمراء الجيش في خراسان وحكاماً في قهستان ونيسابور وتابعها. وتنسب هذه الأسرة إلى أحمد بن سيمجور الثري الذي كان في أول أمره خادماً عند إسماعيل بن أحمد الساماني. ثم وصل إبراهيم سيمجور أحد أفراد هذه الأسرة إلى حكم خراسان وكان ابنه أبو الحسن وحفيده أبو علي فيما بعد أمراء جيش. وحكموا خراسان زهاء سبعين سنة. وفي سنة ٣٨٤هـ تمرد أبو علي سيمجور. فطلب نوح بن منصور الساماني إلى سيكتكين وابنه محمود (الغزنوي) التغلب على سيمجور فهزماه، وحصل محمود على حكم خراسان من السلطان الساماني وجعل نيسابور قاعدة حكمه. وظل في منصبه حتى وفاة والده سنة ٣٨٧، فقام صراع بينه وبين أخيه إسماعيل الذي كان أبوه قد اختاره لخلافته فتغلب محمود على إسماعيل. ثم كان من شأنه أن قضى على بقايا الصفاريين ثم قضى على السامانيين فدانت له خراسان وامتد منها إلى غيرها، ما ليس هنا مكان تفصيله.

ومن وقائعهم في علاقتهم بالسامانيين ما ذكره ابن الأثير في أحداث سنة ٣١٠ قانلاً ما نصه:

قد ذكرنا قتل ليلي بن الثُّمَّان، وأن جُرْجان تخَلَّف بها بارس غلام قراتكين، فلَمَّا قُتِل ليلي بن الثُّمَّان عاد قراتكين إلى جُرْجان، فاستأمن إليه غلامه بارس، فقتله قراتكين، وانصرف عن جُرْجان، وقدمها أبو الحسين بن الحسن بن عليّ الأطروش العلويّ، والملقَّب والده بالناصر، وأقام بها، فأنفذ إليه السعيد نصر بن أحمد سيمجور الدواتيّ في أربعة آلاف فارس، فنزل على فرسخين من جُرْجان، وحاصر أبا الحسين نحو شهر من هذه السنة.

وخرج إليه أبو الحسين في ثمانية آلاف رجل من الديلم، والجرجانية، وصاحب جيشه سُرخاب بن وهسودان ابن عمّ ماكان بن كالي الديلميّ، فتحاربا حرباً عظيمة، وكان سيمجور قد جعل كميناً من أصحابه، فأبطأوا عنه، فانهزم سيمجور. ووقع أصحاب أبي الحسين في عسكر سيمجور، واشتغلوا بالنهب والغارة، فخرج عليهم الكمين بعد الظفر، فقتلوا من الديلم والجرجانية نحو =

وعندما حكم الغوريون هرات كانت هذه المدينة قاعدة خراسان منافسة لمدينة نيسابور^(١) وفي العهد السلجوقي أصبحت مرو قاعدة الحكم مع احتفاظ نيسابور بأهميتها. وأول من اتخذ منهم مرو قاعدة كان السلطان جفري بيك، ثم أنشأ حفيده السلطان ملك شاه حصناً حول المدينة طوله إثنا عشر ألف وثلاثمئة قدم.

ولقد ازدهرت هذه المدينة في عهد السلاجقة بعد أن أخذت بالخراب. على أن السلطان طغرل بعد أن استولى على نيسابور نقل إليها قاعدة حكمه. وبعد الاستيلاء على أصفهان سنة ٤٤٢ جعلها القاعدة وبعث بولاته إلى مدن خراسان وغيرها.

وبعد الزحف المغولي وما رافقه من دمار فقدت مدن خراسان أهميتها وعمها الخراب.

وفي عهد تيمورلنك الذي جعل سمرقند عاصمته وتوالى أحفاده على الحكم بعده كانت مدن خراسان على الأغلب في أيدي هؤلاء الأحفاد.

وقبل تيمورلنك واستيلائه على إيران كان السريدياريون قد نهضوا في مدينة سبزوار وحكموا خراسان زهاء نصف قرن إلى أن قضى عليهم تيمور سنة ٧٨٣هـ.

وفي عصر هؤلاء الحكام السريديارين ازدهرت مدينتا سبزوار ونيسابور مرة أخرى. وفي أواخر حكم تيمور كانت خراسان بحكم ابنه شاهرخ (٨٠٧هـ)، وبعد توليه الملك جعل مدينة هرات عاصمة بلاده الواسعة فازدهرت هرات أي ازدهار، واستمرت كذلك بعد وفاة شاهرخ

= أربعة آلاف رجل، وانهزم أبو الحسين، وركب في البحر، ثم عاد إلى أستراباذ، واجتمع إليه فل أصحابه.

وكان سُرخان قد تبع سيمجور في هزيمته، فلما عاد رأى أصحابه مقتلين مشردين، فسار إلى أستراباذ، واستصحب معه عيال أصحابه ومخلفيهم، وأقام بها مع أبي الحسين بن الناصر، ثم سمع سيمجور بظفر أصحابه، فعاد إليهم، وأقام بجرجان، ثم اعتل سُرخاب ومات، ورجع ابن الناصر إلى سارية، واستخلف ماکان بن كالي على أستراباذ، فاجتمع إليه الديلم، وقدموه، وأمره على أنفسهم.

إلى آخر ما قال متابعاً هذه الأحداث.

(١) في أواخر العصر الغزنوي تمكن الغوريون - وهم من سكان أفغانستان - وكانوا قد حكموا فيروز كوه وباميان، تمكنوا من استغلال ضعف الغزنويين فاستولوا على بلادهم. وفي سنة ٥٧١ ضموا هرات إلى حكمهم. واستمر حكم سلاطين الغور من أواسط القرن السادس حتى سنة ٦١٢هـ حيث تغلب عليهم خوارزمشاه، على أنه استمر حكمهم في هرات والهند. وبعد موت خوارزمشاه استمروا عدة سنوات في الحكم حتى كان الزحف المغولي الذي قضى على حكمهم.

سنة ٨٥٠ ولكن العاصمة انتقلت من هرات إلى سمرقند، ثم كان أن بدأت مناطق تقع في أيدي الأتراك العثمانيين وآل جلابير والتركماني وأخيراً الصفويين، ولكن إقليم خراسان ظل يدار من بقية الأسرة التيمورية بصورة مستقلة إلى أن وقعت هذه المنطقة في قبضة السلطان حسين بايقرا سنة ٨٧٨هـ وفي عهد هذا السلطان بلغت مدينة هرات قمة عظمتها وازدهارها وفضلاً عن ذلك فقد غدت خراسان مركزاً للأدب والفن .

وبعد قيام الدولة الصفوية واستيلائها على خراسان أصبحت مدينة مشهد التي كانت قد ازدهرت في عصر تيمور والتي كانت قد أخذت بالتدريج مكانة نيسابور وطوس - أصبحت قاعدة خراسان بدلاً من هرات وما زالت محتفظة بمكانتها إلى يومنا هذا بصفتها قاعدة محافظة خراسان .

خراسان في عهد الاستقلال

الطاهريون

العصر الطاهري الذي بدأ من سنة ٢٠٥ - ٢٥٩هـ هو عصر أول حكومة مستقلة في خراسان بل في إيران بعد الإسلام. وكانت عاصمة الطاهريين في أقصى منطقة بغرب خراسان: مدينة نيسابور.

ففي عهد المأمون بدأ آل طاهر حكمهم. وكانت حدود البلاد التي تشملها سلطتهم تمتد من قومنس حتى حدود جبال الهند ونهر السند ومكران إضافة إلى خراسان اليوم. فكانت أفغانستان وما وراء النهر وسيستان (سجستان) ضمن سلطتهم.

وقد شرح أحمد بن واضح اليعقوبي وهو من المؤرخين والجغرافيين البارزين، وقد عاش في عصر الطاهريين وتوفي في أواخر القرن الثالث وألف كتاب البلدان في الجغرافيا في ذلك العصر - شرح في هذا الكتاب بدقة حدود خراسان. وكلامه عن هذه الحدود يشير إلى ما قبل دخول الإسلام إليها. ولكن ما دام الكتاب قد ألف في عهد الطاهريين فهو من هذه الناحية مفيد.

يقول اليعقوبي ما مضمونه:

«مدينة بلخ أكبر مدن خراسان وملك خراسان الشاه طرخان يقيم هناك، وهي مدينة عظيمة تقسم إلى قسمين، وكانت في الماضي تقسم إلى ثلاثة أقسام وفيها اثنتا عشرة بوابة ويقال إنها تقع في وسط خراسان لأنها تبعد عن فرغانة ثلاثين محطة نحو المشرق. ومن هناك إلى الري ثلاثين محطة نحو المغرب. ومن هناك إلى سيستان في جهة القبلة ومنها إلى كابل وقندهار ثلاثون محطة. ومنها إلى كرمان ثلاثون محطة. ومنها إلى كشمير ثلاثون محطة. ومنها إلى خوارزم ثلاثون محطة. ومنها إلى ملتان ثلاثون محطة».

والجدير بالذكر هنا هو ما وراء النهر وسيستان حيث نرى كلمة خراسان تأتي دائماً مقرونة بهاتين المنطقتين لا سيما ما وراء النهر. وعلى سبيل المثال نقول إن يعقوب بن ليث الصفار بعد أن فتح كابل وبلخ وهرات ثم نيسابور وبسط سلطته على سيستان وجميع تلك النواحي عرف باسم أمير خراسان ويقول عنه ابن الأثير بعد أن سيطر على نيسابور وأسقط آخر حاكم طاهري: «واستولى على خراسان».

السامانيون

في عصر السامانيين حيث انتقلت العاصمة من خراسان إلى ما وراء النهر ألف الجغرافيون المسلمون كتباً كثيرة. إن هؤلاء الجغرافيين دونوا جغرافية خراسان حسب وجهات أنظارهم أو حسب الأوضاع السياسية والإدارية الموجودة وإن كتب الجغرافيا آنذاك التي كتبت باللغتين العربية والفارسية تقسم إلى قسمين: قسم اعتبر ما وراء النهر جزءاً من خراسان، وقسم اعتبر ما وراء النهر خارج حدود خراسان، ورأى فيها جارة شمالية لها. وإلى جانب هذه الآثار الجغرافية فإن الآثار الأدبية والتاريخية لم تكن بعيدة عن هذا الاتجاه. فمن الكتب الجغرافية الثمينة باللغة الفارسية كتاب (حدود العالم) الذي كتبه عالم خراساني من أبناء (الجوزجان) كان يعيش في بلاد (آن فريغون) في الجوزجان، وهو يقول فيه: «ناحيتها الشرقية هي الهند وجنوبها قسم من حدود خراسان والقسم الآخر صحراء كركس كوه (جبل كركس) وغربها نواحي جرجان وحدود غور وشمالها نهر جيحون، وهي ناحية كبيرة فيها نعم كثيرة. وكان ملك خراسان في قديم الزمان منفصلاً عن ملوك ما وراء النهر، واليوم الاثنان واحد. وإن أمير خراسان يجلس في بخارا وهو من آل سامان».

أما العالم الجغرافي الآخر أبو إسحاق إبراهيم الإصطخري فقد ذكر حدود خراسان هكذا:

«تشتمل خراسان على كورة وهذا اسم الإقليم. وما يحيط بخراسان وشرقي خراسان هو: سيستان وديار الهند. وغرب خراسان تقع صحراء غزني (غور) ونواحي جرجان. وشمال خراسان هو ما وراء النهر وبعض بلاد تركستان والختل. وجنوب خراسان صحراء پارس وقومس».

وفي الأسطر الأخرى عندما يتكلم عن مدن خراسان وكورها يتحدث عن قسم من بلاد تركستان والختل ويقول إن المقصود من ذلك هو: زم وآمل. ويقول إن خوارزم وراء ما وراء النهر.

يبدو مما ذكرناه أن إطلاق كلمة خراسان لم تتكيف دائماً بالحالة السياسية كما قال بعضهم. ورغم أن خراسان في ذلك الزمان كانت تدار من أمراء بخارا إلا أن المؤلفين المذكورين فصلوا خراسان عن ما وراء النهر واعتبروها جارة لها وصرحوا بأن أوضاعها السياسية والإدارية كانت في الماضي منفصلاً بعضها عن بعض. ونستنتج من كلام العالم الجغرافي الأخير أن أولئك الجغرافيين والشعراء الذين وصفوا خراسان بأنها تتألف من أربع مدن هي: نيسابور ومرو وهرات وبلخ لم يكن هدفهم حصرها في هذه المدن الأربع كما يعتقد بعضهم، بل إن الهدف من تعريف خراسان بهذه المدن الأربع هو ذكر أهم مدن خراسان. والإصطخري عندما يتحدث بتفصيل أكثر عن خراسان يذكر هذه المدن الأربع ويضيف إليها: الكُور (النواحي) مثل قهستان وطوس ونسا وبادورد وسرخس وإسفرابين وبوشنگ وبادغيس وكنج رستاق ومرو الروذ وگوزگان (جوزجان) وغرجستان وباميان وطخارستان وأمل.

وفي مؤلف جغرافي آخر يشير إلى حدود خراسان قائلاً: طول خراسان: من حد دامغان إلى ساحل نهر بلخ، وعرضها: من زرنج إلى حد جرجان. ومدنها الكبيرة أربع: نيسابور، ومرو، وهرات، وبلخ، ثم بعد بلخ مثل طخارستان والختل وشفنان وبدخشان حتى حدود الهند مثل باميان. وإلى حدود التبت مثل وخان هي جزء من خراسان.

تقول هذه المصادر إن ما وراء النهر حتى عندما كانت مركز حكومة خراسان لا تسمى خراسان، وكلمة خراسان كلمة قديمة لأرض قديمة ذات حضارة عريقة لا تتغير بالتحولات السياسية.

على أن هناك بعض المصادر التي ألفت في ذلك العصر وفي العصور التالية ذكرت أن ما وراء النهر جزء من خراسان. ونحن نقرأ في أحد المصادر:

«وكُور خراسان تتألف من طبيين وقهستان ونيسابور وهرات وبوشنگ وبادغيس وطوس ونسا وسرخس وأبيورد ومرو الروذ وطاقان وفارياب والجوزجان وبلخ وطخارستان وترند وبخارا وسمرقند وكش ونخشب وفرغانة وأسروشنة».

والرودكي - وهو من أبناء ما وراء النهر ومن الشعراء المعروفين في بلاط السامانيين يعتبر نفسه خراسانياً.

الغزنويون والغوريون

لا بد من القول - قبل الدخول في الحديث عن كلام رجال هذا العصر عن بلاد

خراسان وحدودها وثغورها - لا بد من القول إنه بعد مجيء الغزنويين وفي عهد الغوريين أصبحت مدينتا غزنة في الشرق، وغور في مركز خراسان - أصبحتا العاصمتين الإداريتين لحكام خراسان، وإن هاتين العاصمتين هما الآن ضمن أفغانستان، الأولى في شرق البلاد والثانية في وسطها. وسيستان أيضاً التي هي الآن ضمن أفغانستان وتشكل القسم الجنوبي والجنوبي الغربي من البلاد كانت في عهد الغزنويين والغوريين جزءاً من خراسان، وإن اسم خراسان كان يشتمل على جميع سيستان.

إن المصادر الموجودة متفقة على هذا الأمر. وهذه المصادر نفسها تتحدث بالعكس عن ما وراء النهر حيث هي متفقة في القول إن ما وراء النهر منفصل عن خراسان، ولم يطلقوا أبداً كلمة خراسان على ما وراء النهر.

واناصر خسرو الشاعر والمفكر والكاتب الذي كان يعيش في آخر نقطة من أفغانستان الحالية في يمگان بولاية بدخشان - يقول بأنه من أبناء خراسان وأن يمگان تقع في خراسان. أما فخر الدين الكرگاني فيقول في أشعاره بالسلطان الغزنوي إن خراسان وما وراء النهر هي للسلطان الغزنوي.

وعنصري البلخي وهو أمير الشعراء في بلاط الغزنويين يصف في بعض أشعاره السلطان محمود الغزنوي بأنه «خدايگان خراسان» يعني ملك خراسان. وفي أشعار أخرى يصفه بأنه «خسرو مشرق» أي ملك الشرق.

ونظامي الكنجوي يصف محمود الغزنوي - الذي كان يسيطر على أفغانستان كلها وعلى شرق إيران (خراسان) ويديرها من غزنة بأنه «خراسانگیر» أي المسيطر على خراسان.

وفضلاً عن الشعر والآثار الأدبية فإن المصادر التاريخية التي اهتمت بأحداث عصر الغزنويين أطلقت اسم خراسان على جميع أفغانستان. وعلى سبيل المثال نقرأ في تاريخ (مجمع الأنساب) ما يلي: محمود الغزنوي في السنة الثانية من وفاة والده أخذ جيوشه إلى بلخ... ومن بخارا أرسلوا ميثاق ولاية خراسان من حدود جيحون إلى النهدي وسيستان كلها إلى محمود عدا مدينة نيسابور. ولم يذكر شيئاً عن نيسابور.

أما السلاطين الغوريون الذين هم من أبناء غور وجرجستان (هزاره جات اليوم) وكانت عاصمتهم في هذا الجزء من خراسان واستمرت حكومتهم فترة طويلة في غور وجرجستان، وباميان وبلخ، ثم بعد انقراض الغزنويين وفتح غزنة توسعت سلطتهم على جميع أفغانستان

الحالية والهند إلى دلهي، وكان حكامهم لسنوات متتالية في خراسان، فكانت بلادهم تسمى خراسان.

والجدير بالذكر أن أسرة الغوريين كانت تحكم بلاد غور وجرجستان قبل الإسلام وقد أسلموا أيام خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان لهم في عهود السامانيين والغزنويين والسلاجقة وأوائل حكم الخوارزمشاهيين نوع مما نسميه في عصنا الحاضر بالحكم الذاتي .
إن أبا القاسم الجيهاني - وهو من أبناء سيستان وكان يعيش في القرن الرابع - يصف أفغانستان كلها بأنها تسمى خراسان .

السلاجقة والخوارزم شاهية

جاء في بعض المصادر الفارسية عن جغرافية خراسان هذا القول :

«كان يطلق اسم خراسان في أوائل القرون الوسطى بصورة عامة على جميع البلاد الإسلامية التي تقع شرق كوير لوط حتى جبال الهند. ولكن هذه الحدود تغيرت وأصبحت أصغر وأدق بحيث يمكن القول إن خراسان التي كانت واحدة من ولايات إيران في القرون الوسطى لم تكن تشتمل على ما وراء نهر جيحون من الناحية الشمالية الشرقية، ولكن ما زالت جميع مرتفعات ما وراء هرات التي هي اليوم الشمال الغربي من أفغانستان مشمولة بها. أما البلاد الواقعة في المنطقة العليا من نهر جيحون، أي في ناحية پامير فقد كانت عند العرب في القرون الوسطى جزءاً من خراسان».

ويبدو أن قصد الكاتب من قوله: «ولكن هذه الحدود تغيرت...» لم يكن عهد الطاهريين والغزنويين بل من المحتمل أن يكون قصد عهد السلاجقة والخوارزمشاهية.

وعن السلاجقة ذُكر في التاريخ :

«في ذي الحجة سنة ٤٥٥ عزل ألب أرسلات محمد بن أبي سليمان، ابن طغرل بك سليمان وكان طفلاً، واستولى هو على الحكم وأصبح ملك العراق وخراسان». وفي جانب آخر من هذا الكتاب جاء :

وكان السلطان ألب أرسلان رجلاً قوياً شجاعاً ولما تسلم السلطة سيطر على خراسان والعراق وأطرافهما .

أما ياقوت الحموي في (معجم البلدان) فينظر إلى حدود خراسان كما كان في القرون الوسطى ويعتبر ما وراء النهر قسماً من خراسان .

وهناك أحد المحققين الذي كان يعيش في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن، ناقش كتابه ولخصه ورفض نظرية ياقوت هذه فهو لا يعتبر ما وراء النهر قسماً من خراسان، وقد رسم خريطة خراسان بحيث تشمل جميع بلاد أفغانستان عدا ولاية سيستان.

وبصورة عامة وبعد دراسة المصادر المختلفة الكثيرة التي تتحدث عن جغرافية خراسان وحدودها في العصر العباسي يمكن القول إن خراسان كانت تطلق على أفغانستان كلها عدا سيستان وأن سيستان في بعض المصادر لا سيما في بعض العهود التاريخية كانت قسماً من خراسان وتعتبر الجارة الجنوبية أو الجنوبية الشرقية لها. والمهم هنا أن نقول إن كلمة خراسان كانت تطلق على القسم الأعظم من أفغانستان.

الجنكيزيون

يبدو أن إطلاق اسم خراسان على ما وراء النهر في عصر المغول الذي يبدأ بهجوم جنكيز سنة ٦١٤هـ على الخوارزمشاهيين لم يحظ بموافقة الكثيرين. وحسب ما نقل عن الجغرافيين المسلمين أنهم يعتبرون بداية هجوم جنكيز على البلدان الإسلامية نقطة انتهاء القرون الوسطى كما يذكر ذلك أحد المستشرقين بقوله: «في أواخر القرون الوسطى أي تزامناً مع عصر هجوم المغول انتهى استعمال اسمي: جيحون وسيحون، فسمي نهر جيحون (أموية) أو (آمودريا) كما سمي نهر سيحون (سيرديرا).

وزكريا القزويني الذي كان قاضياً في واسط والحلة في عصر المستعصم آخر الخلفاء العباسيين والذي كان حياً عندما فتح المغول مدينة بغداد يقول في مؤلفه الجغرافي دون الإشارة إلى مساحة خراسان وحدودها - يقول عن مدينة بلخ: «بلخ مدينة عظيمة من أمهات بلاد خراسان». وكذلك عن مدينة يمگان التي تقع في الولاية الشمالية الشرقية لأفغانستان اليوم على حدود الصين. وعندما يتحدث عن حمام يمگان الذي بناه ناصر خسرو يقول: «إن هذا الحمام مشهور في خراسان أكثر من أي شيء آخر وهو باق حتى عصرنا، وسبب اشتهاه في خراسان هو أنه عام مباح للناس لا يمنع أحد من الدخول إليه والاستحمام فيه».

وهو وإن لم يصرح بأن يمگان هي جزء من خراسان إلا أن هذا واضح من عبارته المتقدمة. ويشير إلى بعض المدن التي هي من مدن خراسان مثل: پوشنك وسرخس ونيسابور ومرو وهرات وبلخ وغيرها، ويقول إنها تقع داخل بلاد خراسان، وفي المقابل لم يذكر عدداً من مدن خراسان، كما يسكت عن ذكر مدن أخرى مثل قندهار وتكناباد وغيرها،

ولم يقل أنها من مدن خراسان أو الهند، بينما يعتبر مدينة باميان قسماً من بلاد غزنة حين يقول عن غزنة:

«غزنة بلاد واسعة تقع في أطراف خراسان وهي الحد الفاصل بينها وبين الهند. إن هذه البلاد معروفة بمناخها الطيب ومائها العذب وأرضها الخصبة. إن أراضيها جبلية، والبركة والعمار فيها منتشران ولكن بردها قارس شديد».

وفي كتاب (آثار البلاد) تقع كابل ضمن بلاد الهند ويقول إن سكانها من الكفار والمسلمين. وهذه الأمور والأحوال الأخرى التي يحتوي عليها هذا الكتاب تشير إلى أن معلومات القزويني عن بلاد خراسان الواسعة في ذلك الزمان لم تكن دقيقة كاملة وهو يصرح تكراراً بأنه لم يشاهد تلك البلاد.

إن الأساطير التي ينقلها عن الآثار والذخائر والنباتات والمحاصيل، وحتى عن سكان بعض المدن ويصفها ويشرحها بالتفصيل - إن ذلك يؤيد بأنه لم يشاهد عن قريب بعض مناطق خراسان ولم يسافر إليها، كما أنه لم يبد اهتماماً بالمصادر الجغرافية الثمينة القديمة.

المصادر الأخرى التي تشرح هجوم جنكيز على أفغانستان تذكر أن جميع مدنها هي جزء من بلاد خراسان. وعلى سبيل المثال فإن ابن الأثير في كتابه (الكامل) عندما يذكر هجوم جنكيز على خراسان ويصف صمود بعض المدن يذكر أسماء بعض تلك المدن ومنها بلخ وذروران وميمنة واندخوى وفارياب وطالقان وهرات وغزنة وغور ونيسابور وطوس ومرو، وبعضها يقع اليوم في أفغانستان. ويشير إلى أن نهر جيحون هو الحد الشمالي لخراسان.

وفي فترة ما بين الجنكيزيين والتموريين انقسمت خراسان، فالجانب الشرقي (أفغانستان) كان يحكمه آل كرت، والجانب الغربي (خراسان الإيرانية اليوم) كان يحكمه السربديرون. والمصدر الذي ذكر ذلك يؤكد أن الحكام هم أمراء خراسان. وهذا دليل على أن كلمة خراسان كانت في القرن الثامن تطلق على أفغانستان.

التموريون

في العصر التيموري - باستثناء فترة حكم تيمورلنك - حيث كانت هرات العاصمة أصبحت خراسان في ذروة ازدهارها وحضارتها وعظمتها. وعلى هذا الأساس كانت خراسان

رغم ما كان قد عرض لها من التدمير في بداية هذا العصر نتيجة هجمات تيمور المتتالية - قد بدأت تسير على طريق الازدهار بفضل الإدارة الصحيحة والنوايا البناءة التي كان يتحلى بها أخلاف تيمور. لذلك فإن العصر التيموري يعتبر من العصور الذهبية في تاريخ خراسان وإيران.

في هذا العصر يعتبر نهر جيحون (آموداريا) الحد الفاصل بين خراسان وما وراء النهر، وكانت أفغانستان وحتى سيستان كتلة واحدة منسجمة باسم خراسان في حكم الأسرة التيمورية.

إن أهم كتاب تم تأليفه في الجغرافيا في هذا العصر هو جغرافية حافظ أبرو. في هذا الكتاب يتحدث المؤلف الخراساني حافظ أبرو الهروي بدقة عن حدود خراسان وجغرافيتها وأرباعها، ولكن الكتاب لم يطبع بصورة كاملة.

يقول عن جغرافية خراسان:

«لا يخفى أن خراسان اسم بلاد وأن هذه البلاد واسعة، حدها الشرقي مصدر مياه أموية وجبال بدخشان وجبال طخارستان وباميان وأعمال غربي غزنة وكابل وما وراء جبال الغور التي فيها منابع نهر هيرمند. والحد الغربي صحراء، هي الحد الفاصل بين خوارزم وخراسان وحدود غيستان وجرجان إلى بحر الخزر وبعض من حدود قومس والري. والحد الشمالي ينتهي إلى جيحون الذي يقع أموي إلى جانبه. وبما أن ممر السامانيين إلى عاصمتهم بخارا كان عبر هذا الماء سمي أمويه، وفي الجانب الآخر من الماء يسمى ما وراء النهر. وجنوب خراسان هو حدود السند».

وفي السطور الأخرى يتكلم عن مناخ خراسان وطولها وعرضها ويقول:

«أرض خراسان طولاً من بسطام إلى غزنة حوالي مئتين فرسخ. والعرض من سجستان إلى مياه أموية حوالي مئتي فرسخ. ومناخها من أحسن مناخات الأقاليم. وكان الوباء (الكوليرا) والطاعون قليلين في بلاد خراسان. وفيها مناطق حارة ومناطق باردة. وفيها الجبال والسهول إلا أن الجبال فيها أكثر».

وفي عصر التيموريين كان يطلق على أفغانستان وغربها إلى نيسابور ويهق اسم خراسان، وكون خراسان كانت تطلق على جميع أفغانستان اليوم لا شك فيه، حيث توجد شواهد وقرائن كثيرة على هذا الأمر. وكما أشرنا سابقاً فإن إطلاق كلمة خراسان على بلاد

أفغانستان اليوم لا يقتصر على العصر التيموري، بل ظل مستعملاً بعد سقوط هذه الأسرة واقتسام المملكتين: الصفوية والبابرية في الهند لأفغانستان^(١).

وهكذا فإن أفغانستان اليوم كانت منذ عهد الساسانيين حتى سقوط التيموريين تسمى خراسان. أما إطلاق خراسان على ما وراء النهر فغير موثوق به بعد القرن الثالث الهجري، والمصادر الموجودة متهافة مضطربة.

أما كتب الجغرافيا باللغة الفارسية لمؤلفين محليين فإن لها قيمة علمية وأفضلية نسبية، مثل كتاب (أشكال العالم) للجيهاني و(حدود العالم) للجوزجاني وغيرهما، وهي لا تعتبر ما وراء النهر قسماً من خراسان.

كما أن حافظ أبرو في القرنين الثامن والتاسع يؤكد على هذا الأمر. ولا توجد وجهة نظر واحدة في أقوال الجغرافيين غير المحليين الذين كتبوا بالعربية في هذا الموضوع. والذين كتبوا أن ما وراء النهر قسم من خراسان لاحظوا الأوضاع السياسية والإدارية في المنطقة، وهذا ما نلاحظه في مؤلفاتهم وعند النظر في أوضاع كل عصر.

وعلى هذا يمكن اعتبار ما وراء النهر من ضواحي خراسان، ولم يثبت اعتباره جزءاً من خراسان، أو إطلاق اسم خراسان على هذه البلاد التي لا تُعلم حدودها.

وسيستان وزابلستان اللتان تقعان اليوم في القسم الجنوبي والجنوبي الغربي من أفغانستان، لو لم تكن أقوال علماء الجغرافية المحليين تنبئ بأن هذه النواحي كانت قسماً من خراسان، لقلنا عنها نفس ما قلناه عن ما وراء النهر، ولكننا اعتماداً على أقوالهم وأقوال غيرهم من العلماء، فإن الحد الشرقي لخراسان يتصل بالهند أو بپامير أو التبت. وحدها الجنوبي بالسند، وإن هذه النواحي قسم من خراسان.

(١) كانت غزنه وكابل للبابريين الهنود، وهرات وقندهار لإيران.



من تاريخ خراسان

أفغانستان

هل هناك بلاد في خراسان وما وراءها كانت تسمى في الماضي أفغانستان، وإذا كان الجواب إيجابياً فأين تقع تلك البلاد؟ .

عندما نسأل التاريخ عن عنوان بلاد أفغانستان نرى أن السيف الهروي يشير لأول مرة في كتاب (تاريخ نامه) إلى كلمة أفغانستان بصفتها اسم بلاد، وقد سجل هذه الكلمة تارة (أوغانستان)، وتارة (أفغانستان). وقد فعل ذلك خلال الحديث عن فتوحات أمراء آل كرت وحروبهم مع الأفغان، وهو يرسم لنا خريطة أفغانستان على هذه الصورة:

«ساحة أفغانستان بدأت آنذاك من حوالي قندهار وانتهت إلى نهر السند. أما مناطق (مستنك) و(تيري). فالاولى في ولاية بلوجستان الباكستانية، والثانية في ولاية قندهار الأفغانية، وهما معروفتان بهذين الإسمين وكانتا من خطط أفغانستان مع أنه لم يكن للأفغانيين آنذاك حكومة وإدارة مركزيان في وطنهم» .

من الطبيعي أن يكون لكلمة (أفغانستان) بصفتها منسوبة لقوم من الأقوام من عنصر معين - أن يكون لها تاريخ أوسع من هذا، وقد كان هذا القوم موزعاً في مناطق أخرى من خراسان بين الأقوام الخراسانية المختلفة كالأتراك والطاجيك والهزارة والنكودر والتركمان والمغول والعرب والأكراد. وكانوا يؤلفون سكاناً ملحوظين حوالي كابل.

ولا مجال هنا للتوسع في الحديث عن هذا الموضوع، ولا عن موضوع مبدأ العنصر الأفغاني وعنصر الپشتون، وهل إن العنصر الأفغاني وعنصر الپشتون هم عنصر واحد وقومية واحدة أم أنهما قومان منفصلان يتميز كل منهما عن الآخر؟ ..

آريانا، إيرانشهر، إيران

يقول بعض العلماء المعاصرين الإيرانيين والأفغان عن تاريخ هذه الكلمات الثلاث: آريانا وإيرانشهر وإيران أنها بالرغم من ظاهرها المختلف فإنها تؤدي إلى مفهوم واحد يطلق على القسم الشرقي من هضبة إيران، أي أفغانستان وخراسان، وأن شرق إيران (خراسان القديمة) عرف لفترة طويلة باسم إيران، وأن إيران الغربية كانت تسمى (پارس).

ونقل هنا أقوال كاتبين عالمين معروفين أحدهما أفغاني والآخر إيراني: يقول السيد مير غلام محمد غبار المؤرخ الأفغاني:

«إن أقدم اسم لأفغانستان اليوم الذين كان من عهد الأغيستا منذ ألف سنة قبل الميلاد حتى القرن الخامس الميلادي أي طوال ألف وخمسمئة سنة هو اسم آريانا، ومعناه: مسكن ومنزل آريا. وجاء هذا الاسم في الأفيستا على شكل (إيريانا) وكان يقابلها اسم (توريانا) ومعناه الآريون التريانيون فيما وراء جيحون الذين كانوا يعيشون على البداوة.

وعلى أي حال فإن اسم آريانا، أو إيريانا هو اسم أفغانستان حيث تبدل فيما بعد في مملكة فارس (پرسه) بتعديل قليل إلى إيران.

والعالم الإيراني المعاصر السيد محمد كاظم الإمام منفتح كتاب (روضات الجنات في أوصاف مدينة هرات) يقول في مقدمة هذا الكتاب:

«في رسالة الأفيستا العريقة التاريخية: إن خراسان في إيران الشرقية كانت تسمى إيران ويح، أو وثجه. وكلمة ويح أو وثجه بغض النظر عن أي تعديل طرأ عليها تستعمل إلى يومنا هذا في الألفاظ المحلية في كثير من نواحي إيران القديمة مثل خوزستان ولرستان وبعض مناطق فارس على شكل (أوج) ومعناه: الأصل والطبيعي. إذا فإنهم كانوا يعتبرون أن خراسان أو شرق إيران - يعتبرونها إيران الأصلية والطبيعية. في بداية تاريخ إيران الإسلامية كانت كلمة (إيران شهر) تطلق على خراسان (شرق إيران) أكثر من أي اسم آخر.

التشيع في غور

بعد أن فشل جيش الإسلام في عهد الخليفين الثاني والثالث في محاولة فتح (غور) لمناعتها الجبلية وطرقها الوعرة وأهلها المقاتلين الشجعان، عاد سلطان غور في عهد خلافة أمير المؤمنين علي عليه السلام فأسلم رغبة ورضا.

يقول الجوزجاني المؤرخ في بلاط الغوريين: «وغالب الظن أن سلطان الغور آمن في

عهد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وعلى يديه وتسلم منه عهداً ولواء. وظل سلاطين الغور يتداولون هذا العهد وهذا اللواء واحداً بعد واحد. وظل حب الأئمة وأهل بيت المصطفى راسخاً في عقيدتهم».

ويفصل مؤلف آخر هذا الأمر:

«إن عاصمة شيعة الغور كانت أول مركز للشيعة في بلاد الغور حيث أنهم أسلموا في فترة ٣٥ - ٤٠ هـ وقد ولى علي عليه السلام ابن أخته جعدة بن هبيرة المخزومي على خراسان فعامل أهل الغور كما عامل غيرهم معاملة حسنة جعلت أهالي الغور يتفانون في حب علي. ونزولاً عند رغبتهم التي أبدوها لجعدة ورفعها جعدة إلى أمير المؤمنين سلم حكم الغور إلى أمرائه آل (شنسب) بعهد ولواء ظلّا محفوظين عندهم مغاخرين بهما قروناً متوالية.

وقد تسلم سلطان الغور العهد واللواء بنفسه من يد علي. وقد أوردت ذلك عدة مصادر ولكن هذه المصادر لا تعين حدود الغور في ذلك الزمان.

وبهذا تكون الغور أول منطقة شيعية في هضبة إيران، عدا ما يقال من أن مدينة (قم) هي أول مركز شيعي فيها.

وبعد استشهاد علي عليه السلام سنة ٤٠ هـ أصبح معاوية الحاكم الوحيد المطلق للعالم الإسلامي فانطلق في الاضطهاد والتذبيح والترويع والتشريد، وسنّ لعن علي على المنابر وأعلن أن لا صلاة إلا بلعن أبي تراب.

إن سلاطين الغور وشعب الغور رفضوا أن يلعن علي على منابرهم، فكانوا المسلمين الوحيدين في العالم الإسلامي الذين وقفوا هذا الموقف ولم يتبعوا الأوامر الأموية.

وقد نظم فخر الدين مبارك شاه شاعر البلاط الغوري قصيدة مستمدة من هذا التصميم على التمرد على أوامر الأمويين بلعن علي على المنابر.

وتشيع سلاطين الغور وشعب الغور جاوز حدود تلك البلاد فإن عشيرة أفغانية تسمى (أفغان توري) تقيم الآن في شمال باكستان تابعت الغوريين في التشيع.

والمقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) ينسب هذا الموقف إلى سكان سيستان، ورأيه هذا لا يخالف الرأي الآخر لأن المقدسي يعتبر الغور جزءاً من سيستان ولا يعدها ولاية مستقلة ولذلك ينسب هذا الأمر إلى أهل سيستان.

إن صمود أهل الغور على التشيع واستمرار مخالفتهم للأمويين وعمالهم دفعت الحكام

إلى الثأر منهم. ففي سنة ٤٧هـ بزعم ارتداد أهل الغور وجهوا لغزوهم جيشاً كبيراً. «وفي هذه السنة ٤٧ سار الحكم بن عمرو إلى جبال الغور فغزا من بها وكانوا ارتدوا فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة وسبانيا. ولما رجع الحكم من هذه الغزوة مات بمرو».

هذا ما سجله قلم عبيد السلطة. والحقيقة أن الغوريين نكبوا لأنهم رفضوا أن يلعن علي على منابرهم ويذكر الطبري في أحداث سنة ٣٦ أن ماهويه المرزبان حاكم مرو ذهب إلى الإمام علي عليه السلام وأن الإمام أعطاه رسالة إلى أهالي مرو يقول فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن ماهويه إبراز مرزبان مرو جاءني وإني رضيت».

يعتقد بعضهم أن ماهويه المرزبان كان من أسرة سلطان غور. ويحتمل أن يكون الاثنان ذهاباً معاً إلى الإمام علي عليه السلام وأن الإمام رضي عنه.

أبو تمام في خراسان

قلنا فيما تقدم من القول أن الطاهريين هم أول من استقل بخراسان. ولكن استقلالهم هذا لم يمح الصبغة العربية عن خراسان، على عكس السامانيين الذين جاءوا بعدهم فلم يخفوا أن استقلالهم كان استقلالاً إيرانياً وعملوا على تحويل كل شيء إلى الإيرانية، حتى أنهم أمروا بترجمة الطبري إلى الفارسية.

كأن بلاط الطاهريين يعج بالشعراء العرب، كما كان العرب يشغلون فيه أرفع المناصب، فكاتب عبد الله بن طاهر - مثلاً - كانا عربيين طائنين هما: الفضل بن محمد بن منصور وإبراهيم بن وهب.

ومنصب الكاتب ليس بسيطاً كما قد يفهم من هذه الكلمة اليوم، فالكاتب هو الفاعل الأول في بلاط الأمير يومذاك. وقصة وصول أبي تمام الطائي إلى نيسابور عاصمة خراسان أيام عبد الله بن طاهر^(١) تدل على وجود جمهرة من الشعراء العرب حول عبد الله بن طاهر. فقد حدث أحد هؤلاء الشعراء قائلاً:

(١) كان طاهر بن الحسين والياً للمأمون على خراسان، واستمر في ولايته عليها سنتين لم يغير شيئاً ولم يتظاهر بشيء فلما كانت سنة ٢٠٧هـ صمم على العصيان، فصعد يوم الجمعة المنبر فخطب، فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له، وقال: اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به =

اجتمعنا بباب عبد الله بن طاهر من بين شاعر وزائر ومعنا أبو تمام محجبنا أياماً فكتب إليه أبو تمام:

أيهذا العزيز قد مسنا الضر جميعاً وأهلنا أشتات
ولنا في الرحال شيخ كبير ولدينا بضاعة مزجاة
قل طلابها فاضحت خساراً فتجاراتنا بها ترهات
فاحتسب أجرنا وأوف لنا الكيـ ل وصدق فإننا أموات

فضحك عبد الله لما قرأ الشعر وقال قولوا لأبي تمام لا تعاود مثل هذا الشعر فإن القرآن أجل من أن يستعار شيء من ألفاظه للشعر. قال: ووجد عليه.

وهناك ما وراه الخطيب التبريزي في مقدمة شرح كتاب (الحماسة):

كان عبد الله بن طاهر لا يجيز شاعراً إلا إذا رضي أبو العميثل - عبد الله بن خليلد - وأبو سعيد الضرير، حتى إن أبا تمام نفسه اضطر لعرض قصيدته الأولى عليهما. وهذا يدل على كثرة الشعراء في عاصمة الطاهريين نيسابور. ويدل على شيء آخر. يدل على تخصيص نقاد للشعر.

فليس الشعر وحده هو الرائج، بل إن للنقد رواجاً واعتباراً أيضاً.

ونريد أن نقول هنا: إن اعتراض عبد الله بن طاهر على أبي تمام لاستعارته لشعره ألفاظاً من القرآن الكريم، ووجده عليه بسبب ذلك يشبه تماماً اعتراض من اعترضوا في هذا العصر على مرسل خليفة لإنشاده شعراً فيه استعارة ألفاظ من القرآن، ولم يكتفوا بالوجد عليه

= أولياءك، واكفها مؤونة من بغى فيها وحشد عليها بلم الشعث وحقن الدماء وإصلاح ذات البين. فكان ذلك إعلاناً للانفصال عن بغداد، لكن الأقدار كانت قد عملت عملها، ففي اليوم الذي أعلن فيها طاهر العصيان، مضى في ليله إلى فرشه فمات فجأة في تلك الليلة. فاختار المأمون ابنه طلحة (٢٠٧ - ٢١٣) لولاية خراسان مكان أبيه. ولما توفي طلحة سنة ٢١٣ تولى الحكم في خراسان علي بن طاهر ثم تولى عبد الله بن طاهر، فحكم خمسة عشر عاماً وتوفي سنة ٢٣٠. ويقول ابن النديم أنه كتب مؤلفات في الموسيقى والأعداد والفلك. ويقول عنه الدكتور عزيز الله بيات أنه كان أديباً شاعراً محباً للفضيلة. وفي سنة ٢٢٤هـ وقع زلزال في خراسان دمر عدداً من البيوت تدميراً كاملاً وتضررت القنوت كثيراً فقام خلاف بين المزارعين، ولم يكن لهذا الأمر ذكر في كتب الفقهاء، فجمع عبد الله فقهاء خراسان ودعا معهم بعض فقهاء العراق فألفوا له كتاباً في الأحكام الخاصة بالقنوت. وبعد وفاة عبد الله سنة ٢٣٠ تولى ابنه محمد فكان آخر الأمراء الطاهريين.

بل سعوا في سوقه إلى المحاكم، ليجازى بالسجن، لولا أن القضاة لم يروا رأيهم .
ومن عجائب الصدف أن كلا المستعيرين قد استعارا ما استعاراه من ألفاظ القرآن،
كانت استعارتهما من قصة يوسف .

وإذا كان القضاة برأوا مرسيل خليفة من دعوى الإساءة إلى القرآن . فإن مرجعاً دينياً
كبيراً في عصرنا هو السيد محسن الأمين لم ير في استعارة أبي تمام ما يقضي أن يجد عليه
عبد الله بن طاهر .

فقد قال وهو يكتب عن أبي تمام ويروي قصته مع عبد الله بن طاهر: «وليس في هذا
ما يقتضي أن يجد عليه» .

أبو تمام الشاعر العربي الكبير كان كغيره من الشعراء العرب الكبار منهم والصغار لا
يرى عاراً في استجداء المال من أصحاب المال بمدحهم، مع أنه العار كل العار .
إن تلك المدائح وتلك (الشحاذة) هي عار الشعر العربي، العار الذي وصمه على طول
الدهر .

إن أبا تمام بعد أن عرف أن البلاط الطاهري بالرغم من فارسيته هو عربي اللسان، وهو
ندي للشعراء العرب المقيم منهم والطارئ، وأن فيه نقاداً حاذقين يميزون بين الحسن
والأحسن، عزم على شد الرحال إلى تلك البلاد واحتمال مشقات السفر البعيد وما فيه من كد
في قطع السهوب جبالاً وأوعاراً، واستجداء أمير تلك البلاد المال، ولا يرى في ذلك ما
يخجل ويعيب! .

وفي طريقه إلى نيسابور نزل ضيفاً على ابن عبد الله الدامغاني، فحدث بعد ذلك ابنه
قائلاً: نزل أبو تمام عند والذي حين اجتاز بقومس إلى نيسابور ممتدحاً عبد الله بن طاهر
فسألناه عن مقصده فأجابنا بهذين البيتين:

يقول في قومس صحبي وقد أخذت منا السرى وخطى المهربة القود

أ مطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا فقلت كلا ولكن مطلع الجود

عجب عبد الله الدامغاني وابنه من هذه الرحلة البعيدة الشاقة التي يتكبدها أبو تمام
فاستفسراه عن مقصده فأجابهما بلا خجل أنه يقصد مطلع الجود! . وأن مطلع الشمس الذي
اشتهرت به خراسان لا يعنيه، وماله ومطلع الشمس إذا كان لا يصيبه من الشمس إلا
شعاعها! . أما الذي يعنيه فمطلع الجود الذي تنهل عليه دنائره! . .

ويبدو أن الآمال العريضة التي كان يعلقها أبو تمام على (مطلع الجود) كانت تملأ نفسه مرحاً فيصفي للنغم المنبعث من الشفاه الأعجمية فيطرب ويعجب ويأتي بهذا الشعر الجميل :

أيا سهري ببلدة أبرشهر
شكرتك ليلة حسنت وطابت
إذا وهديات أرض كان فيها
سمعت بها غناء كان أولى
ومسمعة تفوت السمع حسنا
مرت أوتارها فشجت وشاقت
ولم أفهم معانيها ولكن
فبت كأنني أعمى معنى
ثم لا يلبث أن يرى نفسه محجوباً على باب عبد الله بن طاهر فيقول :

صريع هوى تغاديه الهموم
غريب ليس يؤنسه قريب
مقيم في الديار نوى شطون
يمد زمامه طمع مقيم
رجاء ما يقابله رخاء
فقد فارقت بالغربي داراً
وكننتُ بها الممنع غير وغد
فإن أكَ قد حللت بدارهون
إذا أنا لم ألم عثرات دهر
وفي الدنيا غنى لم أنب عنه
وفي قوله هذا ما يغني عن كل تعليق وشرح .

بنيسابور ليس له حميم
ولا يأوي لغربته رحيم
يشافهه بها كمد قديم
تدرع ثوبه رجل عديم
هو اليأس الذي عقباه شوم
بأرض الشام حفاً بها النعيم
ولا نكد إذا حل العظيم
صبوت بها فقد يصبو الحلیم
أصبت بها الغداة فمن ألوم
ولكن ليس في الدنيا كريم

(١) أبرشهر: من أسماء نيسابور.



أنا في خراسان^(١) وفي نيسابور

|| ها أنذا في الطريق إلى خراسان، وهذا الحلم الذي شد ما عصفت بخيالي
يصبح أمراً نافذاً وحقيقة راهنة... .

ها أنذا على طريق خراسان، أمضي فيه كما مضى الذين تقدموني في مطاوي التاريخ
فرساناً وشعراء وعلماء وأتقياء..

خراسان التاريخ: الأرض الطيبة التي بلغت تخوم الهند ثم تفتت على نفسها ممالك
ومقاطعات..

ها نحن نمضي إليها، خارجين من طهران في قافلة كبرى، إذا كانت لم تشبه قوافل
الماضي في كل شيء، فقد أشبهتها ببعض شيء، كانت قافلتنا قطاراً طويلاً يشق المدى البعيد
ركضاً لا يني وعدواً لا يهي... .

على هذه الدروب سارت قوافل المؤمنين يحدوها الشوق إلى قباب (المشهد) ومناثر
(الرضا)، وعليها مضت مواكب الفرسان برايات الظفر وأعلام الكفاح، وفيها تناشد الشعراء
قصائد الحنين ومقاطع الحماسة وأبيات النسيب... .

هي دروب الذكريات الروائع: ذكريات الإيمان والشعر والعلم والفلسفة والأدب.
فيها أنشد أبو تمام الطائي:

(١) زرت خراسان لأول مرة سنة ١٩٥٨ وفي العودة من (مشهد) زرت نيسابور.

يقول في قومس^(١) صحبي وقد أخذت
أطلع الشمس^(٢) تبغي أن تؤم بنا
وفيها يقول الكلثومي:

سقى الله طيفاً بالعراق فإنه
أحن إليه من خراسان نازعا
وفيها تشوق يحيى بن طالب الحنفي:
أقول لأصحابي ونحن «بقومس»
بعدنا وبيت الله عن أرض «قرقرى»
وفيها قال الحافظ بن الفرات:

لقد أصبحت منبوذا
ومجفوا نبت عن لذة
إلى أرضي التي أرضى
إلى أرض جناها من
وفيها أنشد العباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا
ثم القفول وقد جئنا خراسانا

أجل لقد جئنا خراسان، وها هي ذي مسالكها أمامنا نقرؤها اليوم بارزة، بعد أن قرأناها
من قبل صفحة من صحف التاريخ.

تخرج من طهران فتمر (بالشاه عبد العظيم) وقبته الذهبية المتوهجة، ثم بالمزارع
والقرى، ثم تفاجأ بالصحراء تطالعك من حيث ما تلفت برمالها وحصاها وجفافها. ولكنها لا
تطول فكما تفاجؤك طالعة كذلك تفاجؤك غائبة، فلا تلبث مشاهد الخضرة أن تلوح، ويبدو
فلاح يذرو القمح وقروي يسوق البقرة وساقية تجري وشجرة تعلو...

ثم تعود الأرض كما بدأت بعيد طهران مزارع وبيوتاً وحقولاً تتأرجح فيها الريح بليلة
النسمات.

(١) قومس هي المدينة المعروفة اليوم باسم «شاهرود».

(٢) مطلع الشمس يعني خراسان كما مر.

كل هذا التحول العجيب من المدينة إلى الريف، ومن القحولة إلى الإمراع، تم في ساعتين اثنتين من سير القطار. فها نحن في (كرمسار) في منتصف الساعة السابعة عشرة: تبدو لنا القرية القديمة غير بعيدة مظلة بالشجر الغضيض، ثم تتابع القرى والحقول، وتتابع القنوات والسواقي متشعبة في الأرض بمائها الروي . . .

لقد كان جميلاً هذا التعاقب للدساكر والمزارع، وهذا التقارب للقرى والحقول، فقد ظلت أمامنا متلاحقة يحدو بعضها بعضاً حتى لا تكاد تنفصل، ثم عادت تتباعد وتفترق . . بل إننا بعد محطة «ده نمك» لم نعد نبصر لها أثراً، وصرنا وكأننا عدنا إلى الصحراء من جديد، فنحن الآن في سهول مديدة لا حياة فيها إلا نبات بري غريب يتراكم أحياناً ويتفرد أحياناً، بل لقد عدنا إلى الصحراء حقيقة لا مجازاً، ها نحن فيها، في صميمها . . في رمالها وحصاها ونضوبها. وها نحن نمر فيها على محطة «سرخ دشت»، نمر دون أن نقف . . .

ولو كنا علمنا الفارسية لعلمنا أن المحطة الأولى «ده نمك» إنما تشير باسمها إلى حقيقة الأرض التي تقوم عليها فإن معنى ده نمك (قرية الملح)، وإن معنى «سرخ دشت» الصحراء الحمراء .

لقد فاجأتنا محطة «سرخ دشت» وأدهشنا أن نرى في هذا البر الأفقر محطة للقطار . . . فلمن هذه المحطة، وأين هم الناس الذين يمكن أن يؤمواها؟

وعدنا نتساءل لعل لهذه الصحراء عماراً لا نبصرهم، ولعل لهذا اليباب رواداً لا نحس بهم؟

لم يكن ما مررنا به من قبل إلا واحة . . . فها هي الصحراء الحمراء تتناول وتتناول، وتمتد ثم تمتد بأخاديدها ورضراضها ورمالها حتى محطة «لاهورد» . . ومررنا بعد ذلك بسمنان، فإذا ما وراءها هو الآخر صحراء ولكن من نوع آخر . . . إن الصحراء هنا تتميز بكثبانها وتلالها، بعد أن كانت قبل سمنان سهولاً مستوية. ولهذه الكثبان ولتلك التلال جمال في العين وروث في النفس . .

ودنا الليل وغابت الدنيا في السجف السود، وغبنا نحن في الرقاد الطويل.

وفي الصباح كانت الصحارى قد انطوت مع الليل، فلم يبق على النهار إلا زروع تتصل حقولها، وتتشابك محارثها، وإن تباعدت دساكرها وتناءت قراها.

ومع متوع الضحى وامتداد النهار، عرفنا أن ما جزناه من بواد، وما قطعناه من مراحل

قد أحلنا من جو إلى جو، فلقد تركنا الناس وراءنا على بيادرهم وفوق نوارجهم، ثم رأيناهم هنا يهيمون بالحصاد، وعاد الهواء لنا معتدلاً، بعدما كما قائظاً لفاح الأوار. ولا بدع فنحن توغل في المسير شمالاً دائين من المناطق الباردة.

ولم يطل الأمر حتى كانت «المشهد» مشهد الرضا تلوح لنا، وحتى كانت قبة «الإمام» تتلأأ في الشمس بذهبها البراق.

الذي تراه في عتبات العراق في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، هو عين ما تراه في «مشهد الرضا»، فالفن الرائع هناك فوق القباب وتحت القباب، في قمم المنائر وصحون المساجد في الأواوين والمحاريب، الفن الرائع بذهبه ومراباه وريازاته ونقوشه، بقيشانيه وأحجاره ورسومه . . .

الفن الإيراني العظيم سليل أعرق الحضارات وأنضج المدنيات، هذا الفن الذي حاكت يده بدائع مقامات العراق هو نفسه الذي حاكت يده بدائع مشهد خراسان.

لذلك لا تختلف الصورة في خراسان عنها في العراق، إلا في شيء واحد: هو أن نظاماً دقيقاً يهيمن هنا في «مشهد خراسان» على كل شيء فلا سبيل معه لتسرب الفوضى.

نظام دقيق يخضع له سدنة «الحضرة» وقيموها، ويعنوا له الكبير والصغير، ويسير بتدبيره كل شيء.

وبفضل التنظيم أقيمت مكتبة الرضا، هذه المكتبة التي تضم من روائع المخطوطات ما ينذر أن يجتمع في غيرها، وحسبك أن فيها ما يعود إلى أول عصور التدوين الإسلامية، وأن فيها مصاحف بخط الإمام علي بن أبي طالب وخط ولده الحسن وبخط علي بن الحسين عليهم السلام.

وبفضل التنظيم عمت النظافة صحن الحرم وجوانبه وداخله وخارجه، فلا يقع النظر إلا على نظافة شاملة عامة.

وبفضل التنظيم امتنع الاستهتار والاستغلال وإزعاج الزائرين، وحل محل ذلك كله حرص على راحة الزائر وتوجيهه وتيسير زيارته . . .

والمتحدث عن «الحرم» لا يمكن أن يهمل المتحدث عن مسجد النساء المتصل بمسجد الحرم، لقد كان غاصاً بالنساء، وكن يزدحمن فيه على الصلاة ازدحاماً ملؤه الخشوع، وما رأيت صمتاً وسكينة ترين على مكان كما رأيت ذلك في مسجد النساء في «حرم الرضا».

عامليان في خراسان

وكذلك لا يمكن إهمال التحدث عن قبر الشيخ البهائي أو بهاء الدين العاملي كما اصطلاح الناس أن ينوعوا تسميته، فهذا العالم العظيم، ابن جبل عامل الذي حملته القدر إلى إيران، ثم طاف الدنيا وعاد إلى إيران ودفن في مشهد الرضا، هذا العالم العظيم، شيد قبره تشييداً يليق بخلود ذكراه.

وهناك عاملي ثان دفن في مشهد الرضا، عاملي هو الآخر عالم كبير، حملته همته من جبل عامل، من قمم «جباغ» ومن روضاتها وينايعها، حتى حطت به على سهول «خراسان» وأرباض «طوس» وأبواب «الرضا» فكان عالماً من الأعلام يتحلق العلماء حوله أخذين عنه مستفيدين منه، ثم انتهى الرجل ولم ينته العالم، انتهى الرجل العاملي إلى حفرة في تراب إيران، تحت حجارة من خراسان. ولم ينته العالم العالمي بل ظل مستمراً يعيش في كتابيه «أمل الأمل» و«الوسائل».

لقد زرت قبره وهبطت الدركات الموصلة إليه، فأحسست بوجودي كله يغيب في ذكريات هذا القبر العظيم، وألفيتني انتقل بكل شعوري من ذروة «صافي» العالية ومن سلسبيل «القبي» ومن شجرات الأودية والأجزاء في «جباغ» ومن سفوح جبل عامل، إلى سهول خراسان، وأباطح المشهد وينايع طوس ومعالم إيران، فأرى مدارج «محمد بن الحسن الحر العاملي» وملاعب صباه ومعاهد درسه ومكاتب أقلامه ومحارب صوامعه.

سلام عليكما يا مواطني العاملين، نزلي المشهد وجاري الرضا، سلام عليكما في مسقط رأسيكما في جبل عامل وفي مثنى جسديكما في خراسان^(١)

في نيسابور

ها هي ذي نيسابور، وها أنذا أمشي إليها هابطاً من القطار، وها هي ذي جائمة أمامي في عرض السهل بشجرها الوريق وبنيانها العريق وشوارعها الظليلة . . .

هي ذي نيسابور، وعلى هذا الطريق مر أبو هلال العسكري وأبو منصور الثعالبي ونصير الدين الطوسي وفريد الدين العطار.

من ها هنا سلكوا، وهذا الثرى كان موطناً لأقدامهم، وهذا الفضاء كان مسرحاً لأبصارهم! . . .

(١) دفن في المشهد بعد ذلك عاملي جليل آخر هو الشيخ عارف الزين صاحب مجلة العرفان.

في هذه الظلال كتب أبو بكر الخوارزمي بدائعه، وخلف هذه الأبواب أملى بديع الزمان الهمذاني روائعه ومقاماته . . .

تحت هذا السقف أو ذاك خُط «صحيح مسلم»، وفي هذا المنزل أو ذاك أنشئ «صحاح اللغة»، وعند هذه السرحات أو حول تلك الرحبات خرج كتاب «اليتيمة» وانتشر «التفسير الكبير».

بلى، ومن ها هنا، أو من هنالك كان يطل عمر الخيام على الناس ويمشي مستوحياً الحياة حكمته وشعره! . . .

ها هنا قد حلالي أن هتف مع النابغة:

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤي وأحجار

وإن أنشد مع عترة:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة وأسلمي

إن الدمنة قد تستوقفك ولو لم تكن هي منزلاً لنعم أو مسكناً لعبلة، وأنت قد تهيم بالنؤي والطلل، ولو لم تكن أنت شاعراً غزلاً أو عاشقاً معموداً.

وأي دمنة أعلق بقلبك من الدمنة التي عرف ثراها أبا بكر محمد بن إبراهيم النيسابوري. وروى صعيدها حديث الفضل بن شاذان ومحمد بن علي بن سهل.

ها هي ذي نيسابور أمامي أفتحها كتاباً وأجلوها صحفاً فتفيض أمامي علماً جماً وذكرى حية، وتبعث في نفسي أشجى ما تبعته بقايا الأحباب.

ويوم كان يهلوني التاريخ متحدثاً عن نكبة نيسابور بالمغول، بعدما كان يشوقني قاصاً سير العلم والأدب، والشعر فيها، لم أكن أحسب أنني سألمس تلك النكبة بيدي وأحسها بنفسي وأبصرها بعيني.

ولم أكن أتخيل أن الفجيعة قد بلغت هذا المدى بحاضرة الحواضر العلمية.

ولكنني وأنا أتطلع إلى هذا الركाम المجتمع، وأمشي في هذه التلال المتلاحقة، وأعلم أن ما اجتمع فكان ركاماً، وما تلاصق فاستحال تلالاً، لم يكن إلا دور المدينة المهدوفة وقصورها المنقوضة ومدارسها المنسوفة.

ولكنني وأنا أرسل البصر إلى الآماد البعيدة فأرى امتداد الخراب، أوقن أن ما حدث عنه

المحدثون في التاريخ ما كان ليصور حقيقة المأساة، وأن كل خيال يقصر عن إدراك بربرية المغول.

وإذا كانت ذكريات التخريب والتهديم أليمة في النفس، فإن هذا الألم ليلبغ أقصى مداه إذا كان ذلك في مدن العلم وديار الثقافة، وأي مدينة كان لها في العلم والثقافة ما كان لنيسابور؟

لقد كانت أحد المراكز العلمية الكبرى في العالم الإسلامي، فللشافعية فيها مدارس وللحنفية مدارس وللصوفية زوايا وخوانق، وكل هذا كان منطلقاً للبحث والتدقيق، ومجالاً للدرس والتدقيق.

ويستتبع وجود المدارس وجود المكتبات لذلك زحرت نيسابور بدور الكتب، ولقد حفظ لنا ابن الأثير بعض معالم ذلك العهد العلمي المتألق وهو يقص حوادث سنة ٥٥٦هـ فقد قال وهو يروي حروب الأتراك والغز مع أمراء سنجر ومحمود بن محمد خان خاقان سمرقند: أن ثمانين مدارس للحنفية و١٧ مدرسة للشافعية تهدمت وخمس مكتبات نهبت ويبعث بثمن بخس، وإن مسجد عقيل الذي كان ملتقى العلماء ومستودع خزائن الكتب الموقوفة قد خرب كله.

وهكذا فإن نكبة نيسابور بالمغول لم تكن أولى النكبات، بل كانت خاتمة النكبات، كانت الخاتمة التي انطوى بها أمر نيسابور.

ومما ينوه به من مدارس نيسابور: المدرسة النظامية التي كان أبو حامد الغزالي يدرس بها ثم تلاه بالتدريس فيها تلميذه محيي الدين محمد بن يحيى الذي انتهى أمره إلى القتل بيد الغزنويين سنة ٥٤٨هـ فكانت الفاجعة به فاجعة كبرى، إذ أن نيسابور كانت قد شهدت إقبالاً على مدرسته قل إن عرفت له مثيلاً في تاريخها العلمي الزاخر، لذلك كثر راثوه بالشعر عربياً وفارسياً مما لا يزال محفوظاً إلى اليوم.

والواقع أن فتن الغز كانت قاضية على نيسابور قضاء إذا كان شاملاً بحيث خرب المدينة وهدم مدارسها وحرقت مكتباتها ومزق علماءها، فإنه لم يكن حاسماً، فما لبثت «شادياخ» أن قامت على أنقاض نيسابور، وعادت مدينة عامرة مجمعاً للعلماء، إلى أن فاجأها المغول عام ٦١٨هـ. فكان قضاؤهم عليها القضاء الحاسم المبرم.

على أبواب نيسابور

لقد جنتها والأصيل، واحتوتني محطاتها في مئات المؤمنين الهابطين إليها لصلاة العصر، ففي محطاتها يتحتم على القطار العائد من (مشهد الرضا) أن يقف وقتاً يتسع للصلاة، وهو تدبير إيراني لا مثيل له في أي بلد إسلامي آخر. ففي مناهج القطارات الإيرانية أن تقف في مواقيت الصلوات زمناً محدداً، وفي غرف القطار وأدلتها ما يشير إلى مواعيد الوقوف، وإذا هبط الهابطون للصلاة - كما فعلوا بجموعهم الغفيرة في محطة نيسابور - لم يهدروا الوقت في السؤال عن القبلة، بل أن سهماً مشرعاً في القضاء مكتوباً عليه كلمة (قبلة) هو الدليل إلى القبلة، فمن شاء صلى في الأرض القضاء مستدلاً بالسهم ومن شاء مشى إلى مصلى المحطة فصلى فيه، ويستوي في ذلك الرجال والنساء، فلكل مصلاه المنفرد به.

وقد يخيل للغريب العابر أن دليل القطار وسهم المحطة شكليان، وأن لا حقيقة وراء هذه المظاهر، ولكنه ما أن يبصر الصفوف تتراص نظيمة بالمصلين، حتى يرك أن ما قرأه وما أبصره كان الحقيقة الخالصة.

وما استهوتني صلاة كما استهوتني صلاة أولئك المؤمنين وهم يتزاحمون على التطلع إلى الله مستقبلين القبلة متوجهين إلى الكعبة.

هناك في محطة نيسابور في مصلاها وقف الإيرانيون يرتلون:

بسم الله الرحمن الرحيم، ويسألونه أن يهديهم الصراط المستقيم... وهناك في البر المديد، تطلعت نفوسهم إلى البيت العتيق يناجونه من وراء الأبعاد ويرنون إليه من خلف الآماد.

ولقد هفوت لأن أقف في صفوفهم وأن أرفع يدي بالقنوت كأيديهم، فما كان شيء أحب إلي في تلك الساعة من سجدات على ذلك الصعيد وركعات بين تلك الحشود...

فيا أيها المصلون في محطة نيسابور عصر اليوم الخامس عشر من ذي الحجة سنة ١٣٧٨هـ: تقبل الله صلواتكم... وغفر لكم ذنوبكم. وأجزل لكم الثواب العظيم، فلقد كنتم صورة الإيمان الخالص والتقوى الصافية.

نيسابور الحاضر

شاقني السير في أركة نيسابور، وطاب لي التجوال في أسواقها، فطقت أمشي وأمشي في البلدة التي هي اليوم قرية كبيرة يناهز عدد سكانها الثلاثين ألفاً، لقد امتدت إليها يد

التجديد فأنشئت فيها شوارع حديثة وعمرت أسواق جديدة، فإذا تعديت ذلك فأنت أمام أزقة قروية وحوانيت ريفية.

وتمضي فيها فيطلع أمامك «بازارنو»، ومعنى بازارنو، السوق الجديد، ولكن ليس في السوق الجديد إلا القديم المعرق في القدم، ولقد كان ولا شك في يوم من الأيام جديداً فتناول عليه العهد فعاد قديماً، ولم يحتفظ من الجدة إلا بالاسم فحسب، ولقد وددت لو تراءى لي القديم بعد أن رأيت الجديد، إذ لا أحسب أن وراء هذا الجديد مكاناً لقديم.

ها هنا في «بازارنو» يتجمع النجارون والحذاؤون والمنجدون. وحسبك بهذه المهن عراقية في القدم وعراقية في الجدة، وحسبك بها دليلاً على قدم هذا الجديد. . وجدة هذا القديم.

وبازارنو ككل أسواق نيسابور القديمة معقود الأعلى بعقود حجرية تظلل من الشمس صيفاً وتقيه من المطر شتاء.

وترى في نيسابور (البوابات) الخشبية الكبيرة ذات الحلقات الحديدية على ما تعده من مدن الشرق القديمة. . ترى هذه البوابات على طول الأزقة العتيقة في كل مكان.

ونيسابور مدينة الأعلام في الشعر والنثر والفقه والفلسفة والتصوف أين هي اليوم من كل ذلك؟.

لا شك أنها آخذة من النهضة الحديثة بأوفر نصيب، ولا شك بأن موجة التعليم الجديدة تمضي فيها على أغنى مثال، وإذا كنت لا أعرف إحصاء لمدارسها فحسبي أن أشير إلى (ثانوية الخيام) التي كان اسمها يلوح لنا في الطريق، وإن أشير إلى (مدرستها الفقهية) التي زرناها في بناها القديم المتهدم بعضه، والتي عرفت أن فيها ما يناهز المائة من الطلاب، بعضهم من المدينة نفسها وبعضهم من أقاليمها.

لقد حدثت طلابها، فإذا هم كثيرهم من الطلاب الدينيين يدرسون باللغة العربية، ويبدؤون دراستهم بدراسة هذه اللغة وعلومها، أنهم يفهمون العربية ويقرؤون بها، ولكن يعسر عليهم النطق بألفاظها، ولا تنطلق ألسنتهم بكلامها إلا حين ينتقلون لتحصيلهم العالي إلى النجف. ولقد رأيت واحداً ممن درس فيها ثم مضى إلى النجف وكان عائداً إلى بلاده ليتزوج ثم يعود إلى النجف، فإذا هو يبين بالعربية أحسن إبانة.

سألته أتود أن تعود بعد تخرجك من النجف إلى نيسابور؟ . . فإذا الفتى ذو مطامح بعيدة

تضيق عنها مدينته، إذ أجابني أن نيسابور بلد صغير، فأنا سأقيم في «المشهد» فهي للدين والدنيا.

وسألت في نيسابور عن الصوفية ما شأنهم اليوم وقد كانت نيسابور من أعرق مدنهم وحسبهم فيها فريد الدين العطار، فعرفت أن فيها منهم بقايا يعدون بالمئات وأنهم - والعهدة على الراوي الشيخ أحمد غرويان أحد وعاظ المدينة - لا يصلون مع الناس في المساجد العامة، بل يصلون في بيوتهم، وأن بينهم وبين الناس نوعاً من التجافي، وأنه ليس لهم في نيسابور اليوم رباط ولا خانقاه على ما هو معروف من حال الصوفيين، وأسفت إن لم يتح لي الوقت القصير أن ألقى أحداً منهم لأستزيده معرفة بأحوالهم.

وفي نيسابور بعض البهائية، كما أن فيها العديد من الأرمن النازحين إليها من أذربيجان.

ولعل من مظاهر التسامح الديني أن نيسابوريا مسلماً كان يزين دكانه البسيطة بصورة للمسيح المصلوب فيها الكثير من الفن والإبداع.

وفي نيسابور تصدر جريدة أسبوعية واحدة ذات أربع صفحات صغار اسمها «رعد خراسان» يصدرها الأستاذ هادي غازي.

والعالم النيسابوري (مؤيد ثابتي) أراد أن يعيد للمدينة بعض سيرتها في التأليف فأصدر كتاباً قيماً باللغة الفارسية عن تاريخ نيسابور.

وفي نيسابور مسجدها الجامع القديم، إن تاريخه يعود إلى سنة ٨٩٩هـ ولقد جئننا وقت صلاة والمغرب فرأينا فيه خمس جماعات لخمسة أئمة فاستدللنا أن في نيسابور خمسة فقهاء...

وعندما كنا في ظاهر البلدة مساء أبصرنا القرويين يعودون منها وقد تزودوا بحاجاتهم وانطلقوا إلى قراهم، بعض على الحمير وبعض على الخيل وبعض على الدراجات الهوائية، وكان ثلاثة رفاق يسرون معاً: اثنان على دارجتيهما وواحد على فرسه.

قبر عمر الخيام

روایتان قرأتها عن قبر عمر الخيام، وفي كل منهما ما يثير الفضول ويحفز لرؤية هذا القبر والتعرف عليه.

وإذا كانت شهرة الخيام قد طبقت الآفاق وسرت في كل عصر ومصر ما لم تسر مثله

سيرة شاعر شرقي آخر... فإن هذه الشهرة إنما كانت لأن عمر كان شاعراً من طراز خاص، فرباعيات الخيام هي التي حملت اسمه إلى كثير من اللغات، وهي التي جعلت منه ذلك الرجل المشتهر.

ولكن الحقيقة أن الشعر هو بعض مواهب الخيام، وأن للخيام مواهب أخرى تفوق موهبته الشعرية، فهو قبل كل شيء حكيم رياضي فلكي مهندس. وتغلب الشعر على الحكمة وغير الحكمة، وعرف العالم عمر الخيام صاحب الرباعيات.

قلت إنني قرأت روايتين عن قبر عمر الخيام:

صاحب الرواية الأولى هو أقرب الرواة عهداً بالخيام ومن تلاميذه المعجبين به، هو النظامي السمرقندي الذي قال أنه بعد وفاة الخيام التمس زيارة قبره فاصطحب دليلاً أخذه إلى مقبرة - الحيرة - وأشار إلى قبر عمر.

ويسترسل الراوي فيقول: إنه سمع أستاذه حجة الحق عمر الخيام يقول: «سوف يكون قبري في بقعة تلقي عليها الأشجار زهورها مرتين كل عام. وأن السمرقندي زار القبر فوجده في حوض أشجار الخوخ والكمثرى، ووجده مغطى بالنوار الذي يتساقط من تلك الأشجار، وعندئذ عرف صدق نبوءته لأن كلاً من هاتين الشجرتين تنبت أوراقها في موسم غير موسم الأولى...»

وصاحب الرواية الثانية هو الكاتب الإنكليزي هارولد لام الذي قال: - عندما كنت في إيران وجدت أن قلة من الناس تعرف قبر عمر... إلى أن يقول: وروى لي بعضهم أن الحجاج عندما يمرون بمدينة نيسابور لا يفوتهم أن ييصقوا على قبر الخيام.

بعد الروائيتين

التلميذ الوفي الذي فاته - على ما يبدو - أن يشهد موت أستاذه، وأن يشيع جنازته، ثم رأى وفاء لذلك الأستاذ أن يصطحب دليلاً يرشده إلى قبره، هذا التلميذ الوفي حفظ لنا صورة جميلة عن قبر الخيام.

ووصفه للقبر، وحديثه عنه لا يدل على أنه زاره بعد وفاة صاحبه بقليل، بل يدل على أن تلك الزيارة كانت بعد سنين قد تكون طويلة، فإلى أن يغرس الخوخ والكمثرى على القبر وإلى أن ينموا ويزهرا، لا بد لذلك من عدد من السنين غير قليل، ونفهم من هذه الرواية أن الناس عنوا بالخيام بعد وفاته وأنهم حققوا له نبوءته، أو بالأحرى نفذوا وصيته، فإن هذا

الذي يرويه السمرقندي عن لسان عمر الخيام هو أقرب إلى أن يكون وصية من أن يكون نبوءة، وإن كان الخيام قدم أورده على أسلوب النبوءة.

لقد احترم الناس إرادة الخيام، فجعلوا الأشجار تلقي زهورها على قبره في العام مرتين . .

ويهمنا أن نعرف ما هو حال القبر اليوم وإلى أي مدى ظلت نبوءة الخيام متحققة ووصيته نافذة .

لم أكن قد قررت الإقامة الطويلة في نيسابور بل كنت قد قررت أن أمضي فيها ليلة واحدة، لذلك رأيت أن أعجل بزيارة الأجداث التي لا تزال تحتفظ بها نيسابور .

احتفظت نيسابور بقبور أربعة من أعلامها وعفى الزمن على قبور الآخرين . . هؤلاء الأربعة هم الفضل بن شاذان وفريد الدين العطار ومحمد المحروق وعمر الخيام، ولما تذهب إلى قبورهم تعرف امتداد المدينة ومدى ما بلغته من اتساع الرقعة قبل أن يدهمها المغول بغزوهم المدمر . . .

خرجنا من البلدة وقد انبسطت أمامنا السهول وبدت القباب فوق حقول القمح، وبعد أن سرنا قليلاً في طريق - المشهد - تركناه إلى طريق ترابي ترجنا فيه الحفر رجاً حتى بلغنا قبر فريد الدين العطار، فإذا هو في باحة واسعة مسورة بجدران من الطين اليابس، وفي الطرف الجنوبي من جدارها الغربي بضع غرف معدة مقابر لبعض الأسر. أما القبر نفسه فيقع في الطرف الجنوبي من الباحة تحت قبة خضراء من الكاشي، وعلى القبر شاهدة عمودية كبيرة قديمة العهد نقشت على جانبها آية الكرسي، وفي وسطها أشعار صوفية فارسية، والشاهدة مستندة إلى عمود مضلع في أعلاه كتابة فيها أسماء النبي وعلي وفاطمة والأئمة الأحد عشر .

والعطار علم من أعلام الصوفية فضلاً عن منزلته العلمية والأدبية، وقد استشهد فيمن استشهدوا من أعلام نيسابور في الغزو المغولي الأول. ولنزعت الصوفية هذه، ولسوء ظن الناس بالصوفيين وشطحاتهم، قل تقدير النيسابوريين له وحبهم إياه، وبالتالي قلت زياراتهم لقبره، بل ربما انعدمت، واقتصرت على الصوفيين وحدهم، واحسب أنه لولا هذه البقية الباقية من صوفي نيسابور لزال القبر من عهد بعيد .

خلفنا العطار ومضينا في طريقنا إلى قبر الفضل بن شاذان، وكان الطريق بين حقول القمح الواسعة، وكنا نسير فوق أطلال نيسابور القديمة فتبدو حولنا آثار شوارعها الزائلة . . .

ها هي السيارة تمضي بنا قدماً، وها هم القرويون على الطريق عائدون من المدينة إلى قراهم مزودين بما ملأ «أخراجهم» وأوفر دوابهم، وها هي الدرجات تنازع الدواب السيطرة على النقل، ها هي كثيرة على الدرب ذاهبة آتية.

وما إن دخلنا القبر حتى أدركنا الفارق بين عناية النيسابوريين بالفضل بن شاذان وبين عنايتهم بفريد الدين العطار، وعرفنا فعلاً أن العطار لا يظفر إلا بعناية الصوفيين وحدهم، بينما يظفر ابن شاذان بعناية الجميع وإجماعهم على تقديره، ولا بدع فهو الفقيه الجليل صاحب الإمامين موسى الكاظم وعلي الرضا (ع).

كان القبر في باحة مسورة مزروع بعضها قمحاً، وعلى القبر شاهدة أفقية، وأرضه مفروشة بالسجاد، وعلى جدرانه بعض الستائر والزيارات المكتوبة، وفوق الضريح كتاب (مفتاح الجنان).

وفي الساحة الخارجية قبور كثيرة فوقها بلاطات صغيرة على مستوى الأرض مكتوب عليها أسماء أصحابها بعبارات عربية بحتة، فعلى أحد القبور مكتوب مثلاً: هذا مرقد مرحوم حسن ولد قربان ١٣١٢. وعلى قبر آخر: هذا مرقد مرحوم عباس علي ولد كربلائي يوسف ١٣٢٥، وعلى قبر ثالث: هذا مرقد مرحوم يوسف علي ولد حسن ١٢٨٨، إلى عدد كبير من أمثال هذه القبور.

وإذا استثنينا حذف الألف واللام من كلمة المرحوم، فالتعبير كما ترى عربي سليم.

ولكن هناك قبراً آخر لم يكتب اسم صاحبه بهذه البساطة، بل إنه قبر معتنى بمظهره، وفوق هذا فإن اسم صاحبه مكتوب بشكل طريف. فصاحب القبر كان طيباً لذلك نقش على قبره اسمه مسبوفاً بصفات تدل على ذلك، ولكن بمبالغات عجيبة لا أستطيع نقلها كلها، بل أنقل بعضها كمثال عليها:

«... مجمع كرامات النفساني والروحاني أفلاطون الدوراني وجالينوس الزماني ميرزا محمد طيب توفى سنة ١٢٣٣».

وإذا استثنينا الخطأ الوارد في كلمتي - الدوراني - و- الزماني - فإن العبارة هي الأخرى عربية.

بقي ما قاله هارولد لام عن قلة من يعرفون قبر الخيام، وعمما روي من أن (الحجاج) عندما يمرون بمدينة نيسابور لا يفوته أن يبصقوا على قبر الخيام.

أما عن الشطر الأول فيخيل إلي أنه صحيح إلى حد ما. وإما عن الشطر الثاني، فهو كلام فيه الكثير من الغلو. فالذي يظهر أنه يقصد بكلمة الحجاج زوار قبر محمد المحروق المجاور لقبر الخيام، وإطلاقه كلمة (الحجاج) على هؤلاء غير صحيح، لأن كلمة الحجاج لا تطلق إلا على الذين يقصدون مكة في موسم معين.

هؤلاء الزوار هم دائماً من الأتقياء الورعين الذين يلمون بقبر محمد المحروق في طريقهم إلى زيارة الرضا، أو يقصدون المحروق بالذات مما جاوره من البلدان، وهؤلاء لا ينسون للخيام أنه شاعر الخمرة، فلا ينظرون لقبره نظرة رضا، ولكن لا إلى الحد الذي ذكره هارولد لام، كما نرى من حديث قيم القبر الآتي.

يقع قبر الخيام في الضاحية الأخرى بعيداً عما كنا فيه، إنه فيما أسماه السمرقندي بمقبرة (الحيرة)، ولما أقبلنا عليه بدا لنا شيء لم نجد له مثيلاً من قبل لا في قبر العطار ولا في مقبره الفضل.

لقد أبصرنا هنا على أبواب قبر الخيام، الرياض والشجر والأعشاب والأزهار والأوراد، ثم أقبلنا على باب ولجناه إلى ممر عريض يتوسطه صفان من الورد المتفتح، وعلى جانبيه صفوف من الشجر الغضيب الممتد حدائق رحيبة غناء.

ومشينا في الممر تستقبلنا قبة عالية، حسينا أن الخيام يرقد تحتها، فعجبنا أن يكون للخيام مثل قبور الأولياء، وأن يجد من يعده ولياً من أولياء الله فيشيد على ضريحه مثل هذه القبة الشامخة التي توحى بأن صاحبها يزار ويقدم.

ولكن العجب زال حين عرفنا أن القبة ليست للخيام وأن نصيبه منها هو ليس إلا المجاورة، فإن صاحب القبة هو أحد أولياء الله حقاً من نسل الرسول، ويعرفه الناس باسم (محمد المحروق) وقد قدر للخيام أن يكون بعد الموت جاراً للأولياء... يضطر لزيارته من لا يفكر في زيارته.

أما قبر الخيام نفسه فيقوم إلى شرقي القبة ويفصله عنها فاصل بسيط.

وإذا كان السمرقندي يوم زار القبر قد وجده في حضن أشجار الكمثرى والخوخ، ووجد النوار يغطيه في موسمين مختلفين، فكذلك هو اليوم، ولكن باختلاف بسيط، هو أنه في عصر السمرقندي كان الشجر يحتضنه والنوار يكسوه، أما اليوم فإن الشجر يظل عليه، والنوار يشارفه، ولعله ليس من باب المصادفة أن لا يكون الزهر والورد إلا حول قبر الخيام، وأن لا يكون على قبر الفضل وقبر العطار لا شجر ولا نوار ولا ورد ولا زهر. وإذا بدا أن

العناية إنما هي موجهة إلى جوار الخيام (محمد المحروق) لا إلى الخيام نفسه، فإننا بعد أن قرأنا ما قاله السمرقندي نعتقد أن الشجر والورد قد تسلسلا على تلك الأرض منذ ذاك العصر حتى هذا العصر، وأن نبوءة الخيام عن قبره ظلت صادقة وستظل صادقة إلى ما شاء الله . .
ومن طرائف القبر قيمه العجوز^(١) المعجم بعمامة سوداء، فقد سألته رأيه في عمر الخيام، فأبى أن يصرح به، وقال بالعربية التي يحسنها قليلاً:

- غير معلوم .

ولكنني ألححت عليه في السؤال فقال:

- هو حكيم رياضي . . .

ثم أخذ يتلو بالفارسية شعراً للخيام، ثم تكلم مع رفاقنا بالفارسية فضحكوا وقالوا لي: لقد صرح برأيه، أنه لا يحب الخيام، ولما علم أنني عرفت رأيه ساء ذلك، ثم قال بالعربية: يقولون شارب الخمر فاسق .

ولما سألته هل تحفظ شعره؟ . . قال: قليلاً منه، ثم قال:

- لا لزوم لي بشعره .

ولا شك أنه متبرم باضطرابه لمجاورة - شارب الخمر الفاسق - ولكن الذي يعزبه، أنه في الحقيقة قيم قبر حفيد الرسول: التقي الورع (محمد المحروق).

ولما هممنا بالعودة قدم لي القيم دفترأ لأسجل كلمة فيه، فكتبت كلمة قلت فيها:

لقد وقفنا على قبر الخيام متغاضين عن زلاته، مكبرين لمواهبه، معجبين به محترمين لقبره، وإن كان هذا يغضب صديقنا الجديد جوار القبر السيد جعفر .

ولما قرأ القيم ما كتبت ضحك طويلاً، وبدا راضياً عن هذا القول، وكان آخر ما ودعنا

به أن هتف بي:

نسألك الدعاء . .

(١) هو في الواقع قيم قبر محمد المحروق ولكن تجاور القبرين جعله وكأنه قيم لكيهما .

1

2

3

4

5

على قبر الإمام الرضا عليه السلام

|| قال هاشم الأمين حين زار حرم الإمام الرضا عليه السلام من قصيدة:

هذا أبو الحسن الرضا وجلاله ملء الربوع
والمهرجان ومجده دقق الجموع على الجموع
السابحات على العطور الساطعات على الشموع
من مهجة حرى ومن دمع ومن خد ضروع
أو مشرق متهلل نضر التشوف والنزوع
أو هائئ قسماته صفو الوداعة في الوديع
وضجيج أفراح وأحزان وتحتان وروع
والصوت ترجيع الملائك بالصفاء وبالنصوع
والذكريات تمور بالدامي وتجأر بالوجيع
ضربت رواق محامد كالشمس قدسي السطوع
يزهو بآل محمد لا بالذليل ولا بالخنوع
أيام ناروا للكرامة واستطالوا عن خضوع
ومضوا على سنن الكرامة من شريد أو صريع
فسل القطيع أكان غير الذل جزار القطيع
بمذلة الجوعان هان الحق لا جور المجيع
ما ساد رب العبد لولا خسة العبد المطيع

ومنها:

أحمد ولك العزرا بالبيت والشمل الجميع
ما كان عهدك من (خراسان) كمعهدك في (البقيع)
ترعاكم ساسان لا نسب سوى الشرف الطبيع
وتعقكم عدنان بين الوحي والرحم الضليع
يخلو حماك لغاصب هو منه في الرحب الوسيع
وعلى بنيك مضيق ما بين عان أو مروع
لم يقصروا عن عاجزين ولم يعفوا عن رضيع
بالسيف بالتشريد بالترويع بالسّم النقيع

مشهد خراسان

على السفوح الشرقية من جبال نيسابور بمنطقة خراسان الواقعة في الشمال الشرقي من إيران تقع مدينة كبيرة عريقة في التاريخ يناهز عمرها ألف سنة هي مدينة مشهد، التي تجمع بين دقة الفن المعماري الإسلامي القديم من المساجد الفخمة والقباب المذهبة والمزينة بالقاشاني الثمين وبراعة الهندسة الحديثة من الشوارع المنسقة والمباني الشاهقة ومعالم المدينة الحاضرة. تعد مدينة مشهد في الحال الحاضر ثاني مدن إيران بعد العاصمة طهران، وهي مركز مقاطعة خراسان الغنية بالمحاصيل والمنتجات الزراعية والمعادن والثروات الطبيعية، والمهمة من الناحية الجغرافية والاستراتيجية لمحادثتها روسيا من الشمال وأفغانستان من الشرق. ومن الناحية الثقافية فإن جامعة مشهد تضم حالياً ما يقارب ألف طالب يتابعون دراساتهم في كليات الطب والعلوم وطب الأسنان والآداب والعلوم الإلهية وإلى جانب هؤلاء هنالك عشرات المدارس الدينية الفخمة التي يقطن فيها ما يزيد عن ألفي طالب يكرسون حياتهم في مدارج العلوم الدينية من اللغة والمنطق والفقه والحديث، وختاماً أصول استنباط الأحكام على أيدي فحول علماء الفقه والأصول بحيث تنتشر اليوم بعثات هذه المدارس في جميع المدن والقصبات الإيرانية من أدها إلى أقصاها.

يفد على مدينة مشهد كل عام ما يربو عن مليون نسمة من «الزائرين» من جميع الأقطار الإسلامية والمدن الإيرانية. وإن أول ما يجلب التفاتة زائر هذه المدينة المقدسة قبة ذهبية هي قبة مرقد الإمام علي بن موسى الرضا (ع) ثامن الأئمة من آل محمد.

ولنا الآن أن نقلب صفحات التاريخ إلى الوراء ونبتدى من أول يوم سجل التاريخ عن هذه الديار حبراً على ورق.

قال الحموي بمعجم البلدان^(١): «سناباد قرية بطوس فيها قبر الإمام علي بن موسى الرضا وقبر أمير المؤمنين هارون الرشيد بينها وبين مدينة طوس نحو ميل». كانت طوس حتى القرن الثالث الهجري منطقة تحتوي على قصبتين كبيرتين نسبياً هما قصبه «طابران» النبي تقع اليوم على نحو عشرين ميلاً من مدينة مشهد وفيها قبر الشاعر أبو القاسم الفردوسي محيي تراث إيران القديم وقصبه «نوغان» وهي اليوم جزء من مدينة مشهد، وهذا الجزء يبعد عن قبر الإمام (ع) ما يقارب الميل، وأما سناباد فكانت ضيعة وبستاناً فيها بقعة مقدسة سماها بعض المؤرخين بالبقعة الاسكندرية. وكانت هذه الضيعة لحميد بن قحطبة الذي كان والياً لمنطقة خراسان في أوائل الخلافة العباسية.

في سنة ١٩٢ هجرية كان رافع بن ليث بن نصر بن سيار قد شق عصا الطاعة في مرو وما وراء النهر. فتحرك الخليفة العباسي هارون الرشيد بنفسه إلى خراسان لإخماد الثورة وكان برفقته ولده عبد الله المأمون، فاعتراه المرض في الطريق ولما وصل طوس اشتد عليه مرضه وتوفي فيها سنة ١٩٣ هجرية ودفن في دار حميد بن قحطبة بسناباد (في البقعة الآنفه الذكر). وعندها أمر المأمون ببناء بقعة ومقبرة على قبر أبيه هارون وهذه البقعة عبارة عن دار مربعة الشكل محاطة بأربعة جدران ضخمة يبلغ سمك كل واحد منها ما يقرب الثلاثة أمتار وعليها قبة على النمط العباسي الذي كان آنذاك، وقبر هارون الرشيد في وسط هذه الدار، ومنذ ذلك الحين سميت هذه البقعة الهارونية.

بعد وفاة الخليفة العباسي هارون الرشيد استقر ولده عبد الله المأمون في مرو وبعد انتصاره على أخيه الأمين أراد جعل ولي عهده الإمام علي الرضا (ع) واستدعاه إلى خراسان.

ولما وصل خراسان أعلن المأمون البيعة بولاية العهد للإمام علي بن موسى الرضا وأمر بالدعاء له في المساجد والمنابر. وما أن استقر الأمر له حتى شد الرحال قادماً إلى بغداد. وعندما وصل طوس توفي علي الرضا وكانت وفاته يوم التاسع والعشرين من شهر صفر ٢٠٣ هجرية. فشيّع المأمون الجثمانى ودفنه في الجهة الغربية من قبر أبيه هارون داخل البقعة الآنفه الذكر. فسميت هذه البقعة منذ ذلك التاريخ بمشهد الرضا وأصبحت مزاراً للمسلمين يفدون إليها من كل صوب ومكان.

(١) معجم البلدان صفحة ١٤٠.

وكان في الروضة صندوقان أحدهما على قبر الإمام علي بن موسى الرضا والآخر على قبر الخليفة العباسي هارون الرشيد حتى العهد الصفوي. وقد ذكر عنهما القاضي شمس الدين ابن بطوطة الطنجي الذي زار هذه البقعة سنة ٧٢٤ هجرية إذ قال: «والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة في داخل زاوية ويجاورها مدرسة ومسجد وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشاني، وعلى القبر دكة خشب ملبسة بصفائح من الفضة، وعليه فتاديل فضة معلقة وعتبة باب القبة فضة وعلى بابها ستر حرير مذهب وهي مبسوطة بأنواع البسط وإزاء هذا القبر قبر هارون الرشيد».

كانت البقعة الرضوية منذ مدفن الإمام علي بن موسى على بساطة البناء بدون زركشة أو نقوش حتى عهد آل بويه حيث بيضوا الجدران والسقف بالجص ونقشوا عليها بعض النقوش البسيطة، وكانت كذلك حتى عهد سبكتكين والد السلطان محمود الغزنوي الذي هدم القبة بسبب التعصب الأعمى الذي كان ينفرد به وذلك سنة ٣٩٠ هجرية. وبقيت هذه الروضة على هذه الحالة حتى زمن ابنه السلطان محمود الذي ذكر عنه ابن الأثير في كامله هكذا (وجدد السلطان محمود عمارة المشهد بطوس الذي فيه قبر علي بن موسى الرضا والرشيد وأحسن عمارته وكان أبوه سبكتكين خربه وكان أهل طوس يؤذون من يزوره فمنعهم من ذلك وكان سبب ذلك أنه رأى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في المنام وهو يقول إلى متى هذا فعلم أنه (ع) في المنام وهو يقول إلى متى هذا فعلم أنه (ع) يريد عمار المشهد فأمر بعمارته. وبقيت على هذه الصورة حتى غزو التتر حيث غوا هذه المدينة وهدموا مبانيها وأحلوا بها البوار، ولكن السلطان سنجر السلجوقي في العهد نفسه أوعز إلى وزيره شرف الدين أبي طاهر ابن سعد بن علي القمي بإعادة البناء وترميم البقعة. فقام هذا بالأمر وبنى القبة من جديد وزين الجدران بالقاشاني الثمين الذي هو باق حتى الآن في القسم الأرضي من الروضة المباركة وكذا زين القبة بالقاشاني النفيس حتى العهد الصفوي.

وفي عهد الأمير شاهرخ بن تيمور كوركان قامت زوجته الملكة كوهر شاد ببناء مسجد فخم للغاية في القسم الجنوبي من المرقد المقدس وهذا المسجد الجامع من روائع الفن المعماري الإسلامي حتى الآن، وقام زوجها ببناء مدرسة في القسم الغربي من المرقد المبارك تسمى اليوم بمدرسة (بالاسر) أي فوق الرأس، وكان بين الجامع والمدرسة والبقعة الرضوية بيوت صغيرة مفصولة عن بعض غير أن الملكة كوهر شاد اشترت هذه الدور وبنّت أروقة بين هذه الأبنية وأوصلت الواحدة بالأخرى، هذه الأروقة تسمى اليوم بدار السيادة ودار الحفاظ.

وفي العهد الصفوي وضع ضريح نفيس على قبر الإمام (ع) فقد شيد في عهد السلطان طهماسب الصفوي في القسم الشمالي من الروضة أروقة تسمى اليوم: صفة شاه طهماسب ودار التوحيد. كما قام هذا بنفسه سنة ٩٣٢ هجرية بتبديل قاشاني القبة بصفائح الذهب، ولكن الأزيك عندما غزوا خراسان هدموا هذه الصفائح الذهبية وأخذوها مع غنائمهم. ومرت الأيام والليالي والحالة هذه حتى زمن السلطان الصفوي القدير الشاه عباس الكبير الذي تحرك من عاصمته أصفهان وقدم مشهد الرضا ماشياً على قدميه لترميم هذه الروضة المباركة وتوسعتها ففي سنة ١٠١٠ هجرية أعاد تغليف القبة الرضوية بصفائم الذهب وبأشر بناء القسم الأعظم من الصحن العتيق وزين داخل الروضة بالنقوش والكتابة البارزة من الجص المطلي بالأصباغ الذهبية النفيسة. ولعل أبرز كتابة موجودة في هذه الروضة هي سورة الجمعة مكتوبة بخط علي رضا العباسي أبرز الخطاطين في خط الثلث وذلك سنة ١٠١٤ هجرية وكذا شيدت في العهد الصفوي أروقة عديدة لا مجال للتفصيل عنها.

وفي سنة ١٠٨٤ هجرية حدثت زلزلة عنيفة أدت إلى حدوث شق كبير في القبة الذهبية، وانفصل من جراء هذه الزلزلة دار السيادة عن المرقد الشريف فأبشر السلطان سليمان الصفوي بترميم الروضة وأكمل هذا الترميم سنة ١٠٨٦ هجرية. ومر زمن ليس بقليل على هذا المنوال حتى عهد السلطان القاجاري «فتحعلي شاه» الذي شيد الصحن الجديد، وهو واقع في القسم الشرقي من الروضة المباركة. وفي سنة ١٢٧٥ هجرية على عهد السلطان ناصر الدين شاه القاجاري أعيد تزيين المرقد المقدس وغلقت الجدران بالزجاج المزركش والمرايا المنقوشة بقطعاعات صغيرة من المقرنص، ومنذ ذلك الحين لم يحدث أي تغيير أو تبديل أو إضافة تذكر في مباني هذه البقعة المقدسة حتى قبل عامين.

إن الذي رأى مشهد الرضا من يوم دفن الإمام (ع) حتى السنة الماضية كان يلاحظ أن بين الضريح أو دكة القبر والجدار الغربي فسحة ضيقة للغاية يبلغ عرضها حوالي ٨٠ سنتيمتراً وذلك على أثر دفن الإمام في الجهة الغربية من قبر هارون الرشيد الذي دفن في وسطن البقعة الهارونية التي بناها المأمون، وهذا الممر الضيق كان سبباً للزحام الشديد والأعياء الكثير الذي كان يعانیه الزائر حين طوافه بالقبور خاصة في السنوات الأخيرة التي بلغ فيها عدد الزائرين لقبر الإمام ما لا يقل عن خمسين ألف نسمة في الأيام المباركة وأغلب أيام الصيف. مما حدا بالمسؤولين إلى التثبيت بالمهندسين الاستشاريين الأوروبيين لتوسعه هذا الممر، غير أن النتائج كانت سلبية بعد إجراء الكشف على البناء. ولكن شاء الله أن يمن على عبد ضعيف

وينجز هذه المهمة العظيمة بيد مسلم مؤمن بعظمة صاحب البقعة مستمداً قواه من قدرة غير بشرية .

ففي سنة ١٣٨٣ هجرية قدمت طلباً إلى نائب تولية الروضة المقدسة لمنحي إجازة توسعة البقعة المباركة وتقبلت فيه تبعات هذا العمل الخطير ومسؤوليته . وبعد اللتيا والتي منحت لي هذه الإجازة وباشرت بالعمل رغم الصعوبات والعقبات العديدة حتى رفع الجدار الغربي من الروضة المباركة بعد ألف ومائة واثنتين وتسعين سنة ، وبقيت قبة وزنها يقارب ألفاً وثلاثمائة طن معلقة في الهواء بإعجاز هندسي معماري من غير أن يغلق الممر الأنف الذكر حتى ساعة واحدة ، والزائرون الطائفون بالمرقد الشريف لم يعلموا بما كان يحدث حتى ليلة التاسع من شعبان سنة ١٣٨٤ حينما شاهدوا أن الممر الضيق الذي كانوا يمرون منه قد بدل من ٨٠ سنتيمتراً بما يقارب الثمانية أمتار . وبما أن السط والتفصيل عن هذا العمل خارج عن غاية المقال فإني أكتفي بهذا القليل . كما وأحدثت أروقة جديدة من بين الجدران الضخمة التي كانت تحيط هذه البقعة والتي كانت زائدة من دون جدوى . وأهم هذه الأروقة الجديدة دار الشكر ودار التوفيق . كما وأن سقف المسجد الوجود في القسم الغربي من الروضة استبدل من الطابوق بالخرسانة المسلحة وزين من جديد بأنفس الأنواع من القاشاني، وقسم منها بالقاشاني المطعم بالحروف الذهبية البارزة من الآيات القرآنية المناسبة بالمقام .

أما مدينة مشهد فبعد مدفن الإمام علي بن موسى الرضا (ع) فقد أصبحت مزاراً للمسلمين يفدون إليها ويقطنونها ويستوطنون فيها . وأول ممن بنى سوراً لهذه المدينة هو سوري بن معتز بأمر من السلطان محمود الغزنوي وكان قطر المدينة آنذاك لا يزيد عن ميل واحد، ولكن هذا السور هدم في الغزوات العديدة التي شنّها التتر في العصور المختلفة على هذه المدينة في عهد السلطان سنجر السلجوقي الذي أعاد ترميم الروضة وبنى للمدينة سوراً أوسع من ذي قبل . وعلى ما وصفه المؤرخون كانت سعة المدينة في ذلك الحين حوالي أربعة أميال مربعة ولكن هذا السور هدم أيضاً على أثر غزوات الأتراك حتى زمن السلطان طهماسب الصفوي الذي بنى سوراً واسعاً حول المدينة كان يضم بالإضافة إلى المساكن الموجودة فيها مقداراً واسعاً من الأراضي الزراعية وذلك للاستفادة منها عند محاصرة المدينة ومنذ ذلك الزمن بدأت مدينة مشهد بالتوسع والنمو إلى أن أصبحت مساحتها المأهولة بالسكان اليوم ما لا يقل عن خمسة وعشرين ميلاً مربعاً يقطنها أكثر من ثلثمائة ألف نسمة معظمهم من أصحاب المهن والصناعات وفيها حالياً مصانع مهمة كمصنعيين للسمنت ومعامل لتعقيم الألبان وتعليب

الفواكه وما إلى ذلك من الصناعات الخفيفة والثقيلة أهمها صناعة السجاد. كما وأن موقع مدينة مشهد من الناحية الجغرافية كان سبباً لبناء أكبر محطة عالمية فيه وكذا إنشاء أوسع مطار في الشرق، ذلك بالإضافة إلى مرور الطريق الرئيسي الآسيوي في هذه المدينة.

أما من الناحية الثقافية والعلمية فإن مشهد الرضا على وجه التخصيص وطوس بالوجه الأعم كانت مهد العلوم العقلية والفقهية، والأرض الخصبة لنمو عظماء الرجال وكبار الفلاسفة والمفكرين منذ البداية حتى الحاضر. وكانت محط أنظار المتعلمين في أنحاء المعمورة، فنبغ فيها فحول العلماء من المهاجرين إليها والمتولدين بها ولنا أن نذكر على وجه الإجمال بعض هؤلاء الذين ذاع صيتهم في شرق العالم وغربه وعرفهم الصغير والكبير.

من بين هؤلاء أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي صاحب كتاب أحياء العلوم ومدرس النظامية ببغداد وحسن بن فضل بن حسن الطبرسي صاحب تفسير مجمع البيان الذي يعد من مراجع كتب التفسير. وكذا محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي المعروف بالشيخ البهائي أو بهاء الدين العاملي. ومنهم الشيخ محمد بن حسن بن علي الحر العاملي صاحب وسائل الشيعة والجواهر السنية. من مراجع كتب الحديث، وأبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الملقب بالزمخشري صاحب تفسير الكشاف وأبو جعفر محمد بن حسن الطوسي صاحب التهذيب والاستبصار وتفسير التبيان وغيرها والفيلسوف العالم نصير الملة والدين محمد بن حسن الطوسي الحكيم والفلكي المعروف، والمحدث الفقيه أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب النسائي صاحب الخصائص والسنن وكذا أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي الفقيه الشافعي وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل، والعالم اللغوي الشهير عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي صاحب كتاب فقه اللغة وبيتمة الدهر وسحر البلاغة. ثم العالم المنطقي المعروف سعد بن عمر بن عبد الله التفتازاني مصنف كتاب التهذيب في المنطق والمطول في المعاني والبيان، وأبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي المعلم الثاني، والعالم الرياضي الحكيم عمر الخيام. هؤلاء هم بعض الذين نبغوا في أرض طوس وتركوا للعالم آثاراً أبدية وذكرى خالدة يمجدهم الدهر في كل عصر من عصور التاريخ.

وأما مراكز العلم والتدريس فقد كانت في الصدر الأول المساجد الكبيرة التي كانت معهد التعليم في ساعات الصلاة، إلى أن دعت الحاجة لتأسيس المدارس حيث يمكن لطلاب العلوم السكن فيها ومواصلة البحث والدراسة في ساعات الفراغ فأُسست وشيدت مدارس

- دينية عديدة في هذه المدينة ومعظمها اليوم مأهولة بالطلاب. وأهم هذه المدارس ما يلي:
- ١ - مدرسة بالأسر (فوق الرأس) وهي أقدم مدرسة شيدت في مدينة مشهد الرضا وعلى ما ذكرناه آنفاً شيدها الأمير شاهرخ بن تيمور سنة ٨١٠ هجرية.
 - ٢ - مدرسة بزيزاد - بنتها سيدة جلييلة تسمى بزيزاد وهي من أقارب الملكة التيمورية كوهرشاد التي بنت المسجد الجامع المعروف في هذه المدينة وكانت تأسيسها ٨٢٣ هجرية.
 - ٣ - مدرسة دو درب التي بناها غياث الدين أمير يوسف خواجه بهاء أحد قادة شاهرخ التيموري وذلك سنة ٨٤٣ هجرية.
 - ٤ - مدرسة خيراتخان التي أسسها رجل خير يدعى خيراتخان سنة ١٠٥٧ هجرية.
 - ٥ - المدرسة الباقرية التي أسسها الملا محمد باقر السبزواري وهو من مشاهير علماء العهد الصفوي وصاحب كتاب الكفاية في الفقه وذلك سنة ١٠٨٦ هجرية.
 - ٦ - مدرسة النواب وهي أهم مدارس مشهد حالياً شيدها النواب أبو صالح النقيب الرضوي سنة ١٠٨٦ هجرية.
 - ٧ - مدرسة عباسعلي خان التي أسست سنة ١٠٧٧ هجرية.
 - ٨ - مدرسة حاج حسن التي شيدت في العهد الصفوي سنة ١٠٩٠ هجرية.
 - ٩ - مدرسة ميرزا جعفر وهي أكبر مدارس مشهد من حيث السعة والمساحة بناها ميرزا جعفر بن حاج محمد التقي من تجار مشهد المعروفين آنذاك وكانت سنة تأسيسها ١٠٩١ هجرية.
 - ١٠ - مدرسة رضوان التي أسست سنة ١٠٩١ هجرية.
 - ١١ - مدرسة سليمان خان التي شيدها اعتضاد الدولة سليمان خان قاجار سنة ١٢١٠ هجرية.
 - ١٢ - مدرسة إيدال خان التي أسست سنة ١٢٧٣ هجرية. وبالإضافة إلى المدارس الأئمة الذكر هناك مدارس قديمة متروكة أهمها مدرسة المستشار عليتقي ميرزا وسعد الدين ومدرسة حاجي أتاجان.
- يسكن هذه المدارس اليوم ما يقرب ألفين ومائة طالب يتابعون فيها دراساتهم، كما أن هناك عدداً كبيراً من الطلاب يسكنون خارج هذه المدارس والجميع مقسمون إلى حوزات علمية متعددة في كل موضوع من المواضيع الفقهية واللغوية والفلسفية وغيرها.

ومما يجدر ذكره أيضاً هي المكتبات العامة المهمة في هذا البلد والتي يرجع إليها الطلاب والمحققون في أبحاثهم وأعداد رسالتهم وأهمها المكتبة الرضوية وهي مكتبة واسعة النطاق مهمة للغاية، تابعة لإدارة الأوقاف الرضوية. تحتوي هذه المكتبة ما لا يقل عن سبعة وأربعين ألف مجلد، فيها حوالي تسعة آلاف وخمسمائة مجلد مخطوط من بينها كتب نفيسة جداً كالقرآن المكتوب بخط الإمام علي بن أبي طالب (ع) وكذا القرآن المكتوب بخط الإمام الحسن بن علي (ع) وهكذا بخط الإمام علي بن الحسين والقرآن الذي بخط الإمام علي بن موسى الرضا (ع). وما إلى ذلك من نفائس عديدة لا مجال لعددها في هذا المقال.

يحضر هذه المكتبة سنوياً حوالي ٢٠٠ ألف شخص للقراءة والمطالعة والمكتبة تعير الأشخاص حوالي أربعة آلاف كتاب سنوياً للاستفادة منها خارج المكتبة.

ويبدو من تاريخ وقف بعض المصاحف أن نشوء المكتبة كان في العصر الديلمي. وفي عام ٦٨١ كانت حافلة بالكتب كما يدل عليه ما ذكر على ظهر كتاب روض الجنان الموقوف على المكتبة.

ولما هاجم الأوزبيكون المشهد ودخلوه كانت المكتبة حافلة بمجموعة من المصاحف بخطوط الأئمة وخطوط الكتاب المبدعين المعروفين فضلاً عن الكتب العلمية باللغة العربية واللغة الفارسية مما لا يحصى. فنهب الأوزبيكون تلك الكتب فتلف بعضها وبيع بعضها وذهبت المكتبة.

ولما قضى الصفويون على الفتنة الأوزبكية وأعادوا إنشاء المكتبة صار العلماء يوقفون عليها كتبهم وفي طليعتهم بهاء الدين العاملي.

وفي عهد نادر شاه الأفشاري نقل إليها المكتبة الملكية الصفوية التي كانت في أصفهان وتولت العناية بها حتى العصر الحاضر حيث شيدت بنايتها الضخمة المكونة من ثلاث طبقات. وبالإضافة إلى هذه المكتبة الفخمة هنالك مكتبات أخرى كمكتبة جامع كوهرشاد ومكتبة مدرسة النواب ومكتبة مدرسة ميرزا جعفر ومكتبة جامعة مشهد ومكتبة المعارف العامة وما شاكلها مما له الأثر النافع في تثقيف الجيل الحاضر.

أما من حيث العلوم الجديدة فإن لمشهد مكانة مرموقة بين الأوساط العلمية والثقافية، ففيها جامعة تضم خمس كليات: كلية الطب، كلية طب الأسنان، كلية العلوم، كلية الآداب، وكلية الإلهيات والعلوم الإسلامية، وتعد العدة الآن لتأسيس كلية الزراعة وعدد طلاب هذه الكليات في الحال الحاضر حوالي ألف طالب وطالبة. وبالإضافة إلى هذه الجامعة هنالك

معهد مهني زراعي ومعهد للتربية والتعليم كل ذلك على أثر حاجة هذه المدينة لتوسعها السريع وتقدمها المتواصل^(١).

وجود مدينة مشهد:

يرجع وجود مدينة مشهد إلى جذور دينية تتعلق بمرقد الإمام علي بن موسى الرضا (ع) حيث كان هذا المرقد سبباً في توسعها وازدهارها.

في الأصل كان اسم مشهد (سناباد)، وسناباد هذه إحدى توابع القصبة أو المدينة الصغيرة المسماة بـ(نوقان) حتى عام ٢٠٢ هـ (أو ٢٠٣ أو ٢٠٤ هـ) حيث دفن الإمام الرضا (ع) فيها في هذه السنة وتحول اسمها إلى مشهد، وحظيت باهتمام الناس خلال فترة غير طويلة.

ليس ثمة شك في أن ازدهار هذه المدينة ازداد في عهد الصفويين الذين اهتموا كثيراً في الترويج لمذهب التشيع، ولكن قبل وصول هذه السلالة إلى السلطة وحتى في القرون الأولى التي تلت وفاة الإمام الرضا (ع) كان الناس حتى الملوك السنة يهتمون بهذا المرقد وساهموا بتردهم ومجاورتهم وتعميرهم له وإنفاقهم عليه في أحيان أخرى في توسيع المدينة وزيادة أهميتها وعدد سكانها.

يذكر بعض المؤرخين^(٢) أن السلطان محمود الغزنوي وعلى رغم تعصبه على الشيعة، أمر عامله على نيسابور في عام ٤٠٠ هـ بتعمير (مشهد) أثر رؤيا رآها في المنام. وبعد هذا التاريخ بحوالي قرن ونصف أي في زمن السلطان سنجر ووزارة الخواجة نظام الملك قام عامل السلاجقة على مرو شرف الدين أبو طاهر القمي بتجديد بناء مشهد^(٣).

وفي عام ٨٠٩ هـ قدم شاهرخ الكورگاني إلى مشهد فكرم سادات وخدام البقعة المباركة^(٤). وبعد ذلك بفترة قامت زوجته گوهر شاداغا ببناء مسجد جامع في جوار المزار المبارك سمي باسمها گوهر شاد) وهو مشهور في مشهد، ثم بادر شاهرخ في غضون ذلك إلى تزيين الحرم الرضوي^(٥).

(١) المهندس محمد علي الشهرستاني.

(٢) (في مطلع الشمس) تأليف محمد حسن خان صنيع الدولة، الجزء الثاني صفحة ٧ وصفحة ٢٨٢.

(٣) مطلع الشمس، الجزء الثاني، صفحة ٥١.

(٤) نفس المصدر، الجزء الثاني، صفحة ٢٨٤.

(٥) نفس المصدر، الجزء الثاني، صفحة ١٥.

وهكذا تضافرت العوامل الدينية والمعنوية وربما بعض العوامل الأخرى مثل كثرة الخيرات فيها وخصوبة أراضيها على توسيع مشهد باستمرار بحيث وصفها ابن بطوطة الذي زارها في عام ٧٣٤هـ بأنها مدينة كبيرة وكثيرة السكان. وذلك على الرغم من مجاورتها لمدينة طوس المشهورة والكبيرة التي وصفها ابن بطوطة إنها من أكبر مراكز خراسان.

وبناء على هذا، يبدو أن قول ياقوت الحموي (المتوفى عام ٦٢٥) في معجم البلدان إن سناباد قرية من قرى طوس وعدم ذكره لمشهد يبدو أن ذلك لم يكن يشتمل على نوع من الدقة، وأغلب الظن أنه اقتبس حديث من الكتب الجغرافية المصنفة في القرنين الثالث والرابع، مثل المسالك والممالك تأليف الإصطخري وغيره.

ومن الطبيعي أننا لا يمكن أن نتغافلا عن دور حملة تيمور على مدينة طوس وتدميره لها في أواخر القرن الثامن في إعمار مدينة مشهد وازدهارها.

مذهب أهالي مشهد إلى ما قبل الصفويين :

كان المذهب الغالب على سكان إيران في العصور التي سبقت الصفويين هو المذهب السني، ولم تكن مشهد خارجة على هذا الوضع رغم وجود مرقد أحد أئمة الشيعة فيها. من الطبيعي أن وجود مرقد الإمام علي بن موسى الرضا (ع) في مشهد جذب إليها العديد من الشيعة إلا أنهم كانوا يشكلون أقلية بالنسبة إلى الأغلبية السنية، وكان في بعض الأحيان يتعرضون لضغوط دينية من قبل الحكام السنة.

وعلى الرغم من هذه المعاملة كان وجود مرقد الإمام الرضا (ع) في هذه المدينة حافظاً كبيراً لجذب الشيعة إليها فكانت مركزاً لتجمعاتهم.

ويقرن ابن بطوطة أهل طوس بأهل النجف وكربلاء والبحرين وقم وغيرها ويقول هم من الشيعة الغلاة.

يظهر من ذلك أن مشهد كانت في الفترة التي سبقت الحكم الصفوي مركزاً لتجمع الشيعة.

الأوضاع العلمية في مدينة مشهد قبل العهد الصفوي :

لا يتوفر لدينا شرح وافٍ عن الأوضاع العلمية لهذه المدينة في فترة ما قبل العهد الصفوي. ولكننا نعرف أن عالماً كبيراً مثل الشيخ أبي علي الطبرسي (المتوفى عام ٥٤٨هـ) الذي يعتبر من أكبر علماء الشيعة وصاحب تفسير كبير في عشرة مجلدات، كان ساكناً في

هذه المدينة وأنهى فيها مراحل دراسته، وفي هذا قرينة على أن الأوضاع العلمية في هذه المدينة كانت تزدهر تزامناً مع ازدهار أوضاع المدينة وتطور عمرانها، بحيث كانت تخرج علماء وفضلاء مشاهير.

وخلال وصفه لحرم الإمام علي بن موسى (ع) يتحدث ابن بطوطة عن مدرسة ومسجد مجاورين لهذا الحرم الشريف، وبناء على هذا فإن (مشهد) كانت تشتمل على مدرسة خلال زيارة ابن بطوطة لخراسان في عام ٧٣٤هـ ووجود المدرسة قرينة على وجود حوزة علمية في هذه المدينة.

ومن القرائن الأخرى التي تؤكد وجود حوزة علمية قبل القرن العاشر الهجري وجود مدرستين هما: مدرستا بريزاد ودودر، حيث بنيت الأولى تزامناً مع بناء مسجد گوهرشاد الجامع (في حدود عام ٨٢١هـ) بينما بنيت الثانية في عام ٨٤٣هـ.

وينبغي هنا أن نتذكر أن المحيط العلمي في مشهد كان يخضع للمحيط الاجتماعي والديني السائد فيها آنذاك حيث كان المذهب السني هو الشائع فيها، ومن ثم كان أسلوب العلماء في تدريسهم للمسائل الفقهية والأصول وعلم الكلام والتفسير يختلف عن أسلوب علماء الشيعة في تدريسهم لهذه العلوم. ولعل في تفسير مجمع البيان، أي نقله لأقوال المفسرين السنة في ذيل أغلب الآيات خير شاهد على استيلاء الفكر السني على الحوزة العلمية في مشهد.

تأسيس الحوزة العلمية في مشهد الحوزة العلمية منذ زمن الصفويين حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري :

ذكرنا آنفاً أن الاتجاهات الدينية للحكومات الصفوية ساهمت إلى حد بعيد في إعمار بعض المدن مثل مشهد، التي كان أصل وجودها وتكوينها مرتبطاً بعامل ديني شيعي وهو وجود مرقد ثامن أئمة الشيعة. بحيث يذكر صاحب كتاب زينة المجالس^(١) أن مشهد في غاية العمران والازدهار في زمن الملك طهماسب الأول أي في بدايات الحكومة الصفوية.

(١) هو من تأليف مير مجد الدين محمد، يرجع تأليفه إلى عام ١٠٠٤هـ وتفتقد هذه النسخة المطبوعة إلى ترقيم صفحاتها، وقد اختص الفصل الثاني من الجزء التاسع في بيان بعض خصوصيات المدن، والموضوع المذكور أعلاه موجود في هذا الفصل تحت موضوع (طوس).

وعلى نفس مسار التطور والازدهار هذا، أخذت الحوزة العلمية فيها تزدهر بالتدريج حتى أضحت في عداد كبريات الحوزات الشيعة المعروفة في عالم التشيع .

في الحقيقة لا يمكننا تحديد بداية دقيقة لتأسيس الحوزة العلمية في مشهد، ولكن من خلال ملاحظة الفصل السابق حيث وردت الإشارة إلى هيمنة المذهب السني على المحيط العلمي في مشهد حتى ما قبل القرن العاشر الهجري، أقول يمكننا أن نعرف من ذلك أن بداية الحوزة كانت متزامنة مع ظهور الدولة الصفوية أي مع بداية القرن العاشر .

يبدو أنه معة وجود الاهتمام الكبير الذي حظيت به (مشهد) في القرن العاشر لموقعها الديني المتميز، إلا أن حوزتها العلمية لم تزدهر كثيراً ولم يشتغل في التدريس فيها علماء معروفون وربما كان ذلك سبباً في اقتصار مدارسها العلمية على مدرستين أو ثلاثة مدارس قديمة ولم تبنى فيها مدرسة جديدة .

من علماء مشهد المعروفين في ذلك القرن، الملا عبد الله الشوشترى (المتوفى عام ٩٩٧هـ) الذي قتل في هرات بيد الإزبك . والعالم الآخر هو مولانا محمد رستماداري (المتوفى في بداية القرن الحادي عشر الهجري) وقد وردت رسالته إلى علماء الإزبك بالتفصيل في مجالس المؤمنين ومطلع الشمس وهي دليل على مدى علمه وقدرته العلمية .

تغيرت أوضاع الحوزة في القرن الحادي عشر حيث اشتغل بالتدريس فيها العديد من مشاهير العلماء والمدرسين وبنيت فيها عدة مدارس، وأخذ الطلاب يتجمعون فيها من كل حذب وصوب .

ويمكن أن نعتبر القرن الحادي عشر الهجري بداية أهمية وعظمة الحوزة العلمية في مشهد، خصوصاً في النصف الثاني من هذا القرن، حيث أصبحت حوزة مشهد من حيث كثرة العلماء والمدرسين في عداد حوزات الشيعة المهمة الأخرى، فراح الطلاب يقبلون عليها من المدن الأخرى، وانتقل إليها بعض مشاهير العلماء مثل مولانا محمد باقر المعروف بالمحقق السبزواري (مؤلف كتابي: الذخيرة والكفاية في الفقه) الذي كان يشغل في أصفهان مقام الرئاسة العلمية ويلقب بشيخ الإسلام وكانت هجرته إلى مشهد في أواخر القرن الحادي عشر، وبادر فيها إلى تجديد مدرسة (السميعية) القديمة التي عرفت بعد قدومه بالباقرية ولا تزال إلى الآن تحمل نفس هذا الاسم^(١) - وياشر بنفسه بالتدريس فيها، وتربية الطلاب .

(١) ورد الحديث عن المدرسة الباقرية في مطلع الشمس الجزء الثاني، صفحة ٣٩٠، وفي فردوس =

يرجع تاريخ بناء أغلب المدارس المعروفة والمهمة في مشهد في النصف الثاني من هذا القرن (القرن الحادي عشر)، حيث بنيت سبع من أشهر مدارس مشهد خلال فترة قصيرة بين عام ١٠٥٧هـ وعام ١٠٩١هـ وفي نفس هذه الفترة جدد بناء ثلاث مدارس قديمة هي: بيريزاد ودودر وبالأسر (والمدارس السبعة هي: خير اتخان، عباسقليخان ميرزا جعفر، نواب، حاج حسن، فاضلخان وبابين با والمدرستان الأخيرتان ثم هدمهما في شق الطرق المحاذية للحرم والتعميرات الداخلية للحرم في عام ١٣١٠هـ.

وإذن فقد بلغت حوزة مشهد أوجها وذروتها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، ومن أشهر علماء مشهد في هذا القرن هو الملا محمد باقر المعروف بالمحقق السبزواري (المتوفى عام ١٠٩٠هـ) والعالم الآخر هو الشيخ محمد الحر العاملي صاحب كتاب (وسائل الشيعة) المعروف (توفي عام ١١٠٤هـ) وكلا هذين العالمين أتما دراستهما في مدن أخرى ثم أقاما في مشهد للاشتغال بالتدريس في مدارسها العلمية.

وليس لدينا اطلاع كامل ودقيق عن أوضاع الحوزة العلمية في مشهد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ولكن يبدو أن هذه الحوزة بعد ازدهارها السريع في القرن الحادي عشر وخصوصاً في النصف الثاني منه، لم تستطع أن تحافظ على مسيرتها التصاعدية وتكاملها واحتلالها مكانة مرموقة بين حوزات الشيعة المهمة، ولعل ظهور الحوزات العلمية في أصفهان بمدارسها المهمة وأساتذتها الكبار وشهرتها الواسعة في المجتمع الشيعي كانت السبب في التوقف الذي اعترى حوزة مشهد.

وأغلب الظن أن حوزة مشهد كانت خلال هذين القرنين تمثل حوزة للمقدمات أي أن الطلاب بعد أن يتخطوا بعض المراحل العلمية يرحلون إلى أصفهان أو النجف الأشرف لإكمال دراستهم في حوزاتها.

يتحدث صاحب كتاب «تاريخ علماء خراسان» في معرض حديثه عن أحوال مولانا محمد صالح الترشيزي (المتوفى عام ١١٦٠هـ) والذي يصفه بأنه من علماء خراسان الكبار في عهده وله مكانة شامخة في المعقول والمنقول، عن هذا العالم يقول: «اتقن المبادئ في

= والتواريخ ضمن الحديث عن أحوال الملا محمد باقر المحقق السبزواري، ولكن يبدو من الكتابة المثبتة على بوابة المدرسة، أن بناء هذه المدرسة كان بإذن من المحقق السبزواري وعلى نفقة الملا محمد سمیع .

خراسان ثم رحل إلى أصفهان وأمضى فيها فترة طويلة في التلمذة على أيدي كبار الأساتذة وفي تحصيل الأخبار ودراية الآثار وسائر الفنون الأخرى...» ويتحدث بمثل هذه العبارات عن علماء آخرين من مشهد مثل الميرزا فضل الله الطبسي (المتوفى عام ١٢٤٠هـ) ومولانا محمد جعفر الترشيزي (المتوفى عام ١٢٤٤هـ) ومولانا محمد صالح التريتي المتوفى عام ١٢٤٦هـ) ومولانا محمد السبزواري (المتوفى عام ١٢٤٨هـ) وعن عدد آخر.

وإذن فليس هناك شك في أن كبار علماء مشهد كانوا يدرسون مقدمات العلوم في مشهد ثم رحلوا إلى النجف الأشرف أو أصفهان لإكمال دراستهم في حوزاتها العلمية حتى إذا فرغوا من دراستهم عادوا إلى موطنهم الأصلي.

وحتى لو فرضنا أن المقصود بخراسان في العبارة السابقة لا يقتصر على مشهد وحوزتها، بمعنى أن كل شخص من الأشخاص المذكورين أتم دراسة المقدمات في الحوزة العلمية لمدينته، فإن ذلك يؤيد كون الحوزة العلمية في مشهد مقتصرة في ذلك الوقت على تدريس المقدمات، حيث أن وجود طلاب من مدن خراسان الصغيرة مثل ترشيز وطبس ورتبوسبزواري في أماكن قريبة من مشهد، ثم ذهابهم إلى الحوزات العلمية البعيدة مثل حوزة النجف وأصفهان لإكمال دراستهم فيها للدليل كبير على أن حوزة مشهد آنذاك كانت مقتصرة على تدريس المقدمات وليس لها شهرة ومكانة تينك الحوزتين.

ورد في كتاب «تاريخ علماء خراسان» - الذي يتضمن شرح أحوال العديد من علماء خراسان في القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر - الحديث عن العديد من الأشخاص الذين كانوا يسكنون في مدن صغيرة في خراسان وأتموا دراستهم في هذه المدن مثل تون (فردوس) وترشيز (كاشمر) وسبزواري دون أن يرحلوا إلى مشهد. وإذا ما عرفنا أن في ذلك الوقت كانت أكثر المدن تحتوي على حوزات تتناسب مع حجمها ووضعها وكان العديد من العلماء وكبار الفقهاء يعيشون في أكثر المدن، إذا عرفنا ذلك يتبين لنا أن الحوزة العلمية في مشهد لم تكن تحتل مكانة مرموقة تجعل من الهجرة إليها أمراً لا بد منه، وتمكنها من تخريج علماء بلاد خراسان.

أشهر علماء مشهد في القرن الثاني عشر هم: الشيخ حسين المدرس (إمام الجمعة المتوفى في أواخر القرن الثاني عشر الهجري) والشيخ محمد، مدرس الحضرة الرضوية، والسيد محمد البزواري، (إمام الجمعة المتوفى عام ١١٩٨هـ).

ازداد عدد العلماء الكبار في القرن الثالث عشر، وفاق ما كان عليه في القرن الثاني

عشر، ولكن ذلك لا يعتبر دليلاً على ازدهار الحوزة العلمية في مشهد خلال هذا القرن، لأن أغلب هؤلاء العلماء الكبار كانوا قد أنهوا دراساتهم العليا في الحوزة العلمية في النجف الأشرف التي بلغت في ذلك الوقت أوج عظمتها وازدهارها أو في الحوزة العلمية في أصفهان، ولم يدرسوا في مشهد إلا مبادئ العلوم ومقدماتها. وحتى عندما عاد هؤلاء العلماء إلى بلادهم في مشهد، اشتغل أكثرهم في الأمور الشرعية وأداء الوظائف الاجتماعية بسبب توسع المدينة المضطرد وازدياد عدد سكانها، ولم يشتغل منهم بالتدريس إلا عدد محدود.

ويبدو لنا من وصف السائح الإنجليزي فريزر الذي كانت زيارته في أواسط القرن الثالث عشر الهجري بين عامي ١٨٢٦م و١٨٢٨م وصفه للحوزة العلمية في مشهد ووضع المدارس فيها^(١)، إن هذه الحوزة لم تكن آنذاك في مكانة مرموقة، وعدد طلابها قليل بالنسبة إلى عدد العلماء فيها، حيث يذكر فريزر أن عدد الطلاب الذين كانوا يشغلون أربع عشرة مدرسة لم يكن يتجاوز الخمسمائة طالب، بينما يذكر مسيو كنولي الذي زار مشهد في نفس هذا الوقت تقريباً أن عدد العلماء فيها يقارب المائة شخص^(٢).

أشهر علماء مشهد في أوائل القرن الثالث عشر هو الميرزا مهدي، المعروف في خراسان باسم الشهيد الثالث، حيث كان يحتل مكانة علمية مرموقة في جميع المدن الإيرانية ويعد من كبار علماء الشيعة، إضافة إلى مقامه الديني وزعامته ونفوذه في مشهد ذاتها.

درس في محضر كبار علماء النجف الأشرف حتى قطع شوطاً بعيد في دراسته، ثم عاد إلى مشهد واشتغل فيها بأداء الوظائف الدينية وإمامة صلاة الجمعة ثم استشهد على يد نادر ميرزا الأنشاري في عام ٢١٨هـ.

ومن العلماء المعروفين في هذا القرن:

الحاج الميرزا هدايت الله الشهيدي المتوفى عام ١٢٤٨هـ، محمد علي فديشه أي. والحاج الميرزا المعصوم الرضوي (المتوفى عام ١٢٣٢هـ) السيد محمد القصير، صاحب العديد من الكتب الفقهية (المتوفى عام ١٢٥٥هـ).

والحاج الميرزا حسن الرضوي (المتوفى عام ١٢٧٨هـ). والحاج الميرزا عناية الله

(١) مطلع الشمس، المجلد الثاني، صفحة ٢٥ - ٢٩.

(٢) مطلع الشمس، المجلد الثاني، ص ٣٨.

الأبرسجي (المتوفى عام ١٢٨١هـ). والميرزا نصر الله المدرس الشيرازي (المتوفى عام ١٢٩١هـ) والحاج الميرزا نصر الله الترتي (المتوفى عام ١٢٩٨هـ).

وفي القرن الرابع عشر الهجري لم يختلف وضع الحوزة العلمية في مشهد كثيراً عما كان عليه في القرنين السابقين، وبقيت الأوضاع العلمية فيها على نفس المستوى.

زار محمد حسن خان صنيع الدولة مشهد في عام ١٣٠٢هـ وخصص لها المجلد الثاني من كتاب مطلع الشمس، وهو يذكر في كتابه هذا وجود ثماني عشرة مدرسة ويعدد أسماءها إلا أنه لا أثر لبعض هذه المدارس في أيامنا هذه، ثم يضيف قائلاً: ليس هناك مدينة من مدن البلاد المحروسة - عدا أصفهان - تحتوي على مدارس بمثل بناء وازدهار مدارس مشهد. ومن العلماء المعروفين في هذا القرن:

الشيخ محمد رحيم البروجردي صاحب كتاب جوامع الكلم في شرح قواعد العلامة (المتوفى عام ١٣٠٩هـ).

والشيخ محمد تقي البجنوردي المعروف بزهده وتقواه (المتوفى عام ١٣١٤هـ).
الشيخ إسماعيل الكوهسرخي، الذي كان زعيماً مطلقاً للحوزة العلمية في حينه (المتوفى عام ١٣٢٣هـ).

والشيخ حسن علي الطهراني (المتوفى عام ١٣٢٥هـ) والذي كان أحد تلامذة الميرزا الشيرازي الكبير.

الوضع العلمي للحوزة من القرن الحادي عشر حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري

تظهر القرائن الموجودة أن الحوزة العلمية في مشهد لم تكن تتميز بتدريس فرع خاص من فروع العلوم الإسلامية، وإنما كانت تدرس جميع فروع الفقه والحكمة والأدب بصورة متساوية تقريباً سواء في القرن الحادي عشر، حينما كانت في ذروة ازدهارها أو في القرون التالية. حيث كان أكثر علماء مشهد الكبار يدرسون الحكمة والأدب وحتى الرياضيات في بعض الأحيان ويدرسون الكتب الدراسية الموضوعية لهذه المواضيع إضافة إلى دراستهم الفقه، وكان الطلاب يدرسون العلوم العقلية والنقلية بصورة متوازية تقريباً^(١).

(١) راجع كتاب «تاريخ علماء خراسان» تأليف الملا عبد الرحمن المدرس الشيرازي، صفحات =

وينبغي أن نعرف أن المادة الأساسية التي كانت تدرس في الحوزة العلمية في مشهد هي مادة الفقه، مثلها في ذلك مثل سائر الحوزات العلمية الأخرى، حيث كان يتركز أغلب اهتمام الأساتذة والطلاب على هذه المادة، ولذلك نرى في كتاب «تاريخ علماء خراسان» أسماء بعض الأشخاص ممن لم يكن لهم اطلاع في فروع العلوم الأخرى أو على الأقل لم يكونوا معروفين في هذه الفروع.

ولكن أغلب الظن أن هذه الحوزة خرجت على القاعدة المألوفة، وذلك في أوائل القرن الرابع عشر الهجري وأواخر القرن الثالث عشر، حيث اهتمت بالأدب والعلوم العقلية أكثر من الفقه والعلوم النقلية كما سنرى فيما بعد وجود أساتذة من كبار الأدباء وعدد من أساتذة الحكمة يشتغلون بالتدريس في هذه الحوزة، ومن الطبيعي أن وجودهم يستلزم نصف قرن من وجود هذه العلوم في الحوزة العلمية في مشهد.

وقد زار كاتب مطلع الشمس مشهد في عام ١٣٠٢هـ وشاهد أوضاع حوزتها عن كثب، فكتب عن هذا الأمر قائلاً: «يغلب على طلابها ذوق العلوم المعقولة والأدب»^(١).

الحوزة العلمية في مشهد خلال الفترة السابقة

ذكرنا آنفاً أن الوضع العام والمستوى العلمي للحوزة العلمية في مشهد لم يشهد تغييراً ملحوظاً في السنين الأولى من القرن الرابع عشر الهجري عما كان عليه الحال في القرون الماضية ولكن مع تعاقب السنين أخذت أوضاع الحوزة تخطو نحو الازدهار وتزداد أهميتها بالتدرج، بحيث أصبحت هذه الحوزة في أواخر النصف الأول من هذا القرن في عداد الحوزات المهمة المتكاملة.

وإذا أمعنا النظر في هذا التحول، نرى أن ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتباطؤ عجلة الحوزة العلمية المعروفة في أصفهان وأقول مركز العلوم الإسلامية فيها، الذي بدأ يخبو وهجه يوماً

= ٤٦، ٥٠، ٥١، ٥٤، ٥٥، ٦٣، ٧٢، في شرحه حسب الترتيب للأشخاص التالية أسماؤهم: ميرشاه قاسم السبزواري المتوفى في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، والشيخ حسين المدرس المتوفى في أواخر القرن الثاني عشر أيضاً، وأبو محمد المدرس المتوفى عام ١٢٤٠هـ ومولانا محمد رضا الترشيزي المتوفى عام ١٢٠٠هـ، والميرزا أبو طالب المتولى باشي المتوفى عام ١٢١٦هـ والميرزا الشهيد مهدي المتوفى عام ١٢١٨هـ، ومولانا إسحاق الترتبي المتوفى عام ١٢٣٧هـ ومولانا محمد علي الفديشه أي وغيرهم.

(١) مطلع الشمس، ص ٢٤٢.

بعد آخر بعد زوال العهد الصفوي، كما كان الارتباط وثيقاً بين ازدهار هذه الحوزة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وضعف الحوزة العلمية في مشهد في نفس الفترة.

وكما أسلفنا سابقاً، فإن الحوزة العلمية في مشهد أصبحت في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر، حوزة متكاملة، حيث كان طلاب العلوم الدينية يهاجرون إليها من مدن أخرى، وكانت أغلب مدارسها عامرة وملئية بالطلاب، وينقل البعض أن عدد طلابها بلغوا ألفي طالب وكان فيها العديد من كبار الأساتذة، وخصص لكل فرع من فروع الآداب والفقه والأصول والحكمة حوزات دراسية كبرى وبعبارة موجزة، خرجت هذه الحوزة من حالة الركود وبدأت تخطو نحو التكامل.

في الحقيقة إن حوزة مشهد لم تصل في الفقه والأصول إلى مستوى حوزة النجف، فقد كان طلابها يهاجرون إلى النجف الأشرف لإكمال دراسة الفقه في حوزاتها وإرواء غليلهم في حلقات كبار أساتذتها. ولذلك فإن حوزة مشهد ظلت خاضعة لنفوذ حوزة النجف، وعندما أسست الحوزة العلمية الكبرى في قم عام ١٣٤٠هـ أخضعت حوزة مشهد لنفوذها، ولكن ليس ثمة شك في أن حوزة مشهد ظلت تحتل المرتبة الأولى في الآداب والعلوم المعقولة بين حوزات الحوزات الشيعية الأخرى، ولم يكن هناك أحد ينافس أساتذة هذين الاختصاصين في حوزة مشهد في مجال تخصصهم.

كان كرسي الأدب في هذه الفترة مخصصاً للشيخ عبد الجواد الأديب النيسابوري (المتوفى عام ١٣٤٤هـ) وهو شاعر حر كريم، أعطي دروساً مهمة في مدرسة نواب، ودرس الكتب الأدبية لتلامذته، بأسلوب رائع، وتخرج على يده العديد منهم، ويوجد الآن بعض هؤلاء التلاميذ ممن يفتخرون بدراساتهم على يده. وحوزة مشهد العلمية مدينة لهذا الأستاذ الكبير في شهرتها وتفوقها في فرع الأدب، ولا يزال هذا التفوق وهذه الشهرة محفوظين إلى الآن.

ومن أساتذة هذه الحوزة المعروفين بتدريس الحكمة والفلسفة، ثلاثة أشخاص بارزون

هم:

أولاً: ملا محمد المعروف بالحاج الفاضل وهو من طلاب الميرزا الشيرازي وكان معروفاً في الفقه والفلسفة، ويشغل زعامة الحوزة العلمية في مشهد، وقضاءها الشرعي، وقد كان يدرس كتب الفلسفة المتداولة، بالإضافة إلى تدريسه الفقه والأصول، وكانت وفاته في عام ١٣٤٢هـ.

ثانياً: الميرزا العسكري الشهيدي المعروف بأقا بزرك وهو فيلسوف معروف وأستاذ فطحل للفلسفة في مشهد، حيث أمضى ثلاثاً وعشرين سنة في تدريس الحكمة في حوزة مشهد، وكان أكثر طلاب الفلسفة يحضرون درسه، وقد توفي في عام ١٣٥٥هـ.

ثالثاً: الشيخ أسد الله اليزدي وهو حكيم كبير، لم يتزوج طوال حياته، وكان يتخذ من المدرسة مسكناً له، ويربي الطلاب في محضر درسه، وقد توفي في عام ١٣٤٢هـ.

إثر وجود هؤلاء الأساتذة الثلاثة الكبار، أصبحت الحوزة العلمية في مشهد، مهداً للحكمة الإلهية ومركزاً لتدريس الفلسفة، واحتلت بذلك مركزاً مرموقاً بين الحوزات العلمية الشيعية المعروفة.

ولكن كما ذكرنا فإن المنزلة الفقهية في حوزة مشهد كانت أقل منها في حوزة النجف، ولذلك كان العديد من الطلاب المتعطين لطبي مراحل علمية عليا يرحلون إلى حوزة النجف التي كانت مركزاً لاجتماع العلماء والأساطين. ولذلك اكتفى بعض كبار أساتذة حوزة مشهد بتدريس دروس السطوح رغم تخطيهم لمراحل علمية عالية، فمثلاً كان السيد علي السيستاني (المتوفى عام ١٣٤٠هـ) وهو من كبار علماء مشهد يدرس السطوح العالية وكان السيد عباس الشاهرودي (المتوفى عام ١٣٤١هـ) المعروف باتقانه الكتب الفلسفية ومباني الحكمة، يدرس شرح للمعة، وحتى الحاج فاضل المذكور كان يدرس بعض دروس السطوح رغم تصدره للزعامة العلمية والاجتماعية.

لعل دخول دروس البحث الخارج بالمعنى المتعارف عليه الحوزات الشيعية المعروفة إلى الحوزة العلمية في مشهد، كان لأول مرة في حدود عام ١٣٣٥هـ، حيث باشر بإعطاء البحث الخارج اثنان من الأساتذة الكبار الذين أنهيا دراستهما في حوزة النجف وحضرا دروس أشهر الأساتذة المعروفين فيها آنذاك وهما:

١ - السيد حسين القمي الذي قدم إلى خراسان في عام ١٣٣١هـ، واستقر في مشهد ليشغل فيها بتدريس الفقه والأصول، وكان يعد من كبار زعماء وأساتذة الحوزة العلمية في مشهد حتى عام ١٣٥٤هـ، حين أبعدهته الحكومة المركزية إلى العراق، ثم أصبح مرجعاً عاماً للتقليد بعد بضع سنوات من رحيله إلى العراق، وكانت وفاته في عام ١٣٦٦هـ.

٢ - الحاج الميرزا محمد الكفائي الخراساني المعروف بأقازاده (وهو ابن الملا محمد كاظم الخراساني المتوفى عام ١٣٢٩هـ)، وقد كان له دروس مهمة في حوزة مشهد تخرج

منها العديد من الفضلاء، وكان يعد من كبار زعماء وعلماء هذه الحوزة حتى أبعدهت الحكومة المركزية إلى يزد في عام ١٣٥٤هـ، وكانت وفادته في عام ١٣٥٦هـ.

ويأتي بعد هذين العالمين، مدرس البحث الخارج المعروف في حوزة مشهد وهو الشيخ مرتضى الآشتياني (المتوفى في عام ١٣٦٥هـ) وهو من علماء الطراز الأول في هذه الحوزة.

ومن أشهر أساتذة السطوح في تلك الفترة: الشيخ حسن البرسي (المتوفى في عام ١٣٥٣هـ) والشيخ حسن الكاشي، والشيخ حسن بايين الخياباني المتوفى عام ١٣٦٦هـ.

وفي حدود عام ١٣٤٠هـ قدم إلى مشهد أحد الطلاب المتميزين للميرزا النائيني (المتوفى عام ١٣٥٥) فباشر في بداية الأمر بتدريس السطوح العالية ثم اشتغل في تدريس البحث الخارج في الفقه والأصول، ولما كان متمكناً من أصول الميرزا النائيني التي كانت جديدة آنذاك فقد لفت انتباه فضلاء وطلاب مشهد. ثم أقام بعد فترة درساً آخر بعنوان درس المعارف الذي كان في حقيقته درساً في علم الكلام والرد على البحوث والمسائل الفلسفية والعرفانية، وبذلك أصبح مؤسس خط علمي مضاد للفلسفة والعرفان في مشهد، وفي غضون عشرين سنة تخرج على يديه عدد من الطلاب، الذي لا يزال بعضهم إلى الآن يروج لهذه الأفكار وي طرحها في دروسه.

وَأثر إشاعة هذه الأفكار، انقرض تدريس الفلسفة في حوزة مشهد، وحلت أفكاره الخليطة من الكلام والعرفان التي تعتمد على ظواهر الأحاديث والروايات الواردة عن أهل البيت (ع) محل الأفكار الفلسفية والعرفانية في الحوزة العلمية في مشهد.

زمن الفترة والركود في الحوزة العلمية في مشهد

بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٤١م

تعرضت الحوزة العلمية في مشهد أسوة بالحوزات العلمية الأخرى في سائر البلاد وفي بعض الأحيان أكثر منها جميعاً لهجمات السلطة الحاكمة، إثر المواجهات التي نشبت بين علماء مشهد من جهة والحكومة المركزية من جهة أخرى وظهور تطورات خطيرة أثرها في عام ١٣٥٤هـ انتهت بنفي شخصين من كبار علماء مشهد، كانا يتصدران لإدارة الحوزة العلمية فيها وهما السيد حسين القمي والميرزا محمد آقازاده الكفائي، وألقي القبض على عدد من علماء هذه المدينة المعروفين وألقي بهم في غياهب السجون.

إثر هذه الأحداث وكذلك المعاملة القاسية التي تعامل بها الدولة رجال الدين، انتابت الحوزة العلمية في مشهد حالة من الركود والفتور، ثم عطلت تماماً بعد الحادثة الدموية في مسجد گوهرشاد في عام ١٩٣٥م.

وأما مدارس مشهد الكبرى المعروفة آنذاك مثل: مدرسة نواب، ومدرسة الميرزا جعفر والمدرسة الباقرية فقد وقعت تحت سيطرة الإدارات الحكومية مثل المعارف والأوقاف ولم يستثن من هذا الوضع إلا مدرسة سليمان خان، التي بقيت مدرسة دينية بصورة رسمية ويسكن فيها عدد من الطلاب.

لجأ بعض الأساتذة المعروفين إلى إقامة دروس محدودة في منازلهم، واضطر الطلاب والمدرسون وعموم العلماء - إلا القليل منهم - إلى خلع الزي الديني وارتداء الزي الموحد. وخلاصة الأمر أنه لم يبق في مشهد بين أعوام ١٩٣٥م و١٩٤١م أثر للحوزة ومدارسها ولا للعادات والأزياء الدينية.

وعندما حدثت تغييرات رئيسية في الجهاز الحاكم في عام ١٣٦٠ هجر (١٩٤١م) ارتفع الضغط عن المظاهر الدينية وعن رجال الدين، فتصدر الحوزة في هذه المدينة المقدسة شخصان من كبار العلماء هما الشيخ مرتضى الاشتياني والأقا ميرزا مهدي الأصفهاني، وباشرا بإعادة المؤسسات الروحانية فيها، واجتذبت دروسهما في الفقه والأصول عدداً كبيراً من الطلاب، فأخذت هذه الحوزة تزدهر بزعامتها مرة ثانية.

إلا أن هذين العالمين البارزين فارقا الحياة في عام ١٣٦٥ هجري، ففقدت الحوزة العلمية في مشهد بوفاتها آخر مدرسيها الكبار، مما تسبب في جمود درس الخارج في هذه الحوزة مرة أخرى.

من الطبيعي أنه كانت هناك بعض دروس الخارج، ولكن أساتذتها لم يكونوا على مستوى عال من الكفاءة العلمية، ومن ثم لم تكن دروسهم كفيلاً بإرضاء حاجات طلاب حوزة بمستوى حوزة مشهد، ولذلك بعد الازدهار النسبي الذي وصلت إليه في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري اعتراها نوع من الركود مرة أخرى في أوائل النصف الثاني من نفس هذا القرن، فاضطر العديد من طلاب العلم للهجرة إلى قم والنجف.

واستمرت دروس السطح خلال هذه الفترة في حوزة مشهد وأهم هذه الدروس قاطبة ما كان يلقيه الشيخ هاشم المدرس القزويني (المتوفى عام ١٣٨١هـ) حيث كان يلقي السطوح العالية وهي الرسائل، والمكاسب والكفاية في مدرسة نواب ولم يكن له ند في حلقات درسه.

لم تستمر فترة الركود طويلاً، فقد قدم إلى مشهد بعد بضع سنين منها، في عام ١٣٧٣ هـ السيد محمد هادي الميلاني، الذي كان مقيماً في كربلاء آنذاك، فطلب إليه جماعة من علماء الدين أن يقيم في مشهد فنزل عند رغبتهم، وباشر بالتدريس فيها، فأخذت حوزة مشهد منذ ذلك الوقت تستعيد بعض نشاطها، حتى أضحى في عداد حوزات الشيعة المعروفة.

الموقع الجغرافي للحوزة العلمية في مشهد سبب استقرار الحوزة العلمية في مشهد

ليس بإمكاننا أن نجد سبباً خاصاً لظهور هذه الحوزة في مشهد، يختلف عن الأسباب التي تسبب عادة في إيجاد الحوزات العلمية الأخرى.

ففي العصور السابقة كان التنقل بين الأقطار والبلدان أمراً صعباً، ولم يكن الذهاب إلى المدن الكبرى والحضور في مجامعها العلمية أمراً متيسراً لكل من أراد، ومن جانب آخر كان النظام التدريسي واحداً في جميع الحوزات، ولذلك أقيمت في أغلب المدن والقرى، مدارس تتناسب مع عدد السكان وطبيعة إقبالهم، لتدريس العلوم والفنون المختلفة مثل الفقه والحديث والتفسير والطب والهيئة والفلسفة والأدب والرياضيات وغيرها من الفروع العلمية الأخرى، وكان أساتذة هذه المدارس يربون تلاميذهم قدر استطاعتهم.

ومن الطبيعي أن بعض المدن كانت تتميز بمواقع سياسية أو اجتماعية أو دينية أو تتوافر فيها أسباب أخرى تبعث على تجمع عدد أكبر من الأساتذة فيها، مما يضيف على حوزتها نشاطاً وحيوية أكبر من غيرها. ولذلك نرى آثار الحوزات في جميع المدن القديمة أو في أكثرها، ومن الطبيعي أن وجود الحوزة العلمية في مشهد يرجع إلى نفس هذه الأسباب.

وكما أشرنا آنفاً، فإن أصل وجود وازدهار هذه المدينة يتعلق بصورة مباشرة بوجود مرقد الإمام علي بن موسى (ع) بين جنباتها. ويمكننا القول دون تردد أن ازدهار حوزة هذه المدينة وتوسعها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر يرجعان إلى نفس هذا العامل الديني.

ولهذا السبب نرى أن هذه الحوزة كانت متأرجحة في مسيرتها ومتذبذبة بين نشاط وركود؛ فقد كان المذهب السني هو الشائع آنذاك ويحظى بدعم السلطات وتأييدها، ورغم كون الشيعة يشكلون الأغلبية في طوس وفي مشهد على وجه الخصوص إلا أن هذه الأثرية كانت مضطهدة، ومن الطبيعي حينئذٍ أن لا يكون لمشهد دورها الديني الذي أصبحت تتميز به في العصر الصفوي، ومن الطبيعي أيضاً أن لا تتأثر حوزتها العلمية كثيراً بهذا الطابع الديني،

ولذلك لا نجد لحوزة مشهد قبل العصر الصفوي، أثراً إلا في مدارس ثلاث هي: دودرب وبزیزاد وبالأسر، والمدريستان الأوليان تم بناؤهما في فترتين متقاربتين (بين عام ٨٢١هـ و٨٤٣هـ) بينما تأخر عنهما بناء الثالثة.

إلا أن هذا الوضع تغير بعد وصول الصفويين للسلطة واعتبارهم المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للبلاد، ثم اهتمامهم بالمرافد والعتبات المقدسية لا سيما مرقد الإمام علي بن موسى الرضا (ع)، وكثرة زيارتهم لمشهد، مما كان له أبلغ الأثر في تطور وازدهار حوزتها، فأصبحت تجتذب إليها الطلاب من كافة المدن والنواحي الأخرى فضلاً عن اجتذابها لعدد من كبار العلماء من مدن أخرى، مثل: الشيخ الحر العاملي (المتوفى عام ١١٠٤هـ) والملا محمد باقر السبزواري (المتوفى عام ١٠٩٠هـ)، فتمخض هذا الوضع عن ظهور حوزة علمية متكاملة تنافس حوزات الشيعة الأخرى ذات الطراز الأول.

والغرض أن وجود الحوزة العلمية في مشهد لم يكن معتمداً في الأساس على عامل خاص، وإنما شأنه في ذلك شأن الحوزات العلمية في سائر المدن الأخرى، وهو حاجة الناس إلى طلب العلم، إلا أن ازدهار هذه الحوزة في القرون الأخيرة يرجع ودون ريب إلى العامل الديني، وهو وجود مرقد الإمام علي بن موسى الرضا (ع) فيها.

والجدير بالدراسة والتحليل هنا، هو أن هذه الحوزة لم تبلغ درجة الحوزات الشيعية ذات الطراز الأول في جميع مراحلها التي تبدأ في بداية العصر الصفوي وحتى في أوج ازدهارها وتطورها، أي في القرن الحادي عشر والنصف الأول من القرن الثاني عشر، ولم يتسن لها أن تضاهي حوزة النجف طوال قرونها السابقة ولا حوزة أصفهان في القرن العاشر والحادي عشر ولا حوزة في السنين الأربعين ونيف الأخيرة، ولذلك نرى أن هناك عدداً كبيراً من أساتذة وعلماء مشهد كانوا قد تخرجوا من الجوزات الكبرى في المدن الأخرى مثل الحوزة العلمية في أصفهان والحوزة العلمية في النجف الأشرف^(١).

نعتقد أن السبب الرئيسي في ذلك يتكون من شقين؛ الشق الأول هو إقامة حكومات إيران آنذاك للمحافل العلمية وسائر وسائل التحضر والتطور الأخرى بالقرب من مراكز حكمهم، وفي الحقيقة فقد كان ذلك يعد من مظاهر القوة ومستلزمات الحكم، حيث كان الحكام الأقوياء يهتمون بجمع العلماء من حولهم اهتمامهم بفتح المدن والبلدان، لأنهم يرون

(١) راجع كتاب «تاريخ علماء خراسان» وما مر من هذا المقال.

في ذلك قوة معنوية لحكوماتهم، وربما نشب صراع بين ملكين حول عالم أو حكيم أو أديب، لا يقل شأنًا وخطراً عن الصراعات السياسية والعسكرية.

وهكذا كانت مراكز العلم والأدب غالباً ما تشكل في عواصم الملوك والحكام المحبين للعلم، وفي زمن الحكومات الصفوية، التي تمثل البداية الحقيقية للحوزة العلمية في مشهد، كان بعد هذه المدينة عن مركز الحكم بمسافات شاسعة يشكل حائلاً دون تشكيل حوزات على مستوى كبير من الأهمية، إلا أن الملوك الصفويين أخذوا يهتمون بالتدريج بهذه المدينة ويقمون فيها العديد من المدارس، فبدأت حوزتها العلمية تزدهر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، حتى أصبحت في عداد الحوزات الشيعية المعروفة. ولكنها على الرغم من ذلك لم تستطع أن تصل إلى مستوى الحوزة العلمية في أصفهان التي كانت محطاً للعلماء والأساتذة والفضلاء، وقبله لآمال الطلاب والمدرسين بسبب مركزيتها السياسية في بداية القرن الحادي عشر ولم تستطع حوزة مشهد أن ترتقي كثيراً في الفترة الأخيرة (أواسط وأواخر القرن الرابع عشر الهجري) بسبب عدم اهتمام الحكومات بالحوزات العلمية كما كان سابقاً في زمن الحكومات الماضية بالإضافة إلى ظهور الحوزة العلمية في قم بميزاتها الخاصة مثل التاريخ العلمي والديني لها الذي يرجع إلى القرون الأولى للإسلام وكونها مركزاً للمحدثين الشيعة وهجرة الشيخ عبد الكريم الحائري ثم السيد حسين البروجردي إليها ثم ارتباطها الوثيق بالمركز.

والشق الآخر الذي لم يسمح بتشكيل حوزة علمية من الطراز الأول في مشهد خلال العهد الصفوي وحتى آخر هذا العهد، هو عدم توفر الأمن اللازم فيها بسبب مجاورتها لقبائل الأوزبك والأفغان.

والشواهد التاريخية، تشير إلى كون حملات الأوزبك تستهدف غايات دينية ومذهبية بالإضافة إلى غاياتها الأصلية وهي أعمال السلب والنهب. حيث استمر هؤلاء الأوزبك لفترات طويلة بعد تأسيس الحكومة الصفوية وبسبب من تعصبهم الشديد ضد الشيعة بالقيام بحملاتهم المتكررة على مشهد وتعريض أهلها وأعراضهم وأموالهم للإغارة والسلب والانتهاك.

بدأ صاحب كتاب زينة المجالس⁽¹⁾ تأليف كتابه هذا في عام ١٠٠٤هـ أي في أوائل

(١) مير مجد الدين محمد.

سلطنة الملك عباس الكبير وفي عصر تطور وازدهار الحكومة الصفوية، وهو يذكر (الخاقان المغفور) أي الملك طهماسب الأول وازدهار مشهد في عصره ثم يقول: «ولكنها الآن أصبحت خراباً بعد أن استولى عليها الأوزبك...»^(١).

ومن الطبيعي إن إقامة الحوزات العلمية في مدينة هي عرضة لتهديدات الأعداء وأهلها يعيشون الخوف باستمرار من هجمات المغيرين، ستكون أمراً صعباً وغير معقول.

وبالإضافة إلى هذين السببين، ثمة سبب آخر كان يحول دون تجمع الطلاب في الحوزة العلمية في مشهد، وهو وجود حوزات علمية في المدن المجاورة لمشهد، مثل: سبزوار ونيسابور وكاشمر وتون (فردوس) وطبس وغيرها.

ب - آثار مرقد الإمام علي بن موسى الرضاع (ع) والحوزة العلمية في مشهد: التأثير في مظهر المدينة:

بعد أن كان وجود مرقد الإمام علي بن موسى الرضا (ع) في مشهد سبباً في إعمارها وتوسعها، أصبح هذا المرقد مركزاً للمدينة وانتشرت المحلات والأبنية والأسواق في أطرافه. وظل هذا المرقد يشكل مركز المدينة حتى قبل أربعين سنة، حيث كان في أطرافه شارعان رئيسيان هما الشارع الغربي للمرقد والشارع الشرقي له، وفي أطرافه أيضاً أسواق مسقوفة ومراكز عامة من المساجد والمدارس الدينية والفنادق الكبيرة والمحلات القديمة مثل محلة نوقان ومحلة عيدگاه ومحلة جهارباغ ومحلة سرشور.

وفي عام ١٣١٠هـ استحدث شارع دائري يحيط بمؤسسات الروضة المقدسة ومقدار من الأبنية المجاورة لها وعدد من الأسواق واستحدث إلى جانب ذلك العديد من الشوارع الأخرى في أطرافها، بحيث اكتسب مركز المدينة وأصلها شكلاً جديداً، وهدمت الأزقة القديمة المجاورة.

ثم أخذت مشهد تخطو نحو التوسع وال عمران بخطوات واسعة نسبة إلى أكثر المدن الإيرانية الأخرى بسبب تردد الزوار عليها، فأصبح الموقع الجغرافي للحضرة الرضوية مختلفاً عما كان عليه في السابق، حيث أصبحت مؤسسات هذه الروضة وهي الحرم والصحنان ومسجد، گوهرشاد تقع في الجزء الشمالي الشرقي من المدينة.

(١) الفصل الثاني من الجزء التاسع، تحت كلمة طوس.

وفي العشرين سنة الأخيرة توسعت مشهد بسرعة كبيرة، بحث أصبحت أكبر من حجمها السابق لهذه الفترة بعدة مرات، حتى بدأت تنقسم بالتدريج إلى منطقتين: المنطقه القديمة، والمنطقه الجديدة. والمنطقه الأخيرة تتكون من الأجزاء الشمالية والغربية والجنوب غربية وهي محلات عشرت آباد، سعد آباد، أحمد آباد، كوهنسكي وغيرها، وكل واحدة من هذه المحلات تحتوي على عدة شوارع إضافة إلى الشوارع الأخرى التي تتصل بها، ولا يبدو الوضع الديني للمدينة واضحاً في هذه المناطق وهي تعتمد في أبنيتها أسلوباً حديثاً اعتيادياً.

وأما في الجزء القديم من المدينة فأبرز شيء فيه هو تأثير مرقد الإمام الرضا (ع) في شق الشوارع، حيث توجد هناك أربعة شوارع من أكبر شوارع المدينة وأكثرها ازدحاماً بالسكان وهي: الشارع العلوي (شارع نادري) والشارع السفلي (شارع صفوي) وشارع طهران وشارع الطبرسي، وهذه الشوارع الأربعة تربط مختلف نقاط ومناطق المدينة بمرقد الإمام الرضا، وبديهي أن وجود هذه الشوارع يرتبط ارتباطاً مباشراً. بمرقد الإمام الرضا (ع).

ويبدو الطابع الديني للمدينة مؤثراً في كيفية بناء هذا الجزء وطبيعة أبنيته السكنية، حيث تكون منازل المحلات المجاورة للمرقد الشريف وخصوصاً في المحلات المجاورة للمرقد الشريف وخصوصاً في المحلات الشرقية والشمال شرقية والجنوب شرقية ذات جدران عالية وسواتر كاملة ولا يشاهد فيها الطراز الحديث للبناء.

المؤسسات التابعة: مكتبات الحوزة العلمية في مشهد:

تشكل مكتبات الحوزة العلمية في مشهد أهم مؤسسات هذه الحوزة، ولكن هذه المكتبات ليست غنية بالكتب وليست متكاملة بسبب الظروف غير المساعدة والأحداث التي وقعت قبل شهر يور (١) من عام ١٣٢٠هـ.

وفي الوقت الحاضر تحتوي أغلب مدارس الحوزة العلمية في مشهد على مكتبات خاصة بها، مما يبعث على الظن أن مؤسسي هذه المدارس كانوا يبنون تزامناً مع بنائهم المدارس مكتبات يتنفع بها الطلاب أو عموم الناس. إلا أن هذه المكتبات أخذت تضمحل بالتدريج في الفترات التالية إثر عدم اهتمام المشرفين عليها وكذلك عدم إقبال عموم الإيرانيين على الكتب والمكتبات فأصبحت كتبها عرضة للنمل ولأشبه النمل من الناس.

(١) هو الشهر السادس في السنة الإيرانية.

ازداد وضع الحوزات بعد عام ١٣١٤هـ سوءاً إثر الأحداث الاجتماعية الخطيرة التي جرت آنذاك، واقتربت من الاضمحلال نهائياً، وأصبحت مدارسها تابعة للمؤسسات الحكومية مثل الأوقاف والثقافة، وتبعاً لذلك أصبحت مكتبات هذه المدارس في وضع مزر جداً، فقد نقلت بعض هذه المكتبات من مدارسها إلى مدارس أخرى ومكتبات ترتبط بمؤسسة الثقافة، ففقد الكثير من الكتب القيمة خلال عمليات النقل.

ثم أعيدت مدارس الحوزة العلمية في مشهد إلى طلابها بعد شهريور من عام ١٣٢٠هـ واستأنفت الحوزة نشاطها من جديد إلا أن عملاً جديداً لم يتخذ في سبيل إرجاع المكتبات إليها، وكان في العمل الدؤوب لإعادة تشكيل الحوزة شاغل لزملاء الحوزة والمشرفين عليها عن متابعة أمور المكتبات أو التفكير فيها، ولكن هذا الانشغال لم يدم طويلاً، فبعد أن بدأت الحوزة تخطو نحو الأمام بالتدرج، سعى بعض المتصددين لها في إعادة المكتبات المنقولة إلى مواضعها، وبذلك تكونت بعض المكتبات في هذه المدارس.

ومع هذه الجهود بقيت بعض الكتب في المؤسسات التابعة لإدارة الثقافة، وطبعاً لم تعد الكتب المفقودة إلى المكتبات التي أخذت منها.

وأثر الجهود التي بذلها بعض الأشخاص ممن يعرفون قدر الكتاب والمكتبات في سبيل توسيع مكتبات مدارس مشهد، أصبحت أكثر هذه المدارس تمتلك مكتبات لا بأس بها وبعضها في مستوى جيد ونأمل أن توسع هذه المكتبات ويهتم بها أكثر في المستقبل.

أهم مكتبات الحوزة العلمية في مشهد:

١ - مكتبة مدرسة نواب:

مؤسس هذه المكتبة هو باني مدرسة نواب الميرزا أبو صالح نقيب الرضوي، حيث أسسها بعد بنائه للمدرسة عام ١٠٨٦هـ واشترى لها أعداداً كبيرة من الكتب، وبعد وفاته استمر وقف الكتب لهذه المكتبة، ومن بينها نسخ خطية نفيسة.

وعندما هدمت مدرسة فاضل خان المعروفة إثر شق الطرق المحيطة بالمرقد الرضوي في عام ١٣١٠هـ نقلت مكتبتها وهي من أفخر المكتبات في مشهد إلى مكتبة مدرسة نواب فازدادت أهميتها.

وفي عام ١٣١٢هـ أصبحت مدرسة نواب ثانوية للدراسات المعقولة والمنقولة

وأخضعت لوزارة المعارف والأوقاف، وعندئذ أهدى الناشر ومؤسسات الطبع والنشر أعداداً كبيرة مختلف الكتب إلى مكتبته.

وحين حُلَّت كلية المعقول والمنقول التي كانت تتخذ من مدرسة الميرزا جعفر مقراً لها نقلت كتبها ومعها كتب مدارس مشهد الأخرى إليها، وفي بعض الفترات وضعت كتب مكتبة مؤسسة الثقافة تحت اختيار هذه المكتبة، فأضحت مكتبة مدرسة نواب مكتبة مهمة وحاوية لكتب عديدة ومتنوعة. إلا أن هذا الوضع لم يدم طويلاً، حيث أعيدت الكتب التي أتى بها من أماكن أخرى إلى أماكنها ولم يترك منها إلا كتب مكتبة فاضل خان.

تركت هذه المكتبة في فترة الركود التي انتابت الحوزة العلمية في مشهد (بين عام ١٣١٤هـ و عام ١٣٢٠هـ)، وفقد العديد من كتبها على يد مختلف الأشخاص والمؤسسات، إلا أنها استعادت مكانتها وازدهارها، إثر سعي واهتمام المشرفين عليها، بعد أن استأنفت حوزة مشهد نشاطها، وجرى تصليح كتبها القديمة والمتآكلة، ووضع فهرست لكتبها في مجلدين، ويزداد حجم هذا الفهرست يوماً بعد آخر.

تعد هذه المكتبة في الوقت الراهن أهم المكتبات في مدارس الحوزة العلمية في مشهد، فهي بالإضافة إلى احتوائها على عدد من الكتب يفوق ما هو موجود في المكتبات الأخرى، تحتوي أيضاً على عدد من الكتب الخطية النفيسة، التي لم يطبع بعضها إلى الآن، ويحتوي بعضها على خط كبار علماء الشيعة.

وإلى ذلك كله فهي تتميز بتنوع كتبها، فترى كتب الفلسفة والطب والأدب إلى جانب كتب الفقه والأحاديث ومجموعها ٣٦٢٦ كتاباً بينها ٨١٣ نسخة خطية و١٩٩٢ كتاباً مطبوعاً والباقي من المجلات والنشرات المختلفة.

ودخول هذه المكتبات مباح للجميع، ويستطيع طلاب مدرسة نواب استعارة الكتب منها.

٢ - مكتبة مدرسة مدرسة ميرزا جعفر:

كانت هذه المكتبة تحتوي على كتب قيمة في السابق، وقد نقلت إليها كتب مكتبة مدرسة فاضل خان بعد تخريبها وقبل نقل كتبها إلى مدرسة نواب، إلا أن بعضاً من كتبها تعرض للتلف إثر إهمال المشرفين عليها ونقل بعضها إلى مكتبة الحضرة الرضوية ومكتبة مدرسة النواب.

نقلت إليها أعداد من الكتب في عام ١٣٣٠ وجعلت وفقاً لمكتبتها، وأعيد إليها ما نقل منها إلى مدرسة نواب، وأصبحت هذه المكتبة تحتوي على ٣٠٠٠ كتاب منها ثلاثمائة كتاب خطي والبقية من الكتب المطبوعة والمجلات .
والمطالعة الاستعارة مسموح بهما للجميع .

٣ - مكتبة مدرسة خيرات خان :

لا يعرف على وجه الدقة تاريخ تأسيس هذه المكتبة، ولكن البعض يعتقد أنه عام ١٢٧٧هـ .

في عام ١٣٠٣هـ وقد لها نصرت الملك علي مراد خان التيموري مائتي كتاب بين خطي ومطبوع .

وقد تعرضت هذه المكتبة بدورها إلى الإهمال فكان بعض كتبها للآفات، وضاع بعض آخر على يد عديمي الضمير من الناس .

تحتوي هذه المكتبة في الوقت الراهن على ٤٠٠ كتاب (بين خطي ومطبوع) ولكنها لا تحتوي على فهرست لكتبها وليس لها وضع منظم يعين الطلاب على الاستفادة منها .

وتوجد بعض المكتبات في مدارس مشهد الأخرى مثل مدرسة دودرب ومدرسة سليمان خان ومدرسة الحاج حسن ولكن أغلب هذه المكتبات تفتقد إلى المشرف المخلص وإلى الفهارس التي تعرف بكتبها ولذلك فهي تتجه نحو التلف يوماً بعد آخر .

٤ - مكتبة مدرسة عباس قلي خان :

ليس لهذه المكتبة سابقة تاريخية، فقد تأسست في عام ١٣٣٤هـ بمائتي كتاب بين خطي ومطبوع ثم بدأت تخطو نحو الأمام بسعي وهمة طلاب المدرسة، فاستحدثت غرفة للمطالعة وأقيمت رفوف خاصة بالكتب وبلغ عدد كتبها ١٥٠٠ كتاب .

وأبواب هذه المكتبة مفتوحة لطلاب المدرسة وعام الناس، والاستعارة فيها خاصة بطلاب العلم .

الحرم الرضوي :

- ١ -

ننشر عنه دراستين تكمل إحداهما الأخرى، وقد يتكرر أمر فيهما مما لا بد منه لاستكمال الدراسة واتساقها :

تاريخ الحرم:

يقع المرقد الطاهر لثامن أئمة الشيعة الإمام علي بن موسى الرضا (ع) (١٤٨ أو ١٥١ - ٢٠٣هـ / ٧٦٥ أو ٧٦٨ - ٧١٨م) في مدينة مشهد مركز محافظات خراسان، وقد دفن بجوار قبر هارون الرشيد (١٤٨ - ١٩٣هـ / ٧٦٥ - ٨٠٨م) في دار حميد بن قحطبة (ت ١٥٩هـ / ٧٧٥م) في قرية تسمى سناباد بالقرب من محلة نوغان من توابع طوس.

بناء الحرم والتغييرات التي طرأت عليه:

من المشهور أن القبة التي دفن تحتها الجثمان الطاهر للإمام الرضا (ع) كانت قد شيدها المأمون العباسي (ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م) فوق قبر هارون الرشيد قبل وفاة الإمام الرضا (ع)، ولذلك يمكن اعتبار القبة الهارونية أول أبنية الحرم الرضوي المطهر، ولا يزال الجدار الذي ينسب بناؤه للمأمون قائماً ويبلغ ارتفاعه مترين وقد شيّد البناء الجديد عليه.

ومنذ ذلك الحين وحتى عصر الديالمة لا يوجد ما يشير إلى إعادة بناء الحرم أو ترميمه، ولكنه من المؤكد المعظم كان مزاراً معروفاً، ذكره السياح والجغرافيون أمثال: ابن حوقل والإصطخري والمقدسي. وقيل إن المقدسي كان أول من ذكر الحرم المطهر للإمام الرضا بعبارة «مشهد» في كتبه (أحسن التقاسيم، ٥١٥/٢)، وعلى هذا فإن ما ذكره السلطنة في كتابه مطلع الشمس أن «المقدسي لم يورد اسم مشهد» (٨/٢) لا أساس له.

وقد زين الديالمة البقعة المباركة ببعض الزخارف، كما راجت في عهدهم زيارة الروضة الرضوية، وفي القرن ٤هـ / ١٠م، هدم سبكتكين الغزنوي الحرم الطاهر ومنع الناس من زيارته، إلا أن ابنه يمين الدولة محمود رمم الحرم وجعل منه روضة زاهية ثم جاء عميد الدولة فاتق، الذي أسماه البيهقي «خادم خاصة» [الخادم الخاص] فأكمل بناء الحرم وعمر مدينة مشهد. ثم عين السلطان محمود سوري بن المعتز أو المعز المشهور بـ«صاحب الديوان» والياً على خراسان، ورغم ظلمه كان كثير الصلاة والصدقة، وله في طوس آثار بديعة (البيهقي ٤١٣)، وقد أضاف إلى الحرم أشياء أخرى وبنى مئذنة «واشترى قرية عامرة أوقفها له» (ن.م) وبنى أول سور للمدينة، ولكن هذا البناء تعرض للضرر أثناء هجوم الغز في ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، إبان عهد سنجر السلجوقي (٥١١ - ٥٥٢هـ / ١١١٧ - ١١٥٧م): إلا أن شرف الدين أبو طاهر بن سعد بن علي القمي رمم البناء فيما بعد وشيد فوقه قبة. كما زين الجدران بالقاشاني النفيس الثماني الأضلاع والمعروف بـ«القاشاني السنجري» وتغلغه الآن صفائح زجاجية كبيرة للمحافظة عليه، وهو من آثار «تركان زمرد ملك» بنت السلطان محمود

السلجوقي، وقد نصب بعد سنة ٥٥٧/١١٦١. ويشاهد على هذا القاشاني أعداد وأسماء مبعثرة مثل «خمسائة» و«اثنى عشر» و«تركان زمرد ملك» و«شهيد» المنقوشة على القاشاني. تدل على أن زخارف جدران الحرم قد نصبت بعد ذلك التاريخ، وكذلك يمكن الحدس بأن الأمير علاء الدين محمد خوارزمشاه قد رَمَمَ هذا القاشاني في ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، وأن العدد «اثنى عشر» الموجود على القاشاني هو بقية كلمة «سنة ٦١٢» بعد أن سقط الرقم «ستمائة» وانمحي أثره.

وفي عهد الخوارزمشاهيين كانت الروضة الرضوية موضع اهتمام، حيث زينت بنقوش حديثة وأضيف إليها محرابان مزينا بالقاشاني الصيني، كما زينت واجهة البوابة المقابلة للضريح المقدس بالفيسفساء النفيسة الناتئة والتي هي من تزيينات علي بن محمد المُقري. وقد كتب على جدار الحرم المطهر بيتان من الشعر الفارسي لعبد الله بن محمود بن عبد الله «سنة ٦١٢هـ»، وقد اعتبرت هذه من آثار تلك الفترة. وفي ٦١٨هـ/ ١٢٢١م هدمت الروضة الرضوية إثر هجوم تولي بن جنكيز عليها، ولكنها لم تدمر بالكامل، إذ كما أشرنا سابقاً، فإن جدران الحرم المطهر لا زالت مزينة بالقاشاني السنجري الذي نصب سنة ٥٥٧/١٦٢م ولا يوجد من الوثائق ما يشير إلى ترميم الحرم منه ذلك الحين وإلى ما بعده بقرن. وقد أشار ابن بطوطة الذي زار مدينة طوس (مشهد) بعد خرابها بقرن في ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م إلى أنه قد شاهد البناء الرائع والتزيين بالقاشاني والضريح الفضي للمرقد المقدس. ومنم المحتمل أن تكون تلك العمارة والتزيينات من عمل السلطات محمد خدابنده، وأن القبة قد شيدت بأمره، خاصة وأنه كان شيعي المذهب.

ويوجد خلف الزاوية الشمالية للحرم إطار نقش عليه سنة ٧٣٥هـ، ويشاهد في نفس الحرم قاشاني يعود تاريخه إلى سنة ٧٦٠هـ، ولكن اسم صانعه مجهول. وفي عهد شاهرخ التيموري (حكم ٨٠٧ - ٨٥٠هـ/ ١٤٠٤ - ١٤٤٦م)، أقامت زوجته كوهر شاد آغا أنلرل قيمة في الحرم المطهر وأطرافه، منها، بناء رواق «دار الحفاظ» و«دار السيادة» والمسجد الجامع المعروف باسمها في ٨٢١هـ/ ١٤١٨م، وذلك بإشراف المعمار الكبير قوام الدين الشيرازي: كما بنى شاهرخ السور الثاني لمدينة مشهد.

وقد أشار سفير إسبانيا روي كونزالس دوكلويخو إلى عظمة وروعة الحرم والقبة الفضية، وذلك عند زيارته لمشهد آنذاك. وقد بنى السلطان حسين بايقرا (حكم ٨٧٥ - ٩١٢هـ/ ١٤٧٠ - ١٥٠٦م) نصف الصحن القديم الحالي بتشجيع من وزيره أمير علي شير

نوايي، ثم وسّعه الشاه عباس الصفوي، كما ورد اسم السلطان حسين فوق واجهة الإيوان المذهب في الصحن القديم. وكان الإيوان المعروف بإيوان أمير علي شير قد شيد في عهده أيضاً، كما ترك الصفويون بتوسعتهم الروضة المقدسة وإكمال آثاراً قيمة أيضاً، ثم تدهيب القبة التي شيدها السلطان محمد خُدابنده، وترميم وتدهيب المنارة التي بنيت في عهد الغزنويين، وذلك في أيام شاه طهماسب الأول (حكم ٩٣٠ - ٩٨٤ هـ / ١٥٢٣ - ١٥٧٦ م) كما شُيّد في عهده آخر أسوار المدينة. وقام الشاه عباس الأول (حكم: ٩٩٦ - ١٠٣٨ هـ / ١٥٨٧ - ١٦٢٨ م) بتجديد تدهيب القبة التي كانت بحاجة إلى الترميم في السنوات (١٠١٠ - ١٠١٦ / ١٦٠١ - ١٦٠٧ م) كما تشير الكتابة الموجودة على القبة بخط علي رضا عباسي، وأهدى الشاه عباس إلى المرقد المقدس عدداً من المصاحف التي تنسب كتابتها للأئمة الأطهار (ع). وباع بفتوى من العلماء الألماسة الكبيرة التي استعادها من الأربك الذين سرقوها من الروضة المقدسة أثناء غارتهم عليها، واشترى بثمانها أملاكاً كثيرة وأوقفها للروضة المقدسة.

أما الشاه عباس الثاني (حكم ١٠٥٢ - ١٠٧٧ هـ / ١٦٤٢ - ١٦٦٦ م)، فقد رمم الصحن القديم وزينه بالقاشاني. كما أن الشاه سليمان (حكم ١٠٧٧ - ١١٠٥ هـ / ١٦٤٢ - ١٦٩٣ م) رأب التصدّع الذي أحدثه زلزال عام ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٣ م بالقبة الطاهرة، حسبما تشير الكتابة التي نصبت عليها، كما بنى عدداً من المدارس. ثم بنى أميران كبيران ممن أمراء الدولة الصفوية هما: الله وردي خان وحاتم بيكا الأروبادي بناءين مهمين في الروضة المقدسة: أحدهما رواق الله وردي خان، والآخر رواق حاتم خاني. كما أن الإيوان الواقع في الضلع الغربي لـ«دار الضيافة» هو أحد الأبنية التي شيدها الله وردي خان أيضاً.

وفي عهد الأفشاريين قام نادر شاه (١١٠٠ - ١١٦٠ هـ / ١٦٨٨ - ١٨٤٧ م) بتدهيب المنارة التي شيدت في عهد الغزنويين وإيوان أمير علي شير، وشيد منارة أخرى في الصحن القديم في عامي ١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م و ١١٤٦ هـ / ١٧٣٣ م. كما تشير إلى ذلك قصيدة نديم الفارسية والكتابات المنقوشة في الإيوان الذهبي للصحن القديم، وما أورده محمد كاظم المروي وزير مرو، وأهدى نادرشاه أشياء ذهبية ومجوهرات للروضة المقدسة. ومن أبنيته أيضاً المسقاة الواقعة وسط الصحن القديم، ويتكون حوضها من قطعة صخرية واحدة أمر بجلبها من هراة. وقد شُيّد إسماعيل خان الصائغ سقفاً مذهباً على الأعمدة الرخامية للمسقاة، فيما أمر نادرشاه بإمرار نهر من تحت حوض المسقاة ليقى مملوءاً بالماء دائماً، ولا تزال هذه

المسقاة موجودة، وإن أجريت عليها بعض التغييرات، كما قام إبراهيم خان أخو نادر «بطلبي بابي الصحن بالفضة» (مروي ٢٠٣/١).

وفي عهد فتح علي شاه القاجار (حكم ١٢١٢ - ١٢٥٠هـ / ١٧٩٧ - ١٨٣٤م) بوشر ببناء «الصحن الجديد»، واستمر البناء في عهد محمد شاه (حكم ١٢٦٤ - ١٣١٣هـ / ١٨٤٨م) وذُهب إيوانه. وفي عهد محمد شاه رُمم الإيوان والبوابة الشمالية للصحن القديم والمعروف بـ«إيوان شاه عباسي»، كما تشير إلى ذلك الكتابات الموجودة عليه. وفي عهد عضد الدولة نائب السادن رُممت دار التوحيد المباركة ١٢٧٦/١٨٥٩، كما أمر في ١٢٧٥ / ١٨٥٨ بتزيين النقوش والقاشاني النفيس في الحرم بالمرايا، وأمر ناصر الدين شاه بطلاء الجدران من الإزارة وحتى أعلى الإيوان الناصري وسقفه المقرنص بالذهب، ولهذا سمي بـ«الإيوان الناصري».

وفي أيام مظفر الدين شاه (حكم ١٣١٣ - ١٣٢٤هـ / ١٨٤٨ - ١٩٠٦م) تم ترميم الصحنين: القديم والجديد. كما جاء في الكتابة الموجودة على يمين الجدار الداخلي للإيوان وأعلى الباب الغربي للصحن القديم والتي كتبت بخط نستعليق.

وفي ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م أطلق الجيش الروسي الرصاص على القبة المطهرة، وألحق بها الدمار بذريعة حفظ أرواح الرعايا وتوفير الأمن والهدوء في مشهد، وتفريق القوات الموالية للملك المخلوع محمد شاه والمتحصنة في الروضة الرضوية المقدسة (خراساني ٦٣٣ - ٦٣٥). إلا أنه وبعد مدة قليلة قام والي خراسان حسين ميرزا نير الدولة بتعميرها بمساعدة المحسنين. وفي أعقاب العصر القاجاري رُمم الضريح الطاهر وبعض أبنية الروضة المقدسة، كما شيدت بعض العمارات الجديدة.

وفي الأعوام ١٩٦٣ - ١٩٦٥م وسع فناء الحرم من جهة الرأس المبارك واستبدل سقف المسجد البالي من تلك الجهة بسقف كونكريتي زين ثانية بالقاشاني.

كما وسع الجناح الشمالي للحرم ليتصل برواق «دار الشكر»، ونقل المحراب القديم للمسجد الواقع في الجهة الجنوبية من الحرم إلى المتحف إثر توسعته والتعميرات التي أجريت عليه. ويجدر بالذكر أنه تمت إجراءات أخرى أنجزت في هذه الفترة، كإنشاء عمارة المتحف الكبرى، والمكتبة، وبنائة الإدارة، وتوسيع الشوارع المحيطة بالحرم، وإنشاء الحدائق حوله.

وبعد قيام الجمهورية الإسلامية في إيران، طرأت تغييرات على أبنية الروضة المقدسة، كما أنشئت بنايات جديدة، ففي ١٩٧٧م تم توسيع الرواق الواقع خلف الرأس المبارك (بُشِت) كما

سَرِ مُبارك) بمقدار ١٨ متراً. وفي السنة الثانية وسع الجناحان المواجهان «للوجه الشريف» (بيش زوي مبارك) و«القدم المباركة» (باين با) بما مجموعه ٣٦م^٢، وزيد في العرض من جهة الازدمين بمقدار ١٠/٧٠م. ومن إنجازات هذه الفترة تجديد بناء المدخل وإحداث مدخل الطبرسي (بَسْتِ طبرسي)، وبنائة جامعة العلوم الإسلامية، وبناء صحنى «الجمهورية الإسلامية» و«القدس». ومما يذكر أيضاً المباشرة ببناء المكتبة والمتحف والرواق الموسوم بـ«دار الولاية».

أبنية الحضرة:

ويقصد بأبنية الحضرة، الحرم والعمارات المحيطة به والتابعة لمؤسسة إدارية واحدة، وهذه الأبنية هي عبارة عن الحرم والقبة والمآذن والصحن والإيوانات والأروقة والمدخل والمتحف والمكتبة.

١ الحرم: بناء مستطيل الشكل (يقرب من المربع) بطول ١٠/٩٠ وعرض ١٠/٤٠م، فيه أربع صفوف تقع كل واحدة منها في طرف من أطراف الحرم الأربعة، ويتم الدخول والخروج منها إلى الحرم: ويبلغ طول بوابة (مدخل) كل واحدة منها ٣م، وفوق هذه الصف أربع صفوف صغيرة، وقد أزر الحرم بارتفاع ٢٠سم، يعلوه القاشاني الرباعي والسداسي والثماني الأضلاع والكوكبي الشكل بارتفاع ٩٢سم، أغلبه آيات قرآنية وأحاديث شريفة، فيما يشاهد على بعضه الآخر نقوش إسلامية ناتئة على صفائح صينية نفيسة احتوت على آيات من سورة الفتح، وفوقها لوحة أخرى من الرخام بعرض ٢٢سم، كتبت عليها بخط نستعليق قصيدة: «دبير الملك الفراهاني». ويبلغ ارتفاع جدران الحرم من الأرض إلى السقف المقرنص ١٨/٨٠م. وعلى ارتفاع ٦/٨٥م من أرضية الحرم، وفي القسم العلوي لجدران الحرم الأربعة تحت القبة، وبعرض ٨٠سم كتبت سورة الجمعة بخط الثلث للخطاط علي رضا عباسي. ويوجد داخل الحرم ثلاثة محاريب: أحدها في الجدار الجنوبي الغربي من الحرم بعرض ٢/١٥ وارتفاع ٢/٦٠م، والثالث باتجاه أعلى الرأس المبارك تحت الطاق والصفة الموصلة بين الحرم ومسجد «بالاسر» [أعلى الرأس المبارك]، وهو بعرض ١/٢٥ وارتفاع ١/٩٠م. أما مواضع الحرم الأربعة فهي كالتالي:

أ - الصفة الشمالية، خلف الرأس المبارك.

ب - الصفة الجنوبية أمام الوجه المبارك.

ج - الصفة الشرقية، أسفل القدم المبارك.

د - الصفة الغربية باتجاه أعلى الرأس المبارك.

وفي أيام عضد الملك كان قد نصب باب ذهبي بين الصفة الجنوبية والحرم، عرف باسمه، ثم استبدل بباب ذهبي جديد في ١٩٧٤م، وكتبت على هذا الباب آيات وأحاديث وأشعار. وفي بوابة الصفة الشرقية أيضاً نقوش وخطوط ذهبية ناتئة على أرضية فضية.

البقعة والضريح: تعود أقدم المصادر التي تتحدث عن البقعة والضريح الرضوي إلى عصر الخوارزمشاهيين. ينقل الخوانساري في روضات الجنات عن ثاقب المناقب أنه كانت لأنوشيروان المجوسي الأصفهاني مكانة لدى قطب الدين محمد خوارزمشاه (حكم: ٤٩٠ - ٥٢١هـ/ ١٠٩٧ - ١١٢٧م)، وقد عينه سفيراً له لدى السلطان سنجر، إلا أن إصابته بمرض البرص المنقّر جعلته يخشى الذهاب إلى السلطان سنجر، وقد نُصح بطلب الشفاء عند الإمام الرضا (ع) فشفي وحسن إسلامه، فوضع صندوقاً من الفضة على الضريح، كما أهدى أموالاً طائلة للروضة فيما بعد.

ويذكر ابن بطوطة وجود ضريح خشبي مغطى بصفائح فضية ولعله يقصد بذلك «الضريح»، الصندوق الخشبي الذي كان فوق المرقد المبارك. ولذلك لا يمكن إبداء رأي حاسم عن صنع صندوق وضريح الإمام (ع)، بسبب الخطأ الناشئ من نقل هذا الرأي في الكتب المتأخرة عنه، ولكن يمكن التخمين الصائب - كما أشرنا سابقاً وملاحظة تاريخ زيارة ابن بطوطة لمشهد - بأن الصندوق المذكور كان من صنع السلطان محمد خدابنده، وهو نفس الصندوق الذي ظل حتى ١٩٣٢م. وفي عهد الملك طهماسب الأول رُصع الصندوق بصفائح ذهبية نقشت عليها آيات من القرآن الكريم بخط علي رضا عباسي، ولهذا عرف هذا الصندوق بـ«صندوق شاه عباسي» الذي استبدل في ١٩٣٢م بسبب تأكله بصندوق آخر من الرخام بطول ١٠/٢ وعرض ١/٠٦م، وأودع ما كان على الصندوق الخشبي من الصفائح الذهبية في متحف الروضة الرضوية. وللبقعة الرضوية الآن ضريحان: ضريح داخلي من الفولاذ المرصع بالجواهر، والذي صنع في العهد النادري وأوقفه للحرم شاهرخ أفسار في ١٧٤٧/١١٦٠، وضريح خارجي صنع من الذهب والفضة نصب في ١٩٥٩م بدلاً من ضريح آخر أيضاً صنع في عصر الشاه عباس أو الشاه طهماسب وهو من الخشب والحديد وشفائح الذهب والفضة، وقد استبدل لتأكله آنذاك بضريح جديد وأودع ما كان عليه من الذهب والفضة في خزانة الروضة المقدسة. وكان طول الضريح الجديد ٤/٠٥ وعرضه ٣/٠٦ وارتفاعه ٩/٠٩

٣م. ولكل من ضلعيه الطويلين أربع فتحات ولكل من الضلعين القصيرين ثلاث فتحات، وبذلك يكون مجموع الفتحات ١٤ فتحة. وقد نصب في وسط وأعلى الفتحات ١٨ صحيفة ذهبية إهليلجية الشكل محدّبة، نقشت عليها أحاديث شريفة بخط الثلث. كما نصبت فوق أطراف الضريح صفائح ذهبية مزرّسة نُقِشت عليها بخط الثلث أسماء المعصومين الأربعة عشر، وعلى حواف الضريح وفوق تلك الصفائح صفائح ذهبية أخرى أيضاً يبلغ مجموعها ٩٢ صفحة، كتب على كل منها لفظ الجلالة «الله».

٢ - القبة: وتتألف من جدارين: الأول مقرنص ويرى من الأسفل (من داخل الحرم): والثاني العلوي مغطى بصفائح ذهبية ويرى من الخارج. وقد دُهِبَت هذه القبة لأول مرة في عهد الشاه طهماسب الأول، ثم جدّد الشاه عباس تذهيبها. وارتفاع الحرم من قاعدته حتى السقف المقعر (الجدار الداخلي) ١٨/٨م، ومنها إلى أعلى القبة من الخارج ٣١/٢٠م. أما محيـث القبة فيبلغ ٤٢/١٠م وارتفاع رأس طوقها ٣/٥م وارتفاع السطح المذهب من قاعدتها حتى القمة ١٦/٤٠م. وعلى السطح الخارجي للقبة المغطى بصفائح نحاسية مطلية بالذهب نقوش وخطوط وكتابات بديعة.

٣ - المآذن: وفي الحرم مئذنتان: واحدة قريبة من القبة وفوق الإيوان النادري المذهب جنوب الصحن القديم، والأخرى شمال هذا الصحن وفوق الإيوان العباسي. والمؤذنة الأولى القريبة من القبة من آثار سوري بن المعتز. وقد رممها وذهبها الشاه طهماسب الأول مرة ونادر شاه مرة أخرى. ويبلغ ارتفاعها من القاعدة إلى قمة ٤٠/٥٠م ومحيطها الخارجي ١٣م، وارتفاع المئذنة الأخرى كسابقتها، بناها وذهبها نادر شاه.

٤ - الصحنون: في الروضة ثلاثة صحنون: الصحن القديم (صحن الثورة)، والصحن الجديد (صحن الحرية)، وصحن المتحف (صحن الإمام): وهناك صحنان لا زالوا في طور الإنشاء: أحدهما باسم الجمهورية الإسلامية والثاني باسم القدس.

الصحن القديم (الثورة): ويقع شمال الحرم، وطوله ١٠٤/٣٨م وعرضه ٦٤/٥٢٢م، ويحيط بالصحن عدد من الغرف بنيت على شكل طابقين، وفيه أربعة أواوين فيجهاـت الصحن الأربع تفصل بين الغرف.

أ - الإيوان الجنوبي أو الإيوان الذهبي، وهو من أبنية أمير علي شير في القرن ١٥/٩، وقد عرف بالإيوان النادري لأن نادرشاه كان قد ذهبه. ويبلغ طوله ١٤/٧٠م وعرضه ٧/٨٠م وارتفاعه ٢٦/٤، وقد أزر بارتفاع مترين بالرخام الملون وكتبت فوق الإزارة حتى السقف

بصفائح مطلية بالذهب. ويوجد في هذا الإيوان أربعة أبواب ذهبية: باب الضلع الشرقي والمؤدي إلى دار التوحيد، وباب الضلع الغربي ويؤدي إلى منزع الأحذية الكبير، والثالث باب الزاوية الجنوبية الغربية ويؤدي إلى ممر المسقاة القديمة ومنها إلى دار السيادة، والرابع باب الزاوية الجنوبية الشرقية والمؤدي إلى مكان كان سابقاً موضعاً لقراءة القرآن. ويوجد في الضلع الجنوبي للإيوان طاق يشبه المحراب، كتبت على لبناته المطلية بالذهب قصيدة بالفارسية لـ«نديم»، وذلك بخط النسستعليق لمحمد علي بن سليمان الرضوي. وتشير هذه القصيدة إلى أن نادر شاه أمر بترميم وتذهيب الإيوان، وقد ورد في ختامها تاريخ إتمام ذلك (١١٤٥/١٧٣٢)، وكتب في أعلى الغرف العلوية من الإيوان حديث في فضل زيارة حرم الإمام الرضا (ع) بخط النسستعليق المذهب على أرضية لازوردية، كما نقش على القاشاني، وفي حاشية الباب الخارجي للإيوان سورة «مريم» بخط كوفي وباللون الأصفر.

ب - الإيوان الشمالي أو الإيوان العباسي: وطوله ٨٠/١٤ م وعرضه ٢٠/٨ م وارتفاعه ٥٠/٢٢ م، وقد بناه الشاه عباس الأول ورُمم في عهد الشاه عباس الثاني، ولعل هذا كان سبباً في التباس الأمر على بوب (نامه آستان قدس، ٨٩) [رسالة الروضة الرضوية] حينما نسب البناء خطأ إلى الشاه عباس الثاني. وقد فرشت أرض الإيوان بحجر الخَلج، وأزرت جدرانه بالأحجار القاتمة اللون، وغُلف ما فوقها حتى السقف بالقاشاني المعرق. وتقع خلف هذا الإيوان من جهة الشمال صفة كبيرة تشبه المحراب مزينة بالقاشاني، وكتبت «البسمة والصلوات» بخط الثلث لمحمد رضا إمامي حول الصفة الكبيرة في ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م. كما كتب على واجهة هذا الإيوان اسم الشاه عباس الثاني الذي أمر بترميمه آنذاك، بخط الثلث وباللون الأصفر لمحمد رضا إمامي.

- الإيوان الغربي: بناه الشاه عباس الأول، كما بنى الإيوان الشرقي. وطول هذا الإيوان ١٠/٢٤ م وعرضه ٩/٦ م. وقد رُمم في أيام الشاه عباس الثاني مرة، وفي عهد ناصر الدين شاه مرة أخرى. وأرضية الإيوان من حجر الخَلج وإزارته من الحجر القاتم اللون. وغُلف بالقاشاني المعرق من أعلى الإزاراة حتى السقف. وقد زينت الواجهات الداخلية الثلاث للإيوان بكتابة عدد من الأحاديث بخط الثلث وباللون الأبيض للخطاط علي رضا عباسي. كما كتبت على الواجهة العلوية أيضاً آية الكرسي بخط الثلث الأصفر فوق أرضية لازوردية.

- الإيوان الشرقي: وتعلوه مقصورة التطليل «نقاره خانه»، يبلغ طوله ٢٠/١٨ م. وعرضه ٨٠/٧ م، وارتفاعه ٢٦ م وأضيقته من حجر الخَلج. وإزارته من الحجر القاتم اللون،

زین ما فوق الإزارة حتى السقف بالقاشاني. وتوجد في داخل الإيوان وفوق المدخل المؤدي للحرم غرفة زينب جدرانها الداخلية بالقاشاني المعزق، وكتب على جدارها بخط الثلث وباللون الأبيض حديث للإمام الصادق (ع)، كما كتبت سورة المزمل بخط الثلث وباللون الأبيض على حاشية المدخل الخارجي للإيوان، فيما كتبت آية النور بخط الثلث الأصفر في أعلى المدخل.

ويحيط بالصحن القديم ١٢ صُفة:

١ - الصفة الجنوبية للإيوان الغربي: كتب عليها بعض الآيات القرآنية بخط الثلث فوق القاشاني المعزق ويخط علي رضا عباسي.

٢ - الصفة الواقعة في شمال الإيوان الغربي: كتب عليها بعض الآيات القرآنية بخط علي رضا عباسي.

٣ - الصفة الشمالية للصحن، لم يكتب عليها شيء.

٤ - الصفة المجاورة للصفة الشمالية.

٥ - الصفة الشمالية للإيوان العباسي، كتب عليها بخط الثلث آية «مثل الذين ينفقون أموالهم...».

٦ - الصفة الواقعة شرق الإيوان العباسي كتب عليها حديث نبوي شريف بخط الثلث.

٧ - الصفة الشمالية للإيوان الشرقي كتب عليها حديث للإمام علي (ع) بخط الثلث لمحمد رضا إمامي.

٨ - صفة في جنوب الإيوان الشرقي كتب عليها حديث للإمام علي (ع) بخط الثلث لمحمد رضا إمامي.

٩ - صفة منزع الأحذية لإيوان الله وردی خان، كتب عليها حديث لأمرير المؤمنين علي (ع) بخط محمد رضا إمامي.

١٠ - الصفة الشرقية لإيوان نادري الذهبي وتحتوي على شبك برونزي، يُعرف بالشباك الفولاذي ويرى من خلاله داخل الحرم.

١١ - صفة في غرب الإيوان الناصري الذهبي المؤدية إلى الحرم كتب عليها حديث للإمام الرضا (ع) بخط محمد رضا إمامي.

١٢ - الصفة الجنوبية للصحن، لم يكتب عليها شيء.

الصحن الجديد (صحن الحرية): يقع شرقي الحرم طوله ٥٠/٨١ م وعرضه ٥١ م وتحيط به ٥٦ غرفة في الطابق الأسفل، وبعدها في الطابق العلوي، وتقع خلف أكثر الغرف غرف صغيرة وكبيرة، وتشير الكتابة - التي تعلو مدخل الإيوان الشرقي والإيوان الجنوبي في هذا الصحن - إلى أن بناءه قد أنجز في أيام فتح علي شاه وتم تزيينه بالقاشاني في عهد محمد شاه. وارتفاع إزارة الصحن المرمرية القائمة اللون ٤٤/١ م، وتم تزيين الجدران والأعمدة والأبواب مما فوق الإزارة بالقاشاني الملون.

وفي وسط الصحن وفي مكان المسقاة التي أزيلت فيما بعد يوجد حوض كبير يمكن أن ترى فيه المسقاة المذكورة المتكونة من قطعة حجرية واحدة. وفي الصحن أربعة أواوين كبيرة تقع في جهات الصحن الأربع:

١ - الإيوان الغربي: ومدخل الباب الذهبي الناصري، طوله ٣٠/١٥ م وعرضه ٢٥/٧ م وارتفاعه ١٠/٢٠ م، ويتصل هذا الإيوان بدار السعادة عبر باب ذهبي وممر صغير وباب ذهبي آخر ومنها إلى داخل الحرم. وقد غطيت أرضية الإيوان وإزارته إلى ارتفاع مترين بالرخام. وتوجد فوق هذا الإيوان أربع غرف غلفت جدرانها الداخلية بصفائح ذهبية. ويشاهد داخل الإيوان كتابة بخط نستعليق البارز لسرخوش تحمل تاريخ ترميم وتذهيب الإيوان وأسماء القائمين بذلك، وقد كتبت سورة «النبأ» حول واجهة المدخل بخط الثلث وباللون الأبيض على القاشاني اللزوردي، فيما تضم الكتابة التي تعلو المدخل اسم آصف الدولة والي خراسان باني الإيوان والرواق بخط الثلث الأصفر اللون وعلى القاشاني اللزوردي.

٢ - الإيوان الشرقي: وطوله ٨٠/١٥ م وعرضه ١٠/٧ م وارتفاعه ١٠/٢٠ م، وقد فرشت أرضيته بحجر الخلع وإزارته بالرخام القائم اللون. وزين ما فوق الإزارة حتى السقف المقرنص بالقاشاني. وقد كتبت حول الإيوان سورة «القيامة» و«العصر» بخط الثلث وباللون الأبيض على القاشاني اللزوردي، كما كتب على واجهة الإيوان وبخط الثلث الأصفر اللون تاريخ تزيين محمد شاه للصحن والإيوان في ١٢٦٣/١٨٤٧.

٣ - الإيوان الجنوبي: طوله ٣٠/١٨ م، وعرضه ٣٠/٧ م، وارتفاعه ٢٠ م، وكان خلف هذا الإيوان سابقاً مطبخ لخدمة الروضة هدم وألحق فيما بعد بصحن الإمام الخميني (المتحف سابقاً). ويؤدي الصحن الجديد حالياً إلى صحن الإمام عن طريق هذا الإيوان. وأرضية الإيوان من حجر الخلع وإزارته من الرخام القائم اللون، وقد زين ما فوق الإزارة وحتى السقف بالقاشاني. وتوجد في هذا الإيوان أربع غرف كتب تحت كل منها وعلى التوالي سور

«الكافرون والتوحيد والفلق والناس»، وتتوسط الإيوان كتابة تحمل رواية عن الإمام الرضا (ع)، وأخرى عن النبي الأكرم (ع) بخط الثلث. كما كتبت سورة «المنافقون» حول الإيوان بخط الثلث وعلى القاشاني الأبيض وأرضية لازوردية. ويعود تاريخ كتابتها إلى ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م، وتعلو واجهة الإيوان وبخط الثلث وعلى القاشاني الأصفر وبأرضية لازوردية كتابة تشير إلى سنة تزيين وترميم الإيوان والتي كانت في عهد محمد شاه.

٤ - الإيوان الشمالي: وطوله ١٧/٢٠م وعرضه ٧/١٩م وارتفاعه ٢٠م. وأرضيته من حجر الخليج وإزارته من الرخام القاتم اللون، وقد زينت الجدران ما يعلو الإزاره وحتى السقف المقرنص بالقاشاني. وتوجد على واجهة هذا الإيوان من داخل الصحن وفوق بوابته كتابة بخط الثلث الأصفر على القاشاني اللازوردي اللون، ورد فيها تاريخ تزيين مؤتمن الملك للإيوان ووقفه في عهد ناصر الدين شاه. كما تحيث بالإيوان كتابة تحمل آيات من القرآن الكريم بخط الثلث وباللون الأبيض وأرضية لازوردية.

صحن الإمام الخميني (المتحف سابقاً): يقع جنوب الصحن الجديد وجنوب غربي الحرم المطهر. وهناك عدد من الحوانيت القديمة الخربة ومدرسة نصف خربة تدعى مدرسة «بأسفل القدم» أو مدرسة سعد الدين. كانت قد باعته مديرية سدانية الحرام في ١٩٣٧م ومعها بعض البيوت بنايات القديم الأخرى، ثم أزالها لتبني مكانها صحناً آخر وعمارات للمتحف والمكتبة، وقد افتتحت هذه المباني في ١٩٤٥م، بعد أن استمر العمل بينائها ثمانين سنوات. وفي ١٩٧٤م هدمت كل هذه المباني (المتحف والخزانة والمكتبة) أضيفت أرضها البالغة ١٠٠٠م^٢ إلى الصحن بغية توسيعه بحيث صارت مساحة صحن المتحف ١٠,٠٠٠م^٢. وقد رُصفت أرضية الصحن بالكونكريت وبارتفاع ١٥سم، ثم فرشت بالأحجار. ١٣/٤٠م في وسط الصحن. ويرتبط هذا الصحن من جهة الشمال بالصحن الجديد عبر بوابة مرتفعة ورائعة تعلوها مقرنصات بديعة. وفي الجهة الشرقية للصحن توجد بنايات جديدة وفخمة كالمتحف والمكتبة والخزانة، وقد بنيت على الطراز الإسلامي التقليدي. ويتصل هذا الصحن من الغرب بالإيوان الشرقي لمسجد كوهر شاد عبر مدخل عال رائع آخر. وعلى طول الضلعين الشمالي والغربي للصحن توجد أطواق مزينة بالقاشاني على شكل طابقين. أما الضلع الجنوبي فيتصل عبر الحواجز المعدنية والأبواب بالارح الداري العريض الذي يحيط بكل أبنية الروضة المقدسة.

صحن الجمهورية الإسلامية: بوشر ببناء هذا الصحن في ١٩٨١م على أرض مساحتها

٢٥٠٠٠، تتوسط المدخل الأعلى ومسجد گوهر شاد، حيث كانت منطقة فسيحة ومشهداً مائياً ولا زال العمل بينائه مستمراً حتى الآن. وسيصل هذا الصحن من خلال المدرسة التي تلي الرأس المبارك برواق دار السيادة ومنها بالحرم المطهر.

صحن القدس: وتشكل الساحة الأمامية لصحن الإمام ومسجد كوهر شاد والأبنية الدائرية الخارجية والداخلية بمجموعها صحن القدس.

٥ - الأروقة: وعددها ١٥ رواقاً، وهي تشكل جزءاً من أبنية الروضة المقدسة وفيما يلي شرحها:

دار الحفاظ: وتقع جنوب الحرم وهي من أبنية كوهر شاد. يبلغ طولها ١٨ م، وعرضها ٨/٦٥ م، وارتفاعها حتى السقف ٨/١٢ م وإلى ما وراء السقف ٤٦/١٤ م، ويوجد في دار الحفاظ ٧ صفوف. لأربع منها أبواب تؤدي إلى الحرم المطهر ورواق أبك كيرزا أو (ابكه ميرزا) ودار السيادة، وممر منزع الأحذية لمسجد كوهر شاد. ويزين جدران دار الحفاظ إزارة من أحجار مطعمة رائعة جداً وبارتفاع ٧٠/١ م، ثم يليها لوح حجري عليه أبيات للقاتني.

دار السيادة: وتقع غرب المسجد المواجه للرأس المبارك وهي من أبنية كوهر شاد، وتعد من أكبر أروقة الحرم حيث يبلغ طولها ٣١/٨٦ م ويعرض متفاوت الأبعاد يشتمل على ثلاثة أقسام: عرض القسم الأوسط والأكبر ٣٠/١٩ م، وعرض القسمين الآخرين ٧٦/٧ م، ويرتفع الرواق من الأرضية حتى الطاق ٨٧/٢٠ م، ولدار السيادة عدد من الأبواب المؤدية إلى كل من الإيوان الشمالي لمسجد كوهر شاد والممر المعروف بالمسقاة، والذي يتصل بالإيوان الذهبي النادري ودار الحفاظ. وقد تعرضت دار السيادة والقبة لبعض الدمار أيام الصفويين إثر الزلزال الذي أصاب مدينة مشهد، ولكن الشاه طهماسب أصدر أمراً بترميمها. كما كتبت في أعلى الباب الذي يوصل إلى دار الحفاظ أبيات بخط نستعليق تشير إلى تاريخ ترميم الرواق، ولدار السيادة إزارة بالقاشاني المعرق بارتفاع ٨٠/١ م.

دار السعادة: وتقع شرق أروقة الروضة المقدسة بين الإيوان الذهبي للصحن الجديد ورواق حاتم خاني، طولها ٩٠/١٤ م وعرضها ٨٠/١٣ م وارتفاعها ٨٠/١٤ م، وقد بناها اللهيار خان آصف الدولة القاجاري وزينها بالمرايا علي أصغر خان أتابك. وترتفع إزارتها الرخامية ٤٠/١ م تعلوها صخرة رخامية بعرض ٤٠ سم، كتبت عليها قصيدة لصبوري بخط نستعليق يليها تزيين بالمريا حتى السقف.

دار الضيافة: رواق يتوسط بين الصحن الجديد ورواق (قبة) الله وردی خان طوله ٥/

١٥م، وعرضه ٢٥/٩م، وارتفاعه ٥/١٥م، وأرضيته من ارخام، وإزارته من الحجر المطعم بارتفاع ٥٠/١م، ويشاهد فوقه كتابة بخط الثلث بعرض ٤٠سم تضمنت سورة «الإنسان» وآية «الكرسي» تعلوها المرايا.

دار الذكر: وتقع في الموضع الذي ان سابقاً مدرسة علي نقی میرزا التي سقف وجدد بناؤها في ١٩٦٣ - ١٩٦٥م، وعرفت فيما بعد بدار الذكر. ويبلغ طولها ٧٢/١٥م وعرضها ٢٩/١٢م وارتفاعها ٩م. وأرضيتها من الرخام الأخضر وإزارتها من الرخام الأبيض وبارتفاع ٥٠/١م وزين ما فوق الإزارة بالمعرقات والسقف بالجص والمقرنصات.

دار السرور: ويقع هذا الرواق جنوب دار السعادة وشمال دار الذكر. وقد كان غرفة لإعداد الشاي سابقاً، ثم مكتباً للإدارة الداخلية للروضة المقدسة، ولكنه تحول في ١٩٥٥ - ١٩٥٩م إلى رواق كبير أطلق عليه اسم دار السرور. وطول الرواق ٨٠/٢٤م وعرضه ٨٢/٤م وارتفاعه ٧٥/٤م وقد أزر إلى ارتفاع ٤٦/١م بالرخام بينما زين ما فوق الإزارة وحتى السقف بالمرايا.

دار العزة: وكان هذا الرواق سابقاً محلاً خاصاً بخدمة الروضة المقدسة، إلا أنه وبعد تعميره وتزيينه تحول إلى رواق، وذلك في ١٩٦٣ - ١٩٦٥م. وطوله ٦/١١م وعرضه ١٢/٣م وارتفاعه ٣٥/٤م. وقد زينت أرضية دار العزة وإزارتها إلى ارتفاع ٤٨/١م بالرخام ومنها إلى السقف بالقاشاني، فيما زين السقف كله بالمرايا. ويتصل هذا الرواق من الشمال بدار السرور ومن الشرق بدار الذكر عبر ثلاثة أبواب ومن الغرب بدار السلام.

دار السلام: وهذا البناء في الأصل عمارة من طابقين، وكان من أبنية گوهرشاد، ثم صار بيتاً يحمل نفس الاسم، ولكنه استخدم مستودعاً للسجاد وداراً للاستراحة، وقد اتصل هذا المكان بعد تعميره وتزيينه في ١٩٥٥ - ١٩٥٩م برواق (قبة) إيك میرزا ليكوّن رواق دار ارسلام. وفي ١٩٦٧م اتصل بممر محل الخدمة السابق ليصبح رواقاً كبيراً يبلغ طوله ٢٠م وعرضه ١٠م وارتفاعه ٥/٩م. ولدار السلام ثلاثة أبواب تطل على باحة مسجد گوهرشاد ودار الحفاظ ودار العزة.

دار الشكر: وكانت تحفظ في هذا البناء المصاحف (المكتبة القديمة)، وبعد اتصاله بقسم من ممر المسجد بدار التوحيد تحول إلى رواق مربع عرف بدار الشكر، طول ضلعه ٥٠/٦م وارتفاعه ٥/٩م. وقد زينت أرضيته وإزارته لارتفاع ٧٠/١م بالرخام، ومنها إلى الأعلى بالمرايا، وكذلك سطح السقف الذي استبدلت مراياه بالقاشاني أخيراً.

دار الفيض: ويتكون هذا الرواق من مجموع أروقة مسجد الرياض وصفة الشاه طهماسب، والذي استبدل اسمه بدار الفيض بعد تعميره في ١٩٦٨ م. ويبلغ طوله ١٥/٨٥ م وعرضه ٥/٩٠ م وارتفاعه ٩/٥ م. وقد زينت أرضيته والإزارة لارتفاع ١/٦٧ م بالرخام، تعلوه كتابة على الرخام بعرض ٣٣ سم، تضمنت أشعاراً للقائي بخط النستعليق. وقد زينت الجدران مما يلي هذه الكتابة وحتى السقف المقرنص بالقاشاني المعرق.

دار التوحيد: [توحيد خانه] رواق يقع شمال الحرم بين الرواق الذي يلي الرأس المبارك والصحن القديم. وطوله ٨/٦٠ م وعرضه ٧/٣٥ م وارتفاعه ١٥ م. وأرضيته والإزارة لارتفاع ١/٦٠ م من الرخام. يليها كتابة بعرض ٥٠ سم تضم أسماء الأئمة الاثني عشر (ع) بخط الثلث، فيما زين ما فوقها وحتى السقف بالمرايا. وترتبط من الشرق بباب يؤدي إلى رواق الله وردي خان، فيما يربطها من الغرب باب آخر بالإيوان الذهبي للصحن الجديد.

رواق (قبة) حاتم خاني: بناه حاتم بيك اوردوبادي أحد الأمراء الصفويين حوالي ١٠١٠هـ/١٦٠١ م. ويقع هذا الرواق شرق الحرم ويرتبط به عبر باب ذهبي مما يلي أسفل القدم المباركة. ويتصل هذا الرواق بدار السعادة من جهة الشرق عبر صفة كبيرة ومرتفعة. كما يتصل من الشمال برواق الله وردي خان من خلال صفة أيضاً، فيما يتصل جنوباً بموضع خافرة الخدم. يبلغ طول الرواق ١٣/٥٠ م وعرضه ٧/٣٠ م وارتفاعه ١١/٦٠ م وأرضية الرواق وإزارته إلى ارتفاع ١/٥٠ من حجر الخلع المطعم، ونقشت فوق الإزارة قصيدة على الحجر عرضها ٤٠ سم، وقد غلقت الجدران مما يلي الكتابة وحتى السقف بالقاشاني المعرق. وفي ١٩٦٧ م افتتح ممر آخر يربط الضلع الجنوبي لهذا الرواق بدار السعادة.

رواق (قبة) الله وردي خان) لهذا الرواق ثمانية أضلاع وقد بناه الله وردي أحد أمراء الدولة الصفوية، ويقع شرق دار التوحيد وشمال شرقي قبة حاتم خاني. ويبلغ ارتفاع الرواق من الأرضية حتى سقف القبة ١٦/١٩ م، وقد غطيت أرضيته والإزارة إلى ارتفاع ١/٩٠ م بالرخام منها إلى الأعلى بما في ذلك السقف نفسه زين بالقاشاني المعرق. وتوجد صفة في كل ضلع من أضلاعه الثمانية، وفوق كل صفة صفة أخرى أصغر منها، وتتصل الصفف السفلى بكل من الصحن القديم ودار التوحيد ورواق حاتم خاني ودار السعادة.

رواق دار الولاية: وهذا الرواق من أبنية عهد الجمهورية الإسلامية والذي سيشتد على أرض مساحتها ٢٣٠٥ م^٢، وسيربط من الشرق بمدرسة دو درب ومدرسة پرزاد، ومن

الجنوب بالصحن القديم (الثورة)، ومن الشمال بالحرم المطهر، ومن الغرب بصحن الجمهورية الإسلامية.

المسجد الذي يلي الرأس المبارك [بالأسر]: ويتصل هذا المسجد بالحرم ويقع بينه وبين دار السعادة. بناه أبو الحسن العراقي (ت ٤٢٩هـ / ١٣٠٨م) الكاتب في الديوان الغزوني. فرشت أرضية المسجد وزينت إزارته لارتفاع ٩٠/٥٠م بالرخام، ما فوق الإزارة بالقاشاني المعرق السداسي والثماني الأضلاع. وكانت جدران المسجد وسقفه مزينة بالمراميا في العهد الناصري، وفي سنة ١٩٦٥م زينت بالقاشاني المعرق. وقد كتبت على أطراف جدران المسجد آيات من القرآن المجيد بخط الثلث. كما كتبت في المحراب الواقع جوار الصفة المتصلة بالحرم والباب الشرقي للمسجد بعض الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.

٦ - المدخل: المدخل هو بناء يقع خارج الصحن المقدس ويعد بداية لأبنية الروضة المقدسة. وكان هذا البناء سابقاً جداراً حجرياً بسيطاً له ثلاث فتحات متساوية لتردد الزائرين، ويعتق عليها غالباً علامة السلسلة؛ دليلاً على الأمان لمن يلجأ للروضة المقدسة. وتوجد حالياً ثلاثة مداخل واحد في الشرق، والآخر في الغرب، والثالث شمال الصحن القديم.

المدخل العلوي: ويطلق على القسم العلوي من الشارع عند تقاطع الدوار وحتى الإيوان الغربي للصحن القديم. وقد قام نائب السدانة السيد جواد ظهير الإسلام (ت ١٩٦٥م) في عهد أحمد شاه باستبدال الجدار الحجري البسيط الذي يقع غرب المدخل ببناء أوسع، ولكنه أزيل هو الآخر أيضاً في ١٩٦٢م، وشيد مكانه في ١٩٦٣ - ١٩٦٥م بناء أكبر طوله ٣٠م وعرضه ١/٢٥م وارتفاعه ٨/٧٠م ويحتوي على خمسة معابر، وقد طرأت بعض التعديلات على هذا البناء إثر تجديد بناء الحرم وتوسيع مساحته وذلك في ١٩٧٤م، ولكنها أزيلت فيما بعد؛ ثم جدد بناء المدخل على طراز حديث في عهد الجمهورية الإسلامية ولا زال قائماً.

المدخل السفلي: وهو القسم الأسفل من الشارع المحيط بالحرم، ابتداءً من محل تقاطع الدوار وحتى الإيوان والبوابة الشرقية للصحن والذين أطلقوا عليه اسم المدخل السفلي. والجهة الشرقية لهذا المدخل قديمة البناء كالمدخل العلوي، حيث أزيلت واستبدلت في ١٩٦٣ - ١٩٦٥م ببناء جديد كالمدخل العلوي. كما جرت على هذا البناء بعض التعديلات في ١٩٧٤م، ولكنه سرعان ما أزيل ليجدد بناؤه مع المدخل العلوي ولا زال بناؤهما قائماً.

مدخل الطبرسي: ويقع في شمال الحرم المطهر ويفصل بين شارع الطبرسي والإيوان

العباسي، وقد بني بعد انتصار الثورة الإسلامية بجوار الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية. المدخل القبلي: في الفترة الأخيرة طرح مشروع إنشاء مدخل مقابل صحن الجمهورية الإسلامية، وقد أنجزت بعض التمهيدات والأعمال الأولية لهذا المشروع. وأطلق عليه اسم المدخل القبلي لكونه سيواجه القبلة.

٧ - المؤسسات الثقافية:

تعد المكتبة، والمتحف، وجامعة العلوم الإسلامية، ومؤسسة البحوث الإسلامية، والمؤسسة الثقافية الرضوية، ومؤسسة الطباعة والنشر من المؤسسات الثقافية للروضة المقدسة.

المكتبة: لا توجد معلومات دقيقة حول تاريخ تأسيس مكتبة الروضة الرضوية المقدسة، ولكن الشواهد التاريخية تفيد بأنه كان هناك محل لحفظ المصاحف والكتب الموقوفة للروضة المقدسة. يدل على ذلك أسماء بعض الواقفين للكتب التي كانت تحملها المصاحف والكتب الموقوفة وتواريخها، حيث يعود أقدم قرآن موقوف إلى عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م، كما أن هناك بعض أجزاء القرآن التي أوقفها أبو البركات علي بن الحسين في ٤٢١/ ١٣٠. ومما يذكر في هذا المجال وجود قرآن يعود إلى القرآن ٥هـ/ ١١م، أوقفته شهريستي بنت الأمير أبي العباس خسرو بن ركن الدولة الديلمي. وقد خصص لها مكان مع مرور الأيام وتتابع وقف المصاحف والكتب. فكان في الزاوية الجنوبية لإيوان أمير علي شير موضع لحفظ المصاحف المخطوطة، وأطلق عليه اسم دار القرآن ويشاهد في وقفية كتاب غاية الوصول (٨٢٥هـ/ ١٤٤٢م) جملة (خزانة الكتب)، وهذا ما يؤكد وجود المكتبة في الروضة المقدسة في القرن ٩هـ/ ١٥م. وقد تعرضت المكتبة أثناء هجوم الأزيك على مشهد في ٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م إلى الضياع، حينما امتدت إليها يد النهب والسلب وضاع العديد من المصاحف والكتب النفيسة، وقد صرح بهذا إسكندر بيك منشي حينما ذكر «مكتبة سركار فيض» في كتابه عالم آري عباسي. ثم جمع الشاه عباس ما تبقى من الكتب وأسس منها ومما أوقفه والشيخ البهائي مكتبة جديدة وعين لها مديراً. وكان يستفاد منها في عهد الأفشاريين. كما أوقف لها نادر شاه كتباً أيضاً. وقد ورد في طومار علي شاه (ظ: القسم الرابع من هذه المقالة). أسماء العاملين في المكتبة آنذاك مع ذكر أعمالهم ورواتبهم. وكان يستفاد منها في عصر القاجاريين أيضاً. وفي ١٩٦٣ - ١٩٦٥م أزيلت الأبنية القديمة الواقعة في الضلع الشرقي للمتحف، وأقيم مكانها قاعة له مكونة من ثلاثة طوابق. وتتصل هذه العمارة من الجنوب بصحن المتحف ومن الغرب

بالمكتبة ويقع ضلعها الشمالي خلف أبنية الصحن، وقد أزيل هذا لابناء فيما بعد، وأضيفت أرضه إلى فناء صحن الإمام.

وفي ١٩٧٤م بنيت عمارة ذات خمسة طوابق للمكتبة وللخزانة والمتحف على أرض تزيد مساحتها ١٠,٠٠٠م^٢، وذلك في لاضلع الشرقي لصحن الإمام، حيث يقع طابقان من هذا البناء تحت سطح الأرض، فيما توجد الطوابق الثلاثة الأخرى فوقها. وتبلغ مساحة كل طابق حوالي ٢٠٠٠م^٢. وقد خصص أحد الطوابق السفلى لخزانة الروضة والثاني للمخطوطات وصالة للعرض. وجدران هذين الطابقين من الكونكريت وأبوابهما محكمة. ويقع المتحف في الطابق الأرضي. أما الطبقة الأولى فتحتوي على قاعتين للمطالعة إحداهما للرجال والأخرى للنساء، كما يوجد في هذا القسم مصعد خاص للكتب والخدمات اللازمة. ويقع مخزن الكتب في الطابق الثاني ويضم إدارة المكتبة أيضاً، وقد توفرت في هذه العمارة كافة المستلزمات الخاصة بحفظ الكتب والأشياء الثمينة كالتأسيسات الأمنية والرصد التلفزيوني ووسائل الإطفاء وأجهزة التكييف المركزي وجهاز تنظيم حرارة الجو المناسبة للمكتبة والمتحف؛ كما اتخذت التدابير الخاصة لعرض المصاحف والمخطوطات النفيسة، حيث وضعت داخل صناديق زجاجية مختلفة ليتسنى مشاهدتها. وتعتبر مكتبة الروضة المقدسة كنزاً عظيماً وثميناً بما حوته من مصاحف ومخطوطات نادرة جمعت خلال عدة قرون. هذا بالإضافة إلى اللوحات الثمينة وبخطوط أساتذة الخط الكبار. ويوجد في هذه المكتبة ٢٢٩٠ نسخة من المصاحف النفيسة بالخط الكوفي والنسخ والثلاث، حفظ أندرها وأكثرها نفاسة في خزانة خاصة. والكثير من هذه المصاحف مذهب، فيما يوجد عدد منها كتبت كل آياته بماء الذهب.

وقد أوقفت كل من مكتبة ملك في طهران، ومكتبة وزيري في يزد لمكتبة الروضة المقدسة، وذلك من قبل مؤسسيتها الحاج حسين آقا ملك والحاج سيد علي محمد وزيري، وتداران بإشراف المكتبة المركزية، للروضة المقدسة. كما توجد عدة شعب تابعة للمكتبة المركزية منها شعبتان باسم مكتبة مسجد الرضا رقم ١ و٢، بالإضافة إلى مكتبة مروج يزد ومكتبة ناين. وقد بلغ عدد الكتب في مكتبة الروضة المقدسة حسب إحصاء ١٩٨٥ كما يلي:

المطبوعة ١٤٩,٠٠٠ مجلد، والمخطوطات ١٥٠٧٠ مجلداً، والمصاحف المخطوطة النفيسة ٢٢٩٠ مصحفاً، والأجزاء القرآنية المخطوطة ٨٧٥٠؛ وعدد الكتب في المكتبات التابعة لها ١٥,٠٠٠ مجلد، ومجموع كل الكتب ١٩٠١١٠ مجلدات.

وبعد انتظار الثورة الإسلامية تقرر بناء عمارة جديدة للمكتبة تتلاءم ونموها المطرد. وعلى هذا الأساس بوشر ببناء المكتبة على أرض مساحتها ١٢,٠٠٠م^٢ وبثلاثة طوابق لتضم مليون كتاب. ويقع هذا البناء مقابل ملتقى شارعي الطبرسي وبالاخيابان الواقع في الضلع الشمالي لدوار الروضة.

كنز المصاحف: في ١٩٦١م جمعت المصاحف النادرة والتي تمتاز بجودة الخط والتذهيب والترصيع والتجليد وغيرها من المزايا، ووضعت في مكان أطلق عليه اسم كنز المصاحف، ووضع لكل مصحف بطاقة خاصة به تحتوي على كل مواصفاته. وأقدم مصحف مخطوط في هذا الكنز أوقفه للحرم الرضوي أبو القاسم منصور بن محمد بن كثير وزير السلطان محمود الغزنوي وصاحب ديوانه، وذلك في ربيع الأول ٣٩٣/ حزيران ١٠٠٣، وإن أحدث وقف لقرآن مخطوط هو مصحف بخط النسخ من القرن ٩هـ/ ١٥م يعود لـ«بايسنقر بن شاهرخ بن تيمور گوركان»، وقد أوقف في ١٩٦٨م، وهو غاية في النفاسة من حيث الخط والتذهيب والترصيع. ويبلغ عدد المصاحف في هذا الكنز ٢٠٠ نسخة.

المتحف: حفظت في متحف الروضة المقدسة تحف أثرية نفيسة جداً لا نظير لها، حيث جمعت في الخزانة الرضوية خلال عدة قرون. ويحتوي المتحف على مسكوكات نفيسة تعود إلى عصور ما قبل الإسلام، وكذلك مجوهرات ثمينة وفرش وسيوف وخناجر مرصعة تعود إلى أمراء وحكام العصور المختلفة، كما يحتوي على أشياء أثرية أخرى كالمنبر ومسقاة حجرية وشمعدان وثرديات وهي الآن مرتبة ومعرضة للعموم. وتصرف عوائد المتحف لشراء الكتب. وبالإضافة إلى متحف الروضة المقدسة المركزي توجد متاحف أخرى تابعة لها وتحت إشرافها الإداري منها: متحف ملك آباد في قصر الشاه السابق والمتحف الشعبي الذي لم يفتتح بعد.

جامعة العلوم الإسلامية: تأسست هذه الجامعة بعد انتصار الثورة الإسلامية وتقع بجوار مدخل الطبرسي وقرب الإيوان العباسي. وقد أقيمت في موضع مدرسة ميرزا جعفر القديمة بعد أن أضيف إليها مدرسة خيرات خان وعدد من الأبنية المحيطة بها. وفي هذه الجامعة ٢٢ غرفة درس و٢٥٠ سريراً، ومسجد ومغسل للملابس وغرفة لإعداد الشاي، كما يوجد حانوت ومطعم وقاعة اجتماعات. وتبلغ مساحة هذه الجامعة ٢٢,٠٠٠م^٢.

مؤسسة البحوث الإسلامية: تأسست في ١٩٨٥م وتمارس هذه المؤسسة نشاطها بمساعدة أساتذة الجامعة والحوزة العلمية في ميادين العلوم الإسلامية والدراسات الاجتماعية

واللغات الأجنبية والنشرات الدورية وإصدار الكتب. وتقع هذه المؤسسة في شارع الشهيد منتظري قرب محطة التلفزيون بمشهد المقدسة.

المؤسسة الرضوية الثقافية: وهي مؤسسة تعليم وتحقيق تشمل كل مراحل الدراسة من الابتدائية حتى الجامعة، حيث يدخلها طلبة العلوم تمهيداً للالتحاق بالدراسات العليا. مؤسسة الطباعة والنشر: تأسست في ١٩٨٣م، والهدف من تأسيسها هو التأليف والترجمة والتصحيح وإصدار الكتب والاطلاع على الآثار الإسلامية والبحوث الحديثة في مختلف العلوم والفنون، وتقع هذه المؤسسة في شارع كوه سنكي [الجبل الصخري] في مشهد المقدسة.

الموقوفات:

ويقصد بموقوفات الروضة المقدسة، الأموال والأموال التي أوقفت أعيانها على الروضة، وتصرف أرباحها وعوائدها عليها. ولا تزال سندات وقف الكثير من الأموال المنقولة وغير المنقولة والتي أوقفت خلال العصور للحرم الرضوي باقية، وهي ذات قيمة تاريخية كبيرة، وكان الكثير من موقوفات الأثرياء والأمراء، والحكام مخصص للزوار والمحتاجين المجاورين للحرم والمعتكفين فيه. كما أن الزوار أنفسهم كانوا يوقفون ما باستطاعتهم عن طيب خاطر. وقد ضاع عدد من وثائق الوقف خلال غارات المغول والأزبك والأفغان المتعددة على مشهد. وأما الباقي منها فيعود إلى أوقاف العصر الصفوي. كما أن أسماء ومواصفات الأملاك الموقوفة التي استملكت ثم ضاعت لا تزال باقية. وفي عهد نادر شاه حجز ديوانه أملاك الروضة لفترة، ولكن ابن أخيه عادل شاه (علي شاه) أعاد تلك الموقوفات المحجوزة بعد أن أضاف عليها ١٠٠ قطعة أرض زراعية من ممتلكاته الخاصة وأملاك الدولة، ونظم صورة وافية لتلك الموقوفات والمزارع والأملاك على طومار سمي (طومار علي شواه)، يحفظ في مكتبة الروضة. وفي عهد ناصر الدين شاه نظم عضد الدولة نائب سادن الروضة آنذاك فهرساً بالأملاك والعقارات الموقوفة للروضة المقدسة. وقد وقع على هذا الطومار أمناء سدانة الروضة وعلماء ذلك العصر بأمر من السلطان ناصر الدين شاه، وحفظ في مكتبة الروضة المقدسة. وقد تتعرض الأملاك الموقوفة وعوائدها لسوء التصرف، أو يقل الانتفاع بها حينما تضطرب الأوضاع السياسية، أو عندما يتصدى لسدانة الروضة الضعفاء والمصلحيون، وقد صرح بهذا المعنى طومار علي شاهي وطومار عضد الملك. ولهذا فإن الهدف من تسجيل الموقوفات هو السعي للحيلولة دون وقوع مثل هذه الحوادث:

وقد سجلت في العقود الأخيرة موقوفات الروضة المقدسة بشكل تدريجي وصدرت لها سندات ملكية باسمها .

وتشتمل موقوفات الروضة غير المنقولة، إضافة إلى الممتلكات الزراعية والأسواق الكبيرة منها والصغيرة، الأراضي والمعامل والمستشفيات والحمامات والحدائق والقنوات والحوانيت والمنازل . ويقع قسم كبير من هذه الموقوفات في مشهد ومدن خراسان، والبقية في طهران وقزوین ورشت و مازندان و آذربيجان وكرمان وأصفهان وشيراز . وقد حدد الواقفون وجوه الصرف والاستفادة لأغلب موقوفاتهم . بينما أطلق وقف البعض ولم يحد وترك أمر التصرف بها للسادن . أما الأملاك التي فقدت سندات وقيمتها فتعد من النوع الثاني . وهناك نوع من الموقوفات حدد الواقفون التصرف بقسم منها وترك القسم الآخر تحت تصرف سداة الروضة المقدسة .

السداة والمؤسسات الإدارية :

لا توجد معلومات دقيقة عن كيفية سداة الروضة المقدسة ومؤسساتها الإدارية ما قبل طهماسب الأولى الصفوي (٩٢٠ - ٩٨٤هـ / ١٥١٤ - ١٥٧٦م) . ولكن القرائن والآثار تشير إلى وجود خدم ومباشرين منذ القدم، كما يذكر الإربلي (ت ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م) في كتابه كشف الغمة، أن امرأة كانت تتولى خدمة البقعة المباركة في أيام السامانيين . ثم تولى النقباء والذين كان أكثرهم من السادات والعلماء إدارة البقعة الرضوية قبل عهد الصفويين . وتحدث خواند مير عن «السادات العظام والنقباء الكرام للروضة الرضوية المقدسة» . وأورد عدداً من أسماء أولئك النقباء . وأول من حمل لقب (نقيب المشهد الرضوي) هو ميرزا بدر الدين النقيب (القرن ٨هـ / ١٤م)، وكان معاصراً للسلطان محمد خدابنده (الجابتي) الذي حفظ مدينة مشهد من غارة «يساور» ونهبه، وفي أيام شاهرخ التيموري كان نقيب المشهد الرضوي علاء الدولة علي حميدي العلوي المشهدي الرضوي، والذي أوكلت إليه گوهرشاد في وقيمتها تولية «البقاع المباركة والأوقاف المذكورة» لمسجد گوهرشاد . وقد ظلت إدارة الروضة المقدسة بأيدي النقباء حتى عهد طهماسب الصفوي الذي أوقف بعض الممتلكات لها وعين سادناً من غير النقباء . وكان أول السدنة في عهده الأمير أبو الولي بن مير شاه محمود الأنجوي الشيرازي الذي كان «سيداً فاضلاً فقيهاً شديد الالتزام بالنشيع» (اسكندر بيك ١ / ١٤٩)، وفي عهد الصفويين كان يعين شخصان للسداة أحياناً .

وأما العاملون في الجهاز الإداري للروضة المقدسة فهم عدد من الخدمة والفراشين والمقرئين والذين هم تحت إشراف رئيس الخدم، فريئس الحراس، ثم رئيس الحفاظ على التوالي. وهناك عدد من الموظفين الإداريين والمشرفين على الأملاك. وللخدم والعمال في الروضة مرتبات مخصصة تدفع لهم كل عام على شكل نقد وغللات من عوائد الموقوفات. وفي عهد نادر شاه رتبت موقوفات الروضة إلى حد ما وصارت رواتب الخدم، تعطي مما يرميه الزائرون داخل الضريح من نقود ونذور، وتقلص عدد الخدم من ٥ إلى ٣ أشخاص. وقد ورد في طومار علي شاه ذكر لمرتبات وواجبات السادن والعمال بما في ذلك المشرف ورئيس الحرس والبواب وصاحب الختم والمدرجس ورئيس الخدم وقارئ الزيارة ورئيس الحفاظ والإمام والخطيب والواعظ وآخرون. كما أن هناك أيضاً قراراً مفصلاً بصرف بعض عوائد الموقوفات على الخدمات العامة كالإنارة وإطعام الفقراء وعلاج المرضى وصيانة الأبنية ورواتب العاملين. وكانت الشؤون المالية للروضة المقدسة تدار على طريقة الحسابات الديوانية القديمة، وقد ظلت على هذا المنوال حتى أواسط العهد القاجاري، حيث كانت تحصى الإيرادات والمصروفات في نهاية كل عام، ويسجلها المحاسبون بالتفصيل على قوائم يوقع عليها السادن ويختمها. ولكن إدارة الروضة المقدسة اضطرت في منتصف العصر القاجاري بسبب بيع وشراء منصب السدانة وفساد المتصدّين، بحيث تصرف البعض بعدد من الممتلكات الزراعية والعقارات أو استملكوها. وفي ١٩٢٦م وضع قانون لإدارة الروضة المقدسة وظل ساري المفعول حتى ١٩٤٩م. وفي هذا العام شرع قانون جديد يتضمن ٩ بنود و٧٦ مادة ثم ألحقت به مادتان في ١٩٦١م، وفي عام ١٩٧٥م، وضع مشروع لتصنيف الموظفين في الروضة المقدسة مبني على أساس ضوابط ومقررات، حدّدت لكل منهم درجته ومرتبته وترقيعه وطريقة نقله واستخدامه، وقد دوّن نظام جديد للشؤون الإدارية والمالية في الروضة المقدسة لإدارتها. وفيما يلي نموذج تخطيطي لمؤسسة الروضة الرضوية المقدسة.

مسجد گوهر شاد:

وهو القائم خلف حرم الإمام الرضا (ع) ننشر عنه دراستين وقد يتكرر بعض ما فيهما:
يعدّ أحد أجمل مساجد العالم وقد عدّه البروفسور پوپ المستشرق الفرنسي ثامن بناية جميلة في العالم، ولكن عدّه البروفسور كريستي ويلسن في الرتبة الثانية عشرة. وفي كل الأحوال فإن المستشرقين لم يبالغا في وصف هذا البناء الجميل الخالد. أمرت ببناء هذا المسجد الجامع السيدة گوهرشاد بنت خواجه غياث الدين من أحداد جنگيزخان عام ٨٠٧ أيام

حكم الملك شاهرخ في هرات واستمر العمل في بنائه حتى عام ٨٢١ وحينما تم البناء طلبت گوهرشاد من الملك التيموري افتتاحه فأتى من هرات إلى مشهد وافتتح الجامع وأهدى إليه واحدة من أضخم وأثمن الهدايا ألا وهي ثريا ذهبية فيها المئات من الشموع لإضاءة المسجد الجامع يبلغ وزنها ٣٠٠٠ مثقال، أشرف على بناء الجامع المعمار الإيراني المشهور قوام الدين الشيرازي وقد ورد اسمه في أحد أجزاء المسجد: «عمل العبد الضعيف الفقير المحتاج لعناية الملك الرحمٰن قوام الدين بن زين الدين الشيرازي الطيان».

وقد جاء تاريخ إتمام البناء في ثلاثة مواضع من جدران المسجد الجامع، أحدها في واجهة الكتيبة للإيوان المقصورة الواقعة في الجانب القبلي.

«كتبه بايسنقر بن شاهرخ بن تيمور گورگاني في ٨٢١»، والثاني: «اتفق تحريرها في أوائل شهر الله المبارك رجب المرجب سنة إحدى وعشرين وثمانمائة». والثالث في جدران داخل المقصورة: «المنافق في المسجد كالطير في القفص، في شهور سنة إحدى وعشرين وثمانمائة» كما رود اسم گوهرشاد في الإيوان الشمالي للجامع: «أمرت بعمارة هذا المسجد صاحبة الرشد والرشاد المعظمة گوهرشاد».

تبلغ مساحة المسجد ٢٦٠٠م^٢ وفيه أربعة أو اوين في الجهات الأربعة وفي جوانب الجامع يوجد أروقة عديدة تستعمل لإقامة الصلوات، الإيوان الجنوبي المسمى المقصورة والإيوان الشمالي المسمى بـ(دار السيادة)، والإيوان الشرقي المسمى بـ(إيوان آب) والإيوان الغربي المسمى بـ(إيوان حاج حسن). وأعظم هذا الأواوين الأربعة هو الإيوان الجنوبي حيث يبلغ ارتفاع الإيوان ٢٧ متراً وعرضه ١٢ ذراعاً ويعلوه قبة عظيمة يبلغ ارتفاعها عن الأرض ٤٣ متراً وبأطرافها ممن الداخل كتبت آيات من القرآن الكريم بخط محمد رضا الأمانى الخطاط الشهير في العصر الصفوي. وفي جوانب هذه المقصورة عملت مقرنصات جميلة بالقاشاني الأزرق وكتبت عليها سورة الجمعة بخط محمد حسن الشهيد المشهدي أحد أشهر الخطاطين. أما أشهر الخطوط المكتوبة في المسجد فهو ما كتبه بايسنقر بن شانوح ابن كوهرشاد جاء في آخرها: «طلباً لمرضاته وشكراً على آلائه وحمداً على نعمائه فقبلها ربها بقبول حسن وبأحسن أجر المحسنين، كتبه راجياً إلى الله بايسنقر بن شاهرخ بن تيمور گورگاني سنة ٨٢١». وعلى جانبي الإيوان المقصورة مئذنتان جميلتان كُتِبَ على جدرانها «الملكُ لله» و«الله الباقي» بالخط الكوفي، كما كتبت على قواعدهما أشعار بالفارسية. تعرض هذا المسجد الجامع إلى أضرار بالغة نتيجة للزلازل والهزات الأرضية التي تحدثت كثيراً في

خراسان وقد عمر مرات عديدة آخرها بعد الخراب الذي لحق بأجزاء من القبّة والمآذن وجدران الجامع نتيجة لقصف الجيش الروسي حيث أصاب المسجد ٣٠ طذيفة مدفع .

وهذا المسجد يظل عامراً بالمصلين والزوار ويؤمه آلاف المصلين يومياً ولا تغلق أبوابه طوال السنة وله موقوفات عظيمة يصرف ريعهما على الخدم . وتجديد ما ينبغي تجديده^(١) .

تبلغ مساحة مسجد گوهرشاد ٢٧٥٠ متراً مربعاً ويحتوي على أربعة إيوانات وبعض القاعات الكبيرة لأداء فريضة الصلاة . واحد تلك الإيوانات الإيوان الصغير الذي يدعى بالفارسية «إيوان مقصورة» وهو الإيوان الجنوبي للمسجد ويعد أكبر إيوان في هذا المسجد وقد سمي بالإيوان الصغير مجازاً .

ولهذا الإيوان قبتان جميلتان ومئذنتان وعلى وجه البوابة الخارجية للإيوان كتابة بخط «بايسنقر بن شاهرخ» الذي يعد من كبار الخطاطين في الثلاث وذلك في عصره ويبلغ ارتفاع الإيوان ٢٥,٥ متراً ويوابته ١٢ متراً وطوله ٣٤ متراً وارتفاع المنارتين ٤٣ متراً وارتفاع القبّة ٤٣ متراً أيضاً، أما الخطوط الأخرى فهي للخطاط محمد رضا أمامي الأصفهاني الذي اشتهر في عصر السلالة الصفوية (١٠٨٧هـ) .

ولسنوات عديدة كان في وسط الصحن مسجد آخر تطلق عليه العامة اسم «پره زن» «المرأة العجوز» وهو مربع الشكل يبلغ طول ضلعه ١٢ متراً ويوجد على أطرافه اربعة، أربعة أحواض يمر منها ماء نهر، أما سبب وجود هذا المسجد داخل مسجد آخر فهو أن هذا المكان كان عبارة عن بيت امرأة عجوز أبت أن تبيعه لگوهرشاد، ثم أوقفته للحرم قبل موتها ولذلك جاء بشكل مسجد مستقل ويوجد داخل الإيوان محراب كتبت عليه آية الكرسي بالقاشاني المعرق والخط الكوفي باللون الأصفر كما نشاهد قصيدة شعرية مؤلفة من ثمانية عشر بيتاً مكتوبة تحت نقوش وزخارف جميلة على شكل باقات من الورد .

ومن الإيوانات الأخرى إيوان دار السيادة وهو الإيوان الشمالي للمسجد وقد جاء في كتابة بالقاشاني المعرق والخط اوصغر فوق أعلى باب أنيس الدولة الفضي قوله: «بني هذا المسجد الجامع في أيام دولة الخاقان الأعظم شاه عباس الصفوي الحسيني من عين مال المغفور المبرور خواجه صفر الجيلاني بسعي الفاضل الصالح المتقي مولانا حسن الخادم الجيلاني طلباً لنيل ثواب الآخرة... كتبه محمد حسين الشريف «كما كتب على الطرف

(١) حبيب الله حمدي .

الأيمن لهذه الكتابة» الأمرة بعمارة هذا المسجد صاحبة الرشد والرشاد العظيمة گوهرشاد «وعلى الطرف الأيسر» بني هذا المسجد الجامع في أيام دولة الخاقان شاه عباس من عين مال المغفور له خواجه صفر جيلاني ويبدو من الكتابة وواجهة الإيوان أن البيت والمقام بنيا في زمن الشاه سليمان الصفوي (١٠٨٧هـ) والكتابة أيضاً بخط محمد رضا أمامي الأصفهاني الخطاط المعروف في ذلك العصر.

والإيوان الآخر هو الإيوان الغربي الذي يقع في كلا الطرفين المتجهة منهما نحو القبالة والمخالف لها، وبه ثلاث طاقات كتبت عليها الأسماء الحسنی، كما كتبت عليها (سورة الأعلى)، بالقاشاني المعرق.

والإيوان الأخير هو الإيوان الشرقي وجميع خطوط هذا الإيوان من القاشاني المعرق النفيس والذي يعد آية في الجمال وفي الإيوان عدد من الغرف، كتبت على واجهة كل منها آيات قرآنية وتوجد حول الإيوان كتابة تنتهي بما يلي: «كتبه إبراهيم في سنة ألف ومائتين وستة وثلاثين» وعلى طرفي الإيوان كتبت كلمة «علي» بخط هندسي مربع الشكل وقد كتب على أعمدة المسجد حتى أعلاها «الله الباقي» بالقاشاني المعرق الذي يبدو غاية في الجمال.

ومن نفائس هذا المسجد منبر صاحب الزمان الذي يقع داخل إيوان مسجد گوهرشاد الصغير وقد شاده الأستاذ محمد الخراساني، الذي يعد من أكبر فناني الحفر على الخشب، وذلك سنة ١٢٤٢ في زمن فتح علي شاه القاجاري.

مشهد منطلق لطريق الحرير الجديد

نقطة تحول حاسمة حدثت في ١٣ أيار (مايو) ١٩٩٦ عندما اجتمع رؤساء ١٢ دولة و١٥٠٠ مندوب عن ٥٠ بلداً قرب الحدود بين إيران وتركمانستان للاحتفال بافتتاح خط سكك حديد مشهد - سرخس - تيجن (تيجان). يملأ هذا الخط الذي يبلغ طوله نحو ٣٠٠ كيلومتر الحلقة المفقودة في الخط القاري الذي يمتد من الصين عبر الجمهوريات المستقلة الآن كازاخستان وأوزبكستان وتركمانستان إلى إيران وتركيا، ومن هناك عبر اسطنبول إلى جنوب أوروبا.

هذا الخط من الصين إلى أوروبا يمر بالضبط في الطريق الذي كان يسلكه طريق الحرير القديم. إكمال هذا الخط القصير حاسم لأنه حول إيران نفسها إلى مركز رئيسي في شبكة سكك الحديد النامية عبر قارتي آسيا وأوروبا.

طريق الحرير الذي يسجد المصالح المشتركة للأمم في التنمية كان الموضوع الثابت في

احتفالات افتتاح خط «مشهد - تيجان» إذ أعلن في الاحتفال الرئيس الإيراني على أكبر هاشمي رافسنجاني: «اليوم نفتتح بالتعاون مع أصدقائنا في تركمانستان خط السكك الحديد الذي يحدد طريق الحرير القديم المشهور كرمز لعلاقات الشرق والغرب... فهو يختصر المسافة الطويلة بين الموانئ الصينية والخليج الفارسي، وهو جسر بين المنطقة والعالم». وقال الرئيس التركي سليمان ديميريل «إنها أسطورة تاريخية عادت إلى الحياة طريق الحرير لم يكن مجرد طريق بل يعني تجمع أمم عدة». وتحدث رئيس الوزراء الصيني لي بنغ الذي كان حاضراً أيضاً الاحتفال عن إنشاء «طريق الحرير للقرن ٢١».

هذا الافتتاح التاريخي لنقطة ارتباط «مشهد - تيجان» رافقه في فترة بضعة شهور طوفاناً من اتفاقات جديدة حول مشاريع تنمية وهياكل ارتكازية واتفاقات تجارية ثنائية ومتعددة الأطراف وتعاون اقتصادي عبر المنطقة كلها. وكانت زيارة رئيس الوزراء التركي نجم الدين أربكان إلى إيران في آب (أغسطس) ١٩٩٦، ذات أهمية استراتيجية عظمى، إذ أنها أول زيارة دولية لأركان بعد توليه المسؤولية ووقع رئيس الوزراء التركي الذي رافقه وفد يضم ١٠٢ رجل أعمال سلسلة اتفاقات ثنائية فتحت وفق تعبيره «عصراً جديداً للعلاقات الإيرانية - التركية».

واتفقت أيضاً إيران وتركيا على بناء خط سكك حديد جديد من تبريز في إيران إلى المدينة التركية «فان» في الجانب الشرقي من بحيرة فان، من هناك يمر خط نقل رئيسي للمراكب يعبر البحيرة ويتصل بخط السكك الحديد التركي عبر أنقرة واسطنبول ويقدم بذلك خطاً محسناً من إيران أوروبا. وفي الوقت نفسه أعلن وزير الطرق والمواصلات الإيراني أكبر توركان أن خطوط كهرباء عالية القوة ستبني لربط شبكات الطاقة الكهربائية لإيران وتركيا، ما يسمح بنقل الكهرباء من محطات الطاقة الكهرومائية في إيران إلى تركيا. وأخيراً توصلت تركيا وإيران إلى اتفاق لتقديم خدمات خاصة للصادرات الإيرانية عبر الميناء البحري التركي طرابزون على البحر اوسود.

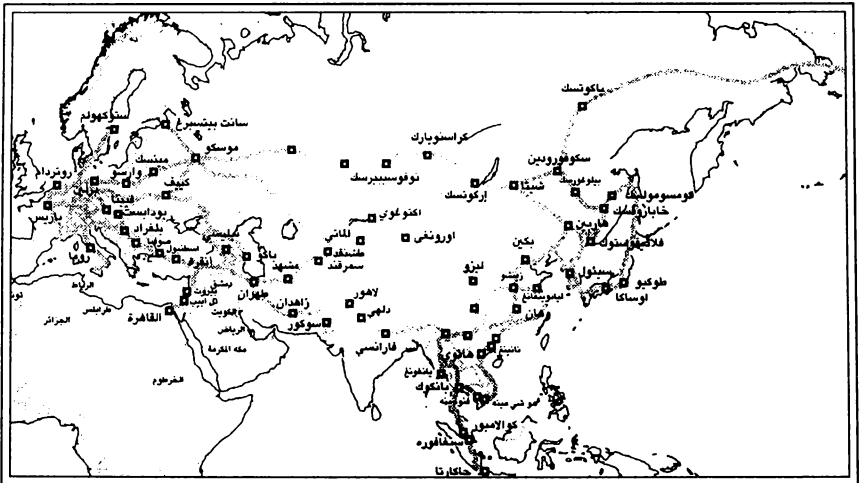
وتشير اتفاقات تطوير السكك الحديد والتفاهم المشترك بين إيران وتركيا بتشجيع من الصين وبعض الدول الأخرى إلى تحول بعيد المدى تماماً من المنافسة العدائية السابقة على النفوذ في وسط آسيا ومناطق أخرى باتجاه الاتفاق لصالح تعاون بعيد المدى. مشاريع كثيرة للنقل والطاقة مطروحة على الطاولة أو بدأ العمل فيها فعلاً تمتد من إيران شرقاً إلى باكستان والهند وشمالاً عبر القفقاس وآسيا الوسطى إلى روسيا. المفهوم التالي المثير الذي قدمه وزير الخارجية الإيراني يوضح سياسة حكومته: «لا يمكن أن تكون لدينا بلاد آمنة في منطقة موبوءة بالاضطرابات ولا يمكن أن يكون لدينا بلد غني في منطقة يسودها الفقر».

والصين التي حذر نابليون بونابرت الغرب من استيقتها استيقظت، وهي تمد الآن أولى خطواتها العملاقة عبر الكتلة البرية الآسيوية والأوروبية المترامية الأطراف ما بين المحيطات العالمية الثلاثة الهادي والهندي والأطلسي. سكك الحديد التي شرعت في بنائها تربط هونغ كونغ على بحر الصين بعبادان على الخليج الفارسي وشانغهاي على البحر الأصفر بروتterdam على بحر الشمال. هذه السكك أجزاء من مشاريع قارية يطلق الصينيون عليها اسم «الجسر القاري الأرواسيوي» جسر يتكون من أوراق ارتكازية سعة كل منها نحو ١٠٠ كلم تضم خطوط مواصلات واتصالات وأنابيب نقل الغاز وشبكات الطاقة الكهربائية عالية القوة ومنظومات الري وتجهيزات الماء.

تفاصيل المشروع الصيني العملاق الذي عقد حوله مؤتمر دولي في بكين العام الماضي تنشر لأول مرة في كتاب صدر بالإنكليزية في واشنطن عنوانه «الجسر البري الأورو آسيوي».

طريق الحرير:

يحمز الكتاب الذي شارك فيه باحثون أميركيون وصينيون وأوروبيون وعرب العنوان الفرعي: «طريق الحرير الجديد - قاطرة التطور الاقتصادي العالمي». ويستعيد الباحثون فيه



طريق الحرير الجديد يربط بالسكك الحديدية المنطقة العربية وآسيا وأوروبا

تاريخ طريق الحرير القديم الذي كان يمتد من الصين عبر سيبيريا شمالاً، وباتجاه جنوب شرق آسيا وأندونيسيا والهند، وإلى الجنوب نحو آسيا الوسطى وفارس وبحر الخزر والمنطقة العربية والسواحل الشرقية لإفريقيا، وذكر محرر الكتاب الباحث الأميركي الدكتور جوناثان تنباوم «أن المدن التجارية التي نشأت في الماضي على امتداد طريق الحرير تشكل عقداً يضم جواهر حضارية بينها أسماء خالدة لمدن عصر النهضة الإسلامية، مثل بخارى وسمرقند. يرتبط في اعتقاد مؤلفي الكتاب مصير ثلاثة أرباع سكان العالم الذي يعيشون في الكتلة القارية الأوروبية الجبارة بطريق الحرير.

أروقة ارتكازية :

وذكر الباحث العراقي حسين النديم الذي ساهم في تأليف الكتاب أن إحياء طريق الحرير القديم يمثل حالياً رؤية استراتيجية للسياسة الخارجية للصين. وهو بالنسبة للصينيين وللأمم التي تشاركهم فيه ليس مجرد أحلام وخطط على الورق، بل مشاريع أنفقت عليها الصين ودول أخرى بلايين الدولارات.

وخلال السنوات الأخيرة أكمل بناء «الحلقات المفقودة» التي تربط طريق الحرير الجديد الذي يمتد من بكين إلى روتردام.

وفي العام الحالي ينتهي العمل في أطول خط بري للألياف الضوئية يمتد عبر قارتي أوروبا وآسيا: جادة معلومات فائقة تربط الصين وباكستان وجمهوريات آسيا الوسطى والقفقاس وإيران وتركيا وأوكرانيا وبيلاروس وبولنده وهنغاريا وأقطار أوروبا الغربية. ويدعم الصينيون مالياً وتكنولوجياً مشاريع ربط آسيا وأوروبا عبر أروقة ارتكازية» تبلغ سعتها نحو 100 كلم. تتكون هذه الأروقة الارتكازية من خطوط مواصلات واتصالات وأنابيب نقل الغاز وشبكات الطاقة الكهربائية عالية القوة ومنظومات الري وتجهيزات الماء. وتيسر في الأروقة الظروف الملائمة لكل أنواع الصناعة والتعدين والزراعة والإنشاءات المدنية. ولا تبعد أي منطقة أكثر من 50 كلم عن «العروق» الارتكازية الرئيسية لطريق الحرير الجديد الذي تنفرع عنه فروع وشرايين في كل الاتجاهات.

نقل التكنولوجيا :

إنشاء الأروقة يدشن في رأي مؤلفي الكتاب أعظم الفترات في بناء الهياكل الارتكازية وتوظيف الاستثمارات في التاريخ العالمي فتجربة نشر الهياكل الارتكازية التكنولوجية الحديثة

على امتداد طريق الحرير الجديد وتشغيلها وصيانتها تدشن أضخم عملية نقل تكنولوجي شهده العالم. وتعمل هذه الأروقة الارتكازية حال تشغيلها كأحزمة لنشر التقدم العلمي والتكنولوجي عبر الكتلة القارية الأوروبية وآسيوية.

بناء مئات المدن والمناطق الزراعية والصناعية على هذه المساحة التي تبلغ 6 ملايين كيلومتر مربع يقدم حقل تجارب وتنمية لكل أنواع التكنولوجيات الجديدة من القطارات التي تسير على مخدات كهرومغناطيسية إلى الطاقة النووية لتحلية مياه البحر.

ويسخر مؤلفو الكتاب من تجاهل الصحافة الغربية «طريق الحرير الجديد» الذي يبرهن أن بلدان العالم الثالث تستطيع بالاعتماد على نفسها الانطلاق في القرن الحادي والعشرين. ويعوض طريق الحرير الجديد المنطقة الأوروبية وآسيوية عن الدمار الذي ألحقها بها الحرب الباردة طيلة ٤٠ عاماً دمرت اقتصادات أقطار بكاملها في وسط وشرق أوروبا وبلدان آسيا الوسطى وأولدت كوارث دموية، مثل الحروب الكورية والفيتنامية والأفغانية وحروب الشرق الأوسط ومنطقة الخليج. وطريق الحرير الجديد، وفق اعتقاد الباحث الأميركي تنباوم هو الأمل والوحيد لتجنب انهيار الاقتصاد العالمي الذي تمزقه المضاربات.

ما هو طريق الحرير؟

ليس طريق الحرير تسمية مجازية وإنما هي واقعية أطلقت على خط تجاري أنشئ قبل ألفي عام، ونقل عبره التجار النفائس بين الشرق والغرب. والطريق نفسه سار عليه غزاة وفاتحون، من الاسكندر الأكبر والفرس والرومان إلى جيوش الفتح الإسلامي وجحافل جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك، كما حمل دعاة ومبشرين يهود ومسيحيين ومسلمين وبوذيين وغيرهم، وعلي سار ابن بطوطة وماركو بولو.

وكان طريق الحرير سبباً في ظهور مدن وانتعاش ممالك، وكان أيضاً سبباً في اختفاء أخرى، كما حدث لتدمر والبتراء اللتين ازدهرتا بمرور تجارة طريق الحرير فيهما، ثم طواهما النسيان بتغيير مساره بعيداً عنهما.

وهناك أشكال شتى للتجارة شهدها الطريق، كان أغربها ذلك النمط الذي عرف باسم «التجارة الصامتة»، إذ كان أحد الطرفين يترك بضاعته في مكان متفق عليه، ثم يأتي الطرف الآخر بما يريد مقايضته بتلك البضاعة ويغادر المكان، فإذا عاد الطرف الأول ورضي بما تركه الطرف الثاني مقابل بضاعته أخذه وانصرف، وإن لم يعجبه غادر المكان من دون أن يأخذ

شياناً، وهنا يعود الطرف الآخر ويزيد المقابل ويغادر المكان، فإن قبل الطرف الأوف أخذ بضاعة الآخر وانصرف، وتستمر هذه العملية إلى أن تتم الصفقة، من دون أن يرى أحد الطرفين الآخر.

أما سر التسمية فيعود إلى أن الحرير كان يوماً أهم سلعة تنقل على هذا الطريق، خصوصاً أن الصين ظلت زمناً طويلاً تحتفظ بأسرار تربية دودة القز وصناعة الحرير، ما أشاع قدراً من الأساطير حول الحرير الذي تصور بعضهم أنه نبات، وقال بعضهم أن ثمة نوعاً من الحملان يزرع في الأرض ويؤخذ منه الحرير. وكان الغرب يعرف الصين باسم «سيريس» وهو مشتق من الكلمة التي تعني الحرير بلغة آسيا الوسطى.

وإلى جانب آلاف البضائع التي نقلت عبر طريق الحرير، ربما كان الورق أهم ما نقل من الصين إلى دول أوروبية عدة ما أحدث ثورة في علام الثقافة والمعرفة. كما أن الصين نقلت عبر هذا الطريق أيضاً طرقاتاً للطباعة الخشبية قد تكون هي التي أوحى إلى غوتنبرغ في ما بعد اختراع الطباعة بالحروف المتحركة.

وكان ظهور الطرق البحرية سبباً رئيسياً في أفول نجم «طريق الحرير» وتضاؤل أهميته. ويرجح المؤلفان أن تكون مدينة «تشانج آن» الصينية هي المدينة الأولى التي انطلق منها المسافرون على طريق الحرير، إذ مثلت رأس جسر للطريق، وكانت المدينة الرئيسية للتجارة الغربية، كما ظلت لفترة طويلة المنفذ الذي تدخل منه الأفكار الجديدة والديانات.

ولم يكن الماء والطعام والعواصف الرملية المصاعب الوحيدة التي تواجه كل المسافرين على طريق الحرير، فما أن يعبروا سور الصين العظيم حتى يتعرضوا لخطر آخر وهو قطاع الطرق. وكانت جماعات اللصوص تغير على القوافل وتستولي على كل ما هو ثمين. وكانت الدواب تستخدم فقط لحمل المؤن، أما المسافرون فكانوا يقطعون الطريق سيراً على الأقدام. وكتب ماركو بولو عن الصعاب التي تواجه العابرين قائلاً: «تتكون هذه الصحراء كلها من تلال وأودية رملية ليس بها ما يؤكل، وبعد مسيرة يوم وليلة تجد ماء عذباً قد يكفي لخمسين أو مئة شخص مع دوابهم. وعلى امتداد الصحراء قاطبة ستجد الماء بهذه الكيفية، ففي ما يقرب من ثمانية وعشرين موضعاً ستجد ماء صالحاً للشرب وإنما بكميات ليست كبيرة. كما أنك ستجد في أربعة مواضع أخرى ماء صالحاً لبعض الشيء والحيوانات البرية لا وجود لها هناك، إذ لا يوجد ما تقتات عليه، وهذه الصحراء يرتبط بها شيء مثير للدهشة، وهو أنه إذا شد المسافرون الرحال ليلاً وتصادف أن تخلف أحدهم أو غلبه النعاس، فإنه عندما يحاول اللحاق

برفاهه يسمع أرواحاً تتحدث فيتصور أنها أصحابه. وفي بعض الأحيان تناديه الأرواح باسمه، ولذلك فإنه غالباً ما يضل هذا المسافر ولا يهتدي إلى صحبه أبداً، وهناك العديد ممن هلكوا بهذه الكيفية (. . .)، ومن ثم اعتاد المسافرون أن يكونوا قرييين من بعض في مثل هذه الرحلة، وكل الدواب هي الأخرى معلق في رقابها أجراس كي لا تضل بسهولة، وعندما يحين موعد النوم توضع علامة تدل على اتجاه السير في المرحلة التالية، وهكذا يتم عبور الصحراء.

هذا الوصف الذي قدمه ماركو بولو، يعني أن استخدام هذا الطريق لم يكن أمراً هيناً، كما أنه من غير المحتمل أن يسلكه من لم يتعوده. لذا كان المسافرون على طريق الحرير حريصين على استئجار قادة القوافل والمرشدين ذوي الخبرة بالطريق.

وبطبيعة الحال، وهذا ما نجده في النص الذي كتبه ماركو بولو نفسه، فإن خيطاً من واقع وآخر من خيال، لا بد أن ينسج ما روي من حكايات عن هذا الطريق، فهو يمر ببلاد عشقت الأسطورة والميتافيزيقيا، وتفننت في الحكايا واوساطير، وقد غذي هذا الميل، اللقاء المباشر عبر التجارة وتبادل السلع والبضائع. ومن الحكايات التي تختلط فيها الأسطورة بالواقع «رحلات الامبراطور مو» التي تضمنتها مجموعة تسمى «حواليات البامبو» كتبت في القرن الثالث قبل الميلاد. وتقول الحكايات أن الامبراطور «مو» بدأ رحلته من ممر «يو» وهو بوابة الشب التي تميزت بها حدود الصين الغربية لآلاف السنين، ووجد الامبراطور على السهول الواقعة خلف الحدود أناساً مثله من نسل «هوتسغ» إله نهر هوانج، ولقي «مو» ترحيباً من الملوك المحليين الذين قدموا له جلود عشرة فهو و٢٦ جواداً كهديّة، ثم لقي آخرين من نسله أثناء تقدمه غرباً قدموا له المزيد من الهدايا ومنها «باتي» وهي حلة مستديرة من الشب يتوسطها ثقب، كانت تستخدم رمزاً للمناصب الحكومية (. . .).

وتمضي الحكاية اوسطورية تروي مغامرات الامبراطور في اتجاه «الغرب الموحش» حيث يلتقي هناك الأم الملكية الغربية التي يرى باحثون أنها بلقيس ملكاً سبأ، ويدور بينهما حوار مُغنى أثناء تناولهما الطعام على بركة الزمرد، تغني بلقيس:

تبدو الجبال والتلال

كأنها سحب تصعد للسماء

وعلى امتداد الأرض تتناثر بلادنا

تفصلها البحار وسلاسل الجبال

إذا قدر لك طول العمر

فلتأت مرة أخرى

ويرد عليها الامبراطور «مو» :

عندما أعود إلى الشرق

حاملاً للملايين النظام والسلام

وعندما يتمتعون بالرفاهية وسعة العيش

سأعود إليك

احسبي ثلاث سنوات من الآن

أعود بعدها إلى هذه البلاد

وعندما عاد الامبراطور إلى بلاده نظم في المملكة الغربية قصيدة أخرى يقول فيها :

في ذلك الغرب الأقصى

تبسط حكمها على السهل

شديد الاتساع

تصاحبها النمر والفهود

وتنام مع الغربان

وفي ما يتعلق بالحرير، وهو الاكتشاف الذي وصم الطريق به، فلم تحرمه الأسطورة حقه، إذ عُرف أن الفضل في اكتشاف الحرير يعود إلى «ليه تزو» كبرى زوجات الامبراطور، التي كرمها الصينيون بمنحها لقب ز«سيدة دودة القز». وتقول الأسطورة أن «ليه» كانت تسير تحت شجرة توت في بستانها، وتصادف أنها التقطت شرنقة بيضاء من بين الأوراق، وبينما هي تلهو بها سقطت في كوب الشاي أمامها، ووجدت «ليه» أن بإمكانها سحب خيط أبيض طويل منها، وهكذا أمكن اكتشاف الحرير من دون القز. ويمضي الكتاب سارداً سيرة طريق الحرير الذي تحول من طريق للتجارة والاكتشاف إلى ميدان للحروب والغزوات، سلكته كل الجيوش من الفرس والرومان والتتار والمقدونيين وغيرهم. ويروي المؤلفان قصة صراعات عدة شهدها الطريق، أثرت في حركة التجارة وتبادل السلع. لكن طريق الحرير شهد فترة من الازدهار الحقيقي في عهد السيطرة المغولية. ولم يأت هذا السلام المغولي بسهولة، بل اضطر المغول لانتخاب خان أعظم جديد. ولم يكن الأمر هيناً، إذ أدت التوترات العائلية التي

ازدادت في كثير من الأحيان بسبب الانتماءات الدينية المتعارضة، إلى اقتتال الورثة الخصوم لمدة أربع سنوات، وفي النهاية فاز قوبلاي حاكم الصين المغولية، وفي عهده كثر تردد الأوروبيين على طريق الحرير حيث أصبح السفر روتينياً، واستمر السلام المغولي قرناً من ١٢٦٠ إلى ١٣٦٨، ما شجع التجار الغربيين على الذهاب إلى آسيا الوسطى.

ومنذ الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الحادي عشر، أقامت المدن الواقعة على البحر المتوسط مثل البندقية وجنوى وبيزا تجارة مزدهرة في البضائع الشرقية. وما أن قامت الإمارات الصليبية، حتى تولت تلك الدول نقل الحجاج والفرسان إلى الأراضي المقدسة. وتكوّن لدى هؤلاء الحجاج والفرسان تذوق للسلع الشرقية من خلال التجارة، لكن الحروب المستمرة بين المسلمين والمسيحيين، جعلت ذلك الطريق غير مضمون، الأمر الذي دفع تجار البحر المتوسط إلى فتح طرق إلى الشرق عبر البحر الأسود، فأقاموا عليه محطات تجارية.

أما نهاية «طريق الحرير» العظيم، فقد بدأت مع سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العام ١٤٥٣. وهكذا تلاشى الطريق الذي بلغ طوله خمسة آلاف ميل. وبسبب الرسوم الباهظة التي فرضت على الأوروبيين لقاء ما يحصلون عليه من نفائس، ومع المهارة التي اكتسبها الأوروبيون في الأبحار والمحيطات، تراجع أي أمل في إعادة الحياة إلى «طريق الحرير»... وغابت القرون التي كان فيها طريق الاتصال الرئيسي بين الصين وعالم البحر المتوسط، أي بين الشرق والغرب.



الخراسانية(*)

يقول المؤلف فيما يقول: «فغلب المأمون على الحكم والخلافة عن طريق الخراسانية الذين امتدت أيديهم إلى الأعمال والدواوين والولايات والجنند فحوروها وأخذوها وتوارثوها».

من هم الخراسانية الذين تردد ذكرهم كثيراً في الثورة العباسية وظل يتردد حتى وصل إلى المؤلف؟

وطبيعي أن المؤلف إنما يقصد بهم ما قصده غيره أنهم الفرس . وبهذا التفسير لهم وصفت الثورة العباسية بأنها ثورة الفرس على الحكم العربي، حتى إن كاتباً مصرياً لم يتورع عن القول بأن معركة (الزاب) الحاسمة كانت رداً على معركة القادسية الحاسمة، وذلك لمجرد كون قسم من الجيش الذي حسم الأمر على ضفة نهر الزاب لمصلحة العباسيين كان قادماً من خراسان .

ونحن نقول إن القوى التي زحفت من خراسان كانت قوى عربية بقيادة عربية على رأسها قحطبة بن شبيب الطائي^(١) يعاونه القادة العرب: أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي ومقاتل بن حكيم العكي، وخازم بن خزيمة، والمنذر بن عبد الرحمن، وعثمان بن نهيك، وجهور بن مراد العجلي، وعبد الله بن عثمان الطائي وسلمة بن محمد وأبو غانم عبد الحميد بن ربيعي، وأبو حميد، وأبو الجهم، وعامر بن إسماعيل . وألحق بهم واحد فقط من أصل فارسي هو خالد بن برمك .

(*) تعليق على ما نشر في بعض الكتب .

(١) كان قحطبة يقارن بابي مسلم .

ولما مات قحطبة قبل الوصول إلى الزاب عين مكانه في القيادة العامة ابنه الحسن بن قحطبة .

هذا في الجيش الزاحف من خراسان، أما في القوى التي أرسلت إلى إنجاده من الكوفة فكانت على دفعات يقودها في دفعاتها المتتابعة: عيينة بن موسى، والمنهال بن فتان، وإسحاق بن طلحة، وسلمة بن محمد، وعبد الله الطائي ثم أصبح القائد العام للقوى سواء منها القادم من خراسان أو المتجه من الكوفة، عبد الله بن علي العباسي .

فما شأن الثأر من معركة القادسية بين جيشين عربيين يقود أحدهما قائد قرشي هو مروان بن محمد ويقود الثاني قائد قرشي آخر هو عبد الله بن علي؟

وبذلك نرد على من يتساءل: هل المقصود بكلمة (الخراسانية) الواردة في كتب الأقدمين هو الفرس؟ نرد عليه: كلا .

إن المقصود بها هو القبائل العربية المقيمة بخراسان، وحين يقال في كتب الأقدمين: (أهل خراسان)، فإنما يراد بهم أصحاب خراسان من العرب، ودليلنا على ذلك: خطب الولاة والأمراء وأقوال المؤرخين: فمن خطب الولاة خطبة نصر بن سيار التي يقول فيها مخاطباً الخراسانيين: «يا أهل خراسان إنكم غمطتم الجماعة وركنتم إلى الفرقة، السلطان المجهول تريدون وتنظرون؟ أن فيه لهلاككم معشر العرب» .

وعندما استخلف يزيد بن المهلب ابنه مخلد على جرجان: أوصاه بسكانها العرب من اليمن وربيعة وقيس .

وصاحب كتاب الإمامة والسياسة يقول في إحدى المناسبات متحدثاً عن الجيش: بأن تعداده كان ١٢ ألفاً من أهل خراسان سوى الأعاجم .

ولن نكثر من الاستشهاد، بل نحيل القارئ للدلالة على عروبة زعماء خراسان على تاريخ الطبري وتاريخ اليعقوبي ومروج الذهب للمسعودي والكامل لابن الأثير . وعن القبائل العربية الخراسانية من تميم وربيعة واليمن على كتاب الوزراء للجهمياري، وعن أحياء العرب في خراسان على كلمة لقتيبة بن مسلم في البيان والتبيين . وعن بني تميم في خراسان على كلمة خاطب بها الأحنف بن قيس قبيلته في البيان والتبيين نفسه . وعن طعائن العرب تخرج من (مرو) إلى (سمرقند) بدون جواز على خطبة لقتيبة بن مسلم في العقد الفريد . . . إلى غير ذلك .

لقد كان العرب وقد نزلت قبائلهم في خراسان ينسبون إلى المدن المقيمين فيها، فهذا (الكرماني) وهو من أشهر رؤساء خراسان في أواخر عصر بني أمية منسوب إلى مدينة (كرمان) الخراسانية، لأنه ولد فيها، وما هو الأعربي قح وقد كان يقال له (شيخ خراسان وفارسها) وهو العربي الأصيل.

وهذا أبو الفرج الأصفهاني ينسب إلى أصفهان وهو العربي الأموي النسب.

وترى في كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري ذكراً لخطط العرب ومنازلهم في خراسان وغير خراسان. وكثير من المؤرخين العرب يقولون عن فلان (عربي خراساني)، وأكثر ما ورد ذلك في رسالة الجاحظ المسماة (مناقب الأتراك)^(١).

وهذا أبو مسلم يخاطب العرب الخراسانيين قائلاً: «أمربي الإمام (إبراهيم) أن أنزل في أهل اليمن وأتألف ربيعة ولا أدع نصيبي من صالحني مضر».

وهذا الإمام محمد العباسي يوصي رسوله قائلاً: «فإذا قدمت (مرو) فاحلل في اليمن وتألف ربيعة وتوق مضر وخذ نصيبك من ثقاتهم».

وقد حاول نصر بن سيار أن يفرق بين العرب من أنصار العباسيين في خراسان فأشار إلى أحد قواده قائلاً: «ما أهون هؤلاء إن كفت عنهم اليمن وربيعة».

وعندما يتحدث المنصور بعد قيام الدولة العباسية يؤكد أن اليمانيين الخراسانيين كانوا عماد الثورة فيقول عنهم: «فيحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا وقيامهم بدعوتنا ونهوضهم بدولتنا».

إذن فالخراسانية في أقوال المؤرخين وغير المؤرخين لا تعني الفرس، بل تعني في الأصل سكان خراسان من العرب.

أما القول بأن هؤلاء الخراسانية امتدت أيديهم إلى الأعمال والدواوين والولايات والجنود فحوروها وأخذوها وتوارثوها، فقول يحتاج إلى إيضاح وتفسير. فنحن نريد أن نفهم ما المقصود بالتحوير والأخذ، وما الذي جرى في عهد المأمون مما لم يجر مثله في عهد الرشيد مثلاً؟

أما عن التوريث للولايات فإن كان المقصود ما جرى من الطاهريين فإننا نقول بأن ذلك لم يكن المسؤول عنه لا المأمون ولا الخراسانية. فإن الرشيد ولي إبراهيم بن الأغلب على

(١) يذكرني هذا بما كان يقوله بعض الفرنسيين الذين لقيتهم مرة مصادفة في باريس: (أنا فرنسي جزائري).

تونس على أن تكون الولاية مستمرة في عقبه، في حين أن المأمون ولى طاهراً بن الحسين كما يولي كل الولاة ولم يقطعه وأسرته خراسان، كما أقطع الرشيد (ابن الأغلب) تونس وإذا كانت الأمور قد تطورت بعد ذلك إلى ما تطورت إليه فذلك كان حكم التاريخ وإطراد سير الزمان.

ويقول المؤلف فيما يقول: «فانقلب البدو مادة لكل الحركات الغالية من خارجية وقرمطية وزنجية ومتشعبة».

ولقد كنا نحب للمؤلف أن لا يفرق فيما غرق فيه بعض الناس في العصور المظلمة، بل حتى في هذا العصر، فيحشر من سماهم (بالمتشعبة) مع من ذكرهم وسماهم بالحركات الغالية ونسبهم إلى البدو.

إن من سماهم (متشعبة) لم يكونوا بدواً وليسوا من الحركات الغالية، وليسوا من صنف من ذكرهم معهم.

ويقول المؤلف: «وتوسل بعضها الآخر إلى الغرض نفسه بتنصيب دعاة علويين طالبين بلورت دعواتهم حركات محلية وبرزت صبغتها المحلية في أفكارها وفقهها وفي طاقمها الحاكم من قادة حرب وقضاة وكتاب وعمال دواوين. فاستتب الأمر لعبيد الله المهدي في أفريقيا وللحسن بن زيد في طبرستان».

ما دام المؤلف قد خص بالذكر من سماه عبيد الله المهدي^(١) والحسن بن زيد، فإننا لنستغرب كل الاستغراب أن يقول أن هناك من توسلوا لتنصيبهما، إن أحداً لم يتوسل لتنصيب واحد من هذين الإثنين، ولم يكن واحد منهما ألعوبة لأحد، بل أن كلاهما كان هو صاحب دعوة صريحة سليمة نجحت على يد صاحبها وكان فيها كل الخير للعرب وللمسلمين.

أما أن الدعاة العلويين الطالبين قد تبلورت دعواتهم بحركات محلية وأن تلك الحركات برزت صبغتها المحلية في أفكارها وفقهها إلى آخر ما ذكر فما دام قد خص بالذكر عبد الله المهدي والحسن بن زيد فإن المقصود بكل ذلك هذين الإثنين.

لقد كان قيام الدولة الفاطمية حدثاً ضخماً في العالم الإسلامي استطاعت معه تلك

(١) أن اسمه الحقيقي عبد الله لا عبيد الله كما هو الشائع - ورب شائع لا أصل له - فاتباعه الذين هم أعرف الناس بحقيقة اسمه ينكرون تسميته عبيد الله. وكذلك تبين من نقوش الدراهم والدنانير والصنوج والأوزان المحفوظة في متحف القبروان أن اسمه عبد الله لا عبيد الله.

الدولة أن تنهض بذلك العالم وأن تجمع شتاته المتمزق في بقاع من أخطر بقاعه، وأن تقف سداً منيعاً في وجه الخطر الداهم الذي كان يهدده من الروم والإفرنج. وكان شمال أفريقيا هو المنطقة المعرضة أكثر من غيرها لذلك الخطر، وكانت متمزقة مقسومة إلى أربع دويلات هي: الأدارسة، والأغالبة، وبنو مدرار، والرستميون. فاستطاع الفاطميون أن يوحدوا ذلك الشتات وأن يجعلوا منه دولة واحدة متماسكة ضمت إلى تونس كلاً من المغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى (المملكة المغربية) والمغرب الأدنى (ليبيا)، فتحقق يومذاك ما لا يزال العرب عاجزين عنه مما يسمونه (وحدة المغرب العربي).

ثم خطوا الخطوة الثانية فضموا إلى هذه الوحدة القطر العربي الأكبر (مصر)، ثم بلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن)، ثم الجزيرة العربية، ولم يبق خارجاً عنها إلا العراق.

وتحقق لأول مرة في التاريخ بعد التشتت والتمزق والإنفصال قيام الوحدة العربية ودولتها الكبرى التي ضمت معظم أقطار العرب والتي استمرت ما يزيد على القرنين ونصف القرن.

ثم عجز العرب بعد زوال الدولة الفاطمية عن أن يحققوا مثل هذه الوحدة، ولا يزالون عاجزين.

وبينه المؤرخان المصريان الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف في كتابهما (المعز لدين الله) إلى أمر مهم جداً، وهو: «أن الفاطميين رفضوا أن يقيموا دولتهم في غير البلاد العربية ولم يفكروا في إقامة دولتهم المنشودة في غيرها برغم كثرة أشياهم فيها إنما عولوا على إقامتها في اليمن ولما استحال عليهم ذلك قصدوا المغرب فأقاموا دولتهم فيه».

ولسنا الآن في صدد تاريخ للدولة الفاطمية، وإنما نكتفي بالقول: إنهم بهذه الوحدة العربية الكبرى التي أقاموها استطاعوا التصدي للبيزنطيين في البر والبحر وردهم أولاً عن شمال أفريقيا، ثم عن بلاد الشام وإحباط محاولاتهم المتكررة للوصول إلى القدس مما ليس هنا مكان تفصيله.

ودولة بمثل هذا الشأن الخطير لا يصح لمؤرخ أن يذكرها - كما قلنا - بمثل هذه الخفة والإزاء والتميع.

ودولة طبرستان الطالبية العلوية الزيدية إذا لم يكن لها من الشأن ما كان للدولة الفاطمية

فقد كان لها شأن أي شأن في ميدان عظيم، هو ميدان تعميم الإسلام في منطقة طبرستان^(١). وبرغم وصول الفتح الإسلامي إليها ما قبل السنة الثانية والعشرين للهجرة إذ يستفاد مما ذكره الطبري واليعقوبي والبلاذري أنها في هذه السنة كانت تابعة للحكم الإسلامي، فليس ما يدل على استقرار المسلمين فيها، ولم يكن الأمر يعدو غارات تشن عليها، وظلت خاضعة عملياً لملوكها الذين كانوا بين مزدكي وزرداشي وعباد نار.

وفي سنة ٢٥٠ هجرية استطاع الحسن بن زيد من أحفاد الحسن بن علي الملقب بالداعي الكبير أو الداعي الأول أن يستولي على طبرستان وذلك في خلافة المستعين العباسي وأن يقيم فيها دولة امتدت حوالي مائتي سنة كان من أكبر منجزاتها أنها أحالت تلك البلاد بلاداً إسلامية خالصة.

أما القول عن هاتين الدولتين وعن رجالهما (العلويين الطالبين) بأنهم «بلورت دعواتهم حركات محلية وبرزت صبغتها المحلية في أفكارها وفقهها وفي طاقمها الحاكم من قادة حرب وقضاة وكتاب وعمال دواوين»، فهو قول كنت أربأ بالمؤلف أن يقوله، فالعلويون الطالبيون في طبرستان هم الذين بلوروا طبرستان إسلامياً، وليست هي التي بلورت دعوتهم، وهم الذين صبغوها بصبغتهم الإسلامية وليست هي التي صبغتهم بصبغتها المحلية. وأكثر من ذلك، فقد غدت طبرستان بفضلهم مهبط العلماء ومقصد الشعراء تتجاوب في أنديتها أصداء الشعر العربي الأصيل كأبي أندية عربية في العالم العربي. وقصة الشاعر الأعمى أبي مقاتل، قصة مشهورة في كتب التاريخ السياسي والأدبي، وذلك أنه أنشد الداعي قصيدة مطلعها:

لا تقل بشرى ولكن بشريان غرة الداعي ويوم المهرجان

فقال له الداعي: «إن الشعراء لا يبدأون الشعر بحرف النفي (لا) لثلاثين يوماً المستمع، ألم يكن الأحسن أن تقرأ هذا البيت بتقديم عجزه على صدره فتقول:

غرة الداعي ويوم المهرجان لا تقل بشرى ولكن بشريان

فقال أبو مقاتل: كلا يا مولاي، فإن أحسن ما يذكر به (الله) يتبدىء ب(لا) وهي كلمة لا إله إلا الله.

فقال الحسن: أحسنت، فأنت في هذا الأمر أكثر معرفة مني.

(١) هي القسم الشمالي من إيران تعرف اليوم بمازندران، بلاد جبلية وعرة المسالك، وقسم منها ساحلي يقع على شاطئ بحر مازندران الذي اشتهر بإسم بحر الخزر.

وقد حفل تاريخ طبرستان في تلك العهود بعدد كبير من أعلام الفقه واللغة والأدب لا يتسع المجال الآن للإشارة إلى بعضهم .

أما عن الدولة الفاطمية فيكفي أن أنقل جملة واحدة لمؤرخ مصري هو الدكتور محمد كامل حسين، وهي قوله: «فالقاهرة الفاطمية أصبحت مطمح أنظار العلماء ومحط رحال الطلاب وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية» .

ومن أعجب العجب حشر المؤلف (الفقه) مع ما حشره من الشؤون التي ادعى اصطبأها بالصباغ المحلي .

أما قادة الحرب والقضاة والكتاب وعمال الدواوين فليت المجال يتسع لنعدد له منهم ما ينفي قوله .

ويقول المؤلف عن الحكام الشيعة في ذلك العصر كالحمدانيين والبويهيين: «ولم يحمل التشيع هؤلاء المتشيعين على استخلاف أحد أهل البيت». ثم يعلل ذلك بالتعليل المنسوب إلى أحد الذين استشارهم أحد الحكام في هذا الشأن .

والذي يعرف حقيقة العقيدة الشيعية في أمر الخلافة يدرك أن تلك القصة منحولة وأن تبني المؤلف لها في غير محلها . فالشيعة لم يعد لهم بعد السنة ٢٦٠ هجرية مرشح للخلافة، وأصبحوا لا يهتمون بمن يتولاها، وسيان عندهم أن يتولاها أحد ممن يتصلون بالنسب بآل البيت أو لا . فإذا كان الحكام الذين ذكرهم لم يولوا الخلافة أحداً ممن يتحدرون من آل البيت فليس ذلك للسبب الذي ذكره ونقله عن غيره، بل لأنه ليس في مذهبهم ما يحملهم على ذلك .

على أنه هو نفسه يذكر ذلك بعد قليل ويؤكد دون أن يتبته للتناقض بين القولين .

ويستهين المؤلف بعقيدة البويهيين ويرى أن اختيارهم لما اختاروه كان لمنافع دنيوية بحتة فيقول: «واختاروا الإمامية من فرق الشيعة لأن الزيدية تلزم أصحابها بتأثير واحد من أهل البيت ولا تقل بغير ذلك» .

بهذا القول يؤيد ما قلناه أنه ليس في مذهب البويهيين ما يوجب عليهم تأمير واحد من سلالة أهل البيت للخلافة . أما أنهم اختاروا ما اختاروه للسبب الذي ذكره فهو مخطيء في ذلك .

ليس عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد هم الذين اختاروا مذهب الإمامية، بل إن الذين كانوا على هذا المذهب هم أبائهم الأولون الذين كانوا فقراء بسطاء لا يفكرون في ملك ولا سلطة. وهؤلاء الملوك الثلاثة نشأوا في بيتهم الفقير على هذه العقيدة وشبوا عليها ثم سادوا وهي في قلوبهم وعقولهم.

ومن أوهام المؤلف وأوهام غيره أيضاً قوله: «وصبغ البويهيون التشيع الشعبي بصبغة لم تمنح فسئوا سنة الاحتفال بعاشوراء على مثال بكائهم أمواتهم وإنتحابهم عليهم في منتصف القرن الرابع، وجعلوا عيد غدیر خم عيداً شعبياً كعيد الربيع».

ليس البويهيون هم الذين سنوا سنة الاحتفال بعاشوراء، بل أن الاحتفال بها كان متصلاً قبلهم بأبعد الأزمان يقول الدكتور فاروق عمر في كتابه (الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية) ص ٤٣ وهو يتحدث عن إجراءات الخليفة العباسي المتوكل للحد من نشاط الحركة المعارضة العلوية، وبعد أن يعددها واحدة واحدة، يجعل منها منع المتوكل الشعائر التقليدية في ذكرى الحسين.

وفي هذا ما يؤكد أن الاحتفال بعاشوراء كان سابقاً العهد البويهي بأزمان بعيدة. ولم يكن يجري بشكل جماهيري واسع، لأن السلطات كانت تمنع ذلك، وكان يجري ضمن البيوت الرحبة الواسعة ويضم من الناس ما يتسع له كل بيت، وكانت تنشأ في هذه الاحتفالات الأشعار الرقيقة التي تبكي الناس وتشجهم. وكل ما فعله معز الدولة هو أنه أباح الاحتفالات الجماهيرية، ومنح أصحابها حرمتهم فأخرجوها من دائرتها الضيقة إلى الدائرة الأوسع.

وليس البويهيون وحدهم هم الذين يبكون على أمواتهم وينتحبون عليهم، ليكونوا مثلاً للباكين المنتحبين، فكل الناس تبكي على أمواتها وتنتحب عليهم.

وأما عن عيد غدیر خم وأن البويهيين اخترعوه وجعلوه عيداً شعبياً شبيهاً بعيد الربيع، فهو أيضاً داخل في باب الأوهام، فعيد غدیر خم الذي يطلق عليه اسم (عيد الغدير) كان يُحتفل به قبل البويهيين. وما فعله البويهيون هنا هو عين ما فعلوه في احتفالات عاشوراء وهو أنهم أطلقوا الحرية للناس فخرجوا به من النطاق الضيق إلى النطاق الواسع.

ولم تقتصر هذه الاحتفالات الواسعة على مناطق نفوذ البويهيين، ففي مصر الفاطمية كان يوم الغدير من الأيام المشهودة في تاريخها، ولا يزال عيد الغدير في اليمن العيد الشعبي الأول.

وأبو العلاء المعري نفسه كان يحتفل بعيد الغدير مع المحتفلين به في بلاد الشام فهو القائل :

لعمرك ما أسر بيوم فطر ولا أضحي ولا بغدير خم

فما دخل البويهيين في احتفالات مصر واليمن وبلاد الشام .

أما قول المؤلف بأن البويهيين «حكمو العراق حين الناس فرق وأهواء وشيع فسلطوا عليها الخلاف» .

فتقول له : ما دام الناس فرقاً وأهواء وشيعاً، فليسوا في حاجة لمن يسلط عليهم الخلاف .

نعم إن البويهيين حين حكموا وجدوا أن فريقاً من الشعب محروم من أبسط حرياته، ومضطهد مطارد، فمنحوه حريته ورفعوا عنه الاضطهاد والمطاردة، حتى إذا حاول أحد من هذا الفريق أن يستغل ما منحوه ذرة من الاستغلال، أو يتجاوز شعرة من الحدود المرسومة للجميع أوقفوه حتى إنهم لم يتوانوا في أن ينفوا عن بغداد لفترة رجلاً كالشيخ المفيد هو الرجل الأول والعالم الأكبر عند الشيعة . وهكذا فهم لم يتحيزوا لأحد، ولم يسلطوا الخلاف على أحد .

العرب والمأمون ثم البويهيون

ورد المؤلف على مقالنا فرددنا عليه بما يلي :

بعد أن يسلم المؤلف معنا بأن كلمة (الخراسانية) في الأيام الأولى للحركة العباسية لا تعني الفرس بل تعني في الأصل عرب خراسان، يقول بأن الأمر لم يكن كذلك في عهد المأمون، ويسألني هل كنت أريد أن أطبق هذه النتيجة على كلمة خراسانيين المستعملة زمن المأمون .

وأني لأجيبه بكل وضوح : نعم .

وما الذي حصل في تلك المدة المنقضية بين نشوء الدولة العباسية وخلافة المأمون من أحداث أزالته العرب من خراسان لنبدل الرأي في (الخراسانية)؟

أين ذهبت تلك القبائل العربية من تميم وربيعة واليمن وكانت تنزل خراسان كما يخبرنا الجهشيارى؟

وما الذي جرى على إحياء العرب في خراسان كما حدثنا عنها (البيان والتبيين)؟

وأين مضت ظعائن العرب التي كانت تخرج من مرو إلى سمرقند كما أخبرنا (العقد الفريد)؟

وأين صارت جمهرة بني تميم في خراسان التي قرأنا عنها في (البيان والتبيين)؟ وأين انتهت جموع اليمن وربيعة وقيس في جرجان، وأوصى يزيد بن المهلب ابنه مخلد بهم؟ وماذا كان مصير الجماهير العربية التي خاطبها نصر بن سيار قائلاً: يا أهل خراسان؟ وماذا كانت نهاية خطط العرب ومنازلهم في خراسان وغير خراسان وقص قصتها علينا البلاذري؟

أين انطوى ذلك كله لنقول أن كلمة (الخراسانية) في الزمن العباسي الأول لا تعني ما تعنيه أيام المأمون؟

يقول المؤلف إن المؤرخين استعملوا كلمة الخراسانيين أو أهل خراسان للتدليل على الكتلة الفارسية التي وقفت إلى جانب المأمون في وجه الكتلة العربية التي ساندت الأمين. وقد اختارت الكتلة خراسان مقراً ومنطلقاً لإيصال المأمون إلى الخلافة.

ونقول له: وما الدليل على ذلك؟

إنه يستشهد بأن الفضل بن سهل حذر المأمون من الهاشميين والعرب الساعين لخلافة الأمين. ثم يورد عبارة المسعودي التي جاء فيها على لسان الفضل مخاطباً المأمون أنه يخشى: «أن يشب عليك أخوك فيخلعك وأمه زبيدة وأخواله من بني هاشم».

ونقول: ليس في هذا القول تحذير من العرب، بل فيه تحذير من زبيدة أم الأمين وأقربائها. ومن الطبيعي أن يكون هوى زبيدة وأقربائها الأذنين مع الأمين، وليس المأمون في حاجة لنصيحة الفضل ليدرك هذا؛ ثم يستشهد المؤلف بقول الطبري وابن الأثير بأن أهل خراسان قالوا عن المأمون: ابن أختنا وابن عم نبينا، لأن أمه كانت فارسية.

ونقول له: إننا لا ننكر أن للمأمون أخوالاً وأقرباء في خراسان وأنه يمكن أن يقولوا هذا القول. ولكن هل هؤلاء كل خراسان؟ وهنا نعود فنكرر أسئلتنا السابقة عن مصير الشعب العربي الذي كانت تمثل به خراسان، وهل انقرض بهذه السرعة؟ أو هل يمكن أن يكون بعيداً عن هذه الأحداث المصرية؟ كان من إصطلاحات المؤرخين يومذاك أن يقولوا: «في خراسان جمجمة العرب وفرسانها».

فهل من المعقول أن تكون تلك الجمجمة قد تحطمت، وأن يكون أولئك الفرسان قد تبددوا في مشارق الأرض ومغاريها؟

وإن يكون ذلك قد جرى في (غمضة عين وانتباهتها) بالنسبة لحياة الشعوب؟
ثم أليس عجباً من المؤلف الحصيف أن يقول: إن الكتلة التي ساندت المأمون قد
اختارت خراسان مقرأً ومنطلقاً لإيصال المأمون إلى الخلافة؟
وأين رأى أن هذه الكتلة هي التي اختارت خراسان؟ وهل كان في يد المأمون وكتلته أن
يختاروا مقرهم ومنطلقهم؟

أليس الرشيد هو الذي اختار المقر، والأمين هو الذي اختار المنطلق؟
هل المأمون وكتلته هم الذين قسموا المملكة إلى قسمين: غربي يحكمه الأمين ومقره
في بغداد. وشرقي يحكمه المأمون ومقره في مرو عاصمة خراسان، أم الرشيد هو الذي فعل
ذلك؟

وهل المأمون وكتلته كانوا مختارين في إيصال المأمون إلى الخلافة فانطلقوا من مرو،
أو الأمين هو الذي خلع أخاه المأمون من ولاية العهد وجعله ينطلق من كتلته من خراسان
- التي كان والياً عليها - ينطلق للوصول إلى الخلافة؟
نحن لا ننكر أنه كان بين من ناصر المأمون فرس، ويكفي في ذلك أخواله، كما أننا لا
ننكر أنه كان بين من ناصروا الثورة العباسية فرس، ولكن العرب كانوا يشكلون القوة الضاربة
في كلا الموقفين.

وكما كان بين أنصار العباسيين أيام الثورة فرس كذلك كان بين أنصار خصومهم فرس،
فقد انضم الفرس إلى الجانبين العباسي والأموي، فرأينا مثلاً أهل نيسابور وبلخ الفرس
ينحازون إلى نصر بن سيار.

وهذا طبيعي ما دام في الناس اختلاف المشارب والأهواء والأغراض. وكذلك الحال
في الخلاف بين الأمين والمأمون، وإذا كنا لم نر اسماً فارسياً بارزاً بين أنصار الأمين، فلأن
أصحاب مثل هذه الأسماء كانوا تحت سيطرة المأمون فلا يستطيعون التحرك كما يريدون.

على أننا ننكر القضية من أصلها، وهي الزعم أن العرب كانوا مع الأمين، فنحن نقول
بأن العرب حتى في الجزيرة العربية عش العرب ومنبتهم كانوا مع المأمون. فإن والي مكة
داود بن عيسى لما بلغه خلع الأمين لأخيه المأمون من ولاية العهد، دعا أهل مكة وأعلن أنه
يباع المأمون بالخلافة وسألهم ما هم فاعلون؟

فاستجاب له وجوه القوم وبياعوا المأمون، ثم استجابت له جماهير الشعب كلها.

ويصف الطبري بعض ما جرى قاتلاً: وجعل الناس يبايعونه جماعة بعد جماعة، ففعل ذلك أياماً. ومثل الذي جرى في مكة جرى في المدينة، حيث بايعت جماهير الشعب المأمون وخلعت الأيمن.

وجرى مثل ذلك في اليمن أيضاً، ويصف الطبري بيعة أهل اليمن بقوله: فأجاب أهل اليمن إلى بيعة المأمون واستبشروا بذلك وبايعوا للمأمون وخلعوا الأيمن.

وإذا كانت الجزيرة العربية قد خلعت الأيمن وبايعت المأمون وأمره لا يزال متأرجحاً بين النجاح والفشل، بل إنه كان إلى الفشل أقرب، وإذا كان عرب الحجاز واليمن قد أعلنوا أنهم مع المأمون على الأيمن وهم يعدون عنه عشرات آلاف الأميال.

وإذا كانت مكة والمدينة وصنعاء وهي عواصم العرب الأولى قد أيدت المأمون، فهل يصح القول بأن لعرب لم يكونوا مع المأمون؟

وإذا كان للمأمون أخوال في خراسان، فما أكثر أعمامه في الحجاز واليمن، ولن يكون الأخوال - مهما أشفقوا - أكثر إشفاقاً من الأعمام.

على أن مما يجب ذكره أن عرب الجزيرة قد أعلنوا المأمون خليفة وبايعوه، قبل أن يعلن هو ذلك، إذ أنه كان لا يزال مجرد متمرّد على خليفة بغداد، ولا يعلم إلى أي مصير سيصير.

وجاء موسم الحج وحال المأمون هو الحال نفسه، ولكن موقف أهل مكة المؤيد جعل طاهر بن الحسين قائد المأمون المتقدم لحصار بغداد - يرسل العباس بن موسى ليحج بالناس باسم المأمون، وهو أول موسم دعي فيه للمأمون بالخلافة في مكة والمدينة.

وهكذا أعلنت خلافة المأمون في صميم بلاد العرب قبل أن تعلن في خراسان وغير خراسان، أعلنها العرب في أقدس مكان عند المسلمين والعرب. ويقول المؤلف إن الجيش الخراساني الذي خرج هذه المرة من خراسان ليحمل المأمون إلى سدة الخلافة كان معظم قاداته وعناصره من أهل خراسان الفرس. ونقول له: إن الأمر على العكس ما دام لم يثبت بل ليس من المعقول أن يكون العرب قد أزيلوا من خراسان. وأنتا نستطيع أن نعدد من أسماء قادة ذلك الجيش من العرب كلا من: محمد بن طالوت، ومحمد بن العلاء، والحارث بن هشام، وداود بن موسى، وهادي بن حفص، وقريش بن شبلي، والحسن بن علي المأموني. وهذه الأسماء وحدها كافية لتدل على أن القيادة كانت عربية.

وما رأيه إذا قلنا إن فرقة عسكرية يبلغ عدد رجالها نحو خمسة آلاف رجل نص الطبري على أنهم من أهل خراسان انسلخت عن جيش المأمون المحاصر لبغداد وانضمت إلى الأمين.

فإن كان هؤلاء الرجال فرساً فإن خؤولة الفرس للمأمون لم تنفعه بشيء، وإن كانوا عرباً فإن الطبري قد نص على أنهم من أهل خراسان، إذن فإن كلمة (أهل خراسان) في أيام المأمون لا تعني الفرس، بل تعني العرب وأن الجيش لم يكن فارسياً.

ولقد أدهشني قول المؤلف: «ستزداد شكوك الخليفة المنتصر في العرب الذين أخذوا جانب الأمين، وسيتعاطم دور الجند الخراسانيين واعتماد الخليفة عليهم وستظهر نتائج ذلك واضحة في تولية قادتهم آل طاهر وإطلاق يدهم في خراسان وجوارها أمراء شبه مستقلين».

ونحن ننكر أن تولية المأمون لآل طاهر كانت تولية استثنائية، وأنه أطلق يدهم أمراء شبه مستقلين. ونقول إن الذي فعل ذلك هو غير المأمون وفي غير خراسان.

لقد فعل ذلك الرشيد حين ولي إبراهيم بن الأغلب على تونس على أن تكون الولاية وراثية في أعقابه، وعلى أن يكونوا أكثر من شبه مستقلين.

أما المأمون فلم يكن في نيته أبداً تولية طاهر بن الحسين على خراسان، بل أن ظرفاً عاطفياً طارئاً أدى إلى ذلك، وهذا ما ينفي ما ذكره المؤلف في قوله: «وسيتعاطم دور الجند الخراسانيين واعتماد الخليفة عليهم وستظهر نتائج ذلك واضحة في تولية قادتهم آل طاهر»، إلى آخر ما قال.

أما سبب تولية طاهر بن الحسين فإننا نعيد هنا ما ذكرناه في مكان آخر. وهو أنه دخل على المأمون وهو في مجلس أنس وانشرح، فلما رآه المأمون بكى وتغرغرت عيناه. فاستغرب طاهر ذلك وسأل المأمون لم يبك وقد دانت له البلاد وأذعن له العباد وصار إلى المحبة في كل أمره.

فقال المأمون: أبكي لأمر ذكره ذل وستره حزن ولن يخلو أحد من شجن.

وانشغل بال طاهر لبكاء المأمون في غير ساعة بكاء، فأغرى أحد خواص المأمون بمبلغ من المال ليسأله عن سبب بكائه، واستطاع الرجل أن يسأل المؤمن. فقال المأمون: أني ذكرت أخي محمداً (الأمين) وما ناله من الذلة فخنقتني العبرة فاسترحت إلى الإفاضة، ولن يفوت طاهراً مني ما يكره.

لقد قلق طاهر كل القلق لما جرى، فإذا كان المأمون قد اكتفى هذه المرة بمجرد البكاء لرؤية طاهر مذل أخيه وقاتله، فما يدرى ما يمكن أن يصيبه من المأمون في مرة أخرى، ألا يمكن أن تبلغ ثورة العاطفة في المأمون في مرة من المرات إلى الحد الذي يأمر فيه بقتل طاهر الذي تذكره رؤيته في كل مرة بذل أخيه وقتله؟ أليس من المريح للمأمون أن لا يرى طاهراً أبداً فيتخلص من الأشجان الذي تبعثها في نفسه مشاهدة طاهر، وقتل طاهر هو الذي يريح.

فذهب طاهر إلى أحمد بن أبي خالد وقص عليه ما جرى، وقال له غيبي عن عيني المأمون.

فذهب أحمد إلى المأمون، فلما دخل عليه، قال: ما نمت البارحة... فقال المأمون: ولم ويحك؟ فقال لأنك وليت غسان خراسان وهو ومن معه أكلة رأس وأخاف أن يخرج عليه خارجة من الترك فتصلطمه. فقال له: لقد فكرت فيما فكرت فيما فكرت فيه، فمن ترى؟ قال: طاهر بن الحسين. وقد تردد المأمون في ذلك وأبدى ما يخشاه من محاذير في تولية طاهر.

وبعد حوار قصير دعا المأمون بطاهر من ساعته فعقد له على خراسان.

هذه هي قصة تولية طاهر بن الحسين التي وصفها المؤلف بأنها «تولية قادة الخراسانيين آل طاهر وإطلاق يدهم في خراسان» إلى آخر ما قال.

ومن الطبيعي أن تتطور الأمور في زمن كان زمن التطورات المتعاقبة، وأن يأخذ التاريخ مسراه في التحول والتبدل.

البويهيون

وقت يقرن المؤلف حديثه عن عقيدة البويهيين مرة بكلمة (احتمال) ومرة بكلمة (فالأرجح) فيدل على التشكيك وعدم الجزم، يعود في النهاية فيجزم فيما لا يصح فيه الجزم. وعندما قلنا أن ليس الملوك البويهيون هم الذين أخذوا بالمذهب الجعفري ليصح اتهامهم بأنهم كانوا على المذهب الزيدي، ثم انتقلوا إلى المذهب الجعفري تحقيقاً لمآرب سياسية. بل إن الذين كانوا على هذا المذهب هم آباؤهم الأولون، وساروا هم على ما كان عليه آباؤهم.

عندما قلنا ذلك حكم المؤلف بأن آباءهم لم يكونوا على الإسلام ليقال إنهم كانوا على مذهب من مذاهبه، ودليله على ذلك أن الإسلام لم يعم الديلم إلا على يد الأطروش (٢٩٠ - ٣٤٠) وأن (الأرجح) أن هذه الأسرة دخلت الإسلام على يد الأطروش.

ونقول: لماذا يكون هذا هو (الأرجح)، ولا يكون (الأرجح) أن آباء هذه الأسرة دخلوا الإسلام قبل السنة الثانية والعشرين للهجرة، وهو الزمن الذي ثبت أن الإسلام قد وصل فيه إلى تلك البلاد، وإذا كان تعميم الإسلام فيها قد تم على يد الأطروش، فلماذا لا يكون هؤلاء فيمن أسلم قبل عهد الأطروش؟، وحتى قبل السنة الثانية والعشرين؟

وإن كون مذهب دولة طبرستان زيدياً لا يمنع أن يكون بين رعاياها من هو غير زيدي، بل نحن نعرف أسماء لعلماء غير زيديين نشأوا في ظلال تلك الدولة مثل: ابن هند والمكنى بأبي الفرج وأبي العباس بن سعد بن أحمد الطبري. وأبي هشام العلوي الطبري وغيرهم. هذا في العلماء وأما في جمهور الشعب فمن ذا يمكنه إحصاؤهم، ومنهم آباء الملوك البويهيين.

ويستدل بتقلباتهم السياسية على عدم استقرارهم المذهبي، ويعيب عليهم تلك التقلبات كأنهم وحدهم المتقلبون في السياسة، المنتقلون فيها من ولاء إلى ولاء حسبما تقتضيه المصلحة.

وإذا كان الإنكليز قالوا في هذا العصر: بأن لا صداقة ولا عداوة دائمة في السياسة، فقد كان هذا هو التطبيق العملي للناس جميعاً منذ وجدت السياسة حتى اليوم. ولماذا يريد المؤلف أن ينفرد البويهيون من بين سياسيي العالم بفضيلة الثبات على الصداقة مهما تعارض هذا الثبات مع المصلحة؟ فإذا لم ينفردوا بها كان ذلك عنده دليلاً على التشكيك في ولائهم الديني..

ثم يتساءل عن مقدار تدينهم، كأنما المطلوب أن يكونوا أئمة جمعة وجماعة. ويذكر أن ابن الجوزي نقل ما يدل على جهل معز الدولة بأمور الدين، كأننا نقول أن معز الدولة فقيه الأمة ومرجعها في الفتيا.

ويقول أن ابن الجوزي نقل أيضاً ما يدل على جهل معز الدولة نفسه حتى بسيرة حياة الإمام علي، كأننا نقول إن معز الدولة كان أستاذاً للتاريخ في الجامعة. على أننا لا نبريء ابن الجوزي من الافتراء على البويهيين، ومعز الدولة من أعرف الناس بسيرة الإمام.

ونحن نسأل المؤلف هل بين الملوك السلاجقة من كان أعلى درجة من البويهيين سواء في مقدار التدين أو في الفقه وفي التاريخ، وهل يقدر ذلك عنده في إيمانهم؟

ثم يقول: إن مسكويه قال إن لعلي بن بويه مجلس شراب، وإن هذا كان حال أخيه معز الدولة...

ونقول: إذا كان لمن كانوا يحملون لقب (أمير المؤمنين) مجالس شراب، فهل نستغرب أن يكون لمن دونهم مثل هذه المجالس؟ هذا إن صح قول مسكويه.

ولا يرى المؤلف إيصال الرجل بأن يدفن في بعض الضرائح ما يدل على التدين. ونقول له: أن هذا أكبر دليل على التدين، وغير المتدين لا يهمله أين يدفن.

وعن ركن الدولة البويهى يقول ابن الأثير: كان حليماً كريماً واسع الكرم كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه وجنده. رؤوفاً بهم عادلاً في الحكم بينهم، متحرراً من الظلم، مانعاً لأصحابه منه، عفيفاً عن الدماء يرى حقها واجباً وكان يحمي على أهل البيوتات وكان يجري عليهم الأرزاق ويصونهم عن التبذل، وكان يقصد المساجد الجامعة في أشهر الصيام للصلاة ويتصب للمظالم، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، ويتصدق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات ويلين جانبه للخاص والعام.

ثم يختم ابن الأثير وصفه له بقوله: رضي الله عنه وأرضاه.

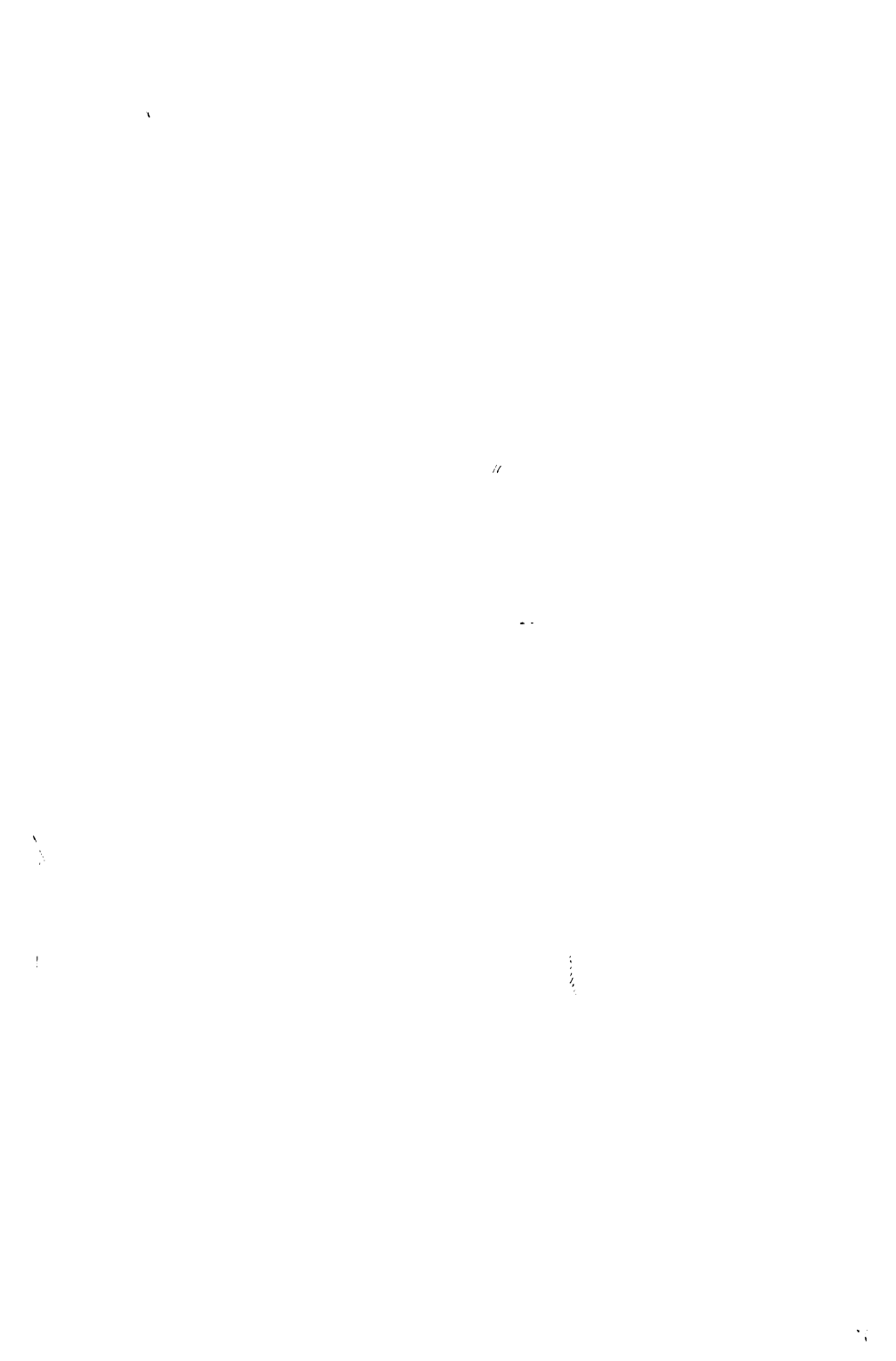
هذه صورة وضاءة عن الحكم البويهى جلاها لنا ابن الأثير، وإذا لم تكن هذه صفات المؤمن المتدين الثابت على العقيدة، فكيف تكون صفاته؟ وحين يدعو ابن الأثير لركن الدولة البويهى بقوله: رضي الله عنه، فهو يقرنه ب كبار الصحابة الذي يدعى لهم وحدهم بهذا الدعاء.

وإذا كان هذا رأي المؤرخين القدماء في واحد من حكام البويهيين فلنستمع إلى رأي مؤرخين حديثين في حكم البويهيين:

يرى الأستاذ حسن أحمد محمود الشريف في كتابه (العالم الإسلامي في العصر العباسي) أن العصر البويهى هو عصر «حرية المذاهب» ويستند إلى أقوال الصاحب بن عباد في رسائله حيث يقول: «وقد كتبت في ذلك كتاباً أرجوه أن يجمع على الألفة ويحرس من الفرقة وينظم على ترك المنازعة والجروح إلى الموادعة، فإن المهادنة تجمل بين الملتين فكيف بين النحلتين».

ويعلق على ذلك الدكتور فاروق عمر وهو ينقل هذا الكلام في كتابه (الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية) قائلاً: «على أن لهذه السياسة جانبها الإيجابي حيث لجأت المذاهب المتنازعة إلى المنطق والفلسفة وعلم الكلام لتأييد آرائها، فحدثت نهضة علمية وكثرت التصانيف في المناظرات وأسست دور العلم».

صفحات من التاريخ العباسي
وولاية عهد المأمون



كتابة التاريخ من جديد^(١)

هناك صفحات كثيرة من تاريخنا كان يجب أن تجلى بأقلام حديثة ويوضح ما فيها لقراء اليوم، بعد أن ظلت مطوية خلال ما تراكم من هذا التاريخ في أقبية الماضي السحيق.

وهناك مفاهيم أخذ بها على غير حقيقتها، وظل هذا الأخذ متداولاً في هذا العصر، ينقله جيل عن جيل دون الانتباه إلى ما فيه من تجنُّ على الحقيقة. وبين الذين يدعون إلى كتابة تاريخنا من جديد مخلصون أوفياء لهذا التاريخ، وهم يهدفون إلى تنقية هذا التاريخ مما علق به من أهواء الحاكمين، وعصبيات النحليين، وتجنّيات المبطلين.

وبينهم غير مخلصين وغير أوفياء يريدون تشويه ما وصل إلينا من بعض الحقائق التي ساءم أن تصل سليمة، فهم يحاولون طمسها، لتضيق من هذا التاريخ كل حقيقة. وحين كنت أستعرض بعض الأسماء التي رشح أصحابها ليسهموا في إعادة كتابة التاريخ كنت أستعيد بالله من شر ما يمكن أن تخرج أقلام هؤلاء من أضاليل، وما يمكن أن تنفث من سموم، وهكذا نكون قد خرجنا من شر لنقع فيما هو شر منه! ولا أدعي أن في هذه الصفحات التي في هذا الكتاب شيئاً مما نبغيه من محاولات لجلاء الحقائق، فهي أضيّق من أن تسع ما نرمي إليه، وأقل من أن تحمل ما نستهدفه. ولكن فيها بعض ما سنح لي خلال مطالعتي، وبعض ما فهمته من النصوص التي كنت أمر بها ممعناً في قراءتها.

(١) هذا البحث بكامله كان قد نشر مستقلاً.

إن محاولة الخليفة العباسي، المأمون، نقل الخلافة إلى الرضا علي بن موسى (ع) حدث من أضخم أحداث التاريخ الإسلامي، كان يمكن له، لو تم، أن يغير مجرى هذا التاريخ. ومع ذلك فإن هذا الحدث لم يُعن به إلا سطحياً، ولم يدرس كما يجب أن تدرس الأحداث الخطيرة في تاريخ الأمم.

فلم ينتبه أحد - مثلاً - إلى أن المأمون ترك منصب ولاية العهد شاغراً ثلاث سنوات لم يختر خلالها أحداً لشغله، مع ما في ذلك من خطر الفوضى وانبعاث الفتن، لو أن المأمون مات قبل أن يملأ هذا المنصب.

ولم ينتبه أحد إلى أن المأمون قد تجاوز ولده في اختيار ولي العهد، مع أن السائد منذ معاوية حتى هارون الرشيد هو اختيار الأبناء لولاية العهد.

إن ذينك الأمرين هما اللذان كان على دارسي تاريخ تلك الفترة أن يتعمقوا في خفايا ما ينطويان عليه من أبعاد. ولو فعلوا ذلك لما تكلفوا ما تكلفوه من محاولة استنباط أسباب اختيار المأمون للرضا ولياً لعهد، ولا انتهى استنباطهم إلى ما هو بعيد عن الحقيقة.

والذي قلناه عن معالجة المتأخرين عن الحدث - معالجتهم له معالجة سطحية، نقوله عن بعض المعاصرين له الذين لم يفهموا أبعاده الحقيقية، فتعاملوا معه تعاملًا بعيداً عن مراميه، فاعتبروه مجرد نقل للخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي فثاروا عليه عصبية للبيت الأول.

وبعض الذين عاصروه أو عاشوا بعده تمكنت منهم (عقدة الاضطهاد)، الاضطهاد الذي توالى عليهم عشرات السنين فلم تستطع عقولهم أن تقبل هذا التحول المفاجيء من اضطهاد السلطات لهم إلى إرادة تسليم الحكم إلى إمامهم، فاسترابوا بالأمر ولم يطمثنوا له واتهموا المأمون بأنه نوى شيئاً وأظهر شيئاً خلافاً حتى أدى بهم الحال إلى أن ينسبوا موت الرضا المفاجيء إلى سم المأمون له.

على أن جلّ الذين عاشوا الحدث من غير الفريق الأول كانوا على فهم لمراميه، فاغتبوا به وأشادوا. لا سيما منهم المعروفون بولائهم لآل البيت الذين تحققت لهم أمانتان: أمنية إنقاذ المملكة الإسلامية الكبرى من التدهور، وأمنية وصول آل البيت إلى حقهم، وفي الطليعة من هذا الفريق: الشاعر أبو تمام الطائي المعروف هو الآخر بولائه لآل البيت، فقال من قصيدة يخاطب بها المأمون:

اللّٰه يشهد أن هديك للرضا
أوليّ أمة أحمد ما أحمد
أما الهدى فقد افتتحت بزنده
وأرى الأمور المشكلات تمزقت
ووسيلتي فيها إليك طريفة
فينا ويلعن كل من لم يشهد
بمضيع ما أوليت أمة أحمد
في العالمين فويل من لم يهتد
ظلماتها عن رأيك المتوقد
شام يدين بحب آل محمد

* * *

لم أرد في هذه الصفحات التي أقدمها للقارئ أن أسجل تاريخاً للعصر العباسي الأول، ولا تاريخاً لعصر المأمون بما فيه من اختياره علياً الرضا (ع) لولاية عهده، وإنما هي بعض خطرات مرت في الذهن خلال دراساتي الطويلة لتاريخ تلك الحقبة أحببت أن أشرك القراء في تفهمها.

وأنا لا أطمح أن أزيل من ذهن الجمهور ما علق به مما تداولته القرون قرناً بعد قرن - أن أزيله بكتابة صفحات محدودة، ولكنني واثق بأن النخبة ستعنى بهذه الصفحات، وسيكون لعناية هذه النخبة، جيلاً وراء جيل، ما يظهر الحقيقة ناصعة كشمس الضحى لمن ينشد هذ الحقيقة.

الانقلاب

كان وصول الرشيد إلى الخلافة نتيجة انقلاب عسكري إذا أردنا استعمال مصطلحاتنا الحديثة، وإذا كانت الانقلابات العسكرية في هذا العصر تبدأ بالبلاغ رقم (١) ثم تكرر البلاغات متتابعة من البلاغ رقم (٢) إلى ما لا يعلمه إلا الله من أرقام، فإن الانقلاب الذي أتى بالرشيد لم يحمل أي رقم لأنه كان معداً له أن يكون البلاغ الأول والأخير، وهكذا كان، فقد استتبت الدولة بتولي الرشيد واستقر أمرها.

أما كيف كان هذا الانقلاب فهو هكذا:

كان الخليفة العباسي المهدي قد عهد بولاية العهد لولديه الإثنيين: موسى وهارون واحداً بعد الآخر، على أن يتولاها بعده موسى الذي لقب بالهادي ويكون وليّ عهده أخوه هارون فيتولى بعد الهادي.

ولكن الهادي، على عادة من سبقه من الخلفاء الأمويين والعباسيين، صرف ولاية العهد عن أخيه هارون وجعلها لولده جعفر.

ولما كان يخشى أن لا يتم الأمر لجعفر، فقد عزم على قتل هارون ليخلو الجو لولده جعفر، ولكن الأقدار التي لا تقاوم كانت له بالمرصاد فمات في الليلة التي كان عازماً فيها على قتل أخيه هارون.

يقول الطبري عند ذكره وفاة الهادي: «وقد كان عزم على قتله، (يحيى بن خالد بن برمك)، وكان محبوساً وقتل هارون الرشيد».

الانقلاب العسكري تولاه قائدان، أحدهما تولى تركيز أمر الرشيد، والآخر تولى السيطرة على جعفر. أما القائد الأول فهو هرثمة بن أعين الذي لم يكده يعلم بوفاة الهادي حتى أسرع فأخرج هارون الرشيد ليلاً وأعلنه خليفة.

وإذا كان المؤرخون لم ينصوا على ما اتخذته هرثمة من إجراءات بعد هذا الإعلان فلنا أن نستنتج أنه أحاطه بما تحت يديه من جند حماية له مما يمكن أن يُفاجئهم به جعفر.

وأما القائد الثاني فهو خزيمه بن خازم الذي قاد قطعة من الجيش ليلاً وهاجم بها مقر جعفر فانتزعه من فراشه وقال له: والله لأضربن عنقك أو تخلع نفسك.

واحتجزه بقية الليل، فلما كان من الغد ركب الناس إلى باب جعفر - وقد انتشر خبر موت الهادي - ليبايعوا الخليفة الجديد، فأتى به خزيمه فأقامه على باب الدار في العلو والأبواب مغلقة، فراح جعفر ينادي: يا معشر المسلمين، من كانت لي في عنقه بيعة فقد أحللتها، والخلافة لعمي هارون ولا حق لي فيها.

وهكذا فإن هذين القائدين قد أخذوا بالحزم، ولم يضيعوا شيئاً من الوقت، بل أسرعوا إلى تنفيذ الانقلاب في اللحظة التي عرفوا فيها بموت الهادي.

وإذا كان القادة العسكريون في هذا العصر يختارون الليل لتنفيذ انقلاباتهم العسكرية فإن هرثمة وخزيمه قد سبقاهم في هذا الأسلوب، فكانا أول من اتخذ من الليل زمناً للانقلاب العسكري.

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن يحيى بن خالد البرمكي كان محبوساً، وأن الهادي كان عازماً على قتله مع الرشيد. ونشير هنا إلى أن الرشيد بمجرد أن نصبه هرثمة خليفة أرسل من أتاه يبيحى من الحبس وقلده الوزارة.

ولنا هنا أن نقول إن سجن الهادي ليحيى كان بسبب صلته الوثيقة بالرشد، واعتقاد الهادي بأنه أبرز القائمين بأمره لذلك سجنه وعزم على قتله .

وكعادة أكثر الشعراء في كل زمان، وأكثر الصحفيين في هذا الزمان، الإسراع في تملق المنتصرين، أسرع إبراهيم الموصلي يتملق المنتصرين بقوله:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمين أمين الله هارون ذي الندى فهارون واليهما ويحيى وزيرها

وواصل الانقلابيون عملهم بسرعة، فقبل أن ينبجج الصباح كان الوزير قد باشر مهماته فاستدعى إليه يوسف بن القاسم بن صبيح، الذي يصفه الطبري بالكاتب. ويبدو جلياً من المهمات التي عهد إليه بها أنه كان في ذلك العصر بمثابة المشرف على «الإعلام» في عصر الجرائد والإذاعة والتلفزيون، إذ أن يحيى أمره بإنشاء الكتب. وتظل جملة «إنشاء الكتب»، غامضة المقصود إلى حد ما، فهل المقصود بها: الكتب التي ترسل إلى أطراف المملكة معلنة انتصار الانقلاب أو الكتب التي تستدعي من في العاصمة من كبار الرجال فقط ليلبغوا الأمر الواقع؟

وأياً كان الحال فلم يأت الصباح حتى كان البلاغ قد أُعد والقواد العسكريون قد حضروا، وحتى كان «الكاتب» يوسف بن القاسم يتلوه عليهم وهذا نصه:

بعد الحمد لله عز وجل والصلاة على النبي ﷺ

إن الله بمنه ولطفه منّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه بيت الخلافة ومعهد الرسالة وإياكم أهل الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التي لا تحصى بالعدد ولا تنقضي مدى الأبد وأياديه التامة أن جمع الفتكم وأعلى أمركم وشد عضدكم وأوهن عدوكم وأظهر كلمة الحق وكنتم أولى بها وأهلها فأعزكم الله وكان الله قوياً عزيزاً فكنتم أنصار دين الله المرتضى والذائبين بسيفه المُنتضى عن أهل بيت نبيه ﷺ وبكم استنقذهم من أيدي الظلمة أئمة الجور والناقضين عهد الله والسافكين الدم الحرام والآكلين الفياء والمتسائرين به فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة واحذروا أن تغيروا فيغير بكم وإن الله جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام فقبضه إليه وولى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين بكم رؤوفاً رحيماً من محسنكم قيولاً وعلى مُسيئكم بالعفو عطفواً وهو أمتعه الله بالنعمة وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة وتولاه بما تولى به أولياءه وأهل طاعته يعدكم من نفسه الرافة بكم والرحمة لكم وقسم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم

ويبذل لكم من الجائزة مما آفاه الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً غير مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من إعطياتكم وحاملاً باقي ذلك للدفع عن حريمكم وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين إلى بيوت الأموال حتى تعود الأموال إلى جمامها وكثرتها والحال التي كانت عليها فاحمدوا الله وجددوا شكراً يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم بما جدّد لكم من رأي أمير المؤمنين وتفضل به عليكم أيده الله بطاعته وارغبوا إلى الله في البقاء ولكم به في إدامة النعماء لعلكم ترحمون وأعطوا صفقة إيمانكم وقوموا إلى بيعتكم حاطكم الله وحاط عليكم وأصلح بكم وعلى أيديكم وتولاكم ولاية عباده الصالحين. (اهـ).

نرى أن البلاغ قد صيغ صياغة محكمة فهو يتجاهل الانقلاب، ويتجاهل ما فعله الهادي من تولية عهده لولده جعفر، وهو يعرض خلافة الرشيد خلافة طبيعية بعد أخيه الهادي.

وإن صياغة البلاغ كانت لبقة واعية، وهي حين فعلت ذلك تكون قد سدت منافذ الاعتراض على من يتساءل: وأين عهد الهادي لجعفر؟

لقد جاء النص هكذا: إن الله جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام فقبضه إليه، وولّى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين... إلى آخر الكلام.

فالله هو الذي استأثر، والله هو الذي ولى. فمن ذا الذي يعترض على الله؟! وذكر الله هو توكيد على أن الحق هو حق الرشيد لأن أباه الهادي عهد إليه بولاية العهد بعد أخيه، فأصبح ذلك حقه عند الله، وما فعله الهادي كان خلاف هذا الحق.

ثم لا ينسى البلاغ أن يوعد بعدما وعد فيقول: إحدروا أن تغيروا فيغير بكم.

ثم هو يتوقع عصياناً ومعارضة فيقول: «وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين». فإذا كان الانقلابيون أحكموا سيطرتهم على العاصمة فالنواحي والأقطار غير معلوم أمرها. وكان الرشيد عندما يبيع قد بلغ الثانية والعشرين من عمره، فكان أول إجراء يتخذه هو شفاء حقد شخصي ممن يدعى أبا عصمة.

وذلك أنه بعد أن عزله أخوه الهادي من ولاية العهد وجعلها لولده جعفر، كان يسير هو وجعفر راكبين ومعهما أبو عصمة فلما بلغا قنطرة من قناطر عيساباذ^(١) التفت أبو عصمة إلى

(١) عيساباذ: محلة كانت بشرقي بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدي شقيق الهادي والرشيد وكانت إقطاعاً له، وفيها بنى المهدي قصره الذين سماه قصر السلام.

هارون فقال له: مكانك حتى يجوز ولي العهد. فقال هارون: السمع والطاعة للأمير، فوقف حتى جاز جعفر.

فعندما تم أمر الرشيد قال: لا صَلَّيْتُ الظهر إلا ورأس أبي عصمة بين يدي. ثم لبس ثيابه وخرج وقدم أبا عصمة فضرب عنقه وشد جمته في رأس قناة ودخل بها بغداد. وقد دُلَّ في ذلك على عراقه الحقد في نفسه، ولم يدر يحيى البرمكي في تلك الساعة الأولى من ساعات سلطة الرشيد التي كان هو ركنها الأول، الساعة التي انطلق فيها حقد الرشيد على حقيقته... لم يدر يحيى يومذاك أن ساعة أخرى من ساعات هذا الحقد ستزل به وبأسرته!

الخراسانية

قبل التوغل في بحوث الكتاب علينا أن نبين حقيقة ما يقصد بـ«خراسان» و«الخراسانية» عند الحديث عن حركة العباسيين وقضية المأمون، وهو ما يراه القارىء مفصلاً في البحوث الآتية.

أجمع المؤرخون على أن جل شيعة بني العباس من أهل خراسان. وتلك هي الحقيقة، ولكن هذا الإجماع يوهم في ظاهره أن هؤلاء الخراسانيين برمتهم أعاجم، وقد بالغ بذلك رهط من المستشرقين المتأخرين وقوم قلدوهم من الشرقيين، ولا غرض لهم إلا التعريض ببني العباس وأن دولتهم صنيعه الموالي والأعاجم، وفي هذه الأقوال ما فيها من الغلو والإغراق.

إن التأمل الجيد في نصوص التاريخ كفيل بإزالة هذا الوهم، فإن قدماء المؤرخين وثقاتهم إذا قالوا: «أهل خراسان» لم يقصدوا الأعاجم وحدهم، وإنما كانوا يقصدون بهذه العبارة، في كثير من المواضع، القبائل العربية المقيمة في خراسان. ولا تنكر مساهمة هذه القبائل في خدمة الدعوة العباسية، فأهل خراسان تعني أصحاب خراسان من العرب غالباً وإنك لتجد تداول هذه العبارات على هذا الوجه واضحاً في خطب الولاة والأمراء وفي أقوال المؤرخين، تجدها كذلك، في خطب نصر بن سيار عامل الأمويين^(١) وفي خطب قتيبة بن

(١) أنظر خطب ابن سيار عامل خراسان في أيام مروان بن محمد، وفي بعضها يقول: «يا أهل خراسان إنكم غمطتم الجماعة وركنتم إلى الفرقة، السلطان المجهول تريدون وتظنون؟... إن فيه لهلاككم معشر العرب». ألا ترى أنهم لا يعنون بأهل خراسان إلا العرب في هذه الكلمة؟ =

مسلم وغيرهما من الأمراء، وكانوا ينسبون إلى المدن الخراسانية والفارسية فيقولون رازي وأصفهاني ومروزي وكرماني لأنهم ولدوا أو أقاموا فيها لا غير، وهم عرب صرحاء، والأمثلة على ذلك كثيرة. وهذا «الكرماني»، وهو من أشهر رؤساء خراسان في أواخر عصر بني أمية، وأخباره كثيرة في هذه الفترة من التاريخ، قد نسب إلى كرمان لأنه ولد فيها، وما هو إلا عربي قح وكان يقال له: «شيخ خراسان وفارسها» في العصر المذكور.

وقد أَلِفَ العرب هذا النوع من الانتساب إلى حيث يولدون أو يقيمون من بعض البلاد الفارسية أو التركية. أَلَفُوا ذلك حتى أواسط عصور الدولة العباسية أو بعد ذلك. فهذا أبو الفرج الأصفهاني قد اشتهر بنسبه إلى أصفهان وهو كما لا يخفى من أرومة أموية بل كان نزيل بغداد.

وفي كتب الفتوح ذُكِرَ لخطط العرب ومنازلهم في البلاد المذكورة في فتوح البلدان للبلاذري. ورأينا بعض المؤرخين يقولون فلان «عربي خراساني» أو عربي من أهل خراسان. مثال ذلك العبارات التي يستعملها الجاحظ في رسالته المسماة مناقب الترك.

عروبة نقباء الدعوة

كان عدد مقاتلة العرب من أهل الكوفة والبصرة كبيراً في خراسان في عهد الفتوح الأولى، وهم من مختلف القبائل النزارية واليمانية بل كان جل نقباء الدعوة الهاشمية من زعماء العرب المنتميين إلى أشهر قبائلهم، فمنهم خمسة من خزاعة وثلاثة من تميم وبعضهم من طي وربيعة ومزينة وغيرها من القبائل المشهورة^(١).

وقد كتب الجاحظ فصلاً ممتعاً في هذا الموضوع لم يسبقه إليه أحد في رسالته المسماة

= ومثل ذلك كثير. وانظر وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد حين استخلفه على جرجان فقد أوصاه بأحياء العرب فيها من اليمن وربيعة وقيس مع الإشارة إلى أسباب ذلك. (أنظر تاريخ الأمم والملوك والكامل لابن الأثير).

(١) أنظر عن عروبة رجال الدعوة، تاريخ الطبري (٧٦/٩)، وتاريخ يعقوبي (٧٢/٣)، ومروج الذهب (١٤٤/٢)، والكامل (٩٠/٦). وعن عروبة زعماء خراسان المصدر نفسه (١٩١٥)، وعن القبائل العربية المقيمة في خراسان من تميم وربيعة واليمن، كتاب الوزراء للجهشياري (٢٦٩) وعن أحياء العرب في خراسان كلمة لقتيبة بن مسلم في البيان والتبيين (١٩٩/١)؛ وعن بني تميم في خراسان كلمة خاطب الأحنف بن قيس قبيلته فيها، البيان والتبيين (١٨٤/١)؛ وعن طعانن العرب تخرج من مرو إلى سمرقند بدون جواز، خطبة لقتيبة بن مسلم، العقد الفريد (٣٨٥/٢).

مناقب الترك^(١)، ومن هذا الفصل تعرف أن جل هؤلاء النقباء من العرب وإن كان فيهم عدد من الموالي. وله في هذا الباب فصل آخر أشار فيه إلى وقائع حاسمة في خراسان والعراق تفانى فيها أنصار الفريقين. وقد جاء فيه ما نصه: «وهل أكثر الدعاة إلا من صميم العرب ومن صليب هذا النسب، كأبي عبد الحميد قحطبة^(٢) بن شبيب الطائي وأبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي، وأبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي، وأبي داود خالد بن إبراهيم الذهلي وكأبي عمرو لاهز بن طريز المري^(٣) وأبي عيينة موسى بن كعب المراني، وأبي سهيل القاسم بن معاشع المزني، ومن كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهم مثل مالك بن الطوف المزني. وبعد فمن الذي باشر قتل مروان ومن هزم ابن هبيرة وقتل ابن ضبارة^(٤) ومن قتل نباتة بن حنظلة^(٥) إلا عرب الدعوة والصميم من أهل الدولة؟»

هذا وللجاحظ كلمة كثيراً ما رأينا شدة التاريخ الإسلامي من عرب ومستعربين يحتجون بها في هذا الباب، وهي قوله: «دولة ولد العباس أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية»^(٦) ومن رأينا أنها كلمة لا تصلح للاحتجاج فيما نحن فيه، لأن صاحبها قالها في معرض المقارنة بين الدولتين من حيث استخدام الشعر والكلام العربي البليغ لحفظ الوقائع، وتقيد المآثر وتخليد المحاسن. ومن رأي الجاحظ أن العصر الأموي امتاز بهذا الضرب من الأدب البدوي العربي، والعرب، وهم أميون، أحفظ وأوعى لما يسمعون وأكثر عناية بالإنشاء وضرب الأمثال. ومن رأيه كذلك أن أنصار بني العباس قصرُوا عن الأمويين في حفظ وقائعهم وتدابير ملوكهم وسياسات كبرائهم في أهل الشام وما جرى لهم في هذا السبيل من حر الكلام وشريف المعاني في الدولة العباسية، إلى أن قال: «كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه وما أسس لمن بعده ما يفني بجماعة بني مروان»^(٧).

- (١) مناقب الترك، (٨ - ١٢).
- (٢) كان قحطبة يقارن بأبي مسلم.
- (٣) المشهور ابن قريظ لا ابن طريز.
- (٤) قتله قحطبة سنة ١٣١هـ، وما رئي عسكر يجمع شتى المؤن والآلات والذخائر كعسكر ضبارة وكان يسمى عسكر العساكر حتى كأنه مدينة.
- (٥) أنظر عن مقتل نباتة بن حنظلة ومن معه من أهل الشام على يد قحطبة، أنظر الطبري (٩/ ١٠٥ - ١٠٦) وهذه الموقعة من الوقائع الحاسمة في النزاع.
- (٦) البيان والتبيين، المطبعة العلمية ١٥٤/٢.
- (٧) المصدر نفسه.

أولع الجاحظ بتكرار هذا المعنى في كتبه على وجه يؤكد لنا أنه لم يقصد بالكلمة المذكورة إلا الناحية الأدبية العربية دون السياسة، وقد عقد في رسالته التي سماها مناقب الأتراك فصلاً قارن فيه بين العرب والعجم من حيث استخدام صناعة الكلام لحفظ الوقائع وتسجيل المثالب والمناقب، «الشعر ديوان العرب، وهم أميون لا يتكلمون على الكتب المدونة والخطوط المطرسة، ولبعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع، وهم من جميع الأمم أفخر ولأيامهم أذكر».

وخلاصة القول: يريد الجاحظ أن بني العباس اقتبسوا ما اقتبسوه من قواعد الدواوين ورسوم الدول الأعجمية البائدة، فنقلوه إلى دار خلافتهم، فأصبحت رسوم دواوينهم والقواعد المتبعة فيها شبيهة بتلك العادات والرسوم من بعض الوجوه.

هذا ما عناه فريق من قدماء المؤرخين والكتاب بقولهم عن الدولة العباسية إنها دولة فارسية وعن الدولة الأموية إنها دولة عربية أو أعربية. وقد أسيء فهم هذه الأقوال من قبل بعض المعنيين بالتاريخ شرقاً وغرباً، وعلى هذا الوجه الذي بيناه آنفاً فهمت أقوال الجاحظ في عصره، وعلى هذا الوجه ينبغي أن تفهم في كل العصور. ومن الخطأ الشنيع، بل من الظلم الفاحش أن تفسر هذه الأقوال بأن الدولة العباسية دولة فارسية في روحها ونزعتها وأن دعوة أنصارها كانت موجهة إلى الكيد من الأمة العربية، أو إلى بعث المجد الساساني البائد، وإن النزاع بين الدولتين إنما هو نزاع بين الفرس والعرب إلى أمثال ذلك من أقوال واهية ومزاعم مردودة.

كان إقبال الفرس وأبناء خراسان على الدين الإسلامي منقطع النظر حتى استأصل تلك النعرات القديمة من نفوس الشعوب الإيرانية والطورانية وإن لم ينزع كل ما تأصل في الطباع أو جرى في الدماء، أو امتزج بالأرواح بالمرة، فلا يصح أن يقال إطلاقاً إن الفرس حاولوا انتهاز الفرصة في العصر العباسي المذكور للرجوع إلى عوائدهم وأوابدهم القديمة.

إننا لا ننكر أن تبقى في العصر العباسي المذكور بقية من نحل فارسية وعادات وثنية خصوصاً في الأصقاع النائية من الشرق، بيد أن ذلك لم يكن له أثر يعتد به في حياة الشعوب المذكورة^(١).

(١) عن الشيخ محمد رضا الشيبلي.

عروبة الدعوة العباسية في خراسان

- ١- إن المستأثرين من العرب المستقرين التابعين لقبائل متباينة هم الذي حرّموا من العطاء ولذلك نظروا بعين الحسد إلى إخوانهم العرب المقاتلة من أصحاب الامتيازات، وتدمروا كذلك من تسلط الدهاقين عليهم في واحة مرو. كان هؤلاء يأملون تغييراً في الطبقة الحاكمة. وهذا يفسر حقيقة كسب الثورة العباسية للعرب من اليمانية والربعية والمضرية الذين كانوا يشعرون بخيبة الأمل.
- ٢ - كان للعرب المقاتلة من أصحاب الامتيازات المسجلين في ديوان العطاء مشاكلهم كذلك مع السلطة الأموية تتعلق بسياسة التجمير وحصتهم من الفئء والغنيمة وكذلك بضرورة بقاء وارد خراسان في خراسان لكي يصرف على تحسين حالتها. ولا تأخذ منه الخزينة المركزية إلا بمقدار حصتها. ولقد رأى هؤلاء في الدعوة أملاً جديداً لحياة أحسن.
- ٣ - لقد سكن العرب في القرى الواقعة في واحة مرو وكان لهم حاميات عسكرية في عدد من المدن الخراسانية ولذلك كانت الدعاية العباسية مركزة على هذه المناطق فلقد أدرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطة لأنهم مصدر القوة الضاربة الوحيدة. ومن أجل الوصول إلى السلطة يجب أولاً كسبهم إلى الدعوة، ولم يفضل الدعاة في البداية قبيلة عربية على أخرى رغم أنهم حصلوا على عضد من اليمانية أكثر من المضرية إلا أنهم كانوا دائماً يرحبون بالمضريين والربعيين الذين يرغبون بالانضمام للدعوة.
- ولا ينكر انضمام غير العرب إلى الدعوة إلا أنهم كانوا أيضاً إلى جانب الأمويين ولا يمكن مقارنتهم من حيث الدور والفعالية بالعرب.
- ٤ - يظهر أن عرب خراسان سثموا النزاع فيما بينهم وليس أدل على ذلك من تسمية تلك الأيام بأيام الفتنة وأيام الفورة وأيام العصية^(١).

(١) أنظر:

أ- تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣ فما بعد.

ب- ابن الكلبي، جمهرة ١٤٠، ب، ٤٤.

ج- ابن حزم، ص ٣٥٩.

د- الدينوري، ص ٣٥٠.

هـ- أخبار الدولة المنقطعة ص ١٠٠ أ.

يقول مؤلف أخبار العباس (ص ١١٩):

«فطالت الفتنة بين نصر بن سيار وعلي بن الكرمانى^(١) ومن كان بها من العرب حتى أضجر ذلك كثيراً من أصحابها وجعلت نفوسهم تتطلع إلى غير ما هم فيه وإلى أمر يجمعهم فتحركت الدعوة، يدعو اليماني من الشيعة اليماني، والربعي الربعي والمضري المضري حتى كثر من استجاب لهم وكفوا بذلك عن القتال في العصية».

٥ - يورد الجاحظ افتخار العرب بدورهم في الدعوة العباسية فيقول: «إن العربي يقول . . . وهل أكثر النقباء إلا من صميم العرب ومن صليب هذا النسب . . . وبعد فمن هذا الذي باشر قتل مروان ومن هزم ابن هبيرة ومن قتل ابن ضبارة ومن قتل ابن حنظلة إلا عرب الدعوة والصميم من أهل الدولة».

ويقول الخراساني: «نحن النقباء وأبناء النقباء ونحن النجباء وأبناء النجباء ومنا الدعاة قبل كشف القناع وزوال التقيّة»^(٢).

ويشير ابن المقفع إلى أن أصل أهل خراسان يعود إلى أمصار العراق والبصرة والكوفة حيث هاجروا من هناك إلى مرو فيقول للمنصور: «أهل خراسان أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته وحقيقته مع اختلاطهم بأهل خراسان»^(٣).

٦ - من شعارات الثورة العباسية «يا محمد يا منصور» ولعل هذا الشعار دليل واضح على تركيز الدعوة على القبائل اليمانية خاصة في خراسان ذلك لأن المنصور هو المنقذ لقبائل اليمن الذين يسمونه «منصور اليمن» أو «منصور حمير». وقد اتخذ الخليفة الثاني أبو جعفر لقب المنصور لأسباب سياسية كذلك.

٧ - يمثّل دعاة التفسير العنصري للثورة العباسية بأبيات شعر بشار بن برد حيث يذكر نصرّة «الموالي» للعباسيين ويفتخر بنسبه وبمنزله كمولى. على أننا نستطيع أن نستند على أبيات عديدة من الشعر تذكر نصرّة العرب للعباسيين.

(١) إن الوضع المتدهور في خراسان بسبب التصادم بين نصر بن سيار وجديع بن علي الكرمانى، شيخ قبائل الأزدي اليمانية، ساعد الدعاة العباسيين على تركيز جهودهم خلال سنة ١٢٨ - ١٢٩هـ، لجذب الأنصار، فاستطاعوا كسب شيخ الأزدي وأتباعه إلى صفوف الدعوة، وهذا الكسب رجح كفه الثوار العباسيين فكانت نهاية نصر والأمويين.

(٢) مناقب الترك، ص ٨.

(٣) أنظر رسالة في الصحابة، ص ١٢٤.

فهذا دعبل الخزاعي يفخر بأن القبائل اليمانية من أنصار العباسيين هم الذين قتلوا مروان^(١).

ويقول شاعر آخر من شيعة العباسيين:

إنا وإخواننا الأنصار شيعتكم إذا تفرقت الأهواء والشيع

٨ - لقد أظهرت حوادث الثورة العباسية بأن الإيرانيين في مناطق مختلفة لم يشتركوا في الثورة ولم ينحازوا إليها بل إن قسماً منهم في جرجان ومنها وفد نيسابور وبلخ انحاز إلى نصر بن سيار والأمويين. ولم تشترك في بلاد ما وراء النهر أية مدينة في الثورة.

ثم لماذا لم يساند الإيرانيون الدولة العباسية بعد نشوئها إذا كانت قد قامت على أكتافهم وحقت رغباتهم؟ إن إيران كانت في العصر العباسي من أكثر المناطق اضطراباً وعدم استقرار.

٩ - قال أبو مسلم الخراساني مخاطباً شيعة العباسيين في خراسان: «أمرني الإمام (إبراهيم)، أن أنزل في أهل اليمن وأتألف ربيعة ولا أدع نصيبي من صالح مضر وأحذر أكثرهم من أتباع بني أمية وأجمع إلي العجم»^(٢).

وكان الإمام محمد العباسي قد أوصى أبا عكرمة السراج بما يشابه هذه الوصية حيث قال: «فلتكن دعوتك إلى الرضا من آل محمد... وليكن اسمي مستوراً من كل أحد إلا عن رجل توثقت منه وأخذت بيعته. فإذا قدمت مرو فاحلل في اليمن وتألف ربيعة وتوق مضر وخذ نصيبك من ثقاتهم»^(٣).

١٠ - لعل سبب اختيار خراسان مكاناً للثورة يرجع إلى أن العرب لم يُصابوا فيها بانتكاسة أو ضربة قوية لعدم قيام ثورات علوية أو غيرها فيها. وهذا ربما كان معزى قول محمد العباسي حين أرسل دعائه إلى خراسان.

كما وأنه «في خراسان جمجمة العرب وفرسانها» هؤلاء الفرسان المتمرسون بالقتال السنوي مع الكفار عبر بلاد ما وراء النهر.

(١) أنظر الأغاني، ج ٤، ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) أنظر أخبار العباس، ص ١٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٥ ب.

- ١١- لقد كان النقباء في غالبيتهم من العرب من خزاعة وتميم وطي وشيبان وبجيلة، وكذلك نظراء النقباء والدعاة.
- ١٢- لقد كان العمل مشتركاً في مجلس النقباء من شيعة العباسيين على أن أبا مسلم كان يحاول دوماً أن يبرز دور سليمان بن كثير الخزاعي رئيس النقباء.
- وواقع أن سليمان الخزاعي لعب دوراً رئيسياً في الدعوة والاتصال بابن الكرمانى والمفاوضات مع نصر، وتحركات الجيش الخراسانى. ولعل إبراز الدعوة لسليمان الخزاعي كان حركة بارعة لإظهار الواجهة العربية المتمثلة بالخزاعي من أجل كسب العرب.
- ١٣- حاول نصر بن سيار أن يفرق بين العرب من أنصار العباسيين حيث أشار إلى أحد قواده قائلاً: «ما أهون شوكة هؤلاء إن كفت عنهم اليمن وربيعه» مما يدل على مساندة هذه القبائل للثورة^(١).
- ١٤- تشير بعض الروايات إلى أن أنصار العباسيين كانوا علوج القرى وسقاط العرب على أن رواية الجاحظ تؤكد بأنهم عرب إلا أن استيطانهم في القرى وامتزاجهم بالسكان المحليين أدى إلى صعوبة تمييزهم، يقول: «وقد نرى الناس من أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقعوا إلى خراسان فلا نشك أنهم علوج القرى» ولذلك فليس من المستغرب أن يحتفظ المقدسي بالمثل القائل: «رجال مرو من قراها».
- ١٥- تحفل المصادر التاريخية بذكر أسماء القواد والوجه الذين ميزوا أنفسهم بما قاموا من أعمال في سبيل الدعوة.
- ١٦- وفي «الصحيفة الصفراء»، وهي الوصية التي سلمت إلى محمد بن علي العباسي من قبل أبي هاشم، يأتي ذكر العرب كأناصر للدعوة: «... أي أحياء العرب أنصارهم».
- ١٧- وفي حديث للمنصور بعد قيام الدولة العباسية يذكر فيه أن الدعوة قامت على أكتاف اليمانية وأن النقباء كلهم يمانية. ثم يقول عن اليمانية: «فيحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا وقيامهم بدعوتنا ونهوضهم بدولتنا».
- ١٨- وقد خاطب المنصور أثناء حصار واسط اليمانية قائلاً: «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم».

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٣ أ.

١٩- وحين يتكلم صاحب كتاب الإمامة والسياسة عن الجيش العباسي يفرق بين أهل خراسان من العرب وبين الفرس فيقول بأن تعداد الجيش كان ١٢ ألفاً من أهل خراسان سوى الأعاجم^(١).

٢٠- وقد طلب عبد الله بن علي العباسي العون من اليمانية حيث حاصر دمشق قائلاً: «إنكم وإخوانكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا. فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر»^(٢).

وهكذا نلاحظ أن العناصر التي قامت بالثورة العباسية كانت عربية في غالبيتها، أي أن العرب شكلوا القوة الضاربة في الثورة، كما اشترك غير العرب فيها ولكن دورهم لم يكن كدور العرب. وقد انحاز غير العرب إلى الجانبين الأموي والعباسي.

وعن الوصية التي قيل إن إبراهيم الإمام وصى بها أبا مسلم الخرساني والتي يقول فيها: «أنظر هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم واتهم ربيعة في أمرهم. وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار. واقتل من شككت فيه. وإن استطعت ألا تُبقي بخراسان من يتكلم العربية فافعل». إن هذه الوصية غير متفق عليها من قبل المؤرخين لذلك لا يمكن قبولها من دون تمحيص.

والمهم هنا أن يذكر بأن رواية الدينوري وكتاب العيون والحدائق لا تذكر النص الذي يأمر فيه إبراهيم أبا مسلم بقتل العرب دون تمييز ولكن الوارد أن الأمر كان بقتل العرب الذين يرفضون الدخول في الدعوة العباسية أو المشكوك في ولائهم لها «واقتل من شككت في أمره» أو كما يقول العوفي: «اقتل كل المدعين أو المطالبين بالإمامة». ويؤيد ذلك ما يذكره صاحب أخبار العباس على لسان أبي مسلم: «أمرني أن أنزل في أهل اليمن وأتألف ربيعة ولا أدع نصيبي من صالح مضر وأحذر أكثرهم من أتباع بني أمية وأجمع إليّ العجم».

ويمكن تلخيص النقد الداخلي للوصية بالنقاط التالية:

١ - الرواية مجزأة في الطبري إلى قسمين تذكر بينهما حوادث ذات علاقة بتطور الدعوة ولا علاقة لها بالوصية.

(١) الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ٢٥٣.

(٢) الأزدي تاريخ الموصل، ص ١٢٤.

٢ - تأتي الوصية تحت عنوان «سبب قتل مروان بن محمد لإبراهيم الإمام» مما يدل على أنها أو بعضها على الأقل دعاية ضد العباسيين وضعت من جانب أعدائهم .

٣ - يظهر من نص الرواية تناقضات كثيرة فكيف يصح أن يأمر إبراهيم الإمام بقتل كل العرب وهو يدرك أهميتهم ويوصيه في بداية الرواية بتعهد اليمانيين وإلى درجة الربيعين .

٤ - وأخيراً لا آخرأ فإن سياسة أبي مسلم وسليمان الخزاعي في خراسان لم تسر أبداً حسب الوصية المزعومة ، فإن الدعاة العباسيين تقربوا لليمانية والربيعية حتى إن أبا مسلم قبل الكثير من المضربين في صفوف الثورة .

لقد اعتبر بعض المؤرخين الانتصار العباسي على الأمويين بأنه انتصار أهل العراق بعد الكفاح الطويل الذي دام قرابة القرن على أهل الشام . ولذلك فقد نقل العباسيون مركزهم إلى العراق ، ذلك الانتقال التاريخي الذي إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مدى الأهمية التي علّقها العباسيون على القبائل العربية العراقية والخراسانية ؛ خاصة إذا علمنا أن أغلبية القبائل العربية الخراسانية تعود في الأصل إلى البصرة والكوفة ، باعتبار أنّ العراق كان قاعدة الفتوحات العربية الإسلامية في بلاد إيران . كما أنّ هذا الانتقال يدلّ كذلك على ازدياد أهمية الأقاليم الشرقية ؛ كالعراق وفارس وخراسان من الناحية السياسية والاقتصادية على غيرها من أطراف الدولة الإسلامية . على أنّ طبيعة الدعوة العباسية وتعقيداتها السياسية والاجتماعية والدينية لا يمكن أن ترتضى لنفسها هذا التفسير الإقليمي البسيط ، ولعلنا نستبق القول ونشير بأنّ الثورة العباسية قامت على أساس تحالف متين بين كل العناصر الساخطة على الحكم الأموي ، عربية وإيرانية . أما عصبها الرئيسي فقد كان يتكون من القبائل العربية الخراسانية وخاصة اليمانية والربيعية وقليل من المضربة . كما أنّ شعاراتها البرّاقة جذبت إليها الموالي المتذمرين والعجم من غير المسلمين ، على أنّ دور هؤلاء العجم كان ضئيلاً إذا قورن بدور العرب من أهل خراسان .

إنّ التفسير الذي نتبناه والذي يحاول إثبات وإظهار دور العرب المقيمين في خراسان في إشعال الثورة العباسية ودحض التفسير الإقليمي الآنف الذكر ، وكذلك التفسير العنصري الذي يعتبر الثورة العباسية ثورة قام بها الموالي من الفُرس على العرب الحاكمين - إنّ هذا التفسير لا يهدف إلى مجرد القول بأنّ العرب وحدهم قاموا بالثورة إذ إنّنا ندرك بأنّ التأكيد على العرب وحدهم لا يخرجنا من دائرة التفسير العنصري للتاريخ الذي نادى به المستشرقون الألمان

والذي نرفضه بحزم ودون تردد إنما نقول بأن عرباً وفُرساً ساندوا الدعوة العباسية؛ كما أنّ عرباً وفُرساً عارضوا الدعوة، وكذلك الدولة العباسية بعد تأسيسها. والمسألة في حقيقتها ليست إذاً إقليمية ولا هي عنصرية؛ بل إنّها ذات طبيعة معقدة سياسية، عسكرية، اجتماعية، اقتصادية وحتى دينية. ولعلّ تدمر العرب المستقرّين في خُراسان وخاصة في مرو وقرهاه قبل غيرهم من سكان البلاد الأصليين، من سياسة الأمويين المالية والاجتماعية التي ميّزت بينهم وقسمتهم إلى مقاتلة ومستقرّين، كانت الشرارة الأولى التي أُنذرت بقرب وقوع الثورة.

وقد وجهت الدعوة فعالياتها إلى خُراسان، ولعلّ الدوافع التي دفعتها إلى اختيار خُراسان كونها موطن العرب المقاتلة الذين عرّكتهم الحروب الطويلة مع التُرك، والذين عبّروا مراراً عن تدمرهم من سياسة الأمويين، ولكونهم كذلك لم ينقسموا بعد إلى فِرَقٍ وأشباع متنافرة كل واحدة تتبع هوىً معيّنًا ويقاقل بعضها البعض الآخر، كما هو الحال في العراق والجزيرة وبلاد الشام. كما أنّ سياسة الكبت والقوّة الأموية لم تمارس بعد في خُراسان لعدم حدوث ثورة عارمة على الأمويين كما حدث في العراق مثلاً، ولذلك فالعرب من أهل خُراسان كانوا ما يزالون على تماسكهم وصلابتهم. وقد انتشر الدعاة في قرى مرو حيث استقرت القبائل العربية، وفي كل مدينة كان فيها حامية عربية. لقد أدرك الدعاة أنّ العرب وحدهم مصدر السلطة والقوّة الضاربة في خُراسان. ومن أجل الانتصار على الأمويين كان يتحتم على الدعاة كسب العرب إلى الدعوة. وكان العرب في خُراسان ينقسمون إلى كتلتين: المقاتلة، والمستقرّين المستوطنين الذين مارسوا التجارة والحرف والزراعة.

إنّ ظروف خُراسان من حيث قبائلها وعلاقتهم ببعضهم وبالسكان المحليين، والخلافة الأموية في دمشق، لعبت دوراً في إيجاد الجو المناسب للثورة. فالعرب الذين استوطنوا قرى مرو كانت لهم أسباب للتدمر ترجع إلى حرمانهم من الامتيازات التي يتمتع بها المقاتلة من العرب، ومنها حرمانهم من العطاء والمناصب السياسية والعسكرية والإدارية المهمة. ومما زاد تدمرهم أنّ الوالي الأموي سلّط عليهم الدهاقين الفُرس لجباية خراج الأرض منهم، ومن الطبيعي أن يستاء هؤلاء العرب المسلمون من سيطرة الأمراء المحليين الذين لم يكونوا فُرساً فحسب؛ بل أغلبهم غير مسلمين في ذلك الوقت. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد كان للمقاتلة العرب أسبابٌ للتدمر كذلك تعود أولاً إلى إبقائهم على خطوط النار شتاءً وهذا ما يُسمّى بالتجمير، وثانياً إلى أنهم كانوا لا يتسلّمون حصّتهم في الفياء والغنيمة أحياناً، أو يأخذون أقلّ من حصّتهم منها، وثالثاً إلى أن رزق خُراسان كان لا يُصرف على خُراسان وأهلها

بل غالباً ما كان يُرسل كلّه أو بعضه إلى دمشق، ورابعاً إلى النزاع المستمر بين شيوخ القبائل وبين الوالي للوصول إلى السلطة في خراسان، والوضع المرتبك في بلاد الشام أوجد عند القبائل الخُراسانية نوعاً من القلق وعدم الاستقرار، ولذلك كانت الدعوة العباسية بالنسبة لهم أملاً جديداً لحياة أكثر استقراراً وُيسراً.

وقد وقعت في جرجان معركة مهمة حيث وقف أهل جرجان الفُرس مع الأمويين، على أنّ الجيش الخُراساني استطاع احتلال جرجان وقتل الكثير من الفُرس الذين قاوموا الخُراسانية. إنّ معركة جرجان دليل آخر على أنّ الدعوة العباسية لم تكن ثورة الفُرس على الأمويين؛ ذلك أنّ الفُرس من أهل جرجان وقفوا إلى جانب الأمويين على العباسيين من أهل خُراسان.

وفي الوقت الذي لم تُثر الدعوة العباسية الكثير من المدن الإيرانية بالدرجة التي يصورها فان فلوتن ولهاوزن وغيره فقد هبّت القبائل العربية في العراق لمساعدة الجيش العباسي الذي وصل إلى العراق بقيادة قحطبة الطائي وهدته إلى أقصر الطرق للوصول إلى الكوفة.

وعينَ أبو العباس عمه عبد الله بن علي لقيادة الجيش، وكان الجيشان متقاربي العدداً ولكنهما لم يكونا بنفس الانسجام والقوة المعنوية؛ فقد كان الجيش الأموي تموزه القوة المعنوية وتفنته العصبية القبلية، وقد أنهكته الحروب الكثيرة ضد الخوراج والثوار. واستمرت المعركة عشرة أيام انهزم مروان في نهايتها وانسحب باتجاه الموصل التي أغلقت أبوابها بوجهه؛ فاضطر إلى التقهقر إلى الشام. وقد حاول مروان أن يستنجد بالقبائل الشامية وخاصة القيسية ولكنها لم تستجب له، وانقسمت دمشق على نفسها بين مؤيد ومعارض فتركها يتبعه الخُراسانية حتى قُتل في بوسير، إحدى قرى صعيد مصر، في ذي الحجة سنة ١٣٢هـ/تموز ٧٥٠م، قائلاً قولته المشهورة: «انفرت عني قيس انفراج الرأس، ما تبقى منهم أحد، وذلك أنا وضعنا الأمر في غير موضعه».

أما في العراق فقد فتحت الموصل أبوابها للجيش الخُراساني مستقبلة إياه بالتهليل. وأرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر لحصار واسط حيث تحصّن ابن هبيرة، واستطاع أبو جعفر أن يغري القبائل اليمانية المعتصمة داخل واسط قائلاً لهم «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم». فانشقت والتحقت به، ولذلك قدّر موقفها هذا قائلاً: «يحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا...». مما اضطر ابن هبيرة أن يستسلم ويطلب الأمان. أما في البصرة فقد اعتصم مسلم بن قتيبة الباهلي ولم يُسلم الإمارة للوالي العباسي سفيان المهلي، ولكن اعتصامه هذا

لم يدم طويلاً حيث ترك البصرة إلى الحجاز لما علم بمقتل ابن هبيرة. وبهذا استطاع العباسيون أن يقضوا على فلول الأمويين في العراق^(١).

تولية الأمين

عقد الرشيد لولده محمد بولاية العهد سنة ١٧٥هـ ولقبه بالأمين، وكان عمره خمس سنين. ولم يكن هذا العقد أمراً مفروض الوقوع كعقود من سبقه من أولياء العهد، ويكفي في ذلك أن أخاه عبد الله كان أكبر سناً منه، وعلى القاعدة العامة التي جرى عليها من سبقوا الرشيد من الخلفاء فإن الولد الأكبر هو ولي العهد.

ومما يدلنا على أن الأمر لم يكن مبتوتاً به لمحمد، هو أن عيسى بن جعفر^(٢)، خال محمد، توسط الفضل بن يحيى البرمكي ليعمل على حمل الرشيد على عقد ولاية العهد لابن أخته محمد.

وكان البرامكة يومذاك في أوج عزهم وقمة نفوذهم وأقرب حالاتهم من الرشيد بحيث إن مثل عيسى بن جعفر يخاطب الفضل بمثل هذا التوسل قائلاً له: أنشدك الله لما عملت في البيعة لابن أختي محمد، فإنه ولد لك، وخلافته لك.

(١) عن الدكتور فاروق عمر، وللدكتور فاروق عمر قول آخر في هذا الموضوع. فقد قال خلال مقال له في مجلة العرب، (٥م، ص ٦٠٧): «إن الدولة العباسية في عصرها الأول لم تقدم العجم على العرب الذين احتفظوا بمراكز القيادة في السياسة والإدارة والجيش، ولكنها أشركت الموالي في هذه الوظائف والامتيازات، على أن الدولة العباسية التي قامت على أكتاف العرب من أهل خراسان والعراق، وخاصة القبائل اليمنية والربيعية منهم كانت تنظر نظرة حذر وشك إلى القبائل الشامية المواليين للأمويين فلم تقرب شيوخم ولم تصطفهم إلا نادراً.

ويقول الدكتور فاروق عمر في الصفحة ٣٧ من كتابه (الخلافة العباسية) نقلاً عن كتابه الآخر (طبيعة الدعوة العباسية): كان الجيش العباسي أول جيش منظم في تاريخ الدولة العربية الإسلامية. وقد حرص الخلفاء العباسيون الأوائل على الحفاظ على صبغة الجيش العربية، فكانت أهم فرقة فيه هي (فرقة أهل خراسان). وهؤلاء هم بالدرجة الأولى عرب خراسان الذين نصرروا الدولة العباسية ودحروا الأمويين وحققوا التغلب في معركة الزاب، إضافة إلى بعض الموالي من سكان خراسان الذين انضموا كذلك إلى الجند العباسيين.

وقد بقيت القوة الضاربة في الفرقة الخراسانية قوة عربية وكان اعتماد العباسيين عليها في إخماد الحركات وقمع الاضطرابات.

(٢) عيسى بن جعفر بن المنصور شقيق زبيدة أم محمد.

فيعسى حفيد أبي جعفر المنصور، شقيق زبيدة زوجة الرشيد، لا يرى غضاضة في أن يرجو الفضل بن يحيى بأن يعتبر محمد بن الرشيد ولدأ له .
وقد وعده الفضل أن يفعل .

على أنه يبدو من نص للطبري أن بعض بني العباس كان فيهم من يطمح لأن يكون هو ولياً للعهد، فقد قال الطبري وهو يروي قصة عقد ولاية العهد للأمين ما يلي: «وكانت جماعة من بني العباس قد مدوا أعناقهم إلى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له ولي عهد. فلما بايع لمحمد أنكروا بيعته لصغر سنه».

والرشيد الذي جاء إلى الخلافة بانقلاب عسكري، يبدو أنه خشي أن يحدث بعده مثل ما حدث له، لذلك فقد كان أول ما فعله لتوطيد أمر محمد أن أخذ له بيعة القواد والجند.

وهنا يبدو اضطراب في رواية الطبري، فهو يقول: «وقد كان الفضل لما تولى خراسان أجمع على البيعة لمحمد، ففرق فيهم أموالاً وأعطى الجند أعطيات متتابعات ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد فبايع الناس له وسماه الأمين، فلما تناهى الخبر إلى الرشيد بذلك وبايع أهل المشرق، بايع لمحمد وكتب إلى الآفاق فبويع له في جميع الأمصار».

فهذا النص يوحي بأن الذي بدأ بإعلان ولاية عهد محمد هو الفضل لا الرشيد، وأن الفضل هو الذي سماه الأمين. وأن ذلك أنهى التردد في نفس الرشيد فصمم على البيعة لمحمد.

ومع تسليمنا بنفوذ البرمكيين على الرشيد وإقراره لما يَقْرُونه، نستبعد أن يسبق الفضل الرشيد في إعلان ما أعلن. إلا أن يكون الأمر مدبراً بينهما بأن يعلن الفضل البيعة في المشرق فتصبح واقعاً لا بد من إقراره.

ومهما كان الأمر فلا بد من أن نسجل هنا أن الداعي الأول لخلافة الأمين كان فارسياً، وأن هذه الدعوة قامت أول ما قامت في خراسان.

وحين نعلم أن المنافس الحقيقي للأمين هو المأمون، ندرك أن خؤولة المأمون الفارسية لم تنفعه عند هذا الفارسي العريق، ولا نفعته عند فرس خراسان. وأن الزعم بارتكاز المأمون بعد ذلك في صراعه مع أخيه الأمين على الفرس ليس بصحيح كما سنرى في الآتي من القول.

المأمون بعد الأمين

في سنة ١٨٢هـ خرج هارون الرشيد من مكة متجهاً إلى مقره الصيفي في الرقة^(١) على أطراف بلاد الشام القريبة من أطراف العراق، وبوصوله إلى الرقة، قدّم ولده عبد الله وبايع له بولاية العهد بعد ابنه محمد، ولقبه «المأمون» بعد أن كان من قبل قد بايع بولاية العهد لولده محمد ولقبه «الأمين».

ولو ترك الرشيد وشأنه لبايع بولاية العهد لابنه عبد الله أولاً، ثم لابنه محمد، فهذا التصرف هو التصرف الطبيعي لأن عبد الله هو الأكبر سناً ثم هو البادي التفوق بذكائه وعقله وحسن تدييره واتجاهه إلى اكتساب العلم والمعرفة^(٢).

ولكن الرشيد تجاوز ذلك كله، وخالف ما كان يتمناه فبايع لمحمد الأمين أولاً ولعبد الله المأمون ثانياً، وذلك - لا شك - بضغط من زوجته زبيدة أم الأمين^(٣).

ولثلا تضيع مواهب المأمون، وتذهب كفاءته سدىً، فقد جعله ولياً لعهد الأمين، على أمل أن تصل إليه الخلافة فيحسن تدير أمورها وتنفع البلاد بمزاياه، ولو بعد الأمين.

على أنه لم يؤخر الإفادة منه إلى حين وصوله إلى الخلافة، بل عجل ذلك بأن عينه بعد وصوله إلى بغداد والياً على خراسان وما يتصل بها إلى همدان. ويعبر الطبري عن ذلك بقوله: «ولاه من حد همدان إلى آخر المشرق» كما كان قد جعل للأمين الشام والعراق^(٤).

(١) المعروف أن الرقة كانت مصيفاً للرشيد. ولكن الرشيد حين عودته من سفره إلى خراسان سنة ١٨٩هـ مر ببغداد مجتازاً لها في طريقه إلى الرقة دون أن يعرج عليها معللاً عدم تعريجه على بغداد واتخاذ الرقة مقاماً كما يروي الطبري بقوله: أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق، والبغض لأئمة الهدى، والحب لشجرة اللعنة بني أمية، مع ما بها من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل ولولا ذلك ما فارقت بغداد.

ومن هذا القول يفهم أن إقامة الرشيد في الرقة كانت لأسباب تتعلق بالدولة وشؤونها لا للاصطياف كما هو مشهور.

(٢) من مظاهر تقدير الرشيد لمواهب المأمون واعتماده عليه أنه في سنة ١٩٠هـ غزا الصائفة فاستخلف المأمون بالرقة وفوض إليه الأمور وكتب إلى الآفاق بالسمع له والطاعة ودفع إليه خاتم المنصور يتيمّن به وهو خاتم الخاصة.

(٣) كانت بيعة الأمين بولاية العهد سنة ١٧٥هـ وبيعة المأمون سنة ١٨٣هـ وزبيدة هي بنت جعفر بن المنصور.

(٤) يقول الشيخ محمد رضا الشيباني عن ولاية المأمون على خراسان:

وحين نتخيل المساحة التي جعل المأمون حاكماً عليها، أو حين ننظر اليوم إلى الخريطة المشتملة على هذه الولاية، نرى أنه قد خصه بالقسم الشرقي من المملكة الإسلامية، القسم الشرقي كله؛ أي مما يقرب من حدود العراق إلى آخر المملكة شرقاً. ولكي يوطد الرشيد أمر المأمون أخذ له - وهو في الرقة - البيعة على الجند، ثم وجهه إلى بغداد وحين وصل إليها أخذت له البيعة فيها قبل عودة الرشيد، إذ لم يعد الرشيد إلى بغداد إلا في جمادى الآخرة سنة ١٨٤هـ. وفي بيعة الرشيد للمأمون يقول الشاعر سلم الخاسر:

لذي الحجى والخلق الفاضل	بايع هارون إمام الهدى
والضامن الأثقال للحامل	المخلف المتلف أمواله
والحاكم الفاضل والعدال	والعالم الناقد في علمه
والقائل الصادق والفاعل	والراتق الفاتق حلف الهدى
والمفضل المجدي على العاقل	لخير عباس إذا حصلوا
بالعرف عند الحدث النازل	أبرهم برأ وأولاهم
وانكشف الجهل عن الجاهل	فتم بالمأمون نور الهدى

وبالرغم من يقيننا بأن هذا الشاعر كغيره من الشعراء إنما يمدح متملقاً، ويثني

= مرت بلاد الأتراك والشرق بأسره في الفترة الواقعة بين أواخر خلافة هارون الرشيد إلى أواخر خلافة المأمون وأوائل خلافة المعتصم بمرحلة خطيرة من مراحل الانتقال. مرحلة امتازت بإقبال الأتراك على الدخول في حظيرة الإسلام وهي ثمرة من ثمرات السياسة الإنشائية التي انتهجها المأمون في ولايته على خراسان بل في خلافته بأسرها وولاية عهده قبل ذلك. أقبل أترك ما وراء النهر - أترك الصغد والشاش وأشروسنة والصغانيان، وفي مقدمتهم ملوكهم وأمراؤهم وأشهرهم كاوس وابنه حيدر بن كاوس المعروف بالأفشين وأمثالهم - على الإسلام وازدحمت وفودهم على باب المأمون أمير خراسان. هكذا أسفرت هذه السياسة الإنشائية عن نتائج باهرة في تلك البلاد إذ نعمت بعهد منقطع النظير من الطمأنينة والرخاء في عصر المأمون وغلب الإسلام على أهل تلك البلاد في خلافة المأمون.

وقد نحا المأمون نحو سياسة مثمرة أساسها الكف عن الغزو والأثخان في البلاد النائية وقوامها التعاون مع أهل البلاد المفتوحة والميل إلى الصلح وتسوية ما بين الفريقين من الخصومات تسوية سلمية مهما أمكن ذلك.

وفي عصر المأمون أبلى الأتراك بلاء حسناً في الدفاع عن حدود الدولة في بوادي تركستان وعلى تخوم الشرق الأقصى. وهي ثمرة من ثمرات السياسة التي سار عليها المأمون (ابن القوطي، الصفحة ١٨٠ وما بعدها).

مستجدياً، فإننا لا نستطيع إلا أن نقف عند الأوصاف التي وصف بها هذا الشاعر ممدوحه المأمون، فهي ليست أوصافاً تقليدية تقال في كل أمير ممدوح، بل هي صفات معينة، حددها الشاعر مضافة إلى الأوصاف الأخرى التي تغدق على الممدوحين إغداقاً مهما كانت حقيقتهم.

كتاب الأمين إلى الرشيد

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز من أمره طائعاً غير مكره أن أمير المؤمنين ولاني العهد من بعده وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً وولى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي برضى مني وتسليم طائعاً غير مكره وولاه خراسان وثغورها وكورها وجندها وخراجها وطرزها وبريدها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشرها وجميع أعمالها في حياته وبعده وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين برضى مني وطيب نفسي أن لأخي عبد الله بن هارون عليّ الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدي وتسليم ذلك له وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها ومما أقطعه أمير المؤمنين من قطعة أو جعل له من عقدة أو ضيعة من ضياعه أو ابتاع من الضياع والعقد وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلي أو جوهر أو متاع أو كسوة أو منزل أو دواب أو قليل أو كثير فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين موفراً مسلماً إليه. وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً فإن حدث بأمر المؤمنين حدث الموت وأفضت الخلافة إلى محمد بن أمير المؤمنين فعلى محمد إنفاذ ما أمر به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ومن ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرماسين وأن يمضي عبد الله بن أمير المؤمنين إلى خراسان والرّي والكور التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله بن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لدن الرّي إلى أقصى عمل خراسان ليس لمحمد بن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين، ولا يحول عبد الله بن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاه إياها هارون أمير المؤمنين من ثغور خراسان وأعمالها كلها ما بين عمل الرّي مما يلي همدان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها وما هو منسوب إليها ولا شخصه إليه ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه ولا يولي عليه أحداً ولا

يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاية أموره بنداراً ولا محاسباً ولا عاملاً ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره ولا يُعرض لأحد ممن ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتابه وقواده وخدمه ومواليه وجنده بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم ولا قرباتهم ولا مواليهم، لا أحد يتنسل منهم ولا في دمائهم ولا في أموالهم ولا في ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه وبترخيص له في ذلك وادهان منه فيه لأحد من ولد آدم ولا يحكم في أمرهم ولا أحد من قضاته ومن عماله ومن كان بسبب منه بغير حكم عبد الله بن أمير المؤمنين ورأيه ورأي قضاته. وإن نزع إليه أحد ممن ضم أمير المؤمنين إلى عبد الله بن أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقواده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده ورفض اسمه ومكتبه ومكانه مع عبد الله بن أمير المؤمنين عاصباً له أو مخالفاً عليه فعلى محمد بن أمير المؤمنين رده إلى عبد الله بن أمير المؤمنين بصغر له وقملاً حتى ينفذ فيه رأيه وأمره فإن أراد محمد بن أمير المؤمنين خلع عبد الله بن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده أو عزل عبد الله بن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها والذي من حد عملها مما يلي همذان والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا أو صرف أحد من قواده الذين ضمهم أمير المؤمنين إليه من قدم قوماً من أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين له بوجه من الوجوه أو بحيلة من الحيل صغرت أو كبرت فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين وهو المقدم على محمد بن أمير المؤمنين وهو ولي الأمر من بعد أمير المؤمنين والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيام معه والمجاهدة لمن خالفه والنصر له والذب عنه ما كانت الحياة في أبدانهم وليس لأحد منهم جميعاً من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يعصيه ولا يخرج من طاعته ولا يطيع محمد بن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره أو ينتقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون في حياته وصحته واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام وفي هذا الكتاب وعبد الله بن أمير المؤمنين المصدق في قوله وأنتم في حل من البيعة التي في أعناقكم لمحمد بن أمير المؤمنين هارون إن نقص شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن يتقاد لعبد الله بن أمير

المؤمنين هارون وُسلم له الخلافة وليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ولا لعبد الله بن أمير المؤمنين أن يخلعا القاسم بن أمير المؤمنين هارون ولا يقدم عليه أحداً من أولادهما وقرباتهما ولا غيرهم من جميع البرية فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله بن أمير المؤمنين فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته وتقديم من أراد أن يقدم قبله وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله يحكم في ذلك بما أحب ورأى. فعليكم معشر المسلمين إنفاذاً ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا أو شرط عليهم وأمر به وعليكم السمع والطاعة لأمر المؤمنين فيما ألزمتكم وأوجب عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين وعهد الله وذمته وذمة رسوله ﷺ وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبیین والمرسلين ووكدها في أعناق المؤمنين والمسلمين لتتُنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمى ولمحمد وعبد الله والقاسم بني أمير المؤمنين بما سمى وكتب في كتابه هذا واشترط عليكم وأقرتم به على أنفسكم فإن أنتم بدلتهم من ذلك شيئاً أو غيرتم أو نكثتم أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين واشترط عليكم في كتابه هذا فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله محمد ﷺ وذمم المؤمنين والمسلمين وكل ما هو اليوم لكل رجل منكم أو يستفيدة إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين وعلى كل رجل منكم المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجة نذراً واجباً لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك وكل مملوك لأحد منكم أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة حُرٌّ وكل امرأة لي فهي طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج لا مثنوية فيها والله عليكم بذلك كفيل وراع وكفى بالله حسيباً.

كتاب المأمون إلى الرشيد

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله وجواز من أمره وصدق نية فيما كتب في كتابه هذا ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين إن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون ولاني في حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العبادة والبلاد بعده وولاية خراسان وجميع أعمالها ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين وابتاع لي من الضياع والعقد والرباع وابتعت منه من ذلك وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجواهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك ولا يعرض لي ولا

لأحد من عمالي وكتّابي بسبب محاسبة ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أبداً ولا يُدخل عليّ ولا عليهم ولا على ما كان معي ومن استعنت به من جميع الناس مكروهاً في نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال ولا صغير من الأمور ولا كبير فأجابته إلى ذلك وأقر به وكتب له كتاباً أكد فيه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين هارون وقبله وعرف صدق نيته فيه فشرطت لأمر المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه وأنصحه ولا أغشه وأوفي بيعته وولايته ولا أغدر ولا أنكث وأنفذ كتبه وأموره وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي ما وفي لي بما شرط لأمر المؤمنين في أمري وسمى في الكتاب الذي كتبه لأمر المؤمنين ورضي به أمير المؤمنين ولم يتبعني بشيء من ذلك ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه فإن احتاج محمد بن أمير المؤمنين إلى جند وكتب إليّ يأمرني بإشخاصه إليه أو إلى ناحية من النواحي أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقص شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا وولانا إياه فعليّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه ولا أقصر في شيء كتب به إليّ وإن أراد محمد أن يولي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي فذلك له ما وفي لي بما جعله أمير المؤمنين إليّ واشترطه لي عليه وشرط على نفسه في أمري وعليّ إنفاذ ذلك والوفاء له به ولا أنقص من ذلك ولا أغتيره ولا أبدله ولا أقدم قبله أحداً من ولدي ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين إلا أن يولي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي فيلزمي ومحمد الوفاء له وجعلت لأمر المؤمنين ومحمد عليّ الوفاء بما شرطت وسميت في كتابي هذا ما وفي لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسماة في هذا الكتاب الذي كتبه لي وعليّ عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمم آبائي وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين من عهوده وموآثيقه والإيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها ونهى عن نقصها وتبديلها فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسميت في كتابي هذا أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت برئت من الله عز وجل ومن ولايته ودينه ومحمد رسول الله ﷺ ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً وكل امرأة هي لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق البتة طلاق الحرج وكل مملوك هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله وعليّ المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة نذراً واجباً عليّ في عنقي حافياً راجلاً لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هديّ بالغ الكعبة وكل ما جعلت لأمر المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لي لا أضمر غيره ولا أنوي غيره وشهد سليمان بن أمير المؤمنين وفلان وفلان وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة .

كتاب الرشيد إلى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله وليّ أمير المؤمنين ووليّ ما ولاه والحافظ لما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه والصانع له فيما قدم وأخر من أموره والمنعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها والكالء والحافظ والكافي من جميع خلقه وهو المحمود على جميع آلائه المسؤول تمام حسن ما أمضى من قضائه لأمر المؤمنين وعادته الجميلة عنده وإلهام ما يرضى به ويوجب له عليه أحسن المزيد من فضله وقد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابني أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أملت الأمة ومدّت إليه أعناقها وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما لعماد دينهم وقوام أمورهم وجمع ألفتهم وصلاح دهمائهم ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا إليهما أزمتهم وصلاح دهمائهم ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا إليهما أزمتهم وأعطوهما بيعتهم وصفقات إيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلظة عليهم أراد الله فلم يكن له مردٌ وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته ولا صرف له عن محبته ومشيتته وما سبق في علمه منه وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما في ذلك وعلى الأمة كافة لا عاقب لأمر الله ولا معقب لحكمه ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد بن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين ولعبد الله بن أمير المؤمنين من بعد محمد بن أمير المؤمنين يعمل فكره ورأيه ونظره ورؤيته فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعية والجمع للكلم واللم للشعث والدفع للشتات والفرقة والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه واثتلاف أهوائهما وصلاح ذات بينهما وتحصينهما من كيد أعداء النعم وردّ حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما فعزم الله لأمر المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله وأخذ البيعة منهما لأمر المؤمنين ولهما بأشدّ المواثيق والعهود وأغلظ الأيمان والتوكيد والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهم ومودتهما وتواصلهما ومؤازرتهم ومكانتهما على حسن النظر لأنفسهما ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاهما والجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسنن نبيه ﷺ والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كل عدو مظهر للعداوة ومُسرِّ لها وكل منافق ومارق وأهل الأهواء الضالة المضلة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما

ویدحس یدحس به لهما وما یلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دینه من الضرب بین الأمة والسعی بالفساد فی الأرض والدعاء إلى البدع والضلالة نظراً من أمير المؤمنین لدینه ورعیته وأمة نبیه محمد الله ومناصحة الله ولجمیع المسلمین وذباً عن سلطان الله الذی قدره وتوحد فیہ للذی حملة إیاه والاجتهاد فی کل ما فیہ قرابة إلى الله وما ینال به رضوانه والوسيلة عنده فلما قدم مكة أظهر لمحمد وعبد الله رأیه فی ذلك وما نظر فیہ لهما قبلاً کل ما دعاهما إلیه من التوکید علی أنفسهما بقبوله وکتبا لأمیر المؤمنین فی بطن بیت الله الحرام بخطوط أيديهما بمحضر ممن شهد الموسم من أهل بیت أمير المؤمنین وقواده وصحابته وقضاته وحجبة الكعبة وشهاداتهم علیهما کتابین استودعهما أمير المؤمنین الحجبة وأمر بتعليقهما فی داخل الكعبة فلما فرغ أمير المؤمنین من ذلك كله فی داخل بیت الله الحرام بطن الكعبة أمر قضاته الذین شهدوا علیهما وحضروا کتابهما أن یعلموا جمیع من حضر الموسم من الحاج والعمار ووفود الأمصار ما شهدوا علیه من شرطهما وکتابهما وقراءة ذلك علیهم لیفهموه ويعوه ویعرفوه ویحفظوه ویؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم ففعلوا ذلك وقرئ علیهم الشرطان جمیعاً فی المسجد الحرام فانصرفوا وقد اشتهر ذلك عندهم وأثبتوا الشهادة علیه وعرفوا نظر أمير المؤمنین وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم ولم شعئهم وإطفاء جمرة أعداء الله وأعداء دینه وکتابه وجماعة المسلمین عنهم وأظهروا الدعاء لأمیر المؤمنین والشکر لما کان منه فی ذلك وقد نسخ لك أمير المؤمنین ذینک الشرطین اللذین کتبهما لأمیر المؤمنین ابنه محمد وعبد الله فی بطن الكعبة فی أسفل کتابه هذا فاحمد الله عز وجل علی ما صنع لمحمد وعبد الله ولئیی عهد المسلمین حمداً كثيراً واشکره ببلائه عند أمير المؤمنین وعند لئیی عهد المسلمین وعندک وعند جماعة أمة محمد ﷺ كثيراً وأقرأ کتاب أمير المؤمنین علی من قبلك من المسلمین وأفهمهم إیاه وقم به بینهم وأثبته فی الدیوان قبلك وقبل قواد أمير المؤمنین ورعیته قبلك واکتب إلى أمير المؤمنین بما یكون فی ذلك إن شاء الله وحسبنا الله ونعم الوکیل وبه الحول والقوة والطول وکتب إسماعیل بن صبیح یوم السبت لسبع لیال بقین من المحرم سنة ست وثمانین ومائة .

خروج الرشید من بغداد ووفاته

وفی سنة ۱۹۲ھ فی شهر ربیع الأول ترک الرشید الرقة متجهاً إلى بغداد فی طریقہ إلى خراسان، واستخلف بالرقة ولده القاسم، وفی شهر شعبان من هذه السنة ترک بغداد متجهاً إلى خراسان مستخلفاً ولده محمد ببغداد .

وكان الهدف من هذه الرحلة إخماد ثورة قام بها رافع بن ليث بن نصر بن سيار بسمرقند مخالفاً للرشيدي وخالفاً إياه ونازعاً يده من طاعته، على ما ينص الطبري .

وإذا كان الرشيدي قد أناب عنه في الرقة ولده القاسم، وفي بغداد ولده محمداً، فإن عبد الله لم يكن له من الأمر شيء، بل بقي في حكم محمد .

وهنا تنبه الفضل بن سهل لهذا الأمر - وكان هواه مع عبد الله المأمون - فنبه عبد الله إلى وضعه وما يمكن أن تصير إليه حاله إذا طرأ على الرشيدي طارئ في حياته في سفره هذا فقال للمأمون: «لست تدري ما يحدث بالرشيدي وهو خارج إلى خراسان وهي ولايتك ومحمد المقدم عليك وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم، وزبيدة وأموالها، فاطلب إليه أن يُشخصك معه» .

فاستجاب عبد الله لطلب الفضل، وطلب إلى أبيه الإذن له بالسفر معه، فأبى أن يأذن له . ولكن الفضل أصر على عبد الله أن يعاود الاستئذان بحجة أن أباه مريض وأنه يريد من السفر معه أن يخدمه، فاستجاب الرشيدي لطلب عبد الله فسافر معه .

وكان رحيل الرشيدي هذا عن بغداد هو آخر رحيل له إذ لم يعد إليها بل مات في خراسان ودفن في طوس، وكان عمره عند وفاته خمساً وأربعين سنة، وحين تولى الخلافة كان في سن الثانية والعشرين، وكانت مدة خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وتوفي سنة ١٩٣هـ .

مات الرشيدي في طوس، وابنه عبد الله المأمون في مدينة مرو عاصمة خراسان، وابنه الآخر محمد الأمين في بغداد . وكان قد صحب الرشيدي في سفره إلى خراسان ولده صالح .

ولما توفي الرشيدي ببيع في عسكر الرشيدي بخراسان لمحمد الأمين بالخلافة، وكتب صالح إلى أخيه الأمين بوفاة الرشيدي، فلما وصله الخبر أمر الناس بالحضور ليوم الجمعة فحضروا وصلى بهم، وبعد الصلاة خطبهم ونعى أباه وعزى نفسه وعزى الناس، ووعدهم خيراً . فباعه أهل بيته وخاصته ومواليه وقواده . ثم أوكل بتقبل البيعة من بقية الناس أحد أقربائه وأحد قواده .

وكان الرشيدي حين سار إلى خراسان قد جدد البيعة لعبد الله المأمون على القواد الذين معه، وأشعر من معه من القواد وسائر الناس وغيرهم أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلات وغير ذلك، هو للمأمون .

وكان المأمون قبل أن يبلغه خبر وفاة أبيه قد ترك مرو متجهاً إلى سمرقند، فلما كان

على فرسخ من مرو وصله خبر وفاة أبيه فعاد إلى مرو ودخل دار الإمارة ونعى الرشيد على المنبر وباع لأخيه محمد الأمين.

ومن الإنصاف أن نقول إن مجرى الأحداث كلها يدل على أن المأمون كان مصمماً على تنفيذ وصية أبيه والتسليم بالخلافة لأخيه، والاستقلال بخراسان كما تنص عليه الوصية، وأنه لم يداخله أي تفكير بالإخلال في إنفاذ ما أمر أبوه بإنفاذه. فكل تصرفاته قولاً وعملاً توحى بذلك. كما أنها توحى بأنه لم يكن في ذهنه أن أخاه الأمين يمكن أن يخل بشيء من أمر الوصية.

على أن الأمر كان مختلفاً عند الرجل الأول في أنصاره: الفضل بن سهل. فهذا الرجل البعيد النظر الذي أصر من قبل على المأمون بأن يصر على مصاحبة أبيه في سفره إلى خراسان تحسباً لما قد يحدث للرشيد في هذا السفر، وخوفاً من أن يكون المأمون أسيراً عند أخيه الأمين، إذا مات أبوهما في سفره هذا، والذي كان يتوقع الغدر من الأمين فأراد أن يحتاط للمأمون كل الاحتياط. وقد صدقت توقعاته فمات الرشيد في سفره، ونجا المأمون من إطباق أخيه عليه في بغداد.

إن هذا الرجل ظل على ريبة من الأمين، ولم يشأ أن يستسلم للأقدار فيمضي كما مضى المأمون مخلصاً للوصية دون أي احتياط أو حذر.

فهو نفسه يتحدث لبعض خلصائه بأنه، بعد أن اشتدت العلة بالرشيد، استقبل وجوه أهل خراسان وفيهم الحسين بن مصعب. فأسرَّ إليه هذا قائلاً إن الرشيد ميت أحد هذين اليومين، وأمر محمد بن الرشيد ضعيف، والأمر أمر صاحبك، فمدَّ يدك فمدَّ يده فباع للمأمون بالخلافة.

ثم إن الحسين هذا أتى الفضل بعد أيام ومعه الخليل بن هاشم، فقال هذا ابن أخي وهو لك ثقة، خذ بيعة.

وهكذا نرى أن الفضل بن سهل قد أخذ البيعة بالخلافة للمأمون في الوقت الذي كان فيه الرشيد لا يزال حياً، وكان الأمين لم يبد في الظاهر أي اعتراض على تنفيذ وصية أبيه، وأنه يبيع بالخلافة للمأمون، والمأمون لا يدري بهذه البيعة.

ولكن إذا كان الأمين لم يتظاهر بالعزم على نقض وصية أبيه، وإذا كان الفضل بن سهل قد تصرف بما تصرف والرشيد لا يزال حياً، فإنه كان يضم ما لا يظهره من الترتيبات التي تدعم المأمون. . .

إذا كان الأمر كذلك فإن الأمين هو الآخر قد بدأ يعد الشر لأخيه المأمون ويجهد لأمره في الوقت الذي كان فيه الرشيد حياً، وكما أسرّ الفضل بن سهل نواياه كذلك كان الأمين قد أسرّ نواياه. وهكذا فإن الصراع قد بدأ والرشيد مريض مستجى في طوس لا يزال في الحياة.

وقد رأينا أن الفضل بن سهل قد تقبل بيعة الحسين بن صعب وبيعة الخليل بن هاشم بالخلافة للمأمون، وهو ما دونّه لنا الطبري، أما ما لم يدونّه مما كان يعتمل في ذهن الفضل، وما كان قد تدبر أمره فيه سراً، فلا شك أنه شيء في غاية الأهمية.

أما ترتيبات الأمين فتتلخص في أنه عندما بلغه وهو في بغداد أن أباه قد اشتدت علته، وأنه موشك على الموت بعث من يأتيه بخبره في كل يوم، وأرسل بكر بن المعتمر بمهمة كانت تعبيراً واضحاً عما يتردد في نفسه من مخاصمة أخيه المأمون، فقد حمل بكر رسائل إلى من في خراسان يبدو صريحاً مما ذكره الطبري أنها كانت لجماعات معينة في خراسان، ولكن الطبري نفسه لم يذكر ممن أرسلت لهم الرسائل إلا المأمون، وإلا أخاه صالحاً، إذ إن صالحاً هذا كان مصاحباً لأبيه في سفر خراسان.

ومع أن عبارة الطبري صريحة بأن ما حمّله المعتمر كان «كتاباً» لا كتابين، فإن الطبري لم يذكر إلا نص كتابين اثنين، أحدهما للمأمون والآخر لصالح.

ويبدو أن أهمية المرسل إليهما الكتابان هي التي حفظت النص المرسل إلى كل واحد، وإن كتب الآخرين لم تجد من يحفظ نصوصها، أو أن الأمر كان أمر خشية مما حوته تلك النصوص من تحريض على المأمون فأثر أصحابها إتلافها خوفاً من اطلاع السلطة القائمة عليها، هذه السلطة المتمثلة بالمأمون الذي أصبح، منذ وصول نعي أبيه، الحاكم المطلق لخراسان حسب ما نصت عليه وصية أبيه، فهو عندما أذاع نعي أبيه على المنبر وباع لأخيه بالخلافة، كان يعلن بذلك نفسه حاكم خراسان، لأن الوصية لا تتجزأ، فعندما يعلن إنفاذ شطر منها، كان معنى ذلك إعلان إنفاذ الشطر الآخر.

ومهما يكن من أمر فنحن لا ندري لا لمن كانت كتب الأمين ولا نصوص تلك الكتب، والذي ندريه هو أنه كان في تلك الرسائل شيء خطير اقتضى أن يحملها بكر بن المعتمر مخفية إخفاء لا يستطيع أحد معرفة مكانها، وأن يؤمر حاملها بأن يحفظ سرها حتى لو قتل، ولا يعرف أمرها حتى الرشيد نفسه.

ومن هنا استنتاجنا بأن ما فيها كان شيئاً خطيراً يتضمن الدعوة إلى خذلان المأمون، ومن هنا إصرار الأمين على أن لا يطلع عليها الرشيد.

وإننا نأخذ عبارة الطبري بنصها. قال الطبري في الصفحة ١٢٤ من الجزء العاشر، طبعة دار القاموس الحديث، ما يلي: «فلما بلغ محمد بن هارون أن أباه قد اشتدت علته وأنه لما به بعث من يأتيه بخبره كل يوم فأرسل بكر بن المعتمر وكتب معه كتباً وجعلها في قوائم صناديق منقورة ألبسها جلود البقر، وقال لا يظهرن أمير المؤمنين ولا أحد ممن في عسكره على شيء من أمرك وما توجهت فيه ولا ما معك ولو قُتلت حتى يموت أمير المؤمنين، فإذا مات فادفع إلى كل رجل منهم كتابه». وهذا القول صريح بأن الرسائل كانت موجهة لا إلى المأمون وأخيه صالح فقط، بل إلى زعماء خراسانيين أيضاً، لقول الطبري عن لسان الأمين: «فادفع إلى كل رجل منهم كتابه».

وحِزْصُ الأمين على هذه السرية دليل - كما قلنا - على خطورة ما تحمله الرسائل. وبذلك نستطيع القول بأن الأمين قد صمم على عزل أخيه المأمون من ولاية العهد، قبل موت والده. كما كان في ذلك أمر الفضل بن سهل، ولكن الفرق بين الأمرين أن أمر الفضل كان أمراً وقائياً تحسباً لما قد يقع، وأمر الأمين كان أمراً متعمداً.

أما ما جرى لبكر بن المعتمر حامل رسائل الأمين فهو كما يلي: وصل بكر إلى طوس والرشيدي مريض، وكان أول من فاجأهم وصول بكر، الرشيدي نفسه، فعندما بلغه قدوم بكر دعا به وسأله ما أقدمك؟ فقال بكر بعثني محمد لأعلم له خبرك وآتيه به. ولكن هذا الجواب لم يقنع الرشيدي، مدركاً أن بكرًا مكلف من الأمين بمهمة كبيرة، فقال له هل معك كتاب؟ قال بكر: لا. ولكن الرشيدي لم يصدق، فأمر بما معه ففتش فلم يهتدوا إلى شيء. فهدهه بالضرب، فلم يقر بشيء، فأمر به فحبس وقيد.

ولا شك أن اهتمام الرشيدي بمعرفة ما وراء مجيء بكر هو يقينه بأن تدبيراً ما يدبره الأمين لإفساد أمر أخيه المأمون، وهو لا يريد إفساد هذا الأمر.

وفي اليوم الذي مات فيه الرشيدي طلب قبيل موته إلى الفضل بن الربيع أن يذهب إلى محبس بكر بن المعتمر فيقرره فإن أقر وإلا قتله، إذ كان يرى أن في قتله إفشالاً للمهمة التي جاء من أجلها. فذهب إليه الفضل فقرره فلم يقر بشيء.

ويصف الطبري الموقف بهذا الكلام: «ثم غشي على الرشيدي فصاح النساء فأمسك الفضل عن قتله وصار إلى هارون ليحضره. ثم أفاق هارون وهو ضعيف قد شغل عن بكر وعن غيره لحسن الموت، ثم غشي عليه غشية ظنوا أنها هي، وارتفعت الضجة، فبعث بكر بن المعتمر برقعة منه إلى الفضل بن الربيع مع عبد الله بن أبي نعيم يسأله أن لا يعجلوا بأمر، ويعلمه أن معه أشياء يحتاجون إلى علمها».

وإذا عرفنا أن هوى الفضل بن الربيع هو مع الأمين، وأن مهمة ابن المعتمر هي لمصلحة الأمين، أدركنا أنه تعمد عدم قتل ابن المعتمر متذرعاً بانشغاله بدنو أجل الرشيد. وابن المعتمر الذي يعلم ميل الفضل بن الربيع إلى الأمين أرسل إليه بأن لا يعجل في أمره لأن عنده أشياء يحتاج الفضل إلى معرفتها.

وهكذا كانت المصالح تشابك وتتعارض والناس يتأمرون على من يدعون حبهيم، ويشترك في هذا التآمر حتى الأبناء على الآباء، والجميع لا يرون إلا مصالحهم... هذا هو الإنسان في كل زمان ومكان...

فلما توفي الرشيد دعا الفضل بن الربيع ببيكر من المعتمر من ساعته، فسأله عما عنده، فأنكر أن يكون عنده شيء، وخشي على نفسه من أن يكون الرشيد حياً، فلما صح عنده موت الرشيد، أدخله الربيع عليه فأخبره أن عنده كتباً من الأمين وأنه لا يجوز له إخراجها وهو في قيوده وحبسه، فأطلقه الفضل، فاتاهم بالكتب التي عنده في قوائم المطايخ المجلدة بجلود البقر. فدفع إلى كل إنسان منهم كتابه - كما يقول الطبري - وكان في تلك الكتب كتاب من الأمين إلى المأمون، وكتاب إلى صالح.

كتاب الأمين إلى أخيه المأمون

بسم الله الرحمن الرحيم، إذا ورد عليك كتاب أخيك أعاده الله من فقدك عند حلول ما لا مرد له ولا مدفع مما قد أخف وتناسخ الأمم الخالية والقرون الماضية بما عزاك الله به واعلم أن الله جل ثناؤه قد اختار لأمر المؤمنين أفضل الدارين وأجزل الحظين فقبضه الله طاهراً زاكياً قد شكر سعيه وغفر ذنبه إن شاء الله فقم في أمرك قيام ذي الحزم والعزم والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعمامة المسلمين وإياك أن يغلب عليك الجزع فإنه يُحبط الأجر ويعقب الوزر وصلوات الله على أمير المؤمنين حياً وميتاً وإنا لله وإنا إليه راجعون وحُذ البيعة على من قبلك من قوادك وجندك وخاصتك وعماتك لأخيك ثم لنفسك ثم للقاسم بن أمير المؤمنين على الشريطة التي جعلها لك أمير المؤمنين من فسخها له أو إثباتها فإنك مقلد من ذاك ما قلدك الله وخليفته واعلم من قبلك رأيي في صلاحهم وسد خلتهم والتوسعة عليهم فمن أنكرته عند بيعته أو اتهمته على طاعته فابعث إليّ برأسه مع خبره وإياك وإقالته فإن النار أولى به واكتب إلى عمال ثغورك وأمراء أجنادك بما طرقتك من المصيبة بأمر المؤمنين وأعلمهم أن الله لم يرض الدنيا له ثواباً حتى قبضه إلى روحه وراحته وجنته مغبوطاً محموداً قائداً لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله ومُرهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم وخواصهم وعوامهم على مثل ما

أمرتك به من أخذها على من قبلك وأوعز إليهم في ضبط ثغورهم والقوة على عدوهم إنني متفقد حالاتهم ولا م شعثهم وموسع عليهم ولا آن في تقوية أجنادي وأنصاري ولتكن كتبك إليهم كتباً عامة لثقرأ عليهم فإن ذلك ما يسكنهم ويسبط أملهم واعمل بما نأمر به لمن حضرك أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتشاهد فإن أخاك يعرف حسن اختيارك وصحة رأيك وبُعد نظرك وهو يستحفظ الله لك ويسأله أن يشد بك عضده ويجمع بك أمره إنه لطيف لما يشاء وكتب بكر بن المعتمر بين يدي وإملائي في سؤال سنة ١٩٢.

كتاب الأمين إلى أخيه صالح

بسم الله الرحمن الرحيم، إذا ورد عليك كتابي هذا عند وقوع ما قد سبق في علم الله ونفذ من قضائه في خلفائه وأوليائه وجرت به سنته في الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرَّبين فقال كلُّ شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون فاحمدوا الله على ما صار إليه أمير المؤمنين من عظيم ثوابه ومرافقة أنبيائه صلوات الله عليهم إنا إليه راجعون وإياه نسأل أن يحسن الخلافة على أمة نبيه محمد ﷺ وقد كان لهم عصمة وكهفأ وبهم رؤوفاً رحيماً فشمّر في أمرك وإياك أن تلقي بيدك فإن أخاك قد اختارك لما استنهضك له وهو متفقد مواقع فقدانك فحقق ظنه ونسأل الله التوفيق وخذ البيعة على من قبلك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومواليه وخاصته وعامته لمحمد أمير المؤمنين ثم لعبد الله بن أمير المؤمنين ثم للقاسم بن أمير المؤمنين على الشريطة التي جعلها أمير المؤمنين صلوات الله عليه من فسحها على القاسم أو إثباتها فإن السعادة واليمن في الأخذ بعهدته والمضي على مناهجه وأعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأيي في استصلاحهم وردّ مظالمهم وتفقد حالاتهم وأداء أرزاقهم وأعطياتهم عليهم فإن شغب شاغب أو نعر ناعر فاسطُ به سطوة تجعله نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمثقين واضمم إلى الميمون ابن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين وخدمه وأهله ومره بالسير معهم فيمن معه وجنده وربطته وصير إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحدثه فإنه ثقة على ما يلي مقبول عند العامة واضمم إليه جميع جند الشرط من الروابط وغيرهم إلى من معه من جنده ومُرّه بالجد والتيقظ وتقديم الحزم في أمره كله ليله ونهاره فإن أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يفتنمون مثل حلول هذا المصيبة وأقر حاتم بن هزيمة على ما هو عليه ومره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين فإنه ممن لا يُعرف إلا بالطاعة ولا يدين إلا بها بمعاهد من الله مما قدّم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ومُرّ الخدم بإحضار روابطهم من يسد بهم وبأجنادهم مواضع الخلل من عسكرك فإنهم حدّ من

حدودك وصيرَ مقدّمك إلى أسد بن يزيد بن مزيد وسائقك إلى يحيى بن معاذ فيمن معه من الجنود ومرهما بمناوبتك في كلّ ليلة والزم الطريق الأعظم ولا تَعُدُونَ المراحل فإن ذلك أرفق بك ومر أسد بن يزيد أن يتخير رجلاً من أهل بيته أو قواده فيصير إلى مقدّمته ثم يصير أمامه لهيئة المنازل أو بعض الطريق فإن لم يحضرك في عسكرك بعض من سميت فاختر لمواضعهم من ثقب بطاعته ونصيحته وهيته عند العوام فإن ذلك لن يُعوزك من قوادك وأنصارك إن شاء الله وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرم أمراً إلا برأي شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع وأقرر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ولا تخرجن أحداً منهم من ضمن ما يلي إلى أن تقدم عليّ وقد أوصيت بكر بن المعتمر بما سيلغكه واعمل في ذلك بقدر ما تشاهد وترى وإن أمرت لأهل العسكر بعبء أو رزق فليكن الفضل بن الربيع المتولي لأعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحضرٍ من أصحاب الدواوين فإن الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور وأنفذ إليّ عند وصول كتابي هذا إليك إسماعيل بن صبيح وبكر بن المعتمر على مركبيهما من البريد ولا يكون لك عرجة ولا مهلة بموضعك الذي أنت فيه حتى توجه إليّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله أخوك يستدفع الله عنك ويسأله لك حسن التأييد برحمته وكتب بكر بن المعتمر بين يديّ وإملائي في شوال سنة ١٩٢.

دسائس الفضل بن الربيع

ذكرنا من قبل أن الرشيد حين سار إلى خراسان جدد البيعة للمأمون على القواد الذين معه، (مع الرشيد)، وأشعر من معه من القواد وسائر الناس وغيرهم أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك هو للمأمون.

وإذا عرفنا أن مسير الرشيد إلى خراسان كان على رأس حملة عسكرية قادها لإخماد ثورة رافع بن ليث بن نصر بن سيار، عرفنا ضخامة ما أوصى به الرشيد من رجال ومال وسلاح وآلات.

وكان إنفاذ وصية الرشيد يقضي بأن يضم ذلك كله إلى المأمون. ولكن الذي حدث أن الذين وصلتهم كتب الأمين مع بكر بن المعتمر من القواد والجند، وفيهم الفضل بن الربيع، تشاوروا باللحاق بالأمين في بغداد، وقال الفضل بن الربيع مبرراً ذلك: لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره.

ويعني بالملك الحاضر ملك الأمين، وبالملك الذي لا يُدرى أمره ملك المأمون. على أنه لم يكن بحاجة إلى هذا التعليل فهو معروف أنه مع الأمين. وأمر الجميع بالرحيل إلى بغداد فاستجابوا له وتركوا العهد التي كانت أخذت عليهم من الرشيد للمأمون.

فكان ما فعلوه الخطوة الأولى في الانشقاق الذي سيستمر خطوة خطوة. وكان المسؤول عن ذلك الأمين وجماعته وعلى رأسهم الفضل بن الربيع، في حين أن المأمون لم يبد منه حتى ذلك الوقت أي قول أو فعل يتنافى مع إنفاذ وصية أبيه، بل على العكس من ذلك فقد كتب إلى الأمين بالتعظيم وأهدى إليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح.

وفشلت المحاولات التي قام بها الرسل الذين أرسلهم المأمون لإقناع الذاهبين بالعودة إليه وواصلوا سيرهم إلى بغداد.

وقد شدّد الفضل بن سهل من عزم المأمون ودعاه إلى الصبر والصمود وقوى عزيمته، فتجاهل المأمون ما جرى وانصرف إلى حكم ما عهد إليه به أبوه في خراسان ونواحيها، وكان يكتب أخاه الأمين بالتعظيم وواصل إرسال الهدايا إليه في ذلك من آنية ومسك ودواب وسلاح.

أما فيما يتعلق بالأخ الثالث أو ولي العهد الثالث، (القاسم المؤمن)، فإن الأمين أقره في أول الأمر على ما عهد إليه أبوه من حكم الجزيرة والثغور والعواصم، وولى على الجزيرة والياً مستقلاً على اعتباره تابعاً للقاسم، وتولى القاسم بنفسه حكم قنسرين والعواصم. ولكن الأمين لم يلبث أن عزل القاسم المؤمن عن كل ما كان أبوه قد عهد به إليه وهو الشام وقنسرين والعواصم والثغور، وأمره بأن يقيم في بغداد.

فكان ذلك أول نقض صريح يعلنه الأمين بنفسه لوصية والده، وإذا كان نقض الفضل بن الربيع للعهد التي قطعها للرشيد بالولاء للمأمون وذهابه إلى بغداد منضمّاً إلى الأمين، وقبول الأمين لكل ذلك واعتباره الفضل واحداً من رجاله - إذا كان ذلك في حقيقته نقضاً لوصية الرشيد واعتداء على المأمون، فإنه لم يكن في الظاهر على الأقل صادراً من الأمين نفسه، بل كان الأمين مقرأ له، معترفاً به.

أما ما جرى على القاسم المؤمن فكان صادراً من الأمين نفسه، ومعنى ذلك أن الأمين

استضعف المؤمن فعزله، ولو أن المأمون ضعيف ضعف المؤمن لكان مصيره نفس المصير.

إن رحيل الفضل بن الربيع عن طوس إلى بغداد ورفضه الالتحاق بالمأمون في مرو إنما كان مجاهرة بالعداء للمأمون، وأصبح ما يهيم الفضل هو القضاء على المأمون وعدم وصوله إلى الخلافة، لأن في وصوله إلى الخلافة هلاك الفضل وما دام ولياً لعهد الأمين فإن وصوله إلى الخلافة محتمل في كل وقت، وما دامت الأعمار بيد الله فقد يصل غداً أو ما بعد ذلك، قُرِبَ هذا (البعث) أم بُعد، لذلك راح يدبر لعزل المأمون من ولاية العهد، ويوغر صدر الأمين على المأمون ويهون عليه عزل المأمون وجعل ابنه موسى مكانه ولياً للعهد.

وإنصافاً للأمين نقول إن هذا لم يكن في تفكيره، سواء كان ذلك صادراً عن يقينه بقوة المأمون، أو عن سبب آخر. المهم أن الأمين لم يكن في تفكيره عزل المأمون من ولاية العهد وإن كان في تفكيره إضعافه وتفريق الناس عنه. ولكن الفضل بن الربيع ضم إليه آخرين مثل علي بن عيسى بن ماهان والسندي لإقناع الأمين بخلع المأمون، وما زال الفضل يزين ذلك للأمين، ويصغر في عينه شأن المأمون حتى أدى ذلك إلى إقناع الأمين، ولكنه رأى أن لا يبدأ به دفعة واحدة، فأول ما فعل ضم اسم ابنه موسى إلى من يدعى لهم على المنابر بالإمرة وهم الخليفة، (الأمين)، وولياً عهده، (المأمون والمؤمن)، وكتب بذلك إلى جميع العمال في الأمصار كلها. ثم عزل أخاه المؤمن عن ولايته واستقدمه إلى بغداد كما تقدم.

الأمين ينقض العهد والمأمون يرد

لَمَّا أيقن المأمون أن الأمين مقبل على عزله عاجلاً أو آجلاً، وأن الأمين إذا كان قد اكتفى الآن بعزل المؤمن من ولايته ولم يعزله من ولاية العهد فإنه سيفعل ذلك عما قريب، وأنه إنما يخطو في تصميمه خطوة وراء خطوة لذلك أخذ هو المبادرة، فأول ما فعله أن قطع البريد عن الأمين وقطع اسمه من الطرز.

وكانت ثورة رافع بن ليث بن نصر بن سيار لا تزال قائمة، ولكن ليثاً لما بلغه حسن سيرة المأمون في الشعب وإحسانه إلى الناس، أرسل إلى المأمون عارضاً عليه التسليم، ثم التحق به فأكرمه المأمون، وعندما التحق رافع بالمأمون كان القائد هرثمة المتولي قمع ثورة رافع لا يزال مقيماً في سمرقند ومه طاهر بن الحسين، فاستأذن هرثمة المأمون في القدوم عليه بعد انطفاء الثورة، فغير بعسكره، والنهر جامد فتلقاه الناس وولاه المأمون الحرس، فرأى الأمين في ذلك تصرفاً استقلالياً يتجاهله كل التجاهل، فأراد الرد على ذلك فبعث إلى

عامل المأمون على الري العباس بن عبد الله بن مالك أن يبعث إليه بغرائب غروس الري، فنفذ العباس طلب الأمين، وبلغ ذلك المأمون فعزل العباس.

وهنا عزم الأمين على إنهاء الأمر فأرسل إلى المأمون وفداً من ثلاثة رجال يطلب إليه بأن يقدم موسى بن الأمين على نفسه فرفض المأمون ذلك وأباه.

وكان المأمون لما بلغه توجه هذا الوفد إليه كتب إلى عماله في الري ونيسابور وغيرهما يأمرهم بإظهار العدة والقوة، ففعلوا. وقد أراد المأمون بذلك أن يضعف معنويات الوفد بالظهور بمظهر القوي بجنده ورجاله.

واستطاع الفضل بن سهل أن يقنع أبرز رجالات الوفد، العباس بن موسى، بالانضمام سرأ إلى المأمون وأن يبايع له، مغرياً إياه بتوليته الولايات عند نجاح دعوة المأمون، وصار عيناً للمأمون في بغداد يكتب إليه بالأخبار ويشير بالآراء وعاد الوفد إلى الأمين مبلغاً إياه رفض المأمون.

ولما بلغ الأمر إلى هذا الحد صار الفضل بن الربيع يلح على الأمين أن يعلن خلع المأمون من ولاية العهد وبيعة ابنه موسى بها حتى انصاع إليه وأرسل إلى مكة من أخذ الكتابين اللذين وضعهما الرشيد في الكعبة وأحضرهما إليه ومزقهما.

وعمد المأمون إلى اتخاذ تدابير وقائية تمنع اتصال دعاة الأمين بالخراسانيين، فوضع على الحدود حراساً من مداخل الطرق لا يدعون أحداً يعبر إلى خراسان إلا إذا كان يحمل جوازاً معطى إليه لدى خروجه من خراسان يسمح له بالعودة إليها، أو كان تاجراً معروفاً مأموناً، ومنع دخول جماعات السابلة والطارئة وفتشت الرسائل التي يحملها القادمون.

وكان الأمين قد أرسل جماعة إلى خراسان يعبر الطبري عن مهمتهم بأنهم وُجِّهوا ليعلم أنهم قد عاينوا وسمعوا، ثم يلتمس منهم أن يبذلوا ويحرموا فيكون مما قالوا حجة يحتج بها أو ذريعة إلى ما التمس.

وكانت هذه الجماعة أول جماعة تصل إلى الحدود بعد إقامة الحواجز عليها واتخاذ ما اتخذ من تدابير احترازية، فلما وصلوا إلى حد الري فوجئوا بحراس الحدود يحيطون بهم ويمنعونهم من الاتصال بأحد ويصبحون معتقلين في أيديهم.

وكتب الحرس بشأنهم إلى مرو فجاء الأمر منها بنقلهم مخفورين إليها «لا خبر يصل إليهم ولا خبر يتطلع منهم إلى غيرهم» على حد تعبير الطبري.

ويبدو أنهم أخضعوا للاستجواب الحازم فتبين أنهم قادمون للقيام بما نسميه اليوم «الدعاية» في جمهور الناس وعامتهم، والاتصال بأهل القوة لاستمالتهم بالمال والوعود بالمناصب والولايات وتمليك الأراضي والمنازل.

فأوصلهم الحرس إلى المأمون، وكانوا يحملون إليه رسالة جافة من الأمين تطالبه ببعض المطالب، فرد المأمون برسالة خاطب بها الأمين بلقب أمير المؤمنين قال له فيها فيما قال: «فلا تبعثني يا ابن أبي علي مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك، ولا على قطيعتك وأنا على إثار ما تحب من صلتك، وارضَ مما حكم به الحق في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك والسلام».

ونحن حين نتمعن في التدابير الاحترازية التي نفذتها «حكومة خراسان» على حدودها نراها لا تختلف عما تتخذه الحكومات في هذا العصر، ففرض حمل الجوازات على الخارجين والداخلين، وإقامة المخافر على مداخل الحدود لمنع دخول غير المرغوب فيهم ممن لا يحملون جوازات، ومنع الغرباء المشبوهين من الاتصال بالمواطنين، واحتجاز المعادين واستجوابهم واستخراج الحقائق منهم، والتفتيش عن الرسائل ومراقبتها... إلى غير ذلك... هذا كله مظنون أنه من مبتكرات هذا العصر، ولكن تبين أنه كان مطبقاً بدقة فيما سلف من العصور.

واستدعى المأمون الموفدين المعتقلين، وسلمهم رسالته إلى أخيه ذاكراً اسمه أمامهم بكل احترام، ملقباً له بأمر المؤمنين.

وأعيد الموفدون إلى الحدود دون أن يعرفوا ماذا يجري في خراسان ودون أن يستطيعوا حمل خبر أو معرفة رأي أو بث كلمة. وقد كان لهذا الحزم في معاملتهم أثر معنوي كبير في نفوسهم أيقنوا معه أن الأمر أكبر مما في تصور من في بغداد، وأنه جدّ، لا هواده فيه.

ولما وصلوا إلى الأمين وقرأ كتاب المأمون ملكه الغيظ، فكان أن منع من الدعاء للمأمون على المنابر وأرسل له كتاباً كله وعيد وتهديد.

وكان أهل المأمون وأولاده لا يزالون في العراق، وكان له فيه من المال الذي خصه به الرشيد قبل سفره إلى خراسان ما يبلغ مئة مليون درهم. فتشاور مع الفضل بن سهل فيما ينبغي فعله لاستنقاذ أهله وماله، فكان من الرأي الذي اتفقا عليه أن يكون لينا في الطلب وأن لا يبادر إلى ما يؤدي إلى السرعة في وقوع الصدام.

فكتب المأمون كتاب تابع إلى متبوع، وطالب بالمال لإنفاقه في حفظ الثغور واستصلاح

الجند في بلاد قليلة الخراج، كما طالب بأن يسهل الأمين عودة من يعيد الأهل والولد من الرقة إلى مرو.

فرد الأمين بما مؤداه أن المال ما دام يراد به مصلحة الرعية، فللرعية مصلحة هنا وهي مصدر المال فهي أولى به.

وأما حمل الأهل إليه فالأفضل بقاؤهم في الوقت الحاضر في مكانهم خوفاً من تعريضهم للتشتت، وعندما يضمن سلامتهم يوجههم إليه مع من يثق به.

وحتى الآن لم يكن الأمين قد أعلن خلع المأمون من ولاية العهد وكل ما كان فعله هو أنه نهى عن الدعاء على المنابر في منطقة نفوذه كلها للمأمون والقاسم وأمر بالدعاء لنفسه عليها ثم من بعده لابنه موسى، وابنه هذا يومئذ طفل صغير فسماه الناطق بالحق، وكان الذي أشار عليه بذلك الفضل بن الربيع.

ومع معرفتنا بأن الشعراء في ذلك العصر وفيما قبله وفيما بعده ليسوا دائماً لسان الشعب الذي يعبر عن شعوره، بل هم مع من يدفع لهم - مع ذلك ربما كان لنا أن نعتبر الشاعر الذي أوحى له هذا الحادث بالقصيدة الآتية التي لم يُسمَّ الطبري صاحبها بل عبر عنه ببعض الشعراء، ربما كان لنا أن نعتبر الشاعر معبراً عن شعور الرأي العام، لأن هذا الشاعر لم ينظم قصيدته رغبة بما يمكن أن يكافأ به، ولا رهبة مما يمكن أن يناله لو لم ينظمها. بل إن الأمر على العكس من ذلك، فهو نظمها حيث لو اشتهر عنه نظمها لناله عقاب لا يقل عن القتل.

وقد مهد الطبري للقصيدة بقوله: «لما بايع محمد لابنه موسى ووجه علي بن عيسى قال شاعر من أهل بغداد في ذلك لما رأى تشاغل محمد بلهوه وبطالته»:

أضاع الخلافة غش الوزير	وفسق الإمام وجهل المشير
ففضل وزير وبكر مشير	يريدان ما فيه حتف الأمير
وما ذاك إلا طريق غرور	وشر المسالك طرق الغرور
فهذا يدوس وهذا يداس	كذاك لعمري اختلاف الأمور
فلو يستعينان هذا بذلك	لكان بعرضة أمر ستير
ولكن ذا لَجّ في كوثر	ولم يشف هذا دعاس الحمير
وأعجب من ذا وذا أننا	نبايع للطفل منا الصغير
وما ذاك إلا بفضل وبكر	يريدان نقض الكتاب المنير

وهذان لولا انقلاب الزمان
ولكنها قنن كالجبال
فصبراً ففي الصبر خير كبير
فيا رب فاقبضهما عاجلاً
ونكل بفضل وأشياعه
وصلبهم حول هذي الجسور

هذا بعض ما قاله ذلك الشاعر، ولم نذكر القصيدة كلها تحرجاً من بعض ألفاظها.

فهل يمكننا اعتبار هذه القصيدة صدى لما قوبل به عمل الأمين من منع الخطبة للمأمون وأخيه القاسم، واقتصارها عليه وعلى ابنه، هذا العمل الذي هو في حقيقته خلع للمأمون من ولاية العهد؟

وهل يمكننا الحكم استناداً إلى منطوق القصيدة بصحة ما ينسب إلى الأمين من فسق وعكوف على اللهو والمجون وانشغاله بهما، هذه الصفات وأمثالها التي نسبت إلى الأمين، والتي رفض قبولها من جاؤوا بعد ذلك بحجة أن المنتصرين عليه نسبوها إليه بعد زوال سلطته بقصد إساءة سمعته.

هذا واحد ممن عايشوا الأمين وكانوا معه في بلده وفي حكمه يشهد هذه الشهادة. ثم هل يمكننا اعتبار هذه القصيدة تعبيراً عن نقمة الشعب على ما يجري وتعاطفه مع المأمون...؟

والمأمون يرّد

كان من رأي الفضل بن سهل أن لا يشتد المأمون في الطلب لثلا يكون هو المبادر بالقطيعة النهائية وأن يترك هذه المبادرة للأمين، فيكون الأمين هو المعتدي، والمأمون هو المعتدى ليه.

واتفقا على اليقين بأن الحال تمشي إلى التدهور السريع، وأن الأمين مقبل على إجراء حاسم، وأنه لا بد للمأمون من أن يرسل إلى بغداد رجلاً حكيماً موثقاً به يكتب معه إلى أعيان أهل العسكر في بغداد وإلى أهل النباهة فيهم. فإذا عزم الأمين على خلع المأمون، سلم الرسول الكتب إلى أصحابها. وكان مضمون ما في الكتب استطلاع آراء المكتوب إليهم فيما وصل إليه الحال، مخاطباً كل واحد منهم: «وأنت يرحمك الله من الأمر بمرأى ومسمع وبحيث إن قلت آذن لقولك» و«فاكتب إليّ برأيك وأعلم ذلك لرسولي ليؤديه إليّ عنك».

واختلفت مواقف الذين وصلتهم كتب المأمون، فمنهم من أبى أن يجيب كتابة، وأبدى رأيه للرسول مشافهة، ومنهم من أجاب كتابة. وذكر الطبري نصاً واحداً كتبه أحدهم جواباً على رسالة المأمون. وإنك لتكاد لا تفهم شيئاً من هذا النص، ولا يبين لك ما يقصد الكاتب مما كتب، وفي هذا ما يدل على أن الناس يومذاك هم ككل الناس في كل زمان لا يريدون أن يتخذوا موقفاً واضحاً وهم لا يعلمون على من ستدور الدائرة.

على أن الذي يلفت النظر ويقتضي طول التأمل والبحث هو نص العبارة التي ذكرها الطبري وهو يروي هذه الواقعة، النص الذي أهمله من كتبوا عن تاريخ تلك الأيام ولم يولوه أدنى اهتمام في حين أنه جدير بكل اهتمام لما فيه من دلالات على اتجاهات المأمون الفكرية، ومن إيضاحات للتصرف الخطير الذي تصرفه حين أفضت الخلافة إليه من تولية الإمام علي الرضا (ع) ولاية العهد بعده، ومن ميول علوية متأصلة في نفسه، وارتباطات شيعية سابقة.

يقول الطبري: «وعلم المأمون والفضل أنه سيحدث بعد كتابه من الحدث ما يحتاج إلى عمله ومن الخبر ما يحتاج إلى أن يشره بالثقة من أصحابه وأنه لا يحدث في ذلك حدثاً دون مواطأة رجال النباهة والأقدار من الشيعة وأهل السابقة فرأى أن يختار رجلاً يكتب معه» إلى آخره.

إن الطبري هنا يميز بين الذين كتب لهم المأمون، أنهم أولاً من «الشيعة»، ثم غيرهم من أهل السابقة، إذ فقد كان هناك ارتباط معنوي بين الشيعة في بغداد وبين المأمون، فإن عواطف المأمون الشيعية، التي أعلن بعد توليه الخلافة أنها ترسخت في نفسه منذ صباه، والتي اعترف بأن الذي رسخها - دون أن يقصد - أبوه الرشيد حين حدثه حديثاً في إجابته له عن سبب تعظيمه للإمام موسى الكاظم في إحدى المناسبات، والتي ظلت راسخة طيلة حياته، والتي تبدو واضحة في تصرفاته، مثل الذي جرى له - وهو خليفة - مع الفقهاء الأربعيين وعلى رأسهم قاضي القضاة يحيى بن أكثم، ومناظرته لهم، المناظرة التي فصلها ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد.

والذي يهمننا هنا ما يدل عليه تخصيص المأمون الشيعة في رسائله التي يستطلع بها آراء من في بغداد، وعبارة الطبري المقتضبة لا تنفعنا في توضيح ما نريد استيضاحه، وما نود معرفته عن مدى العلاقة بين شيعة بغداد وبين المأمون المقيم في مرو. ولكن قول الطبري: «ما يحتاج أن يشره بالثقة من أصحابه» قول واضح في أن الشيعة من أصحابه.

والطبري الذي يحدثنا عما كانت عليه أجوبة المسؤولين على رسائل المأمون، إنما

يحدثنا حديثاً إجمالياً، وهو حين خص الشيعة بالذكر في كلامه الأول، لم يحدد لنا موقفهم في الإجابة ولم يخصهم بالذكر فيها.

وأكبر الظن، مما نستنتجه استنتاجاً، أنهم - وهم الذين يعلمون أنهم مراقبون، وأن السلطة التي تعلم ميول المأمون الشيعة تتابع حركاتهم وسكناتهم، وتحصي عليهم أنفاسهم - لم يشاؤوا أن يجازفوا بتسجيل آرائهم كتابة، ولا أدلوا بها للرسول مشافهة، بل آثروا أن يتصلوا بالمأمون مباشرة برسول منهم إليه.

وكان من كتاب رسول المأمون إليه وإلى الفضل هذه الجملة: «وجدت أكثر الناس ولاة السريرة ونفاة العلانية». ثم يختم كتابه بقوله: «والقوم على جد».

وفي هاتين الجملتين تلخيص للموقف: فأكثر الناس يوالون سراً، ولكنهم في العلن على خلاف ذلك وعلى هذا فلا يمكن الاطمئنان إليهم. أما الأمين وأنصاره فإنهم على جد مصرون على تحقيق أهدافهم.

وعلى هذا فإن الفضل بن سهل أخذ يتصرف تصرف الواصل بأن خلع المأمون واقع لا محالة، وأن الحرب لا بد منها فقام باتخاذ تدابير عسكرية، فجمع قطعات الجيش من أماكنها المتفرقة وحسن أوضاعها وجعل قيادتها إلى طاهر بن الحسين ووجهها إلى الري.

وكذلك فعل الأمين إذ وجه قطعة من الجيش إلى همدان على أن تستقر القيادة فيها وتوجه مقدمة إلى ساوة.

وراح الفضل بن الربيع يمهّد للخلع ويستشير الوجوه والقادة فكان بعضهم ينهاه عن ذلك ويحذره العاقبة، وظل هو وعلي بن عيسى بن ماهان يحمّسان الأمين ويحرضانه على الخلع.

المسير إلى الحرب

بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد أصبح الكلام لا يجدي، لذلك توجه من بغداد، في ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ، جيش بقيادة علي بن عيسى بن ماهان مقداره زهاء أربعين ألفاً.

وإذا كان لمؤسسات المخابرات في الدول في عصرنا هذا ما لها من الأثر في مصير الأمور، بما تقوم به، سواء من التجسس أو التفلغل في أوساط الأعداء بالتظاهر بالولاء وإفساد أحوالها بالآراء المضللة، والتوجيهات الضارة، فقد كان لمثل هذه المؤسسات نظائر

في تلك العهود. فابن الأثير يقول إن السبب في اختيار علي بن عيسى بن ماهان لقيادة الجيش الذاهب لحرب المأمون أن الفضل بن سهل كان له عين عند الفضل بن الربيع يرجع إلى قوله ورأيه، فكتب الفضل بن سهل إلى ذلك الرجل يأمره أن يشير بتعيين علي بن عيسى لقيادة الجيش. وكان مقصوده أن علياً هذا لما ولي خراسان أيام الرشيد أساء السيرة في أهلها، فظلمهم، فعزله الرشيد لذلك، ونفر أهل خراسان عنه وأبغضوه^(١) فأراد الفضل بن سهل أن يزداد أهل خراسان جداً في محاربة الأمين وأصحابه.

ففعل ذلك الرجل ما أمر به الفضل بن سهل، فتولى علي بن عيسى بن ماهان قيادة الجيش . . .

وفي أثناء ذلك أقدم أحد رجال طاهر بن الحسين، بموافقة طاهر، على صعود منبر المسجد في الري فخلع الأمين ودعا للمأمون بالخلافة.

(١) يقول الشيخ محمد رضا الشيباني في كتابه ابن الفوطي (ص ٥١، ج ١): «يعد علي بن عيسى بن ماهان من جبابرة العصر العباسي الأول، نشأ في عصر الرشيد وعاش إلى عصر الأمين والمأمون وشارك في الفتنة بينهما، وكان إلى جانب الأمين فيها لأنه هو وصاحبه الحميم، الفضل بن الربيع وزير الرشيد، من أعدى أعداء المأمون، ومرد هذه العداوة إلى أن المأمون لم يكن يرى رأيهما في كثير من الشؤون السياسية، ومنها - على الغالب - نكبة البرامكة. فإن للمأمون فيها رأياً آخر، إذ كان يفضل التخلص من البرامكة بطريقة أخرى، كما كان غير واحد من أقطاب الدولة يرون رأي المأمون في ذلك، ومنهم بنو سهل وزراؤه. ولما نكب ابن ماهان في أواخر خلافة الرشيد أظهر عبد الله المأمون اغتباطه بذلك، هذا إذا لم نقل إن له يدأ في هذه النكبة.

«دامت ولاية علي بن عيسى بن ماهان في عهد الرشيد على خراسان وما وراء النهر، وهي من أغنى أقطار الدولة العباسية، عشر سنوات رسخ فيها سلطان هذا الوالي وزادت مكانته، ولذلك حصلت له من هذه الولاية، كما حصل لأهله وأتباعه، ثروة بالغة يخطئها الإحصاء. وقد حصل آل ماهان وأتباعهم على أكثر هذه الثروة من وجوه غير مشروعة غالباً كالغصب والمصادرة والمظالم والرشاوى والهدايا وما إلى ذلك، وفي هذا السبيل قتل صناديد خراسان وطراختها - كما يقول الجهشيارى في كتاب الوزراء (ص ٢٢٨) - وحمل أموالهم وكانت أموالاً طائلة إلى بغداد، فاعتبط الرشيد بوصولها ظاناً بأن عامله جبي تلك الأموال، ونفوس أهلها طيبة، ولم يعلم أن الأمر على خلاف ما ظن وأن العامل أرهق الرعية وأساء السيرة وخان الأمانة».

ونقول: إن اختياره لقيادة الجيش الذاهب لإخضاع المأمون جاء مطابقاً لهواه في العودة إلى خراسان من جديد بما في هذه العودة من سلطان له في خراسان يعيد فيه مظالمه التي عرفها الخراسانيون أيام ولايته الأولى. وقد كان مستخفاً بقوى المأمون مؤقتاً بانتصاره السهل عليه، حاملاً معه قيلاً من الفضة لتقيده به عند أسره.

كان الأمل معقوداً على جيش علي بن عيسى في إنهاء أمر المأمون، وباعتبار أن الجيش سيصل بعد انفصاله عن العراق أول ما يصل إلى المنطقة التي عرفت باسم (الجبل) أو (الجبال)، فقد جعل الأمين علي بن عيسى والياً عليها كلها بما فيها نهاوند وهمدان وقم وأصفهان، إضافة إلى خراسان التي سيستخلصها من المأمون.

وضم الأمين إلى علي بن عيسى جماعة من القواد ومنحه مئتين وخسعين ألف دينار كما منح ولده مبلغاً آخر، منحهما ذلك لحسابهما الخاص كما أعطى الجند أموالاً كثيرة.

وقد أراد الأمين تبرير إرساله هذه الحملة القوية لإخضاع المأمون، فبعد صلاة الجمعة دخل منزله بعدما أجلس موسى ابنه في المحراب ومعه الفضل بن الربيع وجميع من أحضر، فقرأ عليهم الفضل كتاباً من الأمين يبين حقه عليهم، وما سبق لهم من البيعة ولزوم ذلك لهم. ثم يشير بعد ذلك إلى أن المأمون تجاوز حقوقه وتسمى بالإمامة ودعا لنفسه واستقل بالأمور.

فقام أحد الحاضرين يؤيد مضمون الكتاب. وتكلم الفضل بن الربيع مشدداً على حق الأمين مبالغاً في دحض أمر المأمون. وختم كلامه بالإغراء المالي قائلاً:

إن الأمير موسى بن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معاشر أهل خراسان من صلب ماله بثلاثة آلاف ألف درهم، تقسم بينكم.

ومن عجائب أمر هؤلاء الحكام كل الحكام يومذاك أن يمنوا على الناس بأنهم منحوهم من صلب مالهم، لا من خزينة الدولة.

وإننا لنسأل - من وراء التاريخ - نسأل الفضل هذا من أين لأميرك هذه الملايين من الدراهم، لتمن على الناس أنها من صلب ماله؟

هل هي أرباح من تجارته، أم محصول من زراعته، أم نتاج من صناعته؟

غادر علي بن عيسى بغداد عشية اليوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ١٩٥ هـ يقود أربعين ألفاً، ويحمل - فيما يحمل من آلات الحرب ومعداتها - قيلاً إذا لم يكن ككل القيود من حديد فقد كان من فضة!

وليس الفضل له أن كان هذا القيد من فضة، إذ لو خُير هو لجعله من أصلب الحديد والفولاذ، إن كان هناك تفاوت في الصلابة بين حديد وحديد، وفولاذ وفولاذ!

إن الفضل في ذلك لأم الأمين التي رق قلبها على الأسير المقيد ابن زوجها وأخي ابنها،

فلم تشأ أن يكون قيده من حديد قاتم، بل من فضة لماعة، ناسية أن القيد هو قيد سواء كان من حديد أو من فضة!

وليت قلبها الرقيق هذا كان رقيقاً حقاً فلم تنفخ في نار الفتنة بين الأخوين وتحرض ابنها على نقض العهود ونكت الوعود!

أما علي بن عيسى بن ماهان الذي كان لا يقل في تحمل مسؤولية هذه الفتنة عن رقيق دربه وقرين حقه الفضل بن الربيع، فقد رآها فرصة العمر أن ينتقم من المأمون، وأن يذله هو بيده فيسوقه أسيراً مقيداً، ولا يبالي في تنفيذ رغبة السيدة زبيدة بأن يكون القيد من فضة، ما دام سيرى قدمي المأمون مقيدتين...!

ولكي يعرب الأمين عن كبير ثقته بجيش الأربعين ألفاً وبقائده خرج يشيعه حتى النهروان. وهناك عرض الجيش، وأقام بقية يومه في النهروان ثم عاد إلى بغداد.

ومضى ابن ماهان مغدماً السير حتى بلغ همدان. وبيلوغها يكون قد وصل إلى أول مدينة من مدن حكمه الذي عهد إليه به عبد الله الأمين، فباشر فيها سلطته المطلقة بأن ولى عليها والياً من قبله.

ثم تقدم من همدان قاصداً مدينة الري. وكان ينتظره فيها قائد المأمون طاهر بن الحسين في أربعة آلاف مقاتل، مقابل ما يقود هو من الأربعين الألف!

وكان علي بن عيسى لما سار بجيشه من بغداد وجاز حلوان^(١) لقيته القوافل من

(١) حُلوان فيما يقول في معجم البلدان: «هي آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد». أي أنها تقع قريباً من الحدود العراقية الإيرانية. دخلها الفاتحون سنة ١٩هـ، (٦٤٠م)، وكانت مدينة مزدهرة وظلت كذلك في القرون الهجرية الأولى. وأحرقها السلاجقة سنة ٤٣٧هـ، (١٠٤٦م)، وعرضت لها الزلازل لا سيما زلزال سنة ٥٤٤هـ، (١١٤٩م)، فخربتها. وفي القرن السابع أصبحت خرائب. ويقول ياقوت: «ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وبغداد أكبر منها»، فياقوت يعتبرها مدينة عراقية. ونخلتا حلوان شهيرتان في الشعر العربي. قال مطيع بن إياس الليثي: نزلنا بحلوان، (أيام المنصور العباسي)، فجلست على العقبة وأنا مستند إلى نخلة على العقبة وإلى جانبها نخلة أخرى فأنشدت أقول:

وبكياني من ريب هذا الزمان
رق بين الألف والسجيران
قة أبكاكما الذي أبكاني
سوف يأتيكما فتفرقان =

أسعداني يا نخلتي حلوان
واعلمنا أن ريبه لم يزل يف
ولعمري لو ذقتما ألم الفر
أسعداني وأيقنا أن نحسا

خراسان فكان يسألها عن الأخبار يستطلع علم أهل خراسان . فيقال له إن طاهراً مقيم بالري

= كم رمتني صروف هذي الليالي بفرق الأحباب والخلان
إلى آخر الأبيات، وكان ذلك أول ما ذكرت النخلتان في الشعر العربي . وقيل إن المنصور اجتاز
بنخلتي حلوان وكانت إحداهما على الطريق وكانت تضيقه وتزدحم الأشغال عليه فأمر بقطعها فأشدد
قول مطيع :

واعلما إن بقيتما أن نحساً سوف يلقاكما فتفترقان
فقال : لا والله لا كنت ذلك النحس الذي يفرق بينهما، فانصرف وتركهما . ولما خرج الرشيد إلى
طوس واجتاز بحلوان مرض فأشار عليه الطبيب بأكل جَمَارٍ، فأحضر دهقان حلوان وطلب منه،
فأعلمه الدهقان أن بلادهم ليس بها نخل، ولكن على العقبة نخلتان فأمر بقطع إحداهما، ثم ذكر
البيتين فقال : لقد عز علي أن كنت نحسكما . ومما قيل في النخلتين :

أيأ نخلتي وادي بُوانة حبذا إذا نام حراس النخيل خباكما
وقيل :

جعل الله سدرتي قصر شيـ
جئت مسعداً فلم تسعداني
وقيل :

أيها العاذلان لا تعذلاني
وابكيا لي فإنني مستحق
إنني منكما بذلك أولى
فهما تجهلان ما كان يشكو
وقيل من قصيدة :

وكذاك الزمان ليس، وإن
سلبت كفه العزيز أخاه
فكان العزيز مذ كان فرداً
ومما قيل في حلوان نفسها من الشعر قول أحد الأعراب :

إلى روض نجد أين حلوان من نجد
الذ وأشفى للعليل من الورد
لفقدهم هل بيكينهم فقدي
ما للحشا والقلب غيرك من برد
وقال شاعر يذم أهل حلوان :

ما إن رأيت جواميساً مقرّنة
قوم إذا ما أتى الأضياف دارهم

ويقول في «تاريخ العراق بين احتلالين»، (ج ٤، ص ٢٤)، إن حلوان يسمى محلها اليوم باسم
(سربل) ويقع بين قلة شاهين، (وهي قرية من قرى درتنك)، ونفس زهاب وبشيوه وتقع على ضفة
نهر الوند . وهناك كانت مدينة حلوان ولم يبق منها إلا أطلال وقنطرة صخرية لا تزال قائمة . =

يعرض أصحابه ويرم آله فيضحك، ثم يقول: وما طاهر!؟ فوالله ما هو إلا شوكة من أغصاني أو شرارة من ناري، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب. ثم التفت إلى أصحابه فقال: والله ما بينكم وبين أن يتقصف انقصاص الشجر من الريح العاصف إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همدان، فإن السخال لا تقوى على النطاح، والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسد، فإن يقم طاهر بموضعه يكن أول معرّض لظباة السيوف وأسنة الرماح.

وكان في يقين علي بن عيسى أن طاهراً سيسلم إليه بمجرد أن يقبل عليه، ولكن طاهراً لم ينتظر في الري، بل خرج منها للدفاع عنها قبل أن تحاصر، فنزل قسطانة وهي أول مرحلة من الري إلى العراق.

يقول أحمد بن هشام - وهو من جماعة طاهر بن الحسين -: أقبل علي بن عيسى في جيشه فامتلات الصحراء بياضاً وصفرة من السلاح والذهب!

ولكن المقادير إذا جاءت لم تفد في دفعها التدابير، ويصف الطبري طلائع المعركة وصفاً غامضاً، فيه كل الغرابة، لا ندرك منه سوى أنه لم تحصل معركة، وأن رجلاً من عسكر علي بن عيسى تقدم فشد عليه طاهر آخذاً السيف بكلتا يديه فضربه فصرعه وشد رجل من جيش طاهر على علي بن عيسى فصرعه.

ويقول الطبري: وكانت ضربة طاهر هي الفتح، فسمي يومئذ «ذا اليمينين» بذلك السبب لأنه أخذ السيف بيديه. ثم يقول الطبري ناقلاً عن أحد الشهداء من جيش طاهر: وتناول أصحابه النشاب ليرمونا فلم أعلم بقتل علي حتى قيل قتل والله الأمير، فتبعناهم فرسخين وواقفونا اثنتي عشرة مرة كل ذلك نهزمهم.

ومن الطريف أن علي بن عيسى كان قد أمر أن يهيأ له الغداء بالري.

هذا الرجل الذي ظن أنه مستطيع أن يحدد المستقبل، فهيأ نفسه للتسلط على الخراسانيين، وأعد القيد للمأمون، وأمر أن يهيأ له الغداء في الري...

= على أنه قال في ملحق الجزء الثاني من الكتاب نفسه (ص ٦٦) ما يلي: درتک كانت مشهورة (حلوان). ونقل عن صاحب الشرفنامه قوله: درتک في أيام الأكاسرة كانت مشهورة بولاية حلوان. ونقل عن المعجم قوله بها تين في غاية الجودة. ثم يقول صاحب تاريخ العراق: وعندنا، حتى هذا العهد، ينعت باعة التين الجيد وكذا الإجااص بالحلواني. ويقول في موضع آخر وهو يتحدث عن هولوكو: أرسل هولوكو إلى حسام الدين هذا رسلاً وكان حاكماً على درتک (حلوان) ونواحيها.

هذا الرجل، عوضاً عن أن يقيد المأمون جيء بجثمانه مقيداً كما يقول الطبري: ثم جاؤا بعلي وقد شد الأعوان يديه إلى رجله يحمل على خشبة كما يحمل الحمار وأمر به فلف في لبد وألقي في بئر

وقع الخبر في مرو

يقول الفضل بن سهل واصفاً الحال عندما بلغهم زحف علي بن عيسى بجيشه القوي: كنا قد وجهنا هرثمة واحتشدنا في السلاح مدداً وسار المأمون في ذلك اليوم وشيعه، فقلت للمأمون لا تبرح أبداً حتى يسلم عليك بالخلافة فقد وجب لك ولا نأمن أن يقال: يصلح بين الأخوين، فإذا سلم عليك بالخلافة لم يمكن أن نرجع، فتقدمت أنا وهرثمة والحسن بن سهل فسلمنا عليه بالخلافة وتبادر شيعة المأمون، فرجعت وأنا كالأعرج لم أنم ثلاثة أيام في جهاز هرثمة، فقال لي الخادم: هذا عبد الرحمن بن مدرك وكان يلي البريد ونحن نتوقع الخبر لنا أو علينا، فدخل وسكت، قلت: ويحك ما وراءك؟ قال: الفتح، فإذا كتاب طاهر إلي: أطال الله بقاءك وكبت أعدائك وجعل من يشنأك فداءك، كتبت إليك ورأس علي بن عيسى بين يدي وخاتمته في أصبعي والحمد لله رب العالمين.

فدخلت على المأمون فبشرته وقرأت عليه الكتاب، فأمر بإحضار أهل بيته والقواد، ووجه الناس فسلموا عليه بالخلافة.

وكان الخبر قد وصل إلى مرو، بمضي ثلاث ليال فقط مع أن المسافة بين مكان القتال وبين مرو نحن خمسين ومئتي فرسخ، وذلك لأن الخبر أرسل على خيل البريد. وفي هذا النصر يقول أحد الشعراء من قصيدة طويلة:

أصبحت الأمة في غبطة	من أمر دنياها ومن دينها
إذ حفظت عهد إمام الهدى	خير بني حواء مأمونها
على شفا كانت فلما وقت	تخلصت من سوء تحيينها
قامت بحق الله إذ ذُبرت	في ولده كتب دواوينها
ألا تراها كيف بعد الردى	وفقها الله لتزيينها

والذي لاحظناه في الشعر المتقدم الذي مُدح به المأمون وهو بعد أمير شاب - الذي لاحظناه من أن ذاك المدح لا يتضمن صفات المتسلطين الجبارة، بل يتضمن وصفاً بالعلم والهدى وما إلى ذلك. نلاحظه هنا في هذا الشعر الذي يُمدح به المأمون بعد أن انتصر جيشه

وتمكن هو في السلطة، بل صار إلى قمة هرم السلطة، نلاحظ أن الشاعر لا يسبغ على المأمون صفات الأبهة والتسلط والنفوذ، كما يسبغ مثله من الشعراء على من هم في مثل موضع المأمون من الحكم، فهو حين يرى أن الأمة إذا اغتبطت بنصر المأمون لأموها الدنيوية، فهي في الوقت نفسه تغتبط بذلك لأمو دينها. ثم إن المأمون عند الشاعر ليس مجرد حاكم نافذ، بل هو إمام الهدى.

وإذا كان من الطبيعي أن يبايع للمأمون بالخلافة في مرو بعد هذا الانتصار، وأن يبايع له كذلك في الري، فقد كان مفاجئاً أن تتم هذه البيعة في مصر. فالمقريري يقول في الجزء الأول من خطته في الصفحة ١٧٨ ما يلي:

«لما تباعد ما بين محمد الأمين وبين أخيه عبد الله المأمون وخلع محمد أخاه من ولاية العهد وترك الدعاء له على المنابر وعهد إلى ابنه موسى ودعا له تكلم الجند بمصر بينهم في خلع محمد غضباً للمأمون. وأقبل السري بن الحكم يدعو الناس إلى خلع محمد. وكتب المأمون إلى أشرف مصر يدعوهم إلى القيام بدعوته فأجابوه وبايعوا للمأمون في رجب سنة ١٩٦».

على أن أنصاراً للأمين أظهروا دعوته فقامت فتنة وقاتل. ولما بلغ أنصار الأمين قتله تفرقوا.

أثر الهزيمة في بغداد^(١)

وصلت أخبار مقتل علي بن عيسى وهزيمة جيشه الكبير إلى بغداد: إلى الشعب، وإلى الأمين، وإلى القواد العسكريين، فأما أثرها في الشعب فقد عبر عنه الطبري بهذه العبارة: «لما قتل عيسى أرحف الناس ببغداد إرجافاً شديداً». ولا نحسب عبارة أبلغ منها في وصف ما تركته هزيمة جيش الأمين في نفوس الناس.

وأما الأمين فقد أدرك سوء عاقبة ما أقدم عليه من نقض وصية أبيه، وخلع أخيه، وندم

(١) يروي الطبري أنه لما جاء خبر الهزيمة ومقتل علي بن عيسى إلى الأمين كان على النهر يتلوه بصيد السمك، فقال للذي أخبره: وملك دعني فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئاً بعد!...

كما يروي عن لسان عبد الله بن خازم أنه لما جاء خبر الهزيمة قال: يريد محمد إزالة الجبال وفل العساكر بتدبيره والمنكوس من تظهيره، هيهات والله كما قال الأول: قد ضيع الله ذوداً أنت راعيها.

على ما فعل ندماً شديداً، وأدرك أن الأمر ليس بالسهولة التي تصورها، أو صورها له الفضل بن الربيع .

وأما القواد العسكريون الذين كانوا يعلمون أنهم هم الذين سيحملون عبء القادم من الأحداث، فقد سلكوا مسلكاً عجيباً: لقد أرادوا بالفعل أن يعدوا جنودهم للحرب التي ستواصل، ولكنهم في الوقت نفسه أرادوا استغلال حاجة الأمين إليهم، ليضمنوا لأنفسهم المنافع الشخصية، فحركوا جنودهم ليطالبوا بزيادة أرزاقهم وجوائزهم، وحرصوهم على الشغب، فاجتمعوا بعامتهم يضجون ويكبرون ويصيحون بمطالبهم، فتصدى لهم بعض أنصار الأمين، فتراموا بالنشاب واقتتلوا قتالاً شديداً.

وهكذا أصبحت المعركة داخل بغداد بين رجال الصف الواحد، ويبدو أن الواقعة كانت في مكان قريب من قصر الأمين فسمع الضجيج ووصلت إليه أصداء الاقتتال، فأرسل أحد مواليه ليعرف حقيقة ما يجري، فعاد إليه يخبره أن الجند قد اجتمعوا وشغبوا لطلب أرزاقهم، فاطمأن عند ذلك للأمر وقال: ما أهون ما طلبوا .

وكان يقود أنصاره عبد الله بن حازم فأرسل إليه يأمره بالرجوع، وحقق مطالب الشاغبين، وأمر للقواد والخواص بالصلوات والجوائز، وراح يعد لجيش جديد يرسله لقتال المأمون .

والذي يلفت النظر في هذا الجيش أن الطبري يذكر أن عدده كان عشرين ألفاً من الأبناء بقيادة عبد الرحمن الأبنوي، فمن هم هؤلاء الأبناء⁽¹⁾؟

(1) هم الذين أرسلهم كسرى لنجدة الملك سيف بن ذي يزن لطرده الأحباش . وسموا بالأبناء لأن كسرى قال لسيف بن ذي يزن حين جهزهم معه: إن ظفروا فأبناؤك وإن قتلوا فأعداؤك . وقيل إنما سموا بالأبناء لأنه يقال لهم أبناء سيف، وقيل سموا بذلك لأنهم لما استوطنوا اليمن تزوجوا ورزقوا أولاداً فصاروا يدعون بالأبناء لأنهم من أبناء أولئك الفرس .

وهؤلاء الأبناء بعد أن استقروا في اليمن أصبحوا جزءاً من كيانه يشاركون في أحداثه وينحازون إلى فريق من فرقائه، وعدا عن المعارك القتالية كانت تقوم معارك شعرية لا تقل ضراوة عن الأولى فيغتنم الشعراء فارسية أصول الأبناء فينفذون منها للطعن فيهم . ولكننا لا يمكن أن نعزو ذلك إلى نزعة عنصرية في الشعراء لأنهم في الوقت الذي يقارعون فيه الأبناء هذا القراع الشعري العنيف كانوا يشملون بهذا القراع وعنفه حلفاء (الأبناء) اليمنيين العرب الأقحاح . ولعل في شعر الشاعر عبد الخالق بن أبي الطلح بن محمد الجهور أوضح مثال على ما ذكرنا، فهو يهجو بني عدي الذين كانوا حلفاء الأبناء بمثل ما يهجو الأبناء في قصيدة واحدة . فهو القائل من قصيدة :

المعروف أن كلمة (الأبناء) تعني أكثر من شيء واحد: تعني السلالة التي ولدت في

سراعاً ما لأبهم انثناء
رجال في الحروب لهم غناء
فإن قلوبنا منهم ملاء
وطوراً قد تقول بنا انتشاء
إلى صنعاء كان له انتواء
إذا نقلوا كما نقل السباء
على آثار دمنتها العفاء
فتلك ديارهم منهم خلاء
كما يشفي من الداء الدواء
لأي بني أب نصب اللواء
غداة غد إذا انقطع الحراء
وما فيهم فمنتقم جزاء
أب أدعى إليه ولا انتماء
ولا لي في دمائهم بواء
لدار لا يرام لها فناء
يسر لها المقيم ولا يساء
رواح إن خذلت ولي اغتداء
بما ارتكبوا لقد عظم البلاء
مراكم فأخلفها الرجاء

فإن تغضب لنا يمن تجينا
بخيل شزب قب عليها
ترحل فارساً وبني عدي
من الأحقاد تحسبنا سكارى
إلى الأوطان أولهم وكل
فوا جذلاً وذاك يقر عيني
وأضحت فارس وبنو عدي
يقول القائلون لقد تولوا
فتنقع غلة للضيم هيماً
وتعلم فارس وبنو عدي
ومن أهل البلاد أنحن أم هم
فإن نظفر بذلك من عدي
وإن أخذل فما لي في نزار
ولا في الفرس لي نسب قريب
سأترك دار مضيعة وذل
وأوشك رحلة منها لأخرى
فلي عن فارس وبني عدي
ويا يمننا لئن تركت عدي
وفارس إنها بطرت فرامت

وعلى عادة العرب من الانتماء إلى القبيلة، فيقال: الهمداني والتقي والمذحجي... صار يقال للواحد من الأبناء (الأبناوي) واشتهروا بالأسماء العربية مثل: القاضي هشام بن يوسف الأبناوي المعروف بقاضي صنعاء، وهو أحد شيوخ الإمام الشافعي في اليمن، وله في الصحيحين عدة أحاديث، وكان له مع وظيفة القضاء إمامة جامع صنعاء.

ويبدو أنه كان له مشاركة فعلية في الصراعات اليمنية، لذلك لم يوفره هذا الشاعر من الهجاء متخذاً من الأصل الفارسي والجذر المجوسي وسيلة للطعن فيه فيقول من قصيدة:

فدى لكم العمومة والخؤول
دراك في الرؤوس له صليل
عليهم إن كللكم ثقليل
كما كانت جدودكم تصول
بلا نحو وجار بك الدليل
حصونهم الأسنة والنصول
وأقصر كم تجور بك السبيل

ووتر يا لِحَمِيرَ فانقموه
تلافوه بطعن كلى وضرب
تذوق الفرس بأسكم وميلوا
وصولوهم بدارهم بتبرا
هشام لقد جشمت مدى بعيداً
أتفخر بالمجوس على ملوك
فلا تفخر عليّ بغير فخر

وعدا هذا القاضي فهناك قاض آخر منهم، منسوب في اسمه إليهم، هو أبو الدغيش الأبناوي. =

اليمن من الفرس الذين أرسلهم كسرى الأول أنوشروان لنجدة سيف بن ذي يزن ملك اليمن على الأحباش .

وتعني سلالة أوائل الداعين لنصرة الدولة العباسية وهي اختصار الجملة : أبناء الدعوة . وتعني قبيلة تميمية كانت تسكن الدهناء .

أما المعنى الثالث فمن المؤكد أن الطبري لا يعنيه ، فهل يمكن أن يعني المعنى الأول؟ وهل بلغ هؤلاء الأبناء من الكثرة حدًا جعلهم متميزين بين الكتل اليمانية التي كانت عماد جيوش الفتوحات الإسلامية وظلوا على تميزهم حتى العصر العباسي الأول؟ وهل تعمّد الأمين اختيارهم ليقذف بهم في أتون حرب تجري على أرض آبائهم الأول؟

وهل النسبة التي ارتبط بها قائد هذا الجيش ، (الأبناوي)، مرتبطة بهم ليكون الجيش وقائده من فصيلة واحدة؟

إننا نستبعد ذلك ونرى أن كلمة «الأبناء» يراد بها هنا المعنى الثاني : أبناء أوائل الداعين لنصرة الدولة العباسية . وأن الأمين تعمد اختيارهم واختيار قائدهم منهم لعراقتهم في الانتصار للعباسيين ، وليدلل على أنه هو وحده وريث الدولة العباسية . وللدكتور فاروق عمر رأي في هذا الموضوع نوره فيما يلي :

أما الأبناء فشاع اسمهم كذلك أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون . وتشير رواياتنا التاريخية إلى ارتباطهم الوثيق بـ«أهل خراسان» فيسميهم ابن سعد «أبناء أهل خراسان» وتشير رواية أخرى إلى أحدهم بقولها : «إنه من أبناء هذه الدولة أصله من مرو وولادته في بغداد» . وفي سنة ١٨٠هـ ، كان لا يزال عدد من «أبناء أهل خُراسان» يستوطنون الأنبار . ويسميهم ابن طيفور «أبناء خُراسان المولودون» . ورغم ارتباط الأبناء بـ«أهل خراسان» إلا أنهم كانوا يميّزون أنفسهم عنهم ، بل إنهم يفخرون على الموالي والعرب والأعراب ؛ مما يدلّ على أنّ الأبناء كانوا كتلة متميزة عن غيرها ، وهذه الكتلة خُراسانية بغدادية المولد .

ورغم أن الدكتور صالح العلي يشير إلى الصلة القوية بين الأبناء «أبناء الملوك» الذين كانوا أبرز عناصر الجيش العباسي في العصر العباسي الأول ، وبين أمراء المدن والأقاليم

= ثم اندمج الأبناء في المجتمع اليمني فلا يعرف بهذا الاسم وغيره أحد منهم . وتوجد قرينتان في خولان ثم في بني حشيش ، إحداهما تسمى الفرس والأخرى الأبناء ، وفيهما بطون منهم . وكذا في بيت بوس : بنو بهرام . ولعل تسمية بني بهلول انتزعت من أحد أبناء الفرس ، فهلول اسم فارسي .

الإيرانية معتبراً هؤلاء الأبناء أحفاداً لأمرء الأقاليم والمدن الخُراسانية الذين كانوا يحملون لقب «ملك» في القرن الأول الهجري، إلا أننا نعتقد بأن كتلة الأبناء لم تكن كتلة أعجمية؛ لأن الشيعة العباسية من أهل خُراسان كانوا عرباً وأعاجم؛ فالأبناء دون شك سيكونون مزيجاً من العنصرين العربي والأعجمي. ثم إن لقب ملك لم يكن مقصوراً على الفُرس بل على زعماء العرب المستوطنين في بلاد فارس. وكان من أبرز الزعماء العرب من كتلة الأبناء عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي؛ كما أن من أبرز الزعماء الأعاجم من كتلة الأبناء يحيى بن خالد البرمكي. هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فإن مصادرنا لا تشير إلى أي دور لعبه هؤلاء «الملوك» الأعاجم في أحداث الدولة العباسية، فكيف يا ترى كان الأمر بأبناء هؤلاء الملوك والأمراء المحليين. وهناك نقطة ثالثة ربما كانت مهمة وهي أن اصطلاح الأبناء اصطلاح عربي قديم ظهر في اليمن قبل الإسلام، وكان يُطلق على الجيل الجديد الذي نشأ نتيجة اختلاط العرب بغيرهم، ويعني الجيل الذي لا تزال تجري في عروقه دماء عربية.

على أن الفارق بين الأبناء وبين أهل خُراسان هو أن أهل خُراسان وخاصة العرب منهم تأثروا بالبيئة الإيرانية وتقاليدها حضارتها لاستقرارهم هناك رداً من الزمن، أما الأبناء فتأثروا بتقاليد الخلافة العباسية في العراق الذي كانت بيئته تختلف تماماً عن بيئة خُراسان الأعجمية (انتهى).

استكمل عبد الرحمن إعداد جيشه وزوده الأمين بما استطاع من المال والسلاح والخيال، وأعلنه والبأ على حلوان إلى ما غلب عليه من أرض خراسان. وأن يعجل في السير حتى ينزل مدينة همدان قبل أن يصلها طاهر بن الحسين.

واختيار همدان مقراً للعمليات العسكرية في محاربة طاهر، وجعل الدفاع عنها هو الأساس في عمليات الدفاع الذي تقرر اعتماده أولاً - كان لأن همدان هي كبرى المدن بعد الحدود العراقية، فسقوطها بيد طاهر يفتح أمامه أبواب العراق، لذلك كان لا بد لجيوش الأمين من اتخاذها قاعدة الدفاع الأولى، ودفع جيش طاهر عنها، ثم الانطلاق منها للهجوم بعد الدفاع.

ونفذ عبد الرحمن ما عهد إليه بتنفيذه، وكان الأمر بينه وبين طاهر أمر تسابق في الوصول إلى همدان، واستطاع عبد الرحمن أن يسبق طاهراً إليها، فأول ما فعله هو تحصين سورها وأبوابها وسد ثلمها. ثم ضبط الطرق الموصلة إليها، وجمع أكثر ما يمكن جمعه فيها من الميرة، تحسباً لما قد يضطر إليه من التحصن داخلها في حصار قد يفرضه عليه طاهر.

على أنه كان يمكن أن يكون هناك خط دفاعي عن همدان يتولاه يحيى وهو ابن القائد المهزوم جيشه والمقتول في تلك الهزيمة، (علي بن عيسى).

فإن يحيى هذا، بعد مقتل أبيه وهزيمة جيشه، هرب مع جماعة من أصحابه واستقر بين الري وهمدان ينتظر فلول جيش أبيه الهاربة مثله، فيقتنهم بالمرابطة معه، حتى اجتمع إليه جمع منهم، وكان في تصوره أن الأمين حين يبلغه أمره هذا سيعهد إليه مكان أبيه ويمده بالخيال والرجال، بعد أن يجتمع إليه ما يجتمع، وكتب بذلك إلى الأمين يعلمه بأمره ويستتمده ويستنجده.

ولكن الأمين كان قد قرر ما قرر، فكتب إليه أن يقر في مكانه استعداداً للقاء طاهر المتوقع زحفه بعد انتصاره، وأنه إذا احتاج إلى نجدة فعليه أن يكتب إلى عبد الرحمن فيمده بما يشاء.

وبذلك أَرْضَى الأمين استقلالية يحيى بالقيادة وأبقى عبد الرحمن على قيادته للجيش الكبير.

وكما كان المتوقع فإن طاهراً لما بلغه تقدم عبد الرحمن نحو همدان تقدم هو نحوه، ولما صار قريباً من يحيى ضعفت عزيمة يحيى، وهي المضعضة من قبل بالهزيمة ومقتل الأب، فقال لأصحابه - وهو الذي جمعهم ليقاتل بهم - قال لهم: «إن طاهراً قد قرب منا ومعه من تعرفون من رجال خراسان وفرسانها، وهو صاحبكم بالأمس ولا آمن إن لقيته بمن معي من هذا الفل أن يصدعنا صدعاً يدخل وهنه على من خلفنا وأن يعتل عبد الرحمن بذلك ويقلديني به العار والوهن والعجز عند أمير المؤمنين وإن استنجد به وأقم على انتظار مدده لم آمن أن يمسك ضناً منه برجاله وإبقاء عليهم وشحاً بهم على القتل. ولكن نتزاحف إلى مدينة همدان فنعسكر قريباً من عبد الرحمن فإن استعنا به قرب منا عونته وإن احتاج إلينا أعناهُ وكنا بفناهُ وقاتلنا معه».

وبالرغم من أن في بعض هذا الكلام بعض المنطق، فلم يكن الباعث عليه ما فيه من منطق، بل كان الباعث الخور وانكسار المعنويات.

وهو لم يكتف بخوره وانكسار معنوياته، بل زادهما في رجاله الخائزين المنكسرين مثله، فهول عليهم برجال خراسان وفرسانها، وبصاحبهم بالأمس طاهر. فوافقوه على رأيه، ولكنهم لم يكادوا يقربون من همدان حتى أسلموه وتفرقوا عنه.

وبذلك خلت الطريق أمام طاهر حتى همدان من كل مقاومة، فزحف إلى همدان،

وخرج إليه عبد الرحمن، فاقتتلوا قتالاً شديداً وصبر الفريقان وكثرت القتلى والجرحى فيهم، ثم انتهى الأمر بهزيمة عبد الرحمن وتحصن داخل همدان وأعاد تنظيم جيشه، وخرج لقتال طاهر، فدارت معركة حامية الوطيس انتهت بانهزام عبد الرحمن ولجؤته إلى المدينة. وقام طاهر محاصراً لها، وضاعت الحياة بأهل همدان لشدة الحصار، وهم يرون أن لا شأن لهم فيما يجري، بل هي حرب بين أخوين. وخشي عبد الرحمن أن يثور به أهل همدان فيقع بين نارين: نار طاهر ونار الهمدانيين لذلك أثر الاستسلام، فأرسل إلى طاهر يطلب الأمان لنفسه ولمن معه فاستجاب له طاهر ووفى له بأمانه.

هكذا انتهى أمر الحملتين اللتين وجههما الأمين للقضاء على المأمون، حملة علي بن عيسى، وحملة عبد الرحمن الأبنوي - انتهى أمرهما بالهزيمة، ووصلت سلطة خلافة المأمون على مقربة من حدود العراق. وكان طاهر قبل معركة همدان قد خشي أن يأتيه من خلفه كثير بن قاندة عامل الأمين على قزوین، فمضى إليه بقطعة من جيشه، فهرب كثير، فولى عليها طاهر والياً من قبله.

ويبدو أن طاهراً كان يطمع بأن ينضم إليه عبد الرحمن برجاله فلم يجردهم من سلاحهم ولم يفرقهم، فأقام عبد الرحمن يُري طاهراً المسالمة والسكون حتى سنحت له فرصة رآهم فيها على غير أهبة الحرب فباغتهم برجاله بالهجوم عليهم وأعملوا فيهم السيوف فكان للمباغثة أثرها، ولكن أصحاب طاهر ثبتوا لهم وقاتلهم الرجالة أشد قتال، إلى أن استطاع الفرسان المساهمة بالقتال، فلم يلبث أصحاب عبد الرحمن أن هزموا، وترجل عبد الرحمن عن فرسه عازماً على الموت وأبى الهرب فقتل في المعركة.

وكان الأمين قد أرسل لعبد الرحمن، وهو لا يزال في همدان، نجدة كبيرة من الفرسان كانت في طريقها إليه عندما حلت هذه الهزيمة بجماعته، ووصل المنهزمون إلى معسكر النجدة وأخبروا بما جرى، فحل الهلع والرعب في قلوب فرسانها فولوا هاربين دون قتال، ولم يوقفهم شيء حتى بغداد. وخلت الساحة لطاهر فواصل تقدمه مجتازاً البلاد بلدة وراء بلدة حتى نزل بقرية شلاشان من قرى حلوان فعسكر فيها وحصّن مواقعه.

الحال في البلاد

إن تتابع الهزائم بهذا الشكل المريع كان له في بغداد صدى مخيف، وأشد الناس ذعراً كان الفضل بن الربيع، المسؤول الأول عن دفع الأمين إلى الغدر بأخيه. ويروي أسد بن

يزيد بن مزيد حديثاً جرى له مع الفضل إثر وصول خبر الهزيمة الأخيرة، وفي هذا الحديث يحمل الفضل على الأمين ويصوره بصورة اللاهي العابث الذي لا يعي حقيقة ما يجري، وينذر بسوء العاقبة إن ظل الأمر على ما هو عليه، هذا السوء الذي سينال الفضل في أول من ينالهم.

وينسى الفضل أن شخصية الأمين لم تتبدل بين عشية وضحاها، وأن الأمين الذي يصفه بما سنراه من الصفات، هو نفسه الأمين حامل تلك الصفات يوم أغراه بما أغراه به من خلع أخيه، وليست هذه الصفات جديدة فيه، فقد كان عليه أن يدرك، وهو يورط الأمين بما ورطه به، أن حامل تلك الصفات ليس من رجال مثل هذه المهمات.

ولكن الفضل الذي تحكمت فيه أحقاد وأطماعه فغشت على بصيرته فاستسهل عواقب الغدر، وحسب أن المأمون أكلة آكل، جاء اليوم يرمي سخطه على الأمين ويجعله المسؤول عن الهزائم المتتابة، وعن الآتي الأعظم

قال أسد بن يزيد بن مزيد - على ما يروي الطبري - إن الفضل بن الربيع بعث إليه بعد مقتل عبد الرحمن الأبنائي، قال فأثيته فلما دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره، وفي يده رقعة قد قرأها واحمرت عيناه واشتد غضبه وهو يقول، (عن الأمين): ينام نوم الظربان لا يفكر في زوال نعمة ولا يروى في إمضاء رأي ولا مكيدة، قد ألهاه كأسه وشغله قدحه فهو يجري في لهوه والأيام تضرع في هلاكه. قد شمر عبد الله، (المأمون)، عن ساقه وفوق له أصيب أسهمه، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ والموت القاصد، قد عبى له المنايا على متون الخيل وناط له البلاء في أسنة الرماح وشفار السيوف. ثم استرجع (الفضل) وتمثل بأبيات من الشعر.

ويتابع أسد حديثه قائلاً: ثم التفت إليّ (الفضل) فقال: يا أبا الحارث أنا وإياك لنجري إلى غاية إن قصرنا عنها ذمنا، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا، وإنما نحن شعب من أصل إن قوي قوينا وإن ضعف ضعفنا، إن هذا، (الأمين)، قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء يشاور النساء ويعتزم على الرؤيا وقد أمكن بمسامعه ما معه من أهل اللهو والجسارة، فهم يعدونه الظفر ويمنونه عقب الأيام. والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل، وقد خشيت والله أن نهلك بهلاكه ونعطب بعطبه، وأنت فارس العرب وابن فارسها، فزع إليك في لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قبلك أمراً: أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك، والثاني يُمّن نقيبتك وشدة بأسك. وقد أمرني إزاحة علتك وبسط يدك فيما أحببت، غير أن الاقتصاد رأس

النصيحة ومفتاح اليمن والبركة فأنجز حوائجك وعجل المبادرة إلى عدوك فإني أرجو أن يوليكَ الله شرف هذا الفتح ويلم بك شعث هذه الخلافة والدولة (انتهى).

ونحن حين نرجع إلى نصوص الطبري السابقة نراه يذكر أن الرشيد حين شخص إلى خراسان جدد البيعة للمأمون على القواد الذين معه - وفيهم الفضل بن الربيع - وأشهد من معه القواد وسائر الناس وغيرهم أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون.

وقد كان على الفضل تنفيذاً لهذه البيعة أن ينضم هو والقواد الآخرون ومن معهم من الجند - أن ينضموا إلى المأمون ويكونوا من أتباعه فور وفاة الرشيد. ولكن الفضل نكث البيعة وخرج على ما أخذ عليه من العهد، وحرص جميع من كان هناك على ترك المأمون والاتحاق بالأمين.

يقول الطبري في هذا: تشاوروا في اللحاق بمحمد الأمين، فقال الفضل بن الربيع: لا أدع ملكاً حاضراً، (ملك الأمين)، لآخر، (ملك المأمون)، لا يُدرى ما يكون من أمره. وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك.

إذاً فالناقص الأول هو الفضل وهو المعتمد على ملك الأمين ومحرض الناس على الاعتماد عليه.

ثم يقول الطبري عن الفضل إنه بعد وصوله إلى بغداد: «سعى في إغراء محمد الأمين بالمأمون وحثه على خلعه وصرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى، ولم يكن ذلك من رأي محمد ولا عزمه. بل كان عزمه فيما ذكر عنه الوفاء لأخويه عبد الله المأمون والقاسم بما كان أخذ عليه والده من العهود والشروط، فلم يزل الفضل به يصعّر في عينه شأن المأمون ويزين له خلعه». . . إلى أن يقول الطبري: «أزال محمداً عن رأيه». هذا المذعور الآن من توالي الهزائم، المحمل للأمين مسبباتها، الواصف للأمين بما سمعنا من الصفات، كان الأمين قبل ذلك - كما رأينا هنا - هو عنده المؤهل للمهمة الكبرى، مهمة إزالة المأمون عن ولاية العهد، ولم يكن ممن ألتهم كؤوسهم وشغلتهم أقداحهم، ومن الجارين في لهوهم، إلى آخر العيوب التي وصم بها الأمين، ما يجعله غير أهل لأي مهمة صغرت أو كبرت، فكيف بأكبر مهمة في الدولة.

والمأمون الذي يصفه الآن بكل صفات الحزم والقوة والذي يقول عنه ما يقول، أليس

هو الذي صغر شأنه في عين الأمين، حتى أزال الأمين عن رأيه في الوفاء لأخيه؟
لقد تراءت حقيقة الموقف للفضل بن الربيع، ولاح له المصير المظلم الذي ساق إليه
الأمين، وساق نفسه معه، فراح يتنصل من المسؤولية ويحملها لضعف الأمين!

هؤلاء هم قدارات الشعوب، الذين لا يباليون أن يدفعوا بشعوبهم ورجالها إلى المهالك
ما داموا يأملون تحقيق أهوائهم الذاتية ومصالحهم الشخصية، فإذا نجحوا أسبغوا على أنفسهم
البطولات وإذا فشلوا حتموا غيرهم المسؤوليات. ها هم الآن يبرزون في هذه الحقبة من
التاريخ بشخص الفضل بن الربيع!

ونعود الآن إلى الإصغاء إلى أسد بن يزيد بن مزيد وهو يتم حديثه قائلاً: «فقلت أنا
لطاعة أمير المؤمنين وطاعتك مقدم ولكل ما أدخل الوهن والذل على عدوه وعدوك حريص،
غير أن المحارب لا يعمل بالغرور ولا يفتح أمره بالتقصير والخلل، وإنما ملاك المحارب
الجنود وملاك الجنود المال...»، إلى أن يقول: «ولا أسأل عن محاسبة ما افتتحت من
المدن والكور».

وهنا تتجلى لنا نفسية هؤلاء الذين عهد إليهم بتقرير مصائر الأمة، فإذا كانت مطالبه
الأولى معقولة، فإن بيت القصيد عنده أن لا يُسأل عن محاسبة ما يفتتح من المدن والكور.
أي أن يطلق يده في النهب والسلب، واستصفاء أموال الناس في كل ما يمر به من مدن وقرى!
فكان جواب الربيع له: لقد اشتطت! هذا كل ما كان من جواب الربيع لأسد على ما
طلبه من إطلاق يده في العبث في البلاد وأخذ ما يستطيع أخذه من أموال أهلها. وتابع كلامه
قائلاً: لا بد من مناظرة أمير المؤمنين. فالفضل موافق على طلب أسد، ولكن لا بد له من
إقناع الأمين بذلك.

ويقول أسد: ثم ركب وركبت معه فدخل قبلي على محمد وأذن لي فدخلت، فما كان
بيني وبينه (الأمين) إلا كلمتان حتى غضب وأمر بحبسي.

ويسكت أسد عن ذكر الكلمتين اللتين قالهما للأمين فسببتا حسبه، يسكت عن ذكرهما
ربما للتشنيع على الأمين بأنه يسجن ناصحيه!

ولكن بعض خاصة الأمين أوضح حقيقة ما دار في ذلك المجلس بين أسد وبين الأمين،
وذكر الكلمتين اللتين أخفاهما أسد عن الناس. ربما فعل هذا بعض خاصة الأمين رداً على ما
أراد إلصاقه أسد بالأمين، فقال: إن أسداً قال لمحمد: ادفع إليّ ولدي عبد الله المأمون حتى

يكونا أسيرين في يدي فإن أعطاني الطاعة وألقى إليّ بيده، وإلا عملت فيهما بحكمي وأنفذت فيهما أمري. فقال الأمين: أنت أعرابي مجنون، أدعوك إلى ولاء أعتة العرب والعجم وأطعمك خراج كور الجبال^(١) إلى خراسان وأرفع منزلتك عن نظرائك من أبناء القواد والملوك وتدعوني إلى قتل ولدي وسفك دماء أهل بيتي، إن هذا للخرق والتخليط!

إذا فشروط أسد بن يزيد بن مزيد لتولي حرب المأمون وضمان النصر عليه هي ثلاثة: أولاً أن يستولي على خراج منطقة الجبال إلى خراسان. ثانياً أن تطلق يده في النهب والسلب واغتصاب أموال أصحاب الأموال. ثالثاً أن يأخذ ولدي المأمون رهينة حتى إذا لم يستسلم له المأمون ذبحهما.

بهذا المنطق كان يتكلم القادة!

وكان للمأمون ولدان ببغداد وهما مع أمهما، أم عيسى ابنة موسى الهادي، وكانا ينزلان مع أمهما بقصر للمأمون في بغداد. وبعد فوز المأمون خرجا إليه مع أمهما إلى خراسان.

ثم استدعى الأمين أحمد بن مزيد عم أسد ليوليه مكان ابن أخيه، في نفس الوقت الذي كان فيه الفضل بن الربيع يقنع عبد الله بن حميد بن قحطبة ليقود جيشاً لمحاربة طاهر، ولما مضى أحمد للقاء الأمين مر بالفضل بن الربيع فالتقى هناك بعد الله ثم مضى مع الفضل لمقابلة الأمين.

وكان القرار أن يؤلف جيشان، عدة كل منهما عشرون ألف رجل يتولى قيادة أحدهما أحمد بن مزيد، ويتولى قيادة الثاني عبد الله بن حميد، وأن يتجه الجيشان إلى حلوان لدفع طاهر عنها إن كان قد احتلها، وأما إذا كان معسكراً في شلاشان فعليهما أن يتقدما إليه من حلوان.

وقد كان من سوء التدبير أن يرسل جيشان بقيادتين مستقلتين، وأن لا يكون هناك جيش موحد القيادة متماسك الأجزاء.

ومضى الجيشان حتى نزلا خانقين قريباً من حلوان. فلما علم طاهر بنزولهما حاربهما حرباً نفسية، فكان يرسل جواسيسه إلى عسكريهما فيختلطون بالعسكريين ويشيرون فيهم إشاعات مريبة، ويأتونهم بالأراجيف التي توقع الفتنة بينهم، حتى وقعت الفتنة وقاتل بعضهم

(١) الجبال هنا اسم منطقة واسعة.

بعضاً، فأخّلوا خانقين ورجعوا عنها من غير أن يلقوا طاهراً الذي تقدم هذه المرة فاحتل حلوان.

وعند هذا الحد يمكن القول إن المأمون تحول من الدفاع إلى الهجوم وقرر إقامة جبهة جديدة في الأهواز عهد بقيادتها إلى طاهر بن الحسين على أن يتولى جبهة حلوان هرثمة بن أعين.

وكانت الحال في بغداد حالة فوضى في الرأي ولم تعد هناك خطة واضحة للعمل، وقد صور عبد الملك بن صالح الأمر على حقيقته من مظاهر الفوضى، وهو يشرح الحال للأمين حين قال له:

«إني أرى الناس قد طمعوا فيك وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك، وقد بذلت سماحتك فإن أتممت على أمرك أسدتهم وأبترتهم وإن كفت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم، وليس تُملك الجنود بالإمساك، ولا يبقى ثبوت الأموال على الإنفاق والسرف. ومع هذا فإن جنك قد رعبتهم الهزائم ونهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع وامتلات قلوبهم هيبة لعدوهم ونكولاً عن لقائهم ومناهضتهم، فإن سيرتهم إلى طاهر غلب بقليل من معه كثيرهم وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم».

هذا الذي قاله عبد الملك هو صورة ما كان عليه الحال في بغداد. ومعنى ذلك أنه لم يعد من الممكن الاعتماد على عسكر العراق، الذين صار من غير المستطاع إرضائهم. والأهم من ذلك أن معنوياتهم قد تحطمت وفقدوا حماسة القتال وانهارت نفسياتهم، بما تعاقب من هزائم وما عاناه الكثير منهم في خوض المعارك.

فإذا كان لا يمكن الاعتماد على الجنود العراقيين فما هو الحل إذًا؟

لقد ارتأى عبد الملك أن الحل هو في الاعتماد على أهل الشام، فقال متابعاً كلامه:

«وأهل الشام قوم قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد، وجلهم منقاد إليّ مسارع إلى طاعتي، فإن وجهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً يعظم نكايته في عدوه ويؤيد الله بهم أوليائه وأهل طاعته».

والصورة السوداء التي أبرزها عبد الملك أمام عيني الأمين، والتي لم تكن معالمها خافية عليه، صورة الوضع العام في بغداد، وحيثه فيما يصنع وكيف يتصرف - هذه الصورة جعلته يبادر إلى الأخذ برأي عبد الملك دون تردد.

على أننا نفتش هنا عن الفصل بن الربيع، مسبب هذي المآسي كلها، فلا نجده؛ وقرار خطير مثل هذا القرار، كان من المفروض أن لا يغيب عنه الفضل وأن يكون له مشاورة ورأي فيه. ولكننا منذ خذلان أحمد بن مزيد وعبد الله بن حميد بن قحطبة الذي كان هو من رشحه ودعمه وقدمه للأمين - منذ ذلك الخذلان لم نعد نرى للفضل وجوداً ولا نسمع له صوتاً^(١).

ويبدو جلياً أنه بعد توالي الانكسارات، انكساراً وراء انكسار، توارى عن مسرح الأحداث وتركها تجري في أعتها، متخلياً عن الرجل الذي ورّطه في هذا المأزق الخطير. لقد كان يعمل ما دام لدسائسه مكان للعمل، وما دامت هذه الدسائس يمكن أن توصله إلى إرواء حقه، ولكن تراءى له الآن أن الأمل بات ضعيفاً لذلك لم يعد يبالي بما يحدث وترك ضحيته الأمين يتخبط فيما يتخبط فيه وبخل عليه حتى بالنصح.

الفضل بن الربيع

مهندس قضية الأمين، الفضل بن الربيع، هو الأبرز لا في إحداث الصراع بين الأخوين فقط، بل في الأحداث التي سبقت عهد الأمين والمأمون، وإذا كان هنا في هذه الأخيرة هو فاعلها، فإنه فيما قبلها متفاعل معها متشابك في وقائعها وفي رأس المتشابكين بين رجالها.

وإذا كان لبعض الرجال قضية يعملون لها ويكافحون من أجلها، قد ينجحون وقد يفشلون، ولكنهم في كلا الحالين يظلون مصاولين متحفيين، لا يتراجعون، ولا يتوارون عند بوادر الفشل...

إذا كان لبعض الرجال قضية، فلم يكن لهذا الرجل قضية، كانت العقد النفسية هي التي تحركه، كان النسب المجهول الذي يرمى به هو الذي يقود خطواته، كان نجاح الآخرين هو الذي يثير نيران غيظه، فيحاول أن يحرق بهذه النيران الأخضر واليابس.

ومن سوء حظ الأمم أن يجد بعض أصحاب هذه الصفات مكاناً لهم في الصدارة، وأن تتاح لهم إمكانية تحريك الأحداث المصيرية، فيحركوها وفق ما توحيه دوافعهم العُقدية وحوافزهم التُقضية، فيورطون الأمة ورطات بعض ما فيها التذابح!

(١) بعد ظفر المأمون استتر، ثم عفا عنه المأمون ولكن أهمله بقية حياته فعاش خاملاً حتى توفي بطوس سنة ٢٠٨هـ.

وهكذا كان من الطالع السيء لعصر ما بعد هارون الرشيد أن رجلاً مثل الفضل بن الربيع كان في الموقع الذي يستطيع فيه تحريك أحداث المصائر .
لنرجع قليلاً إلى الوراء إلى بعض ماضي هذا الرجل، لنرى بعض ملامح تكوينه النفسي .

هو ابن الربيع بن يونس إلى آخر النسب الذي ساقه إليه ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان . ولكن ابن خلكان نفسه يعود بعد قليل فيقول: ويقال إن الربيع لم يكن له أب يعرف، وإن بعض الهاشميين دخل على المنصور، (وكان الربيع وزيره)، وجعل يحدثه ويقول: كان أبي رحمه الله تعالى، وكان، وكان، وأكثر من الترحم عليه، فقال الربيع: كم تترحم على أبيك بحضرة أمير المؤمنين! فقال الهاشمي: أنت معذور، لأنك لا تعرف مقدار الآباء!

وليس ابن خلكان هو الوحيد الذي تفرد بذكر هذا الأمر، بل أتذكر أنني قرأت القصة في مكان آخر، وأتذكر أنني قرأت جواب الهاشمي بهذا النص: لا ألومك لأنك لا تعرف حلاوة الآباء . . .

وابن خلكان يروي خلال سرده ترجمة الفضل بن الربيع أن نزاعاً جرى بحضرة الرشيد بين الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى البرمكي فقال جعفر للفضل: يا لقيط، إشارة إلى ما كان يقال عن أبيه الربيع: إنه لا يُعرف أبوه .

وإذا كان الربيع قد سكت عن هذه الإهانة الموجهة إليه في مجلس المنصور، وكل ما كان لها من صدى في نفسه أنها أخلجته، فإن ابنه الفضل قابل الإهانة نفسها الموجهة إليه في مجلس الرشيد بهذا الرد: إشهد يا أمير المؤمنين .

فقال جعفر للرشيد: تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهداً يا أمير المؤمنين، وأنت حاكم الحكام .

وسكوت الربيع، وجواب الفضل هذا الجواب، الذي ليس هو بجواب، هذا السكوت وهذا الجواب هو إقرار ضمنى باشتهاار التهمة، سواء صحت أو لم تصح .

وإذا كان الربيع قد غطى هذا النقص بنجاحه في حجابته أولاً للمنصور ثم في وزارته له، مما حمل ابن خلكان على القول عن المنصور بأنه كان كثير الميل إليه، حسن الاعتماد عليه - إذا كان الأمر كذلك في الربيع، فلم يكن كذلك في ابنه الفضل .

يقول ابن خلكان وهو يتحدث عن الفضل: لما آل الأمر إلى الرشيد واستوزر البرامكة، كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم، فكان في نفسه منهم إحناً وشحناء، قال عبيد الله بن سليمان بن وهب: إذا أراد الله تعالى هلاك قوم وزوال نعمتهم جعل لذلك أسباباً، فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع وسعي الفضل بهم، وتمكن بالمجالسة من الرشيد فأوغر قلبه عليهم ومالاه على ذلك كاتبه إسماعيل بن صبيح حتى كان ما كان.

ثم يتم ابن خلكان كلامه قائلاً: ويحكى أن الفضل دخل يوماً على يحيى بن خالد البرمكي وقد جلس لقضاء حوائج الناس، وبين يديه ولده جعفر يوقّع في القصص، فعرض الفضل عليه عشر رقاع للناس، فتعلل يحيى في كل رقعة بعلّة، ولم يوقع في شيء منها البتة، فجمع الفضل الرقاع وقال: ارجعن خائبات خائبات، ثم خرج وهو يقول:

متى عسى يُثني الزمان عنانه بتصريف حال والزمان عشور

فتقضى لبانات وتشفى ضغائن وتحدث من بعد الأمور أمور

فسمعه يحيى وهو ينشد ذلك فقال له: عزمت عليك يا أبا العباس إلا رجعت، فرجع، فوقع له في جميع الرقاع. ثم ما كان بعد قليل حتى نُكبوا على يده، وتولى بعدهم وزارة الرشيد. وفي ذلك يقول الشاعر:

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع

إن دهرأ لم يرع عهداً ليحيى غير راع ذمام آل الربيع

وهكذا عاش الفضل عقدتين: عقدة التعبير بالنسب وعقدة القصور عن الوصول إلى المنصب الرفيع، وكانت منزلة البرامكة من الرشيد وما لهم من الصيت الحسن بين الناس تزيد عقديته تعقيداً وتؤثر حنقه على الناس والحياة، وكان أقصى ما وصل إليه هو التمكن من مجالسة الرشيد. ولا شك أنه لم يكن يريد أن يذكرهم بخير في مجلس الرشيد. ولكننا لا نسلم لابن خلكان بما زعم من أنه كان سبب هلاكهم وزوال نعمتهم، ثم تراجع عن ذلك فقال: إنه كان من أسباب زوال أمرهم، لا سبب ذلك.

فلم يكن لا للفضل بن الربيع ولا لإسماعيل بن صبيح أن ينال من البرامكة في مجلس الرشيد أيام كان الرشيد طوع أيديهم وكانوا خلاصه الأذنين. وسبب هلاكهم وزوال نعمتهم وانقضاء أمرهم هو أمر أكبر من أن يكون مسيبه طعن الفضل فيهم!

ولكن الأكيد هو ما قاله ابن خلكان من أنه كان في نفسه منهم إحن وشحناء .
 هذه الإحن والشحناء وعجزه عن التشبه بالبرامكة ومعارضتهم، هو ما كَوّن شخصيته،
 وجعله بلا قضية، أو بالأحرى جعلت قضيته منبعثة من الإحن والشحناء والعجز عن التشبه
 بالنجاحين ومعارضتهم .
 ومن تبعث قضيته من هذا المنبعث يكنّ من الطبيعي أن تكون سيرته هذه السيرة
 الحاقدة البعيدة عن الالتزام لا بهدف ولا برجل . . .

الالتجاء إلى الشام

لا شك أن غياب الفضل قد أفقد موقف الأمين مركزية القرار، فلم يعد هناك من يمكن
 الركون إلى رأيه في اتخاذ القرارات الحاسمة، لذلك رأينا أنه بمجرد أن عرض عبد الملك بن
 صالح على الأمين فكرة الاعتماد على أهل الشام في إحباط أمر المأمون، وأن يعهد إليه بالسير
 إليهم ليقودهم في هذه المهمة الخطيرة - بمجرد أن عرض عليه ذلك بادر بالموافقة قائلاً لعبد
 الملك: «فإني موليك أمرهم ومقويك بما سألت من مال وعدة فعتجل الشخوص إلى ما هنالك
 فاعمل عملاً يظهر أثره وتحمد بركته برأيك ونظرك فيه إن شاء الله» .

فولاه الشام والجزيرة واستحثه استحثاً شديداً، ووجه معه كنفاً من الجند والأبناء كما
 يقول الطبري .

ولم يكن الأمين مستطيعاً إلا أن يستجيب بدون تردد لرأي عبد الملك، لانعدام الرأي
 الآخر وفقدان المستشارين الذين كان من المفروض أن يكون على رأسهم الفضل بن الربيع
 الذي نفّض يديه من الأمر كله، الأمر الذي كان هو وحده المسؤول عن وجوده!

وإذا لم يستجب الأمين لرأي عبد الملك، فماذا يصنع بعد أن صوّر له عبد الملك
 الواقع في بغداد بتلك الصورة المظلمة التي لا يبدو فيها أي بصيص للنور؟!

ومضى عبد الملك لإنفاذ ما اقترح إنفاذه، فكانت مدينة الرقة أول منزل ينزله في رحلته
 الطويلة الشاقة . وهي المدينة التي كانت عاصمة ثانية - وربما مفضلة - للرشيدي، والتي تقع
 على الحدود الفاصلة بين العراق والشام والتي هي اليوم مدينة سورية .

أقام عبد الملك في الرقة واتخذها مقراً لتجميع الجند لا من الشام وحدها بل من
 الجزيرة أيضاً، فكتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجه الجزيرة، ويقول الطبري: «لم يبق أحد
 ممن يرحي ويذكر بأسه وغناؤه إلا وعده وبسط له في أمله وأمنيته» .

وهكذا نرى أن عبد الملك لم يعلن لأهل الجزيرة وأهل الشام قضيةً يقاتلون عنها، ولا فكرةً يتحمسون لها، ولم يذكر لهم رجلاً يستهويهم ذكره أو يؤملهم نجاحه ويؤيسهم فشله. بل كل ما فعل أن وعد كل واحد ممن كتب لهم وعوداً تهم شخصه ولا تتعداه إلى شأن عام. وبسط له في أمله وأمنيته؛ أمله في المطامع وأمنيته في المكاسب، سواء كانت هذه المطامع والمكاسب في المال أو المناصب.

ومن لا تكون لهم قضية يدافعون عنها ولا فكرة يتحمسون لها، ولا رجل يرمز إلى عقيدتهم وميولهم يلتفون حول اسمه، ومن كانت المطامع الشخصية هي التي تجمعهم، والمكاسب الفردية هي التي تلمهم...

إن قوماً مثل هؤلاء لا يُستنصر بهم! على أنهم استجابوا لعبد الملك: «رئيساً بعد رئيس، وجماعة بعد جماعة، فكان لا يدخل عليه أحد إلا أجازته وخلع عليه وحمله، فاتاه أهل الشام: الزواويل والأعراب من كل فج واجتمعوا عنده حتى كثروا».

وقد استوقفتني كلمة «الزواويل» فأنا أعترف بجهلي بحقيقة من يُقصد بها، وكل ما أعرف عنها هو ما قرأته في معجم لسان العرب الذي قال عن كلمة «زقل»: زوق فلان عمامته: أرخى طرفيها من ناحية رأسه. ابن دريد: الزقل منه اشتقاق الزواويل، وهم قوم بناحية الجزيرة وما والاها.

وعلى هذا فكل معلوماتي عنهم أنهم من بين من كتب لهم عبد الملك من سكان الجزيرة فاستجابوا له. أما ما هي حقيقة هؤلاء القوم الذين كانوا بناحية الجزيرة وما والاها، أهم من العرب أم من غير العرب؟ فإني معترف بجهلي بذلك. وإذا كان الطبري قد جعلهم طرفاً مقابلاً للأعراب فليس معنى ذلك أنهم ليسوا عرباً، بل ليسوا أعراباً.

وفي حين أن صاحب لسان العرب يجعلهم من سكان الجزيرة، فإن الطبري يجعلهم من أهل الشام حين يقول: فاتاه أهل الشام: الأعراب والزواويل^(١).

(١) يقول الدكتور فاروق عمر: كان الزواويل جماعة وقفت إلى جانب الأمين، وكانت غالبية هذه الكتلة يتجمعون في إقليميّ الشام والجزيرة. وتذكر المصادر بعض زعمائهم أمثال نصر بن شيبان العقبلي والعباس بن زفر الهلالي. وقد حار المؤرخون في تمييز هذه الجماعة؛ فعرفهم المستشرق دي خويه في ملحقة لتاريخ الطبري بأنهم مرتزقة غير عرب من السوريين والجزيريين، ويبدو أن المستشرق دي خويه قد توّصل إلى هذا التخرّيج مستنداً على روايات تشير إلى الزواويل والأعراب جنباً إلى جنب؛ فلا بد - حسب رأيه - أن يكون الزواويل غير عرب.

وهكذا نرى أن الاستجابة لنداء عبد الملك كانت استجابة مرضية، والتلبية كانت شاملة مما حمل الطبري على القول: إن الناس أتوا من كل فج واجتمعوا عند عبد الملك حتى كثروا.

ولكن الذين لا تجمعهم قضية، ولا رجل رمز قضية، سيفرق جموعهم الاختلاف على دابة!

فقد حدث أن بعض جند أهل خراسان^(١) نظر إلى دابة كانت أخذت منه في إحدى الوقعات تحت بعض الزواويل فتعلق بها، فجرى الأمر بينهما إلى أن اختلفا، واجتمعت جماعة من الزواويل والجند فتلاحموا وأعان كل فريق منهم صاحبه وتلاطموا وتضاربوا بالأيدي!!

وبعد أن كان الأمر أمر نزاع على خلافة، واقتال على من هو أحق بالخلافة: الأمين أم المأمون، أصبح الأمر أمر نزاع على دابة، ولا ندري إن كانت حمار أم بغلة، ومن الأكيد أنها

= ولكن التمعّن في روايات الطبري وغيرها يؤدي بنا إلى الاستنتاج بأن كلا الاصطلاحين يؤدي إلى المعنى نفسه أو على الأقل أنهما غير مختلفين في المفهوم العام. ونحن في الوقت الذي نعطي العذر للمستشرق دي خيوه في الالتباس الذي وقع فيه؛ ذلك لأن المصادر العربية الأصلية تزخر رواياتها بالاصطلاحات الغامضة التي تبعث على الالتباس؛ فهناك مثلاً ترادف الاصطلاحين (الأعراب) و(الشراة) والواضح أنه لم يكن كل الأعراب شارة خوارج، ولا كل الخوارج الشرارة من البدو والأعراب، إلا أننا نرى بأن الزواويل في غالبيتهم عرب من القبائل القيسية المستوطنة في بلاد الشام. فمثلاً: يشير الطبري إلى أن جعفرأ البرمكي أرسل إلى الشام سنة ١٨٠هـ/٧٩٦ - ٧٩٧م لقمع الاضطرابات ووضع حد للعصبيات القبلية بين القيسية واليمانية «وقتل زواقلهم ومتلصصتهم»، كما وأنا ذكرنا سابقاً بأن زعماءهم كانوا عرباً من شيوخ القبائل وزعمائها. إن أغلب الظن بأن الزواويل عرب قيسية نصررو الأمين ويقوا بعد مبايعة المأمون ضد السلطة العباسية، ولذلك نعتهم السلطة بـ«اللوصية» وكان لهذا النعت ما يبرزه حيث إن هؤلاء البدو كانوا في حالة اقتصادية سيئة. وربما عمدوا إلى السلب والنهب لإقامة أودهم. وبمرور الزمن أصبح اصطلاح الزواويل اصطلاحاً اجتماعياً أكثر من كونه عنصرياً يدل على العرب «الضعفاء» والمعدمين وخاصة القيسية منهم.

(١) إن لورود كلمة جند خراسان هنا دلالة تاريخية كبرى، وهي تؤيد ما ذهبنا إليه من رفض فكرة أن الفرس ناصررو المأمون والعرب ناصررو الأمين، وأن كلمة «الخراسانيون» تعني الفرس. فإذا كان الخراسانيون فرساً ناصررو المأمون، فهذا هو الطبري يخبرنا بأن بين مناصري الأمين جنداً خراسانيين، فالأمون والأمين يستويان في مناصرة الخراسانيين لهم. فإذا كان المقصود بالخراسانيين هم الفرس فالفرس مع الفريقين، وإذا كان المقصود بالخراسانيين (عرب خراسان) - وهو ما نذهب إليه - فهم أيضاً مع الفريقين.

لم تكن فرساً أو جواداً لأن هذين لا يعبر عنهما بالدابة . وصار الاقتتال على من هو أحق بهذه الدابة، الزواقيلي أم الخراساني!!

وإذا كان النزاع على الخلافة وعلى من هو أحق بها يستحق أن تجرد في سبيله السيوف وتجري الدماء، فإن هذا التجمع الكبير قد رأى أن النزاع على الدابة وعلى من هو أحق بها يستحق أيضاً أن تجرد في سبيله السيوف وتجري الدماء!

فبعد التلاطم والتضارب بالأيدي، استعد الأبناء وتهيؤوا وأتوا الزواقيل وهم غازون فوضعوا فيهم السيوف فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وذبحوهم في رحالهم . وتنادى الزواقيل فركبوا خيولهم ولبسوا أسلحتهم ونشبت الحرب بين الفريقين! .

ولترك الآن، مؤقتاً، الزواقيل وخصومهم في حربهم، ونتوجه إلى كلام الطبري، فهو في كلامه الأول يجعل الأعراب في مقابل الزواقيل، أما هنا فهو يجعل الأبناء في مقابل الزواقيل . وقد مر معنا فيما تقدم من الكلام ما المقصود بالأبناء، وهكذا يزداد في ذهننا غموض المقصود بالزواقيل، وسيزداد هذا الغموض بعد كلام يأتي .

عذراً من القارئ إذا شغلنا الخوض في معاني الكلمات عن الخائضين في الدماء فهنا نحن لا نطيل في خوضنا لنعود إلى المطيلين في خوضهم .

لقد كان الضائع الأكبر في هذا المعمعان هو عبد الملك بن صالح، فهذا الرجل الذي أوهم الأمين بما أوهمه، ومناه النصر بجموع أهل الشام، وهذا الذي أوهم نفسه ومناها قبل أن يوهم الأمين ويمنيه، هذا الرجل وجد نفسه فجأة أمام مشكل الدابة، بعد أن كان أمام مشكل الخلافة، وبعد أن كان جهده منصباً على التفكير بجمع هذه الجموع صار الآن منصباً على التفكير بتفريقها بعضها عن بعض .

فحسب أنه كما وفق في جمعها فسوفق في تفريقها فبادر بإرسال رسول إلى المتقاتلين يأمرهم بالكف ووضع السلاح!

لقد ظن أنه - وهو الذي جمعهم - قد أصبح الأمر الناهي فيهم، ولكنهم لما اجتمعوا إليه إنما اجتمعوا طمعاً بما فيه يديه من مال، وقد حازوا هذا المال . أما الآن فما دام ليس وراء تنفيذ أمره إلا الهواء، فقد كان أثر أمره عليهم أن قذفوا رسوله بالحجارة ومضوا في اقتتالهم يومهم ذلك قتالاً شديداً . وأكثر الأبناء القتل في الزواقيل .

وهل أطرف وأفجع في وقت واحد من النهاية التي انتهى إليها عبد الملك، هذا المعد

نفسه ليقدف المأمون عن عرش الخلافة، إذا بالذين أعدمهم لتولي هذا القذف يقذفون رسوله بالحجارة!

وسنرى في توالي الحوادث أنها انقلبت في سيرها طرائف ممزوجة بالفجائع! وعبد الملك الذي كان يعتبر نفسه حتى الآن أمير الفريقين إذا بالأحداث تدفعه دفعاً للانحياز إلى أحدهما على الآخر.

ويضطرب علينا فهم حقيقة ما يقصد الطبري حين يقول عن عبد الملك: وأكثرت الأبناء القتل في الزواويل، فأخبر عبد الملك بكثرة من قتل، وكان مريضاً مدنفاً فضرب بيده على يد ثم قال: واذلاه تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها، فغضب من كان أمسك عن الشر من الأبناء.

إن ما يفهم من كلمة الطبري هذا أن عبد الملك غضب لكثرة من قتل الأبناء من الزواويل فقال ما قال، فهل كان الزواويل عربياً؟ وهل كان ما ذهبنا إليه من قبل أن المقصود بـ«الأبناء» هنا هم أبناء من قاموا بالدعوة العباسية كان خطأ... وأن المقصود به هم السلالة التي ولدت باليمن من الفرس الذين أرسلهم كسرى الأول أنوشروان لنجدة سيف بن ذي يزن على الأحباش.

هذا ما يفهم من غضب عبد الملك وصراخه: واذلاه، تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها، وغضب من أمسك عن الشر من الأبناء وانتصروا لجماعتهم كما سنرى.

إن في هذا دلالات عديدة منها أن ذلك الزمن الطويل الذي مضى على تلك السلالة الفارسية في اليمن وتوالدها جيلاً بعد جيل لم يجعلها تندمج في الوسط العربي فتعرب، بل ظلت معروفة بفارسياتها، ومنها مشاركتها مشاركة فعالة في الأحداث الإسلامية لا سيما العربية منها، وهجرتها من اليمن هجرة جماعية نظير الهجرة العربية للمشاركة في الفتوح وغير الفتوح مما يقتضي قتالاً.

لقد غضب الفريق المحايد من الأبناء من تعصب عبد الملك للزواويل وجعلهم يتخلون عن حيادهم، وجعل الأمر يتفاقم. فتجمع الزواويل بالرقعة. ويقول الطبري: «واجتمع الأبناء وأهل خراسان بالرافقة»^(١).

(١) الرافقة: يقول في معجم البلدان: الرافقة بلد متصل البناء بالرقعة وهما على ضفة الفرات وبينهما مقدار ثلاثمائة ذراع، ولها برض بينها وبين الرقة وبه أسواقها. ويقول الطبري: هكذا كانت أولاً، أما الآن فإن الرقة خربت وغلب اسمها على الرافقة وصار اسم المدينة الرقة.

وهنا نعود إلى التساؤل عن المقصود بأهل خراسان في هذا الكلام؟ فإذا كان المقصود به الفرس، وهو الأرجح، لانضمامهم إلى الأبناء، سلالة الفرس، فمعنى ذلك - كما كررنا القول - أن الفرس انقسموا كالعرب بين المأمون والأمين، وأن الزعم بأن الفرس كانوا نصراء المأمون، كما كان العرب نصراء الأمين، هو زعم باطل.

وعندما تكامل الانقسام في الرقة والرافقة وصار الناس بين زواويل وأبناء، وبدت طلائع الحرب بينهم، وكما نسوا من قبل الخلافة التي اجتمعوا من أجل تقرير مصيرها، واستعاضوا عنها بالدابة، نسوا الدابة، وكما أنه لم يعد يذكر الخلافة ذاك كذلك لم يعد يذكر الدابة ذاك، ولا ندري لمن استقر ملك الدابة هل للخراساني أم للزوايلي!!؟

أقول: عندما تكامل الانقسام وبدت طلائع الحرب، بدأت تظهر خفايا النفوس، فقام رجل من أهل حمص موجهاً كلامه إلى أبناء مدينته قائلاً:

يا أهل حمص: الهرب أهون من العطب، والموت أهون من الذل. إنكم بعدتم عن بلادكم وخرجتم من أقاليمكم ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة، ألا وفي الشر وقعتم وإلى حومة الموت أنختم. إن المنايا في شوارب المسودة وقلانسهم. النفير قبل أن ينقطع السبيل وينزل الأمر الجليل ويفوت المطلب ويعسر المذهب ويبعد العمل ويقترّب الأجل.

لقد بين هذا الخطيب البليغ الحكيم حقيقة ما كان يرجوه أهل الشام من الاستجابة لعبد الملك، فهم بعد أن انتقل مركز الخلافة من بلادهم، وأصبحت بلادهم مجرد أقليم تابع للعراق، ولم تعد لهم مشاركة في الحكم، أملوا بانتصارهم للأمين أن تكون لهم مكائهم في مراكز السلطة، ولكن هذا الحمصي الذكي أدرك، بعد أن رأى ما رأى، أن لا أمل في شيء مما توقعوه. لذلك نراه يقول إنهم خرجوا يرجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة. ثم يقول: في الشر وقعتم وإلى حومة الموت أنختم، ثم يطلب إليهم الرجوع إلى بلادهم.

وبعد الخطيب الحمصي قام شاعر كلبّي في غرز ناقته وأنشد:

شؤبوب حرب خاب من يصلها قد شرّعت فرسانها قناها

فأورد الله لظى لظاهما إن غمرت كلب بها لحاهما

ثم أثار فيهم إقليميتهم، وذكرهم بانكساراتهم أمام الجيوش العباسية قائلاً: يا معشر كلب! إنها الراية السوداء والله ما ولت ولا عدلت ولا ذلّ نصرها ولا ضعف وليها، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم وآثار أستهم في صدوركم، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم وتخطّوه قبل أن يضطرم، شامكم داركم داركم، الموت الفلسطيني خير من العيش

الجزري، ألا وإني راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معي، ثم سار، وسار معه عامة أهل الشام.

وهنا نعود إلى التساؤل عن الحقيقة التي ينتمي إليها المتقاتلون، فهذا الخطيب الكلبي الذي يبدو أن قبيلته كانت تنزل فلسطين يرى أن الموت في فلسطين، خير من العيش في الجزيرة.

ورأينا عبدالملك من قبل يغضب للزواويل أهل الجزيرة لأنهم عرب. فهل بلغ الأمر بالعرب يومذاك أن يكونوا إقليميين إلى الحد الذي يكره فيه العربي الفلسطيني العربي الجزري ودرجة يرى فيها أن الموت بين العرب الفلسطينيين أفضل من الحياة مع العرب الجزريين. ثم أن يعلن هذا العربي الكلبي للشاميين أن الشام وحدها دارهم لا دار لهم سواها، فلا الجزيرة، وهي العربية دارهم ولا العراق العربي دارهم.

ثم يزداد الأمر تشعباً حين نرى أنه بعد أن أخذت الأمور تشتد، جاء رجل من تغلب إلى مالك بن طوق، فقال له: ألا ترى ما لقيت العرب من هؤلاء، انهض فإن مثلك لا يقعد عن هذا الأمر، قد مدّ أهل الجزيرة أعينهم إليك وأملوا عونك ونصرك.

وهكذا يبدو أن الزواويل الذين يكرههم ويكره بلدهم ذلك العربي الفلسطيني الكلبي هم عرب صرحاء ثم يزداد الأمر وضوحاً حين يرفض مالك بن طوق التدخل فيجيب التغلبي الذي دعا إلى نصرته العرب الزواويل قائلاً: والله ما أنا من قيسها ولا يمنها ولا كنت في أول هذا الأمر لأشهد آخره، وإني لأشدّ إبقاء على قومي وأنظر لعشيرتي من أن أعرضهم للهلاك بسبب هؤلاء السفهاء من الجند وجهال قيس، وما أرى السلامة إلا في الاعتزال.

وهكذا عرفنا أن الزواويل أهل الجزيرة هم عرب من قيس.

واشتعلت الحرب بين الزواويل القيسيين وبين الأبناء، وقاد الزواويل نصر بن شيبث فأقبل على فرس كميث أغر عليه دراعة سوداء قد ربطها خلف ظهره وفي يده رمح وترس وهو يقول:

فرسان قيس اصمدنّ للموت لا تُرهبني عن لقاء الفوت

دعي التنحي بعسى وليث

ثم حمل هو وأصحابه فقاتل قتالاً شديداً فصبر له من يسميهم الطبري هنا «الجند» وهم ممن كانوا قد قدموا مع عبد الملك من بغداد مع من قدم معه من الأبناء وكثر القتل في

الزواقل حتى انهزموا وكانت قيادتهم مؤلفة من كل من القادة العرب نصر بن شبيب وعمر السلمي والعياش بن زفر .

أما عبد الملك الذي تركناه مريضاً دنفاً، غاضباً للزواقل، فقد مات في مرضه .
هكذا كانت نهاية الأمل العريض الذي علقه الأمين على دعوة الشاميين لنصرته، وقد أراح الموت عبد الملك من العودة إلى الأمين حاملاً خبر الخيبة!

اضطرابات في بغداد

الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، هو ابن القائد الذي مر ذكره والذي كان قائد أول جيش أرسله الأمين لإخضاع المأمون فانهى الأمر بهزيمة الجيش وقتل قائده كما مر .
الحسين هذا هو الذي قام بأمر الأبناء في قتالهم مع الزواقل، ولما تمت الهزيمة على الزواقل صار هو الأبرز في قيادة من قدموا من بغداد من الجند وغيرهم بقيادة عبد الملك، وبعد أن صار الأمر إلى ما صار إليه وفشل مشروع حملة الشام بتلك الصورة المأساوية الدامية، نادى الحسين في الجند للعودة إلى بغداد، وذلك في شهر رجب من سنة ١٩٦هـ، فلما وصلها أعلن تمرده على الأمين ونادى بنخلعه وخطب بالجموع التي اجتمعت عليه من الأبناء ذاماً للأمين قائلاً فيه في بعض ما قال: إن طالبت به مدة وراجعه من أمره قوة ليرجعن وبال ذلك عليكم وليعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم وضعوا عزه قبل أن يضع عزكم فوالله لا ينصره ناصر إلا خُذِل ولا يمنعه مانع إلا قتل . . . إلى آخر ما قال .

والحسين هذا هو الصورة الواضحة للبشر في كل زمان . لم ينفخ الأمين عنده أن ولى أباه قيادة أكبر سيره، ولا ما أغدقه على أبيه من خير كثير . ولم يستفزه أن أباه قتل بأيدي أجناد المأمون، وأن ثأره هناك عند المأمون وأجناده، بل فكر فرأى أن أمر الأمين في إدبار، وأمر المأمون في إقبال، فليوطد شأنه عند المقبل عليهم الدهر، وليفز لديهم باليد البيضاء مهما كان في ذلك من عقوق وجحود وغدر!

مضى الحسين هذا بمن استجاب له عازمين على خلع الأمين بالقوة، فاصطدموا بنخيل من خيول الأمين من الأعراب وغيرهم فاقتتلوا قتالاً شديداً وطال النهار، ثم استطاع الحسين ومن معه هزيمتهم واعتقد أن الأمر تم له . فأقدم في الحادي عشر من رجب سنة ١٩٦هـ على إعلان خلع الأمين فدخل عليه فأخرجه من قصر الخلد إلى قصر أبي جعفر فحبسه هناك إلى صلاة الظهر، ثم ساقه مع أمه إلى المدينة .

وفي الصباح انتشر الخبر وكان للأمين أنصاره فماج الناس بعضهم في بعض، وقام محمد بن أبي خالد بباب الشام مستنكراً ما جرى وتوجه إلى الناس قائلاً: بأي سبب يتأمر الحسين بن علي بن عيسى علينا، ويتولى الأمر دوننا، ما هو أكبرنا سناً ولا أكرمنا حسباً ولا أعظمتنا منزلة، وإن فينا من لا يرضى بالدنية ولا يقاد بالمخادعة. وإني أولكم نقض عهده وأظهر التعبير عليه والإنكار لفعله، فمن كان رأيه رأبي فليعتزل معي.

ثم قام أسد الحربي فقال: يا معشر الحرية: هذا يوم له ما بعده، إنكم قد نتمتم وطال نومكم وتأخرتم فقدم عليكم غيركم، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسرهم، فاذهبوا بذكر فكه وإطلاقه.

ونحن لا نرى في هذين القولين مجرد إخلاص لمحمد الأمين، بل إن هذا الإخلاص يمازجه الكثير من المنافسة بين الحسين بن علي بن عيسى وبين قائليهما، فهما يتقمان عليه تفرده بالأمر، وينكران عليه تصدده دونهما، ولا يريان له ميزة تجعله صاحب الرأي الحاسم في هذا الموضوع.

وإذا كان الأول منهما يتحدث بدوافعه الشخصية، ولا يخاطب جماعة بعينها، فإن الثاني تكلم بدوافع قبلية وخاطب عشيرته، (الحربية).

ولا ذكر في كلا القولين للأمين، ولا إشادة به، ولا استنكار لخلعه ولا دعوة لنصرته. بل إن كل ما فيهما هو حسد للحسين بن علي، وغضب على ما صار إليه هو وجماعته من النفوذ والسلطة.

على أن هذا لم يكن موقف الجميع، فإن شيخاً كبيراً محنكاً أقبل على فرسه وخاطب الجمهور المجتمع مخاطبة بعيدة عن الأنانية الشخصية والقبلية، وناقش الموقف مناقشة موضوعية بحثة، وشرح الأمر للناس شرحاً منطقياً.

ويظهر أن البلبله قد وقعت بين الناس المحتشدين نتيجة القولين السابقين، وتعالى صياحهم وضجيجهم، وكثر أخذهم وردهم، فصاح الشيخ بهم: اسكتوا، فسكتوا، فقال: أيها الناس هل تعتدون على محمد بقطع منه لأرزاقكم؟

فقالوا: لا.

قال: فهل قصر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم؟

قالوا: ما علمنا.

قال: فهل عزل أحداً من قوادكم؟

قالوا: معاذ الله أن يكون فعل ذلك.

وهكذا فإن هذا الشيخ قد طرح الأمر على الجمهور لا طرحاً شخصياً ولا عشائرياً، بل واجه الجمهور بما فيه مصلحة هذا الجمهور، وتساءل عما إذا كان الأمين قد مس هذه المصلحة. وأسأء إلى حياة الناس ومعايشهم، أو أضر بالقيادات التي ارتضوها لأنفسهم.

ومن هنا كان الإصغاء لكلام الشيخ والتمعن فيه.

ولما أجاب الناس الشيخ بما أجابوا، قال:

فما بالكم خذلتموه وأعتتم عدوه على اضطهاده وأسرته!؟

وأردف ذلك بقوله محذراً مما يجر سوء مصير الأمين من فتن يكون الشعب ضحيتها:

والله ما قتل قوم خليفتهم قط إلا سلط الله عليهم السيف القاتل والحتف الجارف . . .

ثم صاح بهم: انهضوا إلى خليفتمكم ودافعوا عنه وقاتلوا من أراد خلعه والفتك به.

فاستجاب الناس له. ويهمننا هنا أن نشير إلى ما ذكره الطبري من أن المستجيبين كانوا نوعين من الناس، النوع الأول كانت استجابته عشائرية، وهم الحربية الذين كانت استجابتهم في الحقيقة لأمرهم أسد الحربي قبل أن تكون للشيخ الخطيب؛ أما النوع الثاني فقد عبر عنه الطبري بقوله: «ونهضت الحربية ونهض معهم عامة أهل الأرباض» والمقصود بالأرباض هنا: الضواحي.

وفي هذا دلالة بعيدة المغزى، وتسجيل لمواقف الرأي العام من الأحداث المصيرية،

وهذا التسجيل هو الذي كان يهمله مؤرخونا الأقدمون، وبذلك لم يكن تاريخنا المسجل في معظمه هو تاريخ الشعب.

على أن كلمة عابرة مثل هذه الكلمة تعرفنا على الكثير مما نود التعرف عليه. إن قول

الطبري أن الناهضين لنصرة الأمين هم عامة أهل الأرباض، يدل دلالة واضحة على أن أهل المدينة، (بغداد)، لم يكونوا معينين بما يجري، وأن الأحداث، على ضخامتها لم تكن تثير اهتمامهم أو تؤلب جمعهم.

فهم منصرفون إلى تجارتهم ومعايشهم لا يبالون إلى من يصير الحكم، ولا بمن يتولى

الخلافة. فالتجمعون المستعدون للانضمام إلى أحد الفريقين، والذين أصغوا إلى الخطباء

الثلاثة هم أهل الأرباض، وهم الذين اقتنعوا أخيراً بصواب ما دعاهم إليه الشيخ الخطيب، فنهضوا بعامتهم إلى القتال مع الأمين.

وأهل الأرباض هم في أغلبهم فلاحون، ومن لم يكن فلاحاً فهو من ذوي الدخل المحدود. وهذه الطبقة من الناس، فلاحين وذوي دخل محدود، هي المتأثر بمجرى الأحداث سعادة أو شقاء. فلا عجب أن نراهم مجتمعين لتوقع ما يحدث، متألبين لمناصرة من يرون في مناصرته مصلحتهم.

فلما اقتنعوا بكلام الشيخ الخطيب لبوا دعوته وأعلنوا انضمامهم إلى من يقاوم دفاعاً عن خلافة الأمين.

وهؤلاء لم يكن لهم زعامة تقودهم ورياسة يمشون وراءها وإنما هم جمهور شعبي مؤلف من فرقاء شتى من الناس.

ولما كان الشيخ الخطيب لم يتصد للقيادة، وكان الخطيب الأول محمد بن أبي خالد لم يكن ذا جماعة - كما يبدو من كلامه - فهو لم يتكلم إلا عن نفسه ولم يخاطب قوماً بعينهم. وكان الخطيب الثاني أسد الحربي هو وحده صاحب جماعة خاطبها واستفز شعورها، فمشت بقيادته التي كانت القيادة الوحيدة الموجودة في الساحة فاستقطب جمهور الأرباضيين وغير الأرباضيين من المشاركين في التجمهر، وغدا أسد الحربي زعيم الحركة المضادة لحركة الحسين بن علي بن عيسى، فتصدى له، واصطدم الفريقان في قتال عنيف استمر من ارتفاع النهار إلى انكسار الشمس وانتهى بظفر الحركة المضادة وأسر الحسين بن علي بن عيسى، فأسر أسد الحربي فدخل على الأمين فكسر قيوده وأقعده في مجلس الخلافة.

وسيق الأسير الحسين إلى الأمين فأثبه وذكره بأيديه على أبيه، فاعترف بذلك وطلب العفو، فأعلن الأمين عفو عنه، وزاد على ذلك بأن دعاه إلى أن يثار لأبيه بالذهاب والياً على حلوان وما وراءها. وهكذا رفع منزلته وأعادته إلى مركز القيادة.

والواقع أن المؤرخ يحار في تفسير تصرف الأمين مع هذا الذي خان عهده وألب الناس عليه وأعلن خلعه وسجنه وأهانته!

أكان الباعث على ذلك تشتت فكر الأمين بحيث أصبح لا يدري ما يفعل، أم شعوره بقلة الأعوان فأراد أن يستزيد منهم حتى ولو كانوا ممن جربهم فبان كفرانهم للنعم ونكرانهم للجميل وغدرهم وخيانتهم، متوهماً أن تذكيره للحسين بن علي بن عيسى بثار أبيه سيثير حفيظته على من قتلوا أباه فيذهب لقتالهم.

مهما كانت العوامل التي دفعت الأمين إلى هذا التصرف فهي تدل على الضياع النفسي الذي كان يعيش فيه الأمين في تلك الفترة الحرجة من حياته، وعلى انعدام القيادة الاستشارية الحكيمة التي تخطط وتشير وتوجه. ويبدو أنه منذ انسحاب الفضل بن الربيع وإيثاره العزلة - بعد أن ورّط الأمين بما ورطه به - لم يجرؤ أحد من أصحاب الفكر والرأي أن يشارك في تحمل مسؤولية قيادة وضع كان يسير من تدهور إلى تدهور، ولم يوجد من هذه الطبقة من يرى أن القضية قضيتها لا من وجهة شخصية ولا من وجهة عامة ليغامر في نصرتها حتى الاستشهاد.

والحسين هذا الذي عامله الأمين هذه المعاملة رجع إلى حقيقته فلم يلبث أن وقف على باب الجسر، ثم هرب في جماعة من خدمه ومواليه، فأمر الأمين باللحاق به فلحقته الخيل وأدركته فأبدى شجاعة وثباتاً فائقين، ثم عثر به فرسه فسقط فابتدره مطاردوه طعناً وضرباً، وأخذوا رأسه، وكان ذلك على بعد فرسخ من بغداد.

ولم تتجاوز سيطرة الحسين على بغداد أكثر من أربعة أيام، منها يومان قضاهما الأمين مسجوناً. على أن الغريب في الأمر هو ظهور اسم الفضل بن الربيع فجأة لأول مرة بعد ذلك الغياب الطويل. فالطبري يقول: وفي الليلة التي قتل فيها حسين بن علي هرب الفضل بن الربيع!

فأين كان الفضل، وهو الذي لم يكن له أي تحرك في الأحداث الماضية؟ ومن أين هرب وإلى أين هرب؟ ولماذا هرب بعد قتل حسين؟

لم يشر الطبري أية إشارة إلى ما ينير لنا الإجابة على هذه الأسئلة فعلياً أن نستنتج استنتاجاً... إن هربه بمجرد قتل حسين بن علي بن عيسى، يدل على أنه كان ينتظر بعد هذا القتل عقاباً هرب منه. ولماذا ينتظر هذا العقاب إذا لم يكن شريكاً لحسين في تصرفاته؟ فهل يمكن أن يكون هو الذي زين لحسين أن يفعل ما فعل، وأن يكون شاركة في تدبير ما دبر من خلع الأمين وسجنه والبيعة للمأمون، اعتقاداً منه بإمكان نجاح هذا التدبير، والقضاء نهائياً على الأمين، وأن يتخذ من هذه المشاركة وسيلة تقربه من المأمون تجعله ينسى الماضي ويكافئه على الحاضر، وأنه بعد فشل حسين وقتله خاف الأمين فهرب؟!!

إن معرفتنا بأخلاق الفضل تجعلنا لا نستغرب صدور أي شيء منه، وأن لا نستبعد أبداً غدره بالأمين محاولة منه للتقرب من المأمون!

لقد كان كل شيء مهياً لنجاح انقلاب حسين بن علي بن عيسى، فالقوة الوحيدة التي كانت تملكها الدولة هي القوة التي عاد بها حسين من الرقة والمؤلفة من الجند والأبناء، وهي نفسها التي ثار بها قائدها حسين على الدولة وأعلن خلع الأمين الذي لم يجد من يدافع عنه.

ولم يكن في ظن أحد أنه يمكن تجميع قوة شعبية ذات قيادة موحدة تستطيع التغلب على قوة حسين، وقد رأينا أنه لا أسد الحربي ولا محمد بن أبي خالد استطاعا أن يقنعا الجمهور الشعبي المحتشد بتأييدهما لمقاومة تسلط حسين. ولولا الشيخ الخطيب لما اتفقت الكلمة على الانقلاب المضاد لانقلاب حسين بن علي، ولولا وجود أسد الحربي بجماعته لما أمكن إيجاد قيادة يجتمع عليها الجمهور.

إذاً، فانتصار حسين كان شبه مؤكد، لذلك لا نستبعد أن يكون للفضل بن الربيع يد في تدبير أمر انقلاب حسين.

التقدم إلى بغداد

اتخذ طاهر بن الحسين خطة جديدة هي تقطيع أوصال دولة الأمين لإضعاف مركزيته واستفرادها، وكان قد تم من قبل الاستيلاء على قزوين وضمها إلى دولة المأمون. فأرسل طاهر حملة إلى الأهواز وسار هو في أثرها فتم الاستيلاء عليها، وأقام فيها طاهر وبعث عماله إلى توابعها، كما ولّى على اليمامة والبحرين وعمان، ثم اتجه إلى واسط، فكان كلما تقدم يفر أمامه حكام المقاطعات فيتقدم بدون مقاومة، حتى قرب من واسط وكان عليها السندي بن يحيى الحرشي والهيثم بن شعبة فحاولوا الإعداد للمقاومة والدفاع عنها، ولكنهما كانا منهارين نفسياً. ومن طريف ما يرويه الطبري أن الهيثم أمر صاحب مراكبه أن يسرح له دوابه فقرب إليه فرساً، وكانت أمامه عدة أفراس، فرأى المراكبي التغير والفرع في وجهه، فقال له إن أردت الهرب فعليك بهذه فإنها أبسط في الركض وأقوى على السفر، فضحك الهيثم، وقال: قدم فرس الهرب، فإنه طاهر ولا عار علينا في الهرب منه.

وبذلك فقد كان الإعداد للمقاومة هو إعداد للهرب، فتركا واسطاً وهربا عنها، فدخلها طاهر.

وهكذا نرى أن الانهيار النفسي كان عاماً في الدولة ابتداء من العاصمة وصولاً إلى الأطراف البعيدة.

ثم أرسل طاهر إلى فم الصلح من احتلها، ثم خطا خطوة كبرى فأرسل أحد قواده إلى

الكوفة لاحتلالها، وكان عليها العباس بن موسى الهادي، فلما بلغه توجه الجيش إلى الكوفة خلع الأمين وكتب بطاعته إلى طاهر وبيعه للمأمون، ونزلت خيل طاهر فم النيل. وغلب طاهر على ما بين الكوفة وواسط.

واتسع الأمر فكتب المنصور بن المهدي، وكان والياً للأمين على البصرة، إلى طاهر بطاعته، وكذلك بايع والي الموصل للمأمون، وهكذا تم استصفاة كبريات المدن العراقية وما يليها من مدن ومقاطعات.

ولما بلغ الأمين ما جرى في الكوفة حاول تدارك الأمر فأرسل حملة عسكرية لإنقاذ الموقف، فتلقتها في الطريق حملة لطاهر، فاقتلت الحملتان اقتتالاً شديداً انتهى بانتهزام الحملة البغدادية.

فوجه الأمين حملة أخرى كان مصيرها الهزيمة، ثم عزم طاهر على التوجه لاحتلال المدائن وكان فيها جند كثير من خيول الأمين يتولى قيادتهم البرمكي كما يسميه الطبري. وقد تحصن بها وكانت الإمدادات متواصلة إليه، ولا بد هنا من أن نذكر كلام الطبري بنصه لنرى كيف كانت عليه الحالة النفسية العامة.

يقول الطبري: «فلما قرب طاهر من المدائن وكان منها على رأس فرسخين نزل فصلى ركعتين وسبح فأكثر التسبيح، فقال: اللهم إنا نسألك نصراً كنصرك المسلمين يوم المدائن. ثم سیر مقدمته، وسار بعدها فلما سمع أصحاب البرمكي صوت طوله أسرجوا الدواب وأخذوا في تعبيتهم، وجعل من في أوائل الناس ينضم إلى أواخرهم. وأخذ البرمكي في تسوية الصفوف، فكلما سوى صفاً انتقض واضطرب عليه أمرهم. فقال: اللهم إنا نعوذ بك من الخذلان. ثم التفت إلى صاحب ساقته فقال: خلّ سبيل الناس فإني أرى جنداً لا خير عندهم، فركب بعضهم بعضاً نحو بغداد».

وهكذا سلمت المدائن بدون قتال، وهي التي «كان فيها جند من خيول الأمين كانت الإمدادات تتوالى إليهم» كما ذكرنا من قبل.

وتقدم طاهر فنزل المدائن، وبنزوله المدائن أصبحت بغداد في شبه حصار.

ويصعب علينا، وبيننا وبين تلك الأحداث تطاول الأزمان، أن نعلل هذا الانهيار العام الذي أصاب مملكة الأمين. وقل أن تصاب أمة من الأمم بمثل ما أصيبت به الأمة المنسوبة يومذاك إلى الأمين. فهذا الجيش الكبير المرابط في المدائن الموصول بالإمدادات المتوالية

عليه من بغداد القريبة لا يكاد يسمع دقات طبول جيش طاهر حتى يصاب بالهلع ثم تتقوض صفوفه قبل أن يطلق عليها أي سهم أو يشهر عليها أي سيف، ثم يركب بعضه بعضاً هرباً إلى بغداد! . . .

وقد قيل هذا القول في كل مكان كانت فيه جيوش الأمين، فمنذ تحرك طاهر من حلوان على حدود العراق حتى وصل إلى أطراف بغداد (المدائن)، ثم امتداداً إلى شمال العراق إلى الموصل، فألى جنوب العراق إلى البصرة فألى وسط العراق إلى الكوفة، كان الاستسلام عاماً شاملاً، فإذا كان صوت طبول جيش طاهر قد هزم جيش المدائن فاستسلمت، فإن سماع أخبار هذا الجيش كان كافياً لاستسلام المدن الأخرى.

بيعة المأمون في الحرمين واليمن

وتوالت الفجائع على الأمين فإن واليه على مكة قريبه العباسي انتقض عليه غضباً لغدره بأخيه المأمون ونقضه عهد أبيه الرشيد. إذ لما بلغ والي مكة داود بن عيسى خلع الأمين لأخيه المأمون، وكان الأمين قد كتب إليه يأمره بخلع المأمون والبيعة لابنه موسى. كما كان الأمين قد بعث إلى مكة من أخذ الكتابين اللذين كتبهما الرشيد وعلقهما في الكعبة. ويجب أن لا ننسى أن أخبار انتصارات طاهر قد وصلت إلى مسامع داود.

لقد عزم والي الأمين على مكة داود بن عيسى على بيعة المأمون فجمع حجة الكعبة والقرشيين والفقهاء ومن كان شهد على ما في الكتابين من اليهود، وكان داود أحدهم، وقال لهم: قد علمتهم ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق عند بيت الله الحرام حين بايعنا لابنائه لتكون مع المظلوم منهما على الظالم ومع المبغي عليه على الباغي ومع المغدور به على الغادر، فقد رأينا ورأيتم أن محمداً قد بدأ بالظلم والبغي والغدر على أخويه، عبد الله المأمون والقاسم المؤتمن وخلعهما وبايع لابنه الطفل وهو رضيع صغير لم يفظم واستخرج الشرطين من الكعبة عاصياً فحرقهما بالنار. وقد رأيت خلعه وأن أباع لعبد الله المأمون بالخلافة إذ كان مظلوماً مبيعاً عليه.

فقال له أهل مكة: رأينا تبع لرأيك ونحن خالعه معك. فوعدهم صلاة الظهر، وأرسل في فجاج مكة صائحاً يصيح: الصلاة جامعة. فلما جاء وقت صلاة الظهر خرج داود بن عيسى فصلى بالناس صلاة الظهر، وقد وضع له المنبر بين الركن والمقام فصعد فجلس عليه، وأمر بوجوه الناس وأشرافهم فقربوا من المنبر. وكان داود خطيباً فصيحاً جهير الصوت، فلما اجتمع الناس قام خطيباً فقال:

الحمد لله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالدين وختم به النبيين وجعله رحمة للعالمين صلى الله عليه في الأولين والآخرين. أما بعد يا أهل مكة فأنتم الأصل والفرع والعشيرة والأسرة والشركاء في النعمة، إلى بلدكم نفذ وفد الله وإلى قبلكم يأتي المسلمون، وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هارون رحمة الله عليه وصلاته حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق لتنصرون المظلوم منهما على الظالم والمبغى عليه على الباغي والمغذور به على الغادر. ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هارون قد بدأ بالظلم والبغي والغدر وخالف الشروط التي أعطاهها من نفسه في بطن بيت الله الحرام، وقد حلّ لنا ولكم خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغى عليه المغذور به. ألا وأني أشهدكم أنني قد خلعت محمد بن هارون من الخلافة كما خلعت قلسوتي هذه من رأسي.

وخلع قلسوته عن رأسه ورمى بها إلى بعض الخدم تحته وأتى بقلنسوة سوداء هاشمية فلبسها، ثم قال: قد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفتكم. فبايعوه، وظل يتلقى البيعة أياماً.

وكان داود هذا والياً على مكة، وكانت المدينة تابعة لولايته، فكتب إلى خليفته على المدينة يأمره أن يفعل بأهل المدينة مثلما فعل هو بأهل مكة من خلع محمد والبيعة لعبد الله المأمون، فتم له ما أراد.

ثم وجه طاهر والياً من قبله على اليمن، فدعا هذا الوالي أهل اليمن إلى بيعة المأمون، فبايعوا وخلعوا الأمين.

الإطباق على بغداد

أما الحال في بغداد فإن طاهراً أقام على نهر صرصر^(١) أي على بعد فرسخين من بغداد في شبه حالة حصار لبغداد غير مهاجم لها بل راداً لهجمات عليها، وهازماً دائماً لهذه الهجمات التي كانت تحاول إبعاده عن بغداد فلا يتسنى لها ذلك. ويبدو أن الأموال كانت

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: صرصر: قرينتان من سواد بغداد، صرصر العليا وصرصر السفلى، وهما على ضفة نهر عيسى، وربما قيل نهر صرصر فنسب النهر إليهما، وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين.

متوافرة لدى الأمين فكان يغدقها على أنصاره، في حين أن خزائن طاهر كانت قليلة المال، فلا يتسنى له الإنفاق إلا على ما لا بد من الإنفاق عليه من لوازم القتال.

يعتقد الطبري أن ما اشتهر به الأمين من إنفاق الأموال والكسي على الأعوان قد أغرى جماعات من جيش طاهر، فخرج من عسكره نحو من خمسة آلاف رجل من أهل خراسان ومن التف إليهم وانضموا إلى الأمين وأن الأمين سُرّ بهم ووعدهم ومناهم. ولكنني لا أرى رأي الطبري بأن الرغبة في المال قد حملت هذا العدد الوافر على أن ينفصل عن جيش طاهر ويلتحق بجيش بغداد.

لو كان الأمر كما اعتقد الطبري لكان الأمر أمر شراذم محدودة العدد يلتقي أفرادها مصادفة، أما أن ينطلق هذا العدد الضخم المتمي إلى منطقة واحدة هي خراسان - أن ينطلق هذا الانطلاق المنظم في دفعة واحدة فيعلن ولاء للأمين، فإن ذلك لا يمكن أن يكون دافعه الرغبة في نيل العطايا، بل إن وراء فكرة معينة تجمع بين هؤلاء الخمسة الآلاف. وهذا يدلنا على وجود تيارات متباينة في منطقة خراسان، وأن الاتجاه العام هناك لم يكن كله مع المأمون.

ثم إن إشارة الطبري إلى أن هؤلاء المنشقين كانوا من خراسان يجعلنا نتساءل ماذا يعني كون هؤلاء من خراسان بالذات؟

نحن نقول ما قلناه دائماً: إن النسبة إلى خراسان في العصر العباسي وعند قيام الحركة العباسية، لم تكن تعني أن المنسوب هو فارسي، بل كانت تعني أنه من العرب النازلين خراسان، وأن عرب خراسان هم صانعو الثورة على الحكم الأموي، وأنهم كذلك هم الذين كانوا مادة جيوش المأمون، وأن المأمون لم يستند في تحركه على الفرس.

وهذا لا يعني أن فرس خراسان لم يساهموا في الثورة على الأمويين، ولم يشاركوا في نصرة المأمون، بل يعني أن منهم من ناصر هذا الفريق، ومنهم من نصار الفريق الآخر. وهذا الذي نذكره هنا إنما نذكره مجملًا، وقد ذكرناه في مكان آخر مفصلاً مدعوماً بالأدلة التاريخية.

وعلى هذا الرأي فإن هؤلاء الخمسة الآلاف هم من عرب خراسان. ومن لا يؤيد رأينا في هذا ويقول إنهم ما داموا منسوين إلى خراسان فهم فرس، فهو يؤيد رأينا في أن حركة المأمون لم تكن معتمدة على الفرس بل دليل أن خمسة آلاف فارس خراساني انشقوا عن المأمون وانضموا إلى الأمين.

ونعود إلى الحال في بغداد فنرى أن الأمين قد نشط للعمل موجهاً جماعات من رجاله إلى المناطق غير البعيدة عن بغداد لاستنفار أهلها، ويبدو أن انضمام الخمسة الآلاف إليه قد أطعمه في شق آخرين عن جيش طاهر فأرسل دعاة وجواسيس، ومن يغري رؤساء الجند بالترغيب والإطعام، فأحدث ذلك بعض الأثر، ولكنه أثر لم يطل أمره، فبعد صدام مسلح انهزم البغداديون وانتصر الطاهريون.

واستعمل طاهر نفس السلاح فسدس عيونه وجواسيسه ودعاته في صفوف جماعة الأمين مرغبين مثبتين فنجحوا في إحداث الشغب فيهم على الأمين.

ويبدو أن الفوضى عمت بغداد حتى ليصف الطبري الحال بهذا القول: ونقب أهل السجون وخرجوا منها وفتن الناس ووثب على أهل الصلاح الدُّعار والشطار فعز الفاجر وذل المؤمن واحتل الصالح وساءت حال الناس.

ويقول عن الحال في معسكر طاهر: إلا من كان في عسكر طاهر لتفقدته أمرهم وأخذة على أيدي سفهائهم وفساقهم واشتد في ذلك عليهم، وغادى القتال وراوحوه حتى تناول الفريقان وخرت الديار...

وجاء موسم الحج فلم يغفل طاهر عن هذا الأمر فأرسل من قبله من حج بالناس ودعا للمأمون بالخلافة، وهو أول موسم دعي له فيه بالخلافة في مكة والمدينة.

وبدخول سنة ١٩٧هـ تقرر إحكام الحصار على بغداد وتولت هذا الحصار ثلاث قيادات: طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهير بن المسيب، كل واحد منهم بجيشه في ناحية من نواحي العاصمة، وتولى زهير نصب المجانيق والعزادات^(١)، وحفر الخنادق، فكان إذا انشغل طاهر من جانبه بالقتال راح هو يضرب بالعرادات من أقبل ومن أدبر، ويفرض ضرائب على السفن وعلى التجار ويشتط في ذلك مما أثار سخطاً عاماً وحمل الناس على الشكاية منه إلى طاهر.

وكما كان زهير يضرب بالمنجنيق والعرادة ضرباً عشوائياً يُقتل به الناس، كذلك عمد الأمين إلى الإيعاز لجماعته بإطلاق المجانيق والعرادات فكانت تقتل المدبر والمقبل.

ومن أدبيات تلك الفترة الرهيبة ما قيل في حرب المجانيق من الجانبين. فقد قال أحد الشعراء من أبيات:

(١) العرادات: جمع عرادة وهي ما يشبه المنجنيق ولكنها صغيرة.

لا تقرب المنجنيق والحجرا
يا صاحب المنجنيق ما فعلت
وقال آخر:

يا رماة المنجنيق
ما تبالون صديقاً
ويلكم تدرون ما تر
رب خود ذات دل
أخرجت من جوف دنيا
لم تجد من ذلك بدأ

كلكم غير شفيق
كان أو غير صديق
مون مُزار الطريق
وهي كالغصن الوريق
ها ومن عش أنيق
أبرزت يوم الحريق

وتقدم المحاصرون حتى وصلوا أطراف بغداد، ونزل طاهر البستان بباب الأنبار وهو أحد أحياء بغداد، فضاق الأمر على الأمين وعظم ذلك عليه وكان قد نفذ ما لديه من مال فأمر ببيع كل ما في الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم.

وبدأ الانسلاخ من صفوف الأمين، وأخذت قياداته بالتفرق عنه والاستئمان إلى طاهر، وراح كل واحد يسعى إلى مكان في السلطة التي بدأ أنها هي المنتصرة، ولم يرّد طاهر أحداً. وبلغ الأمر بمن كانوا يتولون قيادة المقاتلين في هذا الصف أن يتولوا قيادة المقاتلين في الصف الآخر، فسعيد بن مالك مثلاً الذي كان من أركان فريق الأمين، استأمن إلى طاهر، فأمدّه طاهر بالنفقات والفعلة والسلاح وعهد إليه بحفر الخنادق وحماية الجسور والدفاع والهجوم، فقام بما عهد إليه أحسن قيام، وهو واحد من كثيرين أمثاله.

وكما رافقت الأدبيات حرب المجانيق فقد رافقت الآن ما حل ببغداد بسبب التحارب من خراب وهدم وزوال محاسن فقال أحد الشعراء:

أتسرع الرجلّة إغذاذا
ألم تر الفتنة قد ألفت
وانتقضت بغداد عمرانها
هدماً وحرقاً قد أبيد أهلها
ما أحسن الحالات إن لم تعد

عن جانبي بغداد أم ماذا
إلى أولي الفتنة شذاذا
عن رأي لا ذاك ولا هذا
عقوبة لاذت بمن لاذا
بغداد في القلّة بغداذا

وتوالى الانسلاخ إلى طاهر، ويقول الطبري إن علي فراهمرد الموكل بإحدى مناطق

الدفاع من قبل الأمين كتب إلى طاهر يسأله الأمان ويضمن أن يدفع ما في يده من تلك الناحية إلى الجسور وما فيها من المجانيق والعرادات إليه . فأرسل إليه طاهر مندوباً من قبله فسلم إليه كل ما كان الأمين وكله به .

وهكذا فإن الانسلاخ لم يعد يقتصر على انسلال الشخص بنفسه ، بل تعدى ذلك إلى تسليم ما وُكِّلَ بحفظه بما فيه من سلاح .

على أن الملفت هنا اسم هذا الرجل فهو اسم فارسي ، وذلك يؤكد على انقسام الفرس ، كانقسام العرب ، بين الأمين والمأمون ، وعلى عدم اختصاص الفرس بالمأمون واختصاص العرب بالأمين .

ويتبع استسلام هذا الموظف الكبير ، استسلام موظف أكبر منه وذو موقع حساس في حكومة الأمين ومن كان غير مدهن في أمره وممن قاتل معه في هذا الحصار أحسن قتال ، هو صاحب شرطته محمد عيسى ، ويصفه الطبري بأنه كان مهيباً في الحرب .

وقد كان وقع استسلام هذين الرجلين على الأمين وقعاً شديداً أو هن ما كان قد بقي من عزمه وضعضع ما لم يكن قد تضعضع من بأسه واستسلم للأمر الواقع ، يتوقع ما يكون .

وتتابع الالتحاق بطاهر فمضى إليه أمثال عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي وإخوته وولد الحسن بن قحطبة ويحيى بن علي بن ماهان وملحم بن أبي العاص ، وكاتبه آخرون سراً .

على أن من أسوأ ما جرى هو فقدان هيئة الحكم فانطلق اللصوص والفساق يسلبون الرجال والنساء والضعفاء ، مستبيجين كل محرم . وبدأ من يستطيع الخروج من بغداد يخرج منها طلباً للسلامة والأمن .

وفي الجانب الآخر كان طاهر قد أحكم قبضته وحال دون أي إخلال بالأمن ، وراح يسهل عبور العابرين إليه من بغداد ، فكان من يصل إلى منطقته يجد الحماية والأمن ، وكانت النساء الهاربات اللواتي أحكمن إخفاء ما يحملن من ذهب وفضة أو متاع أو بزّ ، يظهرن ذلك بمجرد عبورهن الحد الفاصل بين الجانبين . وفي ذلك يقول بعض شعراء بغداد :

بَكَيْتُ دَمًا عَلَى بَغْدَادَ لَمَّا فَقَدْتُ غُضَارَةَ الْعَيْشِ الْأَنْيَقِ
تَبَدَّلْنَا هُمُومًا مِنْ سُرُورِ وَمِنْ سَعَةِ تَبَدَّلْنَا بِضِيقِ
أَصَابَتْهَا مِنَ الْحَسَادِ عَيْنٌ فَأَفْنَتَ أَهْلَهَا بِالْمَنْجَنِيقِ

فَقَوْمٌ أَحْرَقُوا بِالنَّارِ قَسْرًا
 وَصَائِحَةٌ تَنَادِي وَاصْبَاحَا
 وَحَوْرَاءُ الْمَدَامِجِ ذَاتُ دَلْ
 تَفْرُ مِنْ الْحَرِيقِ إِلَى انْتِهَابِ
 وَسَالِبَةُ الْغَزَالَةِ مَقَلَّتِيهَا
 حِيَارَى كَالْهَدَايَا مَفَكِرَاتُ
 يُنَادِينَ الشَّفِيقِ وَلَا شَفِيقُ
 وَقَوْمٌ أَخْرَجُوا مِنْ ظِلِّ دُنْيَا
 وَمَفْتَرَبٌ قَرِيبُ الدَّارِ مُلْقَى
 تَوَسَّطَ مِنْ قِتَالِهِمْ جَمِيعًا
 فَلَا وَلَدٌ يَقِيمُ عَلَى أَبِيهِ
 وَمَهْمَا أَنَسَ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى
 وَنَائِحَةٌ تَنْوُحُ عَلَى غَرِيقِ
 وَبَاكِيَةٌ لِفَقْدَانِ الشُّفِيقِ
 مُضْمَخَةٌ الْمَجَاسِدَ بِالْخَلُوقِ
 وَوَالِدُهَا يَفِرُّ إِلَى الْحَرِيقِ
 مَضَاحِكُهَا كِلَالًا لِلْبُرُوقِ
 عَلَيْهِنَّ الْقَلَائِدُ فِي الْحَلُوقِ
 وَقَدْ فَقَدَ الشَّقِيقِ مِنَ الشَّقِيقِ
 مَتَاعُهُمْ يَبَاعُ بِكُلِّ سَوْقِ
 بِلَا رَأْسٍ بِقَارَعَةِ الطَّرِيقِ
 فَمَا يَدْرُونَ مِنْ أَيِّ الْفَرِيقِ
 وَقَدْ هَرَبَ الصَّدِيقُ بِلَا صَدِيقِ
 فَيَأْتِي ذَاكَرُ دَارِ الرَّقِيقِ

حتى هذا الوقت كان حصار طاهر لبغداد حصاراً عسكرياً قتالياً، فلم يمنع وصول الأقوات إليها، ولا حال بين الاستيراد التجاري إليها والتصدير منها. ولما طال الأمر عليه عمد إلى الحصار الغذائي والاقتصادي وأمسك بجميع الطرق الموصلة إليها، فضاقت الحياة وغلّت الأسعار ويش الناس من الفرج.

وكما يكون في كل الأحداث الهامة المصيرية في كل الأوطان، من وجود جماعات لا يبالون بما يحدث، ولا يهمهم أي فريق انتصر وأي فريق انكسر، كذلك كان الأمر يومذاك، عند حصار بغداد وقيام المعارك الدامية، وتداول النصر بين هذا الفريق وبين ذلك الفريق.

لقد كان هناك أفراد لا بل جماعات لا يرون في هذا الصراع بين الأخوين ما يهمهم، وماذا عليهم. إذا انتصر الأمين أو انتصر المأمون، وماذا سيغير انتصار أحدهما وانتهزام الآخر من ظروف حياتهم، فهو ضحايا كل حكم، أيأ كان صاحب هذا الحكم.

وقد كان بين هؤلاء أناس من أطرف من خلق الله، عبروا عن لا مبالاتهم بما نظموه من الشعر الذي وصل إلينا بعضه، وإذا كان الذي وصل إلينا هو أخبار فرد أو أفراد، فلا شك أن ما لم يصل إلينا هو أخبار جماعات منتشرة في كل مكان كانت لا تبالي إلا بأمرها اليومي، وحالها المعاشي.

وفي إحدى الوقعات في هذا الحصار، وهي من الوقعات التي تمشي بالموقف إلى الحسم، والتي وصفها الطبري فيما يصف بقوله:

وقاتل طاهر بباب الكرخ وقصر الواضح فهزم أصحاب محمد الأمين، وردوا على وجوههم، ومر طاهر لا يلوي على أحد حتى دخل قسراً بالسيف وأمر مناديه فنادى بالأمان لمن لزم منزله. ووضع بقصر الواضح وسوق الكرخ والأطراف قواداً وجنداً في كل موضع على قدر حاجته منهم، وقصد إلى مدينة أبي جعفر فأحاط بها وبقصر زبيدة وقصر الخلد من لدن باب الجسر إلى باب خراسان وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة وشاطئ الصراة إلى مصبها في دجلة بالخيول والعدة والسلاح، وثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والهرش والأفارق، فنصب المجانيق خلف السور على المدينة وبإزاء قصر زبيدة وقصر الخلد ورمى، وخرج محمد، (الأمين)، بأمه وولده إلى مدينة أبي جعفر وتفرق عنه عامة جنده وخصيانه وجواريه في السكك والطرق لا يلوي منهم أحد على أحد.

أمام هذا المصير، وانتظار ما يتوقع من وراء ذلك من نتائج خطيرة، أسرع رجل من المهتمين بهذه الأمور المتابعين لها بدقة، الشاغلين بها أفكارهم ليل نهار، أقبل رجل على حلقة فيها الشاعر عمرو الوراق، حاملاً هذه الأنباء الخطيرة، فكان رد فعل عمرو على ما سمع أن قال: ناولني قدحاً وراح ينشئ الشعر قائلاً:

خذها فللخمرة أسماء	لها دواء ولها داء
يصلحها الماء إذا صفقت	يوماً وقد يفسدها الماء
وقائل كانت لهم وقعة	في يومنا هذا وأشياء
فقلت له أنت امرؤ جاهل	فيك عن الخيرات إبطاء
إشرب ودعنا من أحاديثهم	بصطوح الناس إذا شاؤوا

يقول راوي الخبر: ودخل علينا آخر فقال: قاتل فلان وأقدم فلان وانتهب فلان، فكان صدى هذا عند هذا الشاعر الطريف الظريف أن أنشد:

أي دهر نحن فيه	مات فيه الكبراء
هذه السفلة والغو	غاء فينا أمناء
مالنا شيء من الأشياء	إلا ما يشاء
ضجت الأرض وقد ضجت	إلى الله السماء

رفع السدين وقد ها نت على الله الدماء
يا أبا موسى لك الخيرات قد حان اللقاء
هاكها صرفاً عقاراً قد أتاك الندماء

ومن طرائف عمرو هذا أن قال في تلك الأيام:

إذا ما شئت أن تغضب جندياً وتستأمر
فقل يا معشر الأجنأ د قد جاءكم طاهر

على أن هناك طبقة أخرى هي مثل هذه الطبقة لا تبالي - في حقيقة أمرها - أياً غلب، ولكنها تفتقر عن طبقة عمرو الوراق، بأنه ليس لطبقة عمرو ما تخاف عليه، وليكن ما يكون، فالفقر هو الفقر في كلا الحالين والشقاء هو الشقاء.

أما هذه الطبقة الأخرى فإن لها ما تخاف عليه، فهي مع من يحفظ لها مصالحها، ويثبت ثراءها ولا ينتقص من مواردها، فما دامت المصائر غير واضحة لها، فهي غير مبالية بما يحدث، أما حين يلوح لها أن المنفعة مع هذا، فهي مستعدة للانضمام إليه، وترك ذاك الذي كانت تسالمة.

هذه الطبقة هي طبقة التجار، إذ أنهم حين رأوا أن الكفة بدأت تميل لمصلحة طاهر «مشى بعضهم إلى بعض فقالوا يجب أن نكشف أمرنا لطاهر ونظهر له براءتنا من المعونة عليه، فاجتمعوا وكتبوا كتاباً أعلموه فيه أنهم أهل السمع والطاعة، والحب له لما يبلغهم من إيثاره طاعة الله والعمل بالحق والأخذ على يد المريب، وأنهم غير مستحلي النظر إلى الحرب فضلاً عن القتال».

إلى أن ينهوا رسالتهم بقولهم: «وحاش لله أن يحاربك منا أحد».

والواقع أن رسالة هؤلاء التجار لا تقل في طرافتها عن أشعار عمرو الوراق، فهم يريدون من طاهر أن يصدق أن الذين دفعهم إلى تأييده هو ما يبلغهم من إيثاره طاعة الله والعمل بالحق.

على أن هؤلاء التجار لم ينفذوا قرارهم بإرسال الكتاب إلى طاهر، فإن أهل الرأي منهم والحزم قالوا لهم: لا تظنوا أن طاهراً غبي عن هذا وإذكاء العيون فيكم وعليكم حتى كأنه شاهدكم.

ونصحوهم بأن رسالتهم لن يخفى أمرها على من في بغداد، فيخسروا بذلك الفريقين. وهكذا عدلوا عن إرسال الكتاب.

وهذا ما أهاب بهذا الشاعر إلى أن يعتزل الناس وينشغل بنفسه بعد هذه الواقعة التي قال فيها من قصيدة:

لنا كل يوم ثلثة لا نسدها
إذا هدموا داراً أخذنا سقوفها
وإن حرصوا يوماً على الشر جهدهم
فقد ضيقوا من أرضنا كل واسع
يُثيرون بالطبل القنيص فإن بدا
لقد أفسدوا شرق البلاد وغربها
إذا حضروا قالوا بما يعرفونه
وفي نفس الموضوع قال:

الناس في الهدم وفي الانتقال
يا أيها السائل عن شأنهم
قد كان للرحمن تكبيرهم
إطرح بعينيك إلى جمعهم
لم يبق في بغداد إلا امرؤ
لا أم تحمي عن حماها ولا
ليس له مال سوى مطرد
هان على الله فأجرى على
إن صار هذا الأمر إلى واحد
ما بالنا نُقتل من أجلهم

ويبدو جلياً أنه لم يبق في بغداد إلا كل من لا يستطيع الرحيل . أما هذا الشاعر فقد أعلن أنه - مع استطاعته الرحيل - لن يرحل . وهنا بدأ عدم مبالاته بمصائر هذه الحرب، وعدم اهتمامه بما تؤدي إليه من نتائج، فأياً كان الخليفة فإن ذلك لم يعد يعنيه :

ولست بتارك بغداد يوماً
إذا ما العيش ساعدنا فلسنا
ترخّل من ترخّل أو أقاما
نبالي بعد من كان الإماما

الناس هم الناس في كل زمان وكل مكان وكل حدث . . .

وقد ظل عمرو الوراق على طرافته وظرافته مع تتابع المعارك فقال في إحدى تلك

المعارك:

ذهب بهجة بغدا	د وكانت ذات بهجه
فلها في كل يوم	رجة من بعد رجه
ضجت الأرض إلى الله	من المنكر ضجه
أيها المقتول ما أنت	على دين المحجه
ليت شعري ما الذي نلت	وقد أدلجت دلجه
ألى الفردوس وجهت	أم إلى النار توجه
حجر أرداك أم أر	ديت قسراً بالأزجه
إن تكن قاتلت برأ	فعلينا ألف حجه

على أننا نظلم هذا الشاعر إذا اعتبرناه مجرد غير مبال بأحداث وطنه الخطيرة متشاعلاً عنها بحياته الخاصة، فهو لم يكن كذلك في بادئ الأمر ولم يكن هذا من طبيعته، بل رأيناه غير بعيد عن المشاركة فيما يجري، وابعثه بغدادياً كان منحازاً إلى واقع مدينته المحاصرة، منضوياً إلى عهد المدافعين عنها. ولكن لم يلبث أن تبين له أن ليس وراء هذا قضية يخلص المقاتلون لها، وأن كل إنسان يفتش عن مصالحه وما يستطيع أن يجز من مغانم.

فقد حدث في إحدى وقعات الحصار أن كان مصير هذه الواقعة على ظاهر لا له، وكثر في جماعته القتل والجرح، فأمضه ذلك وشق عليه، فقام بحملة هدم وإحراق. ويقول الطبري إنها شملت ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة وأرجاء أبي جعفر وريض حميد ونهر كرخايا والكناسة، وجعل يباين أصحاب محمد (الأمين)، ويُدالجهم ويحوي كل يوم ناحية بعد ناحية ويخندق عليها المراصد من المقاتلة.

والهدم يومذاك لم يكن كما هو اليوم بوضع المتفجرات في قاعدة البناء حيث تنسفه نفساً لا يبقي فيه باقية، بل كان بالمعاول. فعندما كان أصحاب طاهر يهدمون بيتاً ويتعدون عنه، كان أصحاب الأمين يسرعون فينهون ما في البيت. يقول الطبري: «لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون فيقلع أبوابها وسقفها أصحاب محمد، (الأمين)، ويكونون أضّر على أصحابهم من أصحاب طاهر».

تخييلات وعبر

وقد كان في هذه الحرب - كغيرها من الحروب - الكثير من العبر، والكثير من تخيلات الناس الوهمية التي تصور لهم الأمور بالصور المشرفة التي لا يخالفها حتى القليل من الضباب، ثم ينجلي الأمر عن كوارث لم يكن في أذهانهم لوقوعها أي احتمال.

فهذه والدة الأمين، أم جعفر، التي يتراءى لنا من خلال الحوادث أنها لم تكن بعيدة عن تشجيع ولدها على الغدر بأخيه، أم جعفر هذه، كان في ذهنها أن أمر المأمون لا يحتاج إلا إلى هبة هواء تكفي لتقويضه، فضلاً عن أن يكون في ذهنها احتمال انتصار المأمون، فهذا هو توصي قائد الحملة الأولى التي وجهت إلى إخضاع المأمون بقيادة علي بن عيسى بن ماهان، وهي الحملة التي مر ذكرها من قبل، والتي كان عدد رجالها خمسين ألفاً ما بين فارس وراجل، والتي فتحت أمام قائدها بيوت المال وخزائن السلاح، وتركت له اختيار من يشاء من الرجال

ها هي أم جعفر توصي قائد الحملة بهذه الوصية:

يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي إليه تناهت شفقتي وعليه تكامل حذري، فإني على عبد الله، (المأمون)، منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى. وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه وغاره على ما في يده، والكريم يأكل لحمه ويميته غيره، فاعرف لعبد الله، (المأمون)، حق والده وأخوته ولا توجيه بالكلام فإنك لست نظيره، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا ترهنه بقيد ولا غل، ولا تمنع منه جارية، ولا خادماً ولا تعنف عليه في السير ولا تساوه في المسير ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سفه عليك فلا تراه.

ثم دفعت إليه قيلاً من فضة، وقالت إن صار إليك فقيده بهذا القيد.

على أننا لا ندري كيف نوفق بين قولها لعلي بن عيسى بأن لا يرهن المأمون بقيد ولا غل، وبين إعطائها له قيلاً من فضة ليقيد به المأمون، ولعلها ترى أن القيد الحديدي هو القيد المذل، أما إذا كان القيد من فضة فليس فيه إذلال . . . !

وإذا كان اعتقاد أم جعفر بأن زوال أمر المأمون لا يحتاج إلى أكثر من هبة هواء. فقد تبين أن جيش علي بن عيسى القوي العدة، الكثير العدد، المعقودة عليه هذه الآمال الضخمة، تبين أنه قد انهار بهبة ضعيفة من الهواء!.

ولا ندري ما صار إليه أمر القيد الفضلي الجميل بعد تلك الهزيمة النكراء التي انتهى إليها الجيش ذي الخمسين ألف فارس وراجل!

أغلب الظن أن من وقع في يده من الجند المتصرين لم ير حاجة لاستعماله قيّداً، بل رآه غنيمة ثمينة!

إن أم جعفر هذه التي كان من مظاهر شفقتها على المأمون أن لا يكون القيد الذي في رجليه قيّداً من حديد بل قيّداً من فضة! . . .

إن أم جعفر زوجة الرشيد وأم الأمين انتهى أمرها في الدفعة الأولى عند انتصار حركة الحسين بن عيسى الانتصار الموقت - انتهى أمرها إلى أن يأمرها أحد أنصار الحسين هذا بالخروج من قصرها، فلما أبت دعا لها بكرسي وأمرها بالجلوس فيه، فقنعها بالسوط وساءها وأغلظ لها القول فجلست فيه، ثم أمر بها فأدخلت المدينة مع ابنها وولدها.

ثم صارت إلى ما صارت إليه في نهاية الأمر.

نهاية الأمين

تردت أوضاع الأمين ومضت تتردى يوماً بعد يوم، وصار هو موضع استغلال أنصاره وموضع استهداف أعدائه، إنه بين نارين: نار الأنصار ونار الأعداء، فود لو يتخلص من الأنصار ومن الأعداء معاً. فقال مصوراً حاله أوضح تصوير، وذلك عندما ضاق أمره فأمر ببيع ما في الخزائن ليستعين بأثامانه، ولكن ولاتها كتموا ما فيها ليسرقوه، فتضايق عليه حاله وفقد ما كان عنده وطلب الأعوان أرزاقهم، فقال يوماً وقد ضجر مما يرد عليه: وددت أن الله عز وجل قتل الفريقين جميعاً وأراح الناس منهم، فما منهم إلا عدو ممن معنا وممن علينا. أما هؤلاء فيريدون مالي وأما أولئك فيريدون نفسي.

وتظل الطرائف ترافق المآسي، فلما انحصر الأمين داخل المدينة هو ومن بقي معه، وأخذ طاهر عليه الأبواب، ومنع عن المحاصرين الدقيق والماء وغيرهما، ضاق صدر الأمين فأراد أن يفرّج من الضيق الذي هو فيه، فخرج ذات ليلة من القصر إلى قرن الصراة أسفل من قصر الخلد، ثم أرسل إلى إبراهيم بن المهدي أن يأتيه، ويحدث إبراهيم فيقول:

قال لي: يا إبراهيم أما ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر في السماء وضوءه في الماء؟!

أقول: يا لهذي النفس الشاعرية التي لم يشغلها ما هي فيه عن التأثر بجمال الطبيعة . . . عن طيب الليل الساجي عن حسن القمر في السماء وضوءه في الماء . . . ماء دجلة.

ولا عن صوغ هذا التأثير بجمل رقيقة عذبة، تبرزها أدباً عالياً، ولا عن تزيين تلك الجمل بالسجع الأنيق!

وإذا كان صاحبنا الشاعر الذي تقدم ذكره، عمرو الوراق، قد أصغى لمن نقل إليه أخبار الحرب من نصر وهزيمة وقتل وجرح، وما ستؤول إليه من مصائر تغير وجه التاريخ - أصغى إلى ذلك، ثم انطلق في لا مبالته منشداً الشعر مرتشفاً الكأس . . .

فإن صاحبنا الخليفة الذي يجري كل ما يجري من أجله، لم يكن أقل لا مبالاة ولا أقل طرافة من عمرو الوراق.

فالمنظر الشعاري على ضفاف دجلة في تلك الليلة الأضحيانة إذا لم ينطقه بالشعر فقد أنطقه بالشر، وكما كان ترشف الكأس عند عمرو الوراق هو أبلغ جواب لناقل الأخبار المريعة، كذلك كان الأمر عند محمد الأمين، فبعد أن وصف الطبيعة بما وصف قال لجليسه إبراهيم بن المهدي: هل لك في الشراب؟!

فقال له إبراهيم: شأنك جعلني الله فداك!

ويجب أن لا ننسى أن إبراهيم هذا كان من أشهر المغنين في عصره . . .

فإذا كانت طبيعة الموقف تقضي بأن يكون إلى جانب الأمين في تلك الساعة قائد عسكري يتداول وإياه خطط الدفاع، فقد كان إلى جانبه مغنٌ فنان!

وإذا كان هذا المغني قد هتف بالأمين: شأنك جعلني الله فداك! فقد كان الأمين في موقف يستطاب فيه أن يسمع هذه الاستجابة، لكن لا على أن تكون لدعوة على الشراب، ولا من فم مغن، بل لدعوة إلى الاستجابة في الدفاع، ومن فم قائد عسكري!

ويستمر إبراهيم بن المهدي في رواية ما حدث:

فدعا، (الأمين)، برطل نبيذ فشربه، ثم أمر فسقيت مثله. قال: فابتدأت أغنيه من غير أن يسألني لعلمي بسوء خلقه، فغنيت ما كنت أعلم أنه يحبه، فقال لي ما تقول فيمن يضرب عليك؟ فقلت: ما أخرجني إلى ذلك. فدعا بجارية متقدمة عنده يقال لها ضعف.

وهنا تبدأ سلسلة عجيبة مركبة من خليط من الطرائف والمفارقات والمآسي والمهازل والغرائب، تتمم ما مر من شاعرية ولا مبالاة واستهتار وشرب وتغذية وغناء! . . .

يقول إبراهيم إنه عندما سمع أن اسم الجارية هو ضعف، تطير من اسمها وهم في تلك الحال التي هم عليها.

ولكن إبراهيم لم يتنبه إلى أن أفضل ما ينطبق في تلك الحال هو: الضعف، وأن للأقدار أحياناً من التصاريف ما هو من أعجب العجائب، ومنها هذا الذي يجري الآن لهذا الخليفة الذي أثار غَدْرُهُ بأخيه قضية تحتاج إلى عزم الرجال وصمودهم كصمود الجبال، وتحتاج إلى منادمة الأبطال واقتحام الأهوال! . . . فإذا به أمامها على ما رأيناه من حال! فإذا بالأقدار تصرخ في وجهه: ضعف.

وتتابع حلقات السلسلة: يقول إبراهيم فلما صارت الجارية بين يدي الأمين قال لها: تغني، فغنت بشعر النابغة الجعدي:

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر ذنباً منك ضُرج بالدم

هذه الجارية كغيرها من الجوارى المغنيات يومذاك لا بصر لها بالشعر ومعاني الشعر ومناسبات الشعر. وكل ما لديها من ذلك أن لها من يختار لغنائها الشعر الجيد فتستظهره ملحنّاً وتغنيه دون أن تعي ما يعني.

ولكن الأقدار تعي ما يعني الشعر فقذفت هذا البيت في وجه الأمين.

يقول إبراهيم: فاشتد ما غنت به عليه وتطير منه، وقال لها غني غير هذا.

الأقدار! ومن يجرؤ على معاندة الأقدار؟! لقد قررت الأقدار أن تأخذ بخناق الأمين فغنت الجارية التي لم تكن تدري ما الذي أوجب غضب الأمين من البيت الذي غنته فأمرها أن لا تكمل الأبيات وأن تنتقل إلى غيرها. ولما لم تكن تدري السبب، ولما كانت الأقدار هي التي تدفعها، فقد انطلقت تغني:

أبكى فراقهم عيني وأزقتها إن التفرق للأحباب بكاء

ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفتانوا وريب الدهر عذاء

فقال لها الأمين: لعنك الله أما تعرفين من الغناء شيئاً غير هذا؟!!

فتحيرت المسكينة فأجابته: يا سيدي ما تغنيت إلا بما ظننت أنك تحبه وما أردت ما

تكرهه، وما هو إلا شيء جاءني، ثم أخذت في غناء آخر:

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشُّرك

ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء في الفلك

إلا لنقل النعيم من ملك عان بحب الدنيا إلى ملك

وملك ذي العرش دائم أبداً ليس بفان ولا بمشترك

فقال لها قومي غضب الله عليك، فقامت، وكان له قرح بلور حسن الصنعة، كان موضوعاً بين يديه، فقامت الجارية منصرفة فتعشرت بالقدح فكسرتة!

فقال الأمين لإبراهيم: ما أظن أمري إلا وقد قرب.

فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتاً من دجلة: قضي الأمر الذي فيه تستفتيان، فقال يا إبراهيم ما سمعت فقال إبراهيم: لا والله ما سمعت شيئاً، وكنت قد سمعت.

فوثب من مجلسه ذاك مغتماً، ثم ركب فرجع إلى موضعه بالمدينة، فما كان بعد هذا إلا ليلة أو ليلتان حتى حدث ما حدث من قتله. وذلك لأربع خلون من شهر صفر سنة ١٩٨ هـ ولأربعة عشر شهراً منذ ثارت الحرب مع طاهر بن الحسين إلا اثني عشر يوماً. وبلغ من العمر ٢٨ سنة وكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وثلاثة أيام. ونرى هنا أن نأخذ نص ما ذكره ابن الأثير عن مقتل الأمين. وابن الأثير أخذه عن الطبري، كما فعل في جميع الأحداث التي مرت قبل عصره. نأخذ النص لأنه أبلغ في الأداء.

قال ابن الأثير: لما دخل محمّد، (الأمين)، إلى مدينة المنصور، واستولى طاهر على أسواق الكرخ وغيرها، وقرّ بالمدينة، علم قواده وأصحابه أنهم ليس لهم فيها عدّة الحصر، وخافوا أن يظفر بهم طاهر، فأتاه محمّد بن حاتم بن الصقر، ومحمّد بن إبراهيم بن الأغلب الإفريقي، وغيرهما، فقالوا: قد آلت حالنا إلى ما ترى، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك، فانظر فيه واعتزم عليه، فإننا نرجو أن يجعل الله فيه الخيرة.

قال: وما هو؟

قالوا: قد تفرّق عنك الناس، وأحاط بك عدوك، وقد بقي معك من خيلك سبعة آلاف فرس من خيارها، فنرى أن تختار ممّن عرفناه بمحبّتك من الأبناء سبعة آلاف، فتحملهم على هذه الخيل، وتخرج ليلاً على باب من هذه الأبواب، فإنّ الليل لأهله، ولن يثبت لنا أحد إن شاء الله تعالى، فنخرج، حتى نلحق بالجزيرة والشام، فنفرض الفروض، ونجبي الخراج، ونصير في مملكة واسعة ومُلك جديد، فيسارع إليك الناس، وينقطع عن طلبك الجند ويُحدث الله أمراً.

فقال لهم: نعم ما رأيتم! وعزم على ذلك، وبلغ الخبر إلى طاهر، فكتب إلى سليمان بن المنصور، ومحمّد بن عيسى بن نهيك، والسنديّ بن شاهك: والله لئن لم تردّوه عن هذا الرأي لا تركت لكم ضيعة إلا قبضتُها، ولا يكون لي همّة إلا أنفسكم.

فدخلوا على الأمين، فقالوا له: قد بلغنا الذي عزمت عليه، فنحن نذكرك الله في نفسك، إن هؤلاء صعاليك. وقد بلغ بهم الحصار إلى ما ترى، فهم يرون أن لا أمان لهم عند أخيك، وعند طاهر، لجذهم في الحرب، ولسنا نأمن إذا خرجت معهم أن يأخذوك أسيراً، أو يأخذوا رأسك، فيتقربوا بك ويجعلوك سبب أمانهم، وضربوا فيه الأمثال؛ فرجع إلى قولهم، وأجاب إلى طلب الأمان والخروج، فقالوا له: إنما غايتك السلامة واللَّهُو، وأخوك يتركك حيث أحببت، ويفردك في موضع ويجعل لك فيه كل ما يصلحك، وكل ما تحب وتهوى، وليس عليك منه بأس ولا مكروه. فركن إلى ذلك، وأجاب إلى الخروج إلى هرثمة بن أعين^(١).

فدخل عليه أولئك الذين أشاروا بقصد الشام، وقالوا: إذا لم تقبل ما أشرنا به عليك، وهو الصواب، وقبلت من هؤلاء المدهنين، فالخروج إلى طاهر خير لك من الخروج إلى هرثمة؛ فقال: أنا أكره طاهراً، لأتني رأيت في منامي كأنني قائم على حائط من أجر شاهق في السماء، عريض الأساس، لم أَر مثله في الطول والعرض، وعليّ سوادى، ومنطقتي، وسيفي، وكان طاهر في أصل ذلك الحائط، فما زال يضربه حتى سقط، وسقطت، وطارث فلنسوتي عن رأسي، فأنا أتطير منه، وأكرهه، وهرثمة مولانا، وهو بمنزلة الوالد، وأنا أشد أنساً به وثقةً إليه.

فأرسل يطلب الأمان، فأجابه هرثمة إلى ذلك، وحلف له أنه يقاتل دونه إن هم المأمون يقتله، فلما علم ذلك طاهر اشتد عليه، وأبى أن يدعه يخرج إلى هرثمة، وقال: هو في جندي والجانب الذي أنا فيه، وأنا أخرجته بالحصار، حتى طلب الأمان، فلا أرضى أن يخرج إلى هرثمة فيكون له الفتح دوني.

فلما بلغ ذلك هرثمة والقواد اجتمعوا في منزل خزيمة بن خازم، وحضر طاهر وقواده، وحضر سليمان بن المنصور، والسندي، ومحمد بن عيسى بن نهيك، وأداروا الرأي بينهم، وأخبروا طاهراً أنه لا يخرج إليه أبداً، وأنه إن لم يجب إلى ما سأل لم يؤمن إلا أن يكون الأمر مثله أيام الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان. وقالوا له: إنه يخرج إلى هرثمة ببذنه، ويدفع إليك الخاتم، والفضيب، والبردة، وذلك هو الخلافة، فاعتنم هذا الأمر ولا تُفسده! فأجاب إلى ذلك ورضي به.

(١) كان هرثمة يحاصر بغداد من جانب آخر.

ثم إنَّ الهزّش لما علم بالخبر أراد التقرّب إلى طاهر، فأخبره أنّ الذي جرى بينهم مكر، وأنّ الخاتم والقضيب والبردة تحمل مع الأمين إلى هرثمة، فاعتاظ منه، وجعل حول قصر أمّ الأمين، وقصور الخلد، قوماً معهم العتل، ولم يعلم بهم أحد؛ فلما تهيأ الأمين للخروج إلى هرثمة، عطش قبل خروجه عطشاً شديداً، فطلب له في خزانة الشراب ماء، فلم يوجد، فلما أمسى، ليلة الأحد، لخمس بقين من محرّم سنة ثمان وتسعين ومائة، خرج بعد العشاء الآخرة إلى صحن الدار، وعليه ثياب بيض، وطيلسان أسود، فأرسل إليه هرثمة: وافيت للميعاد لأحملك، ولكني أرى أن لا تخرج الليلة، فإني قد رأيت على الشطّ أمراً قد رابني، وأخاف أن أغلب، وتؤخذ من يدي. وتذهب نفسك ونفسي، فأقيم الليلة حتى أستعدّ وأتيك الليلة القابلة، فإن حوربت حاربت دونك.

فقال الأمين للرسول ارجع إليه، وقل له لا يبرح، فإني خارج إليه الساعة لا محالة، ولست أقيم إلى غدٍ.

وعلق، وقال قد تفرّق عني الناس من الموالي والحرس وغيرهم، ولا آمن إن انتهى الخبر إلى طاهر أن يدخل عليّ فيأخذني؛ ثم دعا بابنيه، فضمهما إليه، وقبلهما، وبكى، وقال أستودعكما الله، عزّ وجل، ودمعت عيناه، فمسح دموعه بكفّه، ثم جاء راكباً إلى الشطّ، فإذا حرّاقة هرثمة، فصعد إليها.

فذكر أحمد بن سلام، صاحب المظالم، قال: كنتُ مع هرثمة في الحرّاقة، فلما دخلها الأمين فمنا له، وجثا هرثمة على ركبتيه، واعتذر إليه من نقرس به، ثم احتضنه، وضمّه إليه، وجعله في حجره، وجعل يقبل يديه ورجليه وعينيّه، وأمر هرثمة بالحرّاقة أن تدفع، إذ شدّ علينا أصحاب طاهر في الزوارق، وعطعطوا، ونقبوا الحرّاقة، ورموهم بالآجر والنشاب، فدخل الماء إلى الحرّاقة، فغرقت، وسقط هرثمة إلى الماء، وسقطنا، فتعلّق الملاح بشعر هرثمة فأخرجه، وأما الأمين فإنه لما سقط إلى الماء شقّ ثيابه وخرج إلى الشطّ، فأخذني رجل من أصحاب طاهر، وأتى بي رجلاً من أصحاب طاهر، وأعلمه أنّي من الذين خرجوا من الحرّاقة، فسألني من أنا؟ فقلت: أنا أحمد بن سلام، صاحب المظالم، مولى أمير المؤمنين، قال: كذبت، فأصدقني! قلتُ: قد صدقتك. قال: فما فعل المخلوع؟ قلتُ: رأيتُه وقد شقّ ثيابه؛ فركب، وأخذني معه أعدو، وفي عنقي حبل، فعجزت عن العدو، فأمر بضرب عنقي، فاشترت نفسي منه بعشرة آلاف درهم، فتركني في بيت، حتى يقبض المال، وفي البيت بوارئ وحصر مدرجة ووساداتان.

فلما ذهب من الليل ساعة، وإذا قد فتحوا الباب، وأدخلوا الأمين، وهو عريان، وعليه سراويل، وعمامة، وعلى كتفه خرقة حلقة، فتركوه معي، فاسترجعت وبكيت فيما بين وبين نفسي؛ فسألني عن اسمي فعرفته، فقال: ضمّني إليك، فأني أجد وحشة شديدة. قال: فضممته إليّ وإذا قلبه يخفق خفقاً شديداً؛ فقال: يا أحمد! ما فعل أخي؟ قلتُ: حيّ هو. قال: قبح الله بريدهم، كان يقول: قد مات شبه المعتذر من محاربه؛ فقلتُ بل قبح الله وزرارك؛ فقال: ما تراهم يصنعون بي، أيقتلونني أم يفون لي بأمانهم؟ فقلت: بل يفون لك. وجعل يضمّ الخرقة على كتفه، فنزعت مبطنّة كانت عليّ، وقلتُ: ألق هذه عليك! فقال: دعني، فهذا من الله، عزّ وجلّ، في مثل هذا الموضع خير كثير.

فبينما نحن كذلك، إذ دخل علينا رجل، فنظر في وجهينا فاستبتهما، فلما عرفته انصرف، وإذا هو محمّد بن حميد الطاهري، فلما رأته علمتُ أنّ الأمين مقتول؛ فلما انتصف الليل فُتح الباب، ودخل الدار قومٌ من العجم معهم السيوف مسلولة، فلما رآهم قام قائماً، وجعل يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهبّت، والله، نفسي في سبيل الله. أما من مُغيث، أما من أحد من الأبناء؟^(١)

وجاؤوا، حتى وقفوا على باب البيت الذي نحن فيه، وجعل بعضهم يقول لبعض: تقدم، ویدفع بعضهم بعضاً، وأخذ الأمين بيده وسادة، وجعل يقول: ويحكم! أنا ابن عم رسول الله^(٢) أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، الله الله في دمي.

فدخل عليه رجلٌ منهم فضربه بالسيف ضربة وقعت في مقدّم رأسه، وضربه الأمين بالوسادة على وجهه، وأراد أن يأخذ السيف منه، فصاح: قتلني! قتلني! فدخل منهم جماعة. فنخسه واحد منهم بالسيف في خاصرته، فركبوه، فذبحوه ذبحاً من قفاه، وأخذوا رأسه، ومضوا به إلى طاهر، وتركوا جثته.

فلما كان السحر أخذوا جثته، فأدرجوها في جُلّ وحملوها، فنصب طاهر الرأس على برج، وخرج أهل بغداد للنظر، وطاهر يقول: هذا رأس المخلوع محمّد.

(١) استنجاد الأمين - وهو في محنته - بالأبناء يدل أن المقصود بكلمة الأبناء فيما تقدم من القول هو سلالة أوائل الداعين لنصرة الدولة العباسية وأنها اختصار لجملة أبناء الدعوة.

(٢) يستطيع المؤرخ أن يرد على الأمين من وراء العصور: إذا كان هؤلاء لم يردعهم عنك انتسابك إلى عم رسول الله، فإن أسلافك لم يرتدعوا عن أن يقتلوا أبناء رسول الله ﷺ.

فلما قتل ندم جند بغداد وجند طاهر على قتله، لما كانوا يأخذون من الأموال .
ولما قُتل الأمين نودي في الناس بالأمان، فأمن الناس كلهم، ودخل طاهر المدينة يوم
الجمعة، فصلّى بالناس، وخطب للمأمون، وذمّ الأمين .

ولما قُتل الأمين قال إبراهيم بن المهدي يرثيه :

عُوجاً بمغنى طلل دائر	بالخُلد ذات الصخر والأجر
والممرر المسنون يُطلّى به	والباب باب الذهب الناضر
عوجا بها فاستيقنا عندها	على يقين قدرة القادر
وأبلغنا عني مقالاً إلى	المولى على المأمور والأمر
قولاً له يا بن ولي الهدى	طهر بلاد الله من طاهر
لم يكفه أن حرّاً أوداجه	ذبح الهدايا بمُدَى الجازر
حتى أتى يسحبُ أوصاله	في شطنٍ، بغى مدى الشابر
قد بزّد الموت على جنبه	فطرفه منكسر الناظر

أصداء الفاجعة

لما بعث طاهر بن الحسين برأس الأمين إلى مرو لم يملك الفضل بن سهل نفسه من
البكاء وقال: «سلّ علينا، (طاهر)، سيوف الناس وألستهم . أمرناه أن يبعث به أسيراً فبعث به
عقيراً» .

أما المأمون فتجلد وقال للفضل: قد مضى ما مضى .

لقد كان الموقف يومذاك يقتضي التجلد، ولكن المأمون أسرها في نفسه، وكتّم أحزانه
وحبس دموعه . ولم يستطع كر الأيام وتوالي السنين أن ينسيه الفاجعة .

والحدث الذي سنذكره هنا متأخر كثيراً عما يجب أن نذكره من أحداث ما بعد قتل
الأمين، ولكن لارتباطه بقتل الأمين قدمنا ذكره وقد مرت إشارة موجزة إليه من قبل .

من أحداث سنة ٢٠٥هـ أن المأمون بعد انتقاله من مرو إلى بغداد واستقراره فيها، كان
في مجلس أنس بين خاصته إذ استأذن عليه طاهر بن الحسين فأذن له، فلما جلس بكى
المأمون وتغرغرت عيناه، فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين لِمَ تبكي لا أبكي الله عينيك، فوالله
لقد دانت لك البلاد وأذعن لك العباد وصرت إلى المحبة في كل أمرك؟! فقال المأمون: أبكي

لأمر ذكره ذل وستره حزن، ولن يخلو أحد من شجن... وأردف ذلك بقوله لطاهر: تكلم بحاجة إن كانت لك.

والذي دعا المأمون لأن يطلب إلى طاهر أن يتكلم بحاجته، هو أن طاهراً قد جاء إلى المأمون في وقت لم يكن من الأوقات المخصصة للزيارات، فأيقن المأمون أن له حاجة حملته على المجيء إليه في هذا الوقت، لذلك قال للحاجب الذي استأذن لطاهر عليه: إنه ليس من أوقاته، ائذن له.

وبالفعل فقد تبين أن لطاهر حاجة، جاء في مثل هذا الوقت لطلب قضائها من المأمون. ولكن الأمر الغريب هو أن يبكي المأمون في مجلس أنسه بمجرد أن جلس طاهر أمامه، ثم إنه لا يمهل طاهراً ليعرض حاجته رأساً بدون سؤال من المأمون، بل بادره بأن يعرض حاجته، كأنما يطلب إليه أن لا يطيل إقامته في مجلس أنسه لئلا يطول تنغيصه له في هذا المجلس الذي كان بكاؤه فيه أشجى مظاهر التنغيص.

فلما عرض طاهر حاجته قضاها له المأمون في الحال، ثم مضى طاهر لشأنه. ولم يكن ليفوت طاهراً أن وراء بكاء المأمون أمراً لا يمكن تجاهله، وأن لهذا الأمر علاقة به، وأن عليه أن يتحرى عن السبب الباعث على البكاء...

وكان للمأمون خادم اسمه حسين له به كبير اختصاص وله عليه دالة، فذهب إليه طاهر ودفع له مئتي ألف درهم ليسأل المأمون لم يبكي.

فلما تغدى المأمون قال يا حسين: اسقني. فقال حسين لا والله لا سقيتك أو تقول لي لم بكيت حين دخل عليك طاهر؟

قال: يا حسين وكيف عنيت بهذا حتى سألتني عنه؟

قال: لغمي بذلك.

قال: يا حسين هو أمر إن خرج من رأسك قتلتك.

قال: يا سيدي ومتى أخرجت لك سرراً؟

قال: إني ذكرت محمداً أخي وما ناله من الذلة فخنقتني العبرة فاسترحت إلى الإفاضة، ولن يفوت طاهراً مني ما يكره.

هذا الخادم الذي أباح له المأمون الإدلال عليه، والذي أعطاه من نفسه ما أعطى، واثمنه على أسراره حتى ليسأله عن أخص خصائص عواطفه، والذي جعل له الخليفة من المنزلة إلى حد يقول له معه: والله لا سقيتك أو تقول لي لم بكيت.

هذا الخادم لم يبال أمام إغراء المال أن يخدع مخدومه وأن يفشي سره! لقد كانت الممتا ألف درهم عند هذا الإنسان ثمناً أرفع من الأمانة وأعلى من الوفاء وأعظم من الصدق!

الناس هم الناس! وليس حسين هذا بدعاً في الناس!

أسرع حسين إلى طاهر فنقل إليه السر الخطير!

وخطورته في أن إفشاءه سيفسد على المأمون ما قد يدبر لظاهر من المكروه... ثم ما سيترتب على حذر طاهر وتوقعه الغضب من محاذير ستؤثر في كيان الدولة كما سنرى...

المال سيد كبار السادة فكيف لا يكون سيد صغار الخدم. وحرص هذا الخادم على كسب المال أدى إلى حركة انفصالية في جسم الدولة، سنمر بها في الآتي من القول.

على أننا الآن وقد آثرنا تقديم هذا الحدث نرى أن من حق المأمون علينا أن نتوقف قليلاً قبل إتمام قصص ما اتخذ طاهر من تدابير لوقاية نفسه من المكروه الذي أسر به المأمون لخادمه حسين وأفشى سره لظاهر.

تقف قليلاً أمام سمو هذا الرجل السامي الخلق، المتفرد بصفات من الإخلاص للأمة، والمتحلي بأشرف العواطف الإنسانية.

لقد عرفنا الملوك قبل المأمون وبعد المأمون لا يبالون أن يقتلوا بأيديهم لا إخوانهم فقط بل أبناءهم إذا أحسوا منهم طمعاً بما في أيديهم، والأمثلة على ذلك عديدة في التاريخ لا داعي للاستشهاد بها. وأقرب مثل لعصر المأمون هو عمه موسى الهادي الذي كان عازماً على قتل أخيه الرشيد.

أما هذا الملك النبيل، أما المأمون فقد كان هو المعتدى عليه المغدور به، المههد بأن يسلب منه كل شيء.

لم يكن في ذهنه أن طاهراً يقدم على قتل الأمين، وكل ما كان يتوقعه في حال ظفر طاهر، أن يحمل إليه أخاه فيحمله في مقره أكرم محل، فيعيش معزواً مكرماً. ولكن طاهراً تعدى طوره فقتل الأمين.

لقد نسي المأمون ما أراد به الأمين من الشر وما ساق إليه من الجيوش، وما قصد إليه من الهوان. ولم يذكر إلا أن الأمين أخوه، أخوه الذي أذله طاهر ثم قتله، وقد فعل طاهر ذلك وهو يعزز أمر المأمون ويدفع عنه الشر ويعيد إليه الحق ويبني له ملكاً، أي ملك.

لقد كان المأمون في مجلس الأنس، فما إن وقعت عينه على طاهر حتى استحال الأنس

حزناً مريراً ودمعاً غزيراً، لم يشفع لظاهر عنده ما شاد له من مجد وما أقام من سلطان وما أعاد من حق!

وأين كل ذلك من تذكر ذل الأخ على يدي طاهر ودمه المراق بسيوف طاهر!

هذا هو المأمون في إنسانيته المثلى! هذا هو المأمون الذي ينسى في شخصه الملك الحاكم المسيطر، ولا يرى إلا أنه الإنسان الشفوق العطوف. فإذا كان طاهر قد جعل منه ذلك الملك الحاكم المسيطر، فهو غير مستطيع أن يذيب في كيانه الإنسان الشفوق العطوف، وحين تتصادم في شخصه الحالتان، فالمهزومة المتوارية هي حالة الحكم والسيطرة والملك، والمتصرة الخالدة هي حالة الإشفاق والعطف والحنان...!

هال طاهراً ما عرفه من سبب بكاء المأمون، وما تفوه به من القول، فكان عليه أن يعمل على أن يكون بعيداً عنه، فمضى إلى أحمد بن أبي خالد طالباً إليه أن يجد وسيلة تبعده عن المأمون، قائلاً له: غيبي عن عينه، فقال: سأفعل فبكر إليّ غداً.

ووجد ابن أبي خالد الوسيلة التي يستطيع بها تحقيق طلب طاهر، فركب إلى المأمون، فلما دخل عليه قال: ما نمت البارحة!

فقال: لمّ ويحك؟

فقال: لأنك وليت غسان خراسان وهو ومن معه أكلة رأس، فأخاف أن يخرج عليه خارجة من الترك فتصطلمه.

فقال له: لقد فكرت فيما فكرت فيه، فمن ترى؟

قال: طاهر بن الحسين.

قال: ويلك يا أحمد، هو والله خالع.

لقد كان تفكير المأمون تفكيراً بعيداً، فقد أدرك أن طاهراً سيظل قلقاً لما فعل، وأن هذا القلق سيحمله يوماً على التمرد والانفصال عن الحكم.

ولكن ابن أبي خالد قال له: أنا الضامن له.

قال: فأنفذه.

فدعا بطاهر من ساعته فعقد له ف شخص من ساعته.

واستمر طاهر والياً على خراسان سنتين، لم يغير شيئاً ولم يتظاهر بشيء، فلما كانت سنة ٢٠٧هـ صمم على العصيان، فصعد يوم الجمعة المنبر فخطب، فلما بلغ إلى ذكر الخليفة

أمسك عن الدعاء له، وقال: اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أوليائك، واكفها مؤونة من بغى فيها وحشد عليها بلم الشعث وحقن الدماء وإصلاح ذات البين.
 ووصل الخبر إلى المأمون بما كان، فدعا ابن أبي خالد فقال له: أشخص فائت به كما زعمت وضمنت.

قال: أبيت ليلتي.

فقال: لا لعمرى لا تبيت.

فلم يزل يناشده حتى أذن له بالمبيت.

لكن الأقدار كانت قد عملت عملها، ففي اليوم الذي أعلن فيه طاهر العصيان، مضى في ليله إلى فراشه فمات فجأة في تلك الليلة.
 ووصل خير موته إلى المأمون في مساء اليوم الذي وصله في صباحه نبأ عصيانه، فدعا ابن أبي خالد وقال له: قد مات.

وفاء المأمون

إذا كان المأمون الإنسان، الإنسان بكل ما تحتوي الإنسانية من عواطف كريمة لم يحتمل رؤية مذل أخيه وقاتله، وهو في الوقت نفسه صانع ملكه وباني مجده وموطد أمره، ومن أجل ذلك فعل ما فعل بالأخ العاق الغادر.
 إذا كان المأمون قد أبكاه في مجلس أنسه - أبكاه دخول طاهر عليه، ثم كان ما كان من ثورته على حكمه وخلعه من خلافته، وما كان يمكن أن يعقب ذلك من كوارث وفجائع، لولا أن الموت عاجل طاهراً.

إذا كان كذلك، فإن الإنسان العاطفي الذي بكى لمرأى طاهر، هو نفسه الذي لا يمكن أن ينسى ما كان لطاهر من فضل وأياد، وإذا كان طاهر قد تمرد وعصى وجاهر بالعداء، فله بواعثه ودوافعه، فلا يمكن أن تنسى السيئات الطارئة ما كان من حسنات ماضية.

الإنسان في إنسانيته المثلى يظل إنساناً دائماً، ومن أظهر مظاهر إنسانيته: الوفاء.

وإذا كان طاهر قد مضى بعجره وبجره وحسناته وسيئاته، فقد بقي الوفاء . . .

لقد أغضى المأمون عن كل ما كان من طاهر، ولم يبق في نفسه إلا الوفاء، لذلك عمد - عندما بلغه نبأ وفاة طاهر - إلى تولية ابنه طلحة مكانه على خراسان، فظل والياً عليها سبع سنين، ولما مات طلحة، ولي مكانه أخاه عبد الله.

الشعر في المعركة

كان لمقتل الأمين وزوال خلافته أصداء متباينة في الأوساط الشعبية، عبر عنها شعراء ذلك الوقت، فجاء شعرهم صورة عما كان يعتمل في أذهان الشعب من تأثر بتلك الأحداث، فهذا شاعر يتقم على الأمين لهوه واستهتاره بالقواعد الدينية، وأنه كان بغدره بأخيه المأمون سبباً فيما أصاب البغداديين من محن الحصار وكوارث الحرب، ويرى أنه لم يكن يصلح للملك فهو يقول:

يا أبا موسى وتزويج اللعب	لم نبكيك لِمَاذَا للطرب
حرصاً مِنكَ على ماء العنب	ولِتَزِكِ الخمس في أوقاتها
وعلى كوتر لا أخشى العطب	وَسَنِيْفِ أنا لا أبكي له
لا ولا تَعْرِفُ ما حد الغضب	لم تكن تَعْرِفُ ما حد الرضى
تعطك الطاعة بِالْمَلِكِ العرب	لم تكن تَصْلُحُ لِلْمَلِكِ ولم
عينُ من أبكأك إلا للعبج	أيها الباكي عليه لا بكت
للمجانيق وَطَوْرًا لِلْسَلْبِ	لِمَ نبكيك لِمَا عَرَضْنَا
لهم يبدو على الرأس الذنب	ولقوم صيرونا أعبداً
سَدَّ الطُّرُق فلا وجه طلب	في عذابٍ وحصارٍ مُجْهِدٍ
كلُّ من قد قال هذا قد كذب	زعموا أنك حيٌّ حاشِرٌ
من جميع ذاهبٍ حيثُ ذهب	ليت من قد قاله في وَحْدَةٍ
فإِذَا ما أوجِبَ الأمرُ وجب	أوجِبَ اللُّهُ عَلَيْنَا قتله
غضبِ اللّهُ عليه وَكَتَبَ	كَانَ واللّهُ عَلَيْنَا فتنةً

والشيء الملفت في هذه الأبيات أن الشاعر قد خص العرب بالذكر وأعلن أنهم لم يكونوا مع الأمين ولم يعطوه طاعة الملك. ثم الإشارة إلى الذل الذي أصاب البغداديين من تسلط الغرباء عليهم حتى أصبح هؤلاء الغرباء هم السادة والبغداديون كالعبيد لهم، وسادت الأذئاب على الرؤوس.

ولا شك أن هذه الأبيات الشعرية أبيات شعبية محضه تصور الشعور البغدادى الشعبي، وما كان يعانیه الشعب ويفكر به.

على أنه لا بد لنا من أن نتساءل عمن يعني هذا الشاعر (بمن صيروهم أعبداً لهم) ومن يقصد به (الأذئاب التي بدت على الرؤوس)؟

إن مرارة البغداديين تبدو واضحة في هذه الأبيات، ويظل تساؤلنا بغير جواب!
وصاحبنا عمرو الوراق الذي رأينا فيما تقدم من القول عدم مبالاته بما يجري، وقلة
اكتراثه حتى بأخطر الأخبار المصيرية، وانصرافه إلى كآسه وشعره - إنَّ عَمراً هذا قد انفعَل في
النهاية بالأحداث وتائجها وتأثر بما جرى على بغداد من خراب وبموت من مات من خلانه
في الوقائع، وبالتشتت الذي أصاب الناس ففترقوا فرقاً.

إنَّ عمراً الوراق هنا غير عمرو الوراق هناك، لقد عاد صوتاً من أصوات الشعب، بعد
أن كان صوت نفسه، يبدو لنا أن نقتمه من نصبة على طاهر بن الحسين، وأنه هو المخاطب:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين	ألم تكوني زماناً قرّة العين
ألم يكن فيك أوقام لهم شرف	بالصالحات وبالمعروف يلقوني
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم	وكان قرههم زيناً من الزين
صاح الزمان بهم بالبين فانقرضوا	ماذا الذي فجعتني لوعة البين
أستودع الله قوماً ما ذكرتهم	إلا تحدرّ ماء العين من عيني
كانوا فرقتهم دهرٌ وصدعهم	والدهرُ يصدعُ ما بينَ الفريقيين
كم كان لي مسعدٌ منهم على زمي	كم كان منهم على المعروف من عون
لله دُر زمان كان يجمعنا	أين الزمان الذي ولّى ومن أين
يا من يُخربُ بغداداً ليغمرها	أهلكتَ نفسك ما بين الطريقيين
كانت قلوب جميع الناس واحدة	عيناً وليس لكون العين كالدين
لما أشتتهم فرقتهم فرقاً	والناس طراً جميعاً بين قلبين

ومع ذلك فإن النزعة الفردية تظل متحكمة بهذا الوراق، فبالرغم من أنه في مطلع أبياته
يتلهف على بغداد، كل بغداد، وهو ما يتلهف عليه معه كل البغداديين، وبالرغم أنه في ختام
الأبيات يتحدث عن، (قلوب جميع الناس)، وتشتت هذي القلوب وتفرقتها - بالرغم من
ذلك، فإنه في الأبيات الأخرى ينسب كل أسى إلى نفسه، فالأوقام ذوو الشرف كانوا يلقونه
هو بالصالحات والمعروف، والذين صاح الزمان بهم بالبين فانقرضوا، هو الذي فجعته بهم
لوعة البين، وهو الذي يتحدر دمع عينه لهم، وقد كانوا يسعدونه على زمنه . . .

إنه يرثي بغداد وأهلها لأن النكبة حلت بشخصه. على أننا، إنصافاً للأمين، نذكر هنا بعض ما رثي به من الشعر، ونبدأ ذلك بيتين طريفين منسويين لإحدى امرأتين: إما لبابة ابنة علي بن المهدي، وأما ابنة عيسى بن جعفر، وهما:

أبكيك لا للنعيم والأنس بل للمعالي والرمح والترس
أبكى على هالك فجمعت به أرملني قبل ليلة العرس

والواضح أن القائلة كانت موعودة بالزواج منه ثم قتل قبل الزفاف. ولثلا يظن قارئ بيتها أنها إنما ترثيه لما ضاع عليها من النعيم والأنس، بل لسموه وبسالته، بدأت بيتها بما بدأتها به، ولكنها انطلقت في البيت الثاني على سجيتهما فأعربت عن سبب بكائها عليه. على أنها لم تكن بحاجة لتعلل بما تعللت به، فالناس يعرفون أنها بكته للنعيم والأنس لأنه أرملها قبل ليلة العرس، ولم تبكه للمعالي والرمح والترس، وليس من يلومها على ذلك . . .

وهناك مرثية الحسين بن الضحاك التي لنا أن نعتبرها مرثية مؤثرة، فقد كان هذا الشاعر من ندماء الأمين فإذا رثاه فهو صادق في رثائه، لأنه خسر بفقدانه ما لم يخسره غيره من أبناء الشعب، وهو يعترف بأنه فقد من كان يسد فاقتة، ويكفي هذا لأن يبكيه بدمعه الغزير.

وإذا كانت قصيدة الشاعر الأول هي قصيدة الشعب، وقصيدة الثاني مزيجاً عن عواطف الشعب والعواطف الشخصية، فإن قصيدة هذا الشاعر قصيدة شخصية بحتة. فإذا قال الشاعر الأول فيما قال في قصيدته:

لم نبكيك لما عرضتنا للمجانيق وطوراً للسلب

فهذا القول يقوله كل من ناله ما ناله في حصار بغداد، ولم يبق أحد في بغداد لم يصب في ذلك، فالشاعر هنا شاعر الشعب.

وإذا قال الشاعر الثاني:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكوني زماناً قرة العين

فهو بذلك ينطق بلسان جميع البغداديين. ولكنه حين يردف هذا البيت الذي يقول فيه:

ألم يكن فيك أقوام لهم شرف بالصالحات وبالمعروف يلقوني

يعود شاعراً فردياً يأسف على زوال أشرف بغداد لأنهم كانوا يلقونه بالصالحات والمعروف.

وحين يقول الشاعر الثالث الذي نحن بصدد الحديث عنه:

هلا بقيت لسد فاقتنا أبدأ وكان لغيرك التلّف
فهو صريح بأنه يرثي الأمين لدوافع شخصية بحتة، وحين يقول: (فاقتنا) فهو لا يعني
جماهير الشعب بل يعني رفاقه من ندامى الأمين.
وقد بلغ الأمر بهذا الشاعر أنه لم يكن يصدق أول الأمر بقتل الأمين وكان يطمع في
رجوعه^(١):

اللّه يعلم أنّ لي كبدًا	حرّى عليك ومقلّة تكفّ
ولئن شجيت بما رزئتُ به	إني لأضمرّ فوق ما أصفّ
هلاً بقيت لسد فاقتنا	أبدأ وكان لغيرك التلّف
فلقد خلّفت خلائفاً سلفوا	ولسوف يُغورُ بعدك الخلفُ
لا بات رهطك بعد هفوتهم	إني لرهطك بعدها شنيفُ
هتكوا بحزمك التي هتكت	حرّم الرسول ودونها السجفُ
وثبت أقاربك التي خذلت	وجميعها بالذلّ معترفُ
لم يفعلوا بالشطّ إذ حضروا	ما تفعل الغيرانة الأنفُ
تركوا حريم أبيهم نفلًا	والمخصّصات صوارخ هتفُ
أبدت مخلخلها على دهش	أبكارهنّ ورزنت النصفُ
سلبت معاجزهنّ واجتليت	ذات النقب ونوزع الشنفُ
فكأنهنّ خلال منتهب	دُرّ تكشف دونه الصدفُ
ملك تحوّن ملكه قدر	قوهى وصرف الدهر مختلفُ
هيهات بعدك أن يدوم لنا	عزّ وأن يبقى لنا شرفُ

(١) وكان هذا الشاعر ينظم الشعر خلال حصار بغداد دعماً للأمين فمن ذلك قوله يخاطب الأمين:

أمين اللّه ثق بالله	تعط الصبر والنصره
كل الأمر إلى الله	كلاك اللّه دو القدره
لنا النصر بعون الله	والكره لا الفره
وللمزاق أعداؤ	ك يوم السوء والدبّره
وكأس تلفظ الموت	كربه طعمها مره
سقيننا وسقيناهم	ولكن بهم الحيره
كذاك الحرب أحياناً	علينا ولنا مره

أفبعده عهد الله تقتله
فستعرفون غداً بعاقبة
يا من يخونُ نومه أرقُ
قد كنت لي أملاً غنيث به
مرج النظام وعاد منكرنا
فالشملُ منتشرٌ لفقدهك والـ

والقتلُ بعد أمانة سرف
عزُّ الإله فأوردوا وقفوا
هدت الشجونُ وقلبه لهفُ
فمضى وحل محلله الأسفُ
عرفاً وأنكر بعدك العرفُ
لدنيا سدَى والبال منكشفُ

وللحسين بن الضحاك أكثر من قصيدة في رثائه منها القصيدة التالية :

إذا ذكر الأمينُ نعى الأميـنا
وما برحت منازل بين بصرى
عراض الملك خاوية تهادى
تخونُ عزّاً ساكنها زمانُ
فشتت شملهم بعد اجتماع
فلم أر بعدهم حُسنأ سواهم
فوا أسفاً وإن شمت الأعادي
أضل العرفُ بعدك مُثبغوه
وكنْ إلى جنابك كل يومٍ
هو الجبل الذي هوت المعالي
ستندُبُ بعدك الدنيا جواراً
فقد ذهبت بشاشة كل شيءٍ

وإن رقد الخليلي حمى الجفونا
وكلواذى تهيج لي شجونا
بها الأرواح تنسجها فنونا
تلعب بالقرونِ الأولينا
وكنتُ بحسن الفتهم ضنيـنا
ولم ترهم عيون الناظرينا
وآه على أمير المؤمنيننا
وزقه عن مطايا الراغبينا
يرحن على السعودِ ويغتدينا
لهدته ويرى الصالحونا
وتندبُ بعدك الدين المصوننا
وعاد الدين مطروحاً مهينا

فهو في هذه القصيدة يريد أن يتظاهر بأنه في تحسره على الأمين إنما يندب الدين المصون لا الدنيا وحدها، وإنما ينطق بلسان الناس الغيارى لا بلسان نفسه .

ولكننا لا نحسب أن هذا الشاعر كان يهमे من فقدان الأمين أن الدين عاد مطروحاً مهيناً، بل كان يهमे أنه هو عاد بعد الأمين مطروحاً مهيناً .

ونحن وإن كنا لا نسلم بصحة كل ما يُرمى به الأمين من نقائص، فإننا لا نسلم مع الشاعر بأن الدين كان في عهد الأمين مصوناً أكثر من صيانتته بعد الأمين .

ولهذا الشاعر قصيدة عاطفية أخرى منها هذا البيت المؤثر :

أسفأ عليك سلاك أقرب قربة مني وأحزاني عليك تزيد
وقال عبد الرحمن بن أبي الهدهد يرثيه :

يا غرب جودي قد بثت من وذمة
ألوث بدنياك كف نائبة
أصبح للموت عندنا علم
ما استنزلت ذرة المنون على
خليفة الله في بريته
يفتر عن وجهه سنا قمر
زلزلت الأرض من جوائبها
من سكنت نفسه لمصرعة
رأيتُه مثل ما رآه به
كم قد رأينا عزيز مملكة
يا ملكاً ليس بعده ملك
جاذى وحى الذي أقمته به
لو أحجم الموت عن أخي ثقة
أو ملك لا ترام سطوته
خلدك العز ما سرى سدف
أصبح ملك إذا أتزرت به
أثر ذو العرش في عداك كما
لا يُبعد الله صيورة تليت
ما كنت إلا كحلُم ذي حلُم
حتى إذا أطلقتَه رقدته

وقال أيضاً يرثيه :

أقول وقد دنوت من الفرار
سقيت الغيث يا قضر القرار

فصرت ملوحاً بدخان نارٍ
 وأين زمرهم بعد المزارِ
 أرى أطلالهم سودَ الديارِ
 يصون على الملوك بخيرِ جارِ
 لنا والغيت يمنح بالقطارِ
 وقد غمرتهم سود البحارِ
 فصاروا في الظلام بلا نهارِ
 وداستهم خيول بني الشّارِ
 إذا ما توجوا تيجان عارِ
 لقد ضرما الحشا منّا بنارِ
 يصيرُ ببائعيه إلى صغارِ
 إذا قطع القزارُ من القرارِ

فقد أعطتك طاعته التّحيبُ
 منايا ما تقوم لها القلوبُ
 يجاورُ قبره أسدٌ غريبُ
 له في كل مكرمة نصيبُ
 وتُهتك في مآتمه الجيوبُ
 تخصُّ به النسبَةُ والنسبُ
 على موسى ابنه دخل الحزيبُ
 خلاء ما بساحتها مجيبُ
 أذوبُ وفي الحشا كبذ تذبُ
 وعاین يومه فيه المُرِبُ
 يحرّكهُ النداء فما يجيبُ
 لقد فجعت بمضرعه الحروبُ

رمتك يد الزمان بسهم عينِ
 ابن لي عن جميعك أين حلوا
 وأين محمدٌ وابناءه مالي
 كأن لم يؤنسوا بأئیس مُلكِ
 إمام كان في الحدثنِ عوناً
 لقد ترك الزمان بنى أبيه
 أضاعوا شمسهم فجرت بنحس
 وأجلوا عنهم قمرأ منيراً
 ولو كانوا لهم كفواً ومثلاً
 ألا بان الإمام ووارثاهُ
 وقالوا الخلد بيع فقلت ذلاً
 كذاك المُلكُ يتبع أولييه

وقال مقدس بن صفي يرثيه :

خليلي ما أتتك به الخطوبُ
 تدلت من شماریخ المنايا
 خلال مقابر البستانِ قبرُ
 لقد عظمت مصيبته على من
 على أمثاله العبرات تُذرى
 وما ادخرت زبيدة عنه دمعاً
 دعوا موسى ابنه لبكاء دهرِ
 رأيت مشاهد الخلفاء منه
 ليهنك أنني كهل عليه
 أصيب به البعيد فخر حزنأ
 أنادي من بطون الأرض شخصاً
 لئن نعت الحروب إليه نفساً

وقال خزيمه بن الحسن يرثيه :

سبحان ربك رب العزة الصمدي
وما أصيب به الإسلام قاطبة
من لم يصب بأمر المؤمنين ولم
يا ليلة يشتكي الإسلام مدتها
غدرت بالملك الميمون طائرته
سارت إليه المنايا وهي ترهبه
بشورجين وأغتام يقودهم
فصاذفوه وحيداً لا معين له
فجزعوه المنايا غير ممتنع
يلقى الوجوه بوجه غير مبتذل
واحسرتا وقريش قد أحاط به
فما تحرك بل ما زال منتصباً
حتى إذا السيف وافى وسط مفرقه
وقام فاعتلقت كفاه لبته
فاجتر ثم أهوى فاستقل به
فكاد يقتله لو لم يكائره
هذا حديث أمير المؤمنين وما
لا زلت أندبه حتى الممات وإن

ماذا أصبنا في صُبحة الأحدي
من التضعض في ركنيه والأود
يُصبح بمهلكة والهَم في صُعد
والعالمون جميعاً آخر الأبد
وبالإمام وبالضُرغامَةِ الأسد
فواجهته بأوغادِ ذوي عدد
قريش بالبيض في قمص من الزرد
عليهم غائب الأنصار بالمدد
فرداً فيا لك من مُستسلم فرد
أبهى وأنقى من القُوهِية الجُد
والسيف مُرتعد في كف مرتعد
منكس الرأس لم يبد ولم يعد
أذرتَه عنه يداهُ فعل مُتشد
كضَيغمِ شرس مستبسل لبد
للأرض من كف ليث مخرج حرد
وقام منفلتاً منه ولم يكد
نقصت من أمره حرفاً ولم أزد
أخنى عليه الذي أخنى على لبد

وقد حرصنا على نشر هذا الشعر في رثاء الأمين إنصافاً له وتديلاً على أن الرجل لم يكن على تلك الصورة التي حاول بعض المؤرخين إظهاره فيها من الضعف الكلي والتضعض الفكري والانعماس في اللهو انغماساً لا يتفق مع صفات رجل الدولة .

فنحن حين نترك القصائد الأولى التي لكل واحد من شعرائها بواعثه الخاصة ، ونأخذ قصائد الشعراء الثلاثة : عبد الرحمن بن أبي الهدهد الذي رثاه بقصيدتين ، ومقدس بن صيفي وخزيمه بن الحسن ، فإننا نستدل منها أنه كان للأمين جمهوره الشعبي المتمسك به

المتفجع له . هذا الجمهور الذي عبّر هؤلاء الشعراء الثلاثة عن شعوره ونطقوا باسمه ، هؤلاء الشعراء الذين لا نرى في قصائدهم أي لفظ يشعر بدافع شخصي أو هوى أناني . ولا نستطيع نحن - وبيننا وبين تلك الأحداث هذه المسافات البعيدة من القرون - إلا أن نتوجه بأشد الاحتقار لباعت هذا الشر ومثير هذه الفتن والمسبب لتلك المصائب : الفضل بن الربيع الذي استطاع بما أوتيته من دهاء شرير وقدره شيطانية أن يغري الأمين بما أغراه حتى إذا رأى بوادر الانخزال تخلى عن الأمين وأثر الانعزال طلباً للسلامة وترك الأمين يتخبط فيما تخبط فيه محروماً من مستشار يعول عليه ويأوي في الرأي إليه .

وإذا كان ما قيل في هذا العصر من أن التاريخ يكتبه المنتصر ، فإن هذا القول ينطبق على كل عصر ، ومع هذا فإننا لا نحسب أن كبار مؤرخينا قد تعمدوا اهتضام الأمين ، وهم الذين استطاعوا أن ينقلوا إلينا مثل ما مر من مراثيه .

وكم يحتاج تاريخنا إلى مخلصين ينشون خباياه ، ويظهرون حقائقه ، ويعرضونه خالصاً من شوائب التزييف ، وما أكثر التزييف والتحريف فيما وصلنا من هذا التاريخ .

على أننا ونحن ننشر ما ننشر من شعر رثاء الأمين لا بد لنا من نشر القصيدة التي اختلف في اسم ناظمها والتي نسبت إلى أكثر من شاعر ، وهي القصيدة التي أرسلتها أم جعفر ، (والدة الأمين) ، إلى المأمون بعد مقتل ابنها وانتصار المأمون :

وأفْضَلَ سامَ فوقَ أعوادِ منبَرِ	لخَيْرِ أمامَ قامَ من خَيْرِ عُصْبِ
إلى الملكِ المأمونِ من أم جعفرِ	لوارِثِ علمِ الأولينَ وفهْمِهم
إليكِ ابنِ عمي من جفوني ومحجري	كتبْتُ وعيني تُسْتَهَل دُموعها
وأزَقَ عيني يا ابنِ عمي تفكُري	وقد مسَّني ضرٌّ وذُلُّ كآبِةِ
إليكِ شكَاةَ المُسْتَهَامِ المُقَهَّرِ	سأشكو الذي لاقيتُهُ بعدَ فقديهِ
فأنتِ لبثي خيرُ ربِّ مغيبرِ	وأرجو لما قد مرَّ بي مذ فقديهِ
فما طاهرٌ فيما أتى بِمَطْهَرِ	أتى طاهرٌ لا طَهَرَ اللُّهُ طاهرا
وأنْهَبَ أموالِي وأحرقَ أدبيري	فأخرجني مكشوفةَ الوجهِ حاسراً
وما مر بي من ناقصِ الخلقِ أعورِ	يعزُّ علي هارونَ ما قد لقيتُهُ
صبرتُ لأمر من قديرٍ مقدرِ	فإن كان ما أسدى بأمرِ أمرتهِ
فديتك من ذي حُرمةٍ متذكرِ	تذكُر أمير المؤمنينِ قرابتي

ويقول ابن الأثير إن المأمون لما قرأ هذه القصيدة بكى وقال: أنا والله الطالب بثأر أخي، قتل الله قتلته.

وأم جعفر التي أرسلت هذه القصيدة إلى المأمون هي التي كانت تأمل أن يأتوا لها بالمأمون أسيراً في قدميه القيد، ولكنها اشترطت أن يكون القيد من فضة لا من حديد، ولا شك أن لأم جعفر أثراً كبيراً في تحريض ولدها محمد الأمين في الإقدام على ما أقدم عليه. وعدا هذه القصيدة فقد أرسلت للمأمون بعد قتل ابنها كتاباً بليغاً مؤثراً ختمته بقولها: وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي إليك.

وقد أجابها المأمون على كتابها بكتاب رائع. وهذان الكتابان من أرقى النصوص الأدبية العربية وأكثرها أثراً في النفس واستجاشة للعاطفة الكريمة.

ويؤسفني أن الكتابين لا يحضراني الآن عند تدوين هذا الكلام، فقد كانا جديرين بأن يضافا إلى مواد هذا الكتاب.

ملحمة بغداد

ما ذكرناه فيما تقدم من الشعر كان صدى لمقتل الأمين. على أن الشعر قد سبق مقتل الأمين، فإن ما كان يصيب بغداد خلال الحصار من فواجع، وما كانت تعانيه من كوارث، وما كان يلقي سكانها من شدايد، قد أنطق شعراءها وأثار قرائحهم، ومن المؤسف أن هذا الشعر وغيره من أمثاله في غير هذه الأحداث لم يلق عناية مؤرخي الأدب العربي، حتى إنهم لم يشيروا إليه أدنى إشارة، وإن كان هذا الشعر لم يرتفع بمستواه الفني إلى مراتب شعر كبار الشعراء، فإنه بواقعيته وتصويره الدقيق لفترات هامة من تاريخ العرب والإسلام وتعبيره عن أحاسيس الجماهير يعد من أهم الشعر العربي في كل أذواره. وإننا ننشر هنا مطولة للخزيمي حسب تسمية الطبري، يمكننا أن نطلق عليها اسم ملحمة بغداد، وفي اعتقادي أنها جديرة بشروح ودراسات مطولة:

قالوا ولم يلعب الزمان بـ	بغداد وتعثر بها عواثرها
إذ هي مثل العروس بادئها	مَهْوَلٌ للفتى وحاضرها
جنة دنيا ودار مغبطة	قل من النائبات وائرها
دَرَّتْ خُلُوفُ الدنـيا لسـاكنها	وقل مَسُورُها وعابِـرُها
وانفَرَجَتْ بالنعيم وانتجعت	فيها بلذاتها حواضرها

فالقوم منها في روضة أنق
 من غره العيش في بلهنية
 دار ملوك رست قواعدها
 أهل العلى والشرى وأندية
 أفرأخ نغمى في إزث مملكة
 فلم يزل والزمان ذو غير
 حتى تسأقت كاساً مُثَمَلَةً
 وافترقت بعد ألفة شيعاً
 يا هل رأيت الأملاك ما صنعت
 أوردَ أملاكنا نفوسَهُم
 ماضرها لو وقت بموثقها
 ولم تسافك دماء شيعتها
 وأقنعتها الدنيا التي جُمعت
 ما زال حوض الأملاك مسجورها
 تبقى فضول الدنيا مكائفة
 تبسغ ما جمع الأبوة للـ
 يا هل رأيت الجنان زاهرة
 وهل رأيت القصور شارعة
 وهل رأيت القرى التي غرس الـ
 فإنها أصبحت خلايا من الـ
 قفراً خلاء تعوي الكلاب بها
 وأصبح البؤس ما يفارقها
 بزند ورد والياسريئة
 وبالرحى والخيزرانية
 وقصر عبدويه عبدة وهدى

أشرق غب القطان زائرهما
 لو أن دنيا يدوم عامزها
 فيها وقرت بها منابرها
 الفخر إذا عددت مفاخرها
 شد عراها لها أكابرها
 يقدح في ملها أصاغرها
 من فتنة لا يقال عابرها
 مقطوعة بينها أياصرها
 إذ لم يزغها بالنصح زاجرها
 هوة غي أعيت مصادرها
 واستحكمت في الثقى بصائرها
 وتبتعل فتية تكابرها
 لها وزغب النفوس ضائرها
 ... بالهوى وساجرها
 حتى أبيحت كرها ذخائرها
 أبناء لا أربحت متاجرها
 يزوق عين البصير زاهرها
 تكين مثل الدمي مقاصرها
 أملاك مخضرة دساكرها
 إنسان قد دميت محاجرها
 ينكر منها الرسوم دائرها
 لفا لها والسرور هاجرها
 والشطين حيث انتهت معابرها
 العليا التي أشرفت قناطرها
 لكل نفس زكت سرائرها

فأين حُرَّاسُهَا وحارسها
 وأين خِصْيَانُهَا وحشوتها
 أين الجرادِيَّةُ الصقالبُ والـ
 ينصدغُ الجندُ عن مواكبها
 بالسُنْدِ والهنْدِ والصقالبِ
 طيراً أبابيل أرسلت عبثاً
 أين الظباءُ الأبقارُ في روضة الملك
 أين غَضاراتها وَلَذَّتْهَا
 بالمسك والعنبرِ اليماني والـ
 يرفلنُ في الخَزِ والمجاوِدِ والمؤشِي
 فأين رقاصها وزايمها
 تَكَادُ أسماعُهم تسيلُ إذا
 أمست كجوفِ الحمارِ خاليةً
 كأنما أصبحت بساحتهم
 لا تعلمُ النفسُ ما يُبايئُها
 تضحى وتُمسي دَرِيَّةً غَرَضاً
 لأسهُمِ الدهرِ وهو يَرشُقُها
 يَابُوسُ بَغدادِ دارِ مملَكَةِ
 أمهلها الله ثم عاقبها
 بالخسفِ والقَذْفِ والحريقِ
 كم قد رأينا من المعاصي بها
 حلت ببغداد وهي آمنَةٌ
 طالَعها السوء من مَطالِعِهِ
 رَقَّ بها الدينُ واستخف بذي
 وَخَطَمَ العبيدُ أنفَ سيدهِ

وأين مجبورُها وجابرها
 وأين سكانها وعامزها
 أحْبِشْ تعدُّ هُدلاً مشافرها
 تغدو بها شُرْباً ضوايمُها
 والثوبَةُ شِيْبَتْ بها بِرابِرها
 يقدُمُ سُدُوتُها أحامِرها
 تَهَادَى بها غَرائِرها
 وأين مَحْبُورُها وحايِرها
 أنجوجِ مَشْبُوبَةٌ مجامِرها
 مخطومةٌ مزامِرها
 يُجِبْنَ حيثُ انتهت حناجرُها
 عارضُ عيدانها مزامِرها
 يسَعَرُها بالجحيمِ ساعِرها
 عادٌ ومستثم صراصِرها
 من خادثِ الدهرِ أو يُباكرُها
 حيث استقرت بها شراشرها
 مُحْنِطُها مرَّةً وبقايرُها
 دارت على أهلها دوائرُها
 لما أحاطت بها كبائِرها
 وبالحرِبِ التي أصبحت تساورُها
 كالعاهرِ السَّوءِ...
 داهيةٌ لم تكن تحاذرها
 وأدركت أهلها جرائِرها
 الفضلِ وَعَزَّ النَّسَاكُ فاجرُها
 بالرُّغمِ واستعبدت مَخادِرها

وصار ربّ الجيران فأسقّهم
 من يرّ بغدادَ والجنودُ بها
 كل طحونٍ شهباءِ بآسلةٍ
 تلقى بغّي الردي أو أنسها
 والشيخ يعدو حزمًا كتائبه
 ولزهير بالقول مأسدة
 كتائب الموت تحت ألوية
 يعلم أن الأتدار واقعة
 فتلك بغداد ما يُبنى من الـ
 محفوفة بالردى منطقة
 وبين شطّ الفرات منه إلى
 كهادي السّفراء نافرّه
 يخرقها ذا وذاك يهدمها
 والكرخ أسواقها معطلّة
 أخرجت الحرب من سواقطها
 من البواري ترأسها من الخو
 تغدو إلى الحرب في جواسنها
 كتائب (الهرش) تحت رايته
 وابتزّ أمر الدروب ذاعرها
 قد ربّقت حولها عساكرها
 تنسقط أحبالها زماجرها
 يرهبها للقاء طاهرها
 يقدم أعجازها يعاورها
 مرقومة صلبة مكاسرها
 أبرح منصورها وناصرها
 وقعا على ما أحبّ قادرها
 مدّله في دورها عصافرها
 بالصنغر مخضورة جبابرها
 دجلة حيث انتهت معايرها
 تزكض من حولها أشايرها
 ويشتفي بالنهاب شاطرها
 يستنّ عيّاؤها وعائرها
 آساد غيل غلباً تساورها
 ص إذا استلّمت مغافرها
 الصوف إذا ما عدت أساورها
 ساعد طرازها مقامرها^(١)

(١) الهرش: قال الطبري، وهو يتحدث عن الأوضاع داخل بغداد أثناء الحصار: أقبل محمد، (الأمين)، على اللهو والشرب ووكّل الأمر إلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الهرش فوضعا مما يليهما من الدروب والأبواب وكلاهما بأبواب المدينة والأرباض وسوق الكرخ وفرض دجلة وباب المحول والكناسة فكان لصوصها وفساقها يسلبون من قدروا عليه من الرجال والنساء والضعفاء من الملة والذمة؛ فكان منهم في ذلك ما لم يبلغنا أن مثله كان في شيء من سائر بلاد الحروب. ولما طال ذلك بالناس وضاعت بغداد بأهلها وخرج عنها من كانت به قوة بعد الغرم الفادع والمضايقة الموجعة والخطر العظيم، فأخذ ظاهر أصحابه بخلاف ذلك واشتد منه وغلظ على أهل الريب وأمر محمد بن خالد بحفظ الضعفاء والنساء وتجويزهم وتسهيل أمرهم. فكان الرجل أو المرأة =

لا الرزق تبغي ولا العطاء ولا
 في كل درب وكل ناحية
 بمثل هام الرجال من فلق الصخر
 كأنما فوق هامها عدف
 والقوم من تحتها لهم زجل
 بل هل رأيت السيوف مُصلتة
 والخيل تستئن في أزقتها
 والنفط والناز في طرائقها
 والنهب تعدو به الرجال وقد
 معصوصابات وسط الأزقة قد
 كل رقوم الضحى مخبأة
 بيضة خدر مكنونة برزت
 تعثر في ثوبها وتعجلها
 تسأل أين الطريق والهة
 لم تجتلي الشمس حُسن بهجتها
 يا هل رأيت الشكلى مولولة

يحشُرُها لَلقَاءِ حاشِرُها
 خَطَاةً يَسْتَهْلُ خَاطِرُها
 يَزُوذُ المَقْلَاعَ بَائِرُها
 من القطا الكُذِرِ هاج نافرُها
 وهي ترامي بها خَواطِرُها
 أشهرها في الأسواقِ شاهرُها
 بالترك مسنونة خناجرُها
 وهابياً للدخانِ عامرُها
 أبدت خلاخيلها خرائرُها
 أبرزها للعيون سائرُها
 لم تبدُ في أهلها محاجرُها
 للناس منشورة عداثرُها
 كَبَّةٌ خيلٍ زيعت حوافرُها
 والناز من خلفها تبادرُها
 حتى اجتلتها حربٌ تباشرُها
 في الطُرق تسمى والجهدُ باهرُها

= إذا تخلص من أيدي أصحاب الهرش وصار إلى أصحاب طاهر ذهب عنه الروع وأمن وأظهرت المرأة ما معها من ذهب وفضة أو متاع أو بز حتى قيل إن مثل أصحاب طاهر ومثل أصحاب الهرش وذويه ومثل الناس إذا تخلصوا مثل السور الذي قال الله تعالى ذكره: ﴿فَضْرِبْ يَمِينَهُمْ يُسْوَئُ لَهُمُ الْبَابَ بِإِذْنِ اللَّهِ الرَّحْمَةِ وَالْكَرَمِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْعَذَابُ﴾ .

وقال الطبري في موضع آخر: إن محمداً، (الأمين)، أمر زريعاً غلامه بتتبع الأموال وطلبها عند أهل الودائع وغيرهم وأمر الهرش بطاعته، فكان يهجم على الناس في منازلهم ليلاً ويأخذ بالظنة فجبى بذلك السبب أموالاً كثيرة وأهلك خلقاً فهرب الناس بعلقة الحج وفر الأغنياء فقال القراطيبي في ذلك:

أظهروا الحج وما ينوونه
 كم أناس أصبحوا في غبطة
 كل من راد زريع بيته
 بل من الهرش يريدون الهرب
 وكُلُّ الهرش عليهم بالعطب
 لقي الذل ووفاه الحرب

في إثر نَعَشٍ عَلَيْهِ واحِدُهَا
 فَرغَاءُ يَنْقِي الشَّنَارَ مَرِيدَهَا
 تَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ وَتَهْتَفُ بِالْث
 غَرغَرَ بِالنَّفْسِ ثَمَ اسْلَمَهَا
 وَقَدْ رَأَيْتَ الْفَتْيَانَ فِي عَرِصَةِ
 كُلِّ فِتْيٍ مَنَاعٍ حَقِيقَتَهُ
 بَاتَتْ عَلَيْهِ الْكِلَابُ تَنْهَشُهُ
 أَمَا رَأَيْتَ الْخُيُولَ جَائِلَةً
 تَعْتَرُ بِالْأَوْجِهِ الْجِسَانَ مِنْ
 يَطَّانَ أَكْبَادَ فِتْيَةٍ تُجَدِّ
 أَمَا رَأَيْتَ النِّسَاءَ تَحْتَ الْمَجَا
 عِقَائِلِ الْقَوْمِ وَالْعَجَائِزِ وَالِ
 يَخْمِلْنَ قَوَاتًا مِنَ الطَّحِينِ عَلَى الْ
 وَذَاتُ عَيْشٍ ضَنْكَ وَمُقْعِسَةً
 تَسْأَلُ عَنْ أَهْلِهَا وَقَدْ سَلِبَتْ
 يَا لَيْتَ مَا وَلِلدَّهْرُ ذُو دُولِ
 هَلْ تَرْجِعُنَّ أَرْضَنَا كَمَا غَنَيْتِ
 مِنْ مَبْلَغِ ذَا الرِّئَاسَتَيْنِ رَسَا
 بَأْدُ خَيْرِ الْوَلَاةِ قَدْ عَلِمَ النَّدِ
 خَلِيفَةُ اللَّهِ مِنْ بَرِيَّتِهِ الْ
 سَمْتُ إِلَيْهِ آمَالُ أُمَّتِهِ
 شَامُوا حَيَا الْعَدْلِ مِنْ مَخَايِلِهِ
 فِي صَدْرِهِ طَعْنَةً يُسَاوِرُهَا
 يَهْزُهَا بِالسِّنَانِ شَاجِرُهَا
 كَلَّ وَعَزَّ الدَّمُوعُ خَامِرُهَا
 مَطْلُولَةً لَا يَخَافُ ثَائِرُهَا
 الْمَعْرَكَ مَعْفُورَةً مَنَاخِرُهَا
 تَشْقَى بِهِ فِي الْوَعَا مَسَاعِرُهَا
 مَخْصُوبَةً مِنْ دَمِ أَظْفَارِهَا
 بِالْقَزْمِ مَنَكُوبَةً دَوَائِرُهَا
 الْقَتْلَى وَغَلَّتْ دَمًا أَشَاعِرُهَا
 يَفْلِقُ هَامَاتِهِمْ حَوَافِرُهَا
 نَيْقُ تَعَادَى شُغْشَا ضَفَائِرُهَا
 عُغْنَسَ لَمْ تَخَيَّرَ مَعَاصِرُهَا
 أَكْتَفَى مَغْضُوبَةً مَعَاجِرُهَا
 تَشْدُخُهَا صَخْرَةَ تَعَاوِرُهَا
 وَابْتُرَّ عَنْ رَأْسِهَا غَفَائِرُهَا
 يُرْجَى وَأُخْرَى تَخْشَى بَوَادِرُهَا
 وَقَدْ تَنَاهَتْ بِنَا مَصَائِرُهَا
 لَاتِ تَأْتِي لِلتُّضْحِ شَاعِرُهَا^(١)
 سَأَسُ إِذَا عُدَدَتْ مَائِرُهَا
 مَأْمُونٌ سَائِسُهَا وَجَابِرُهَا
 مَنَقَادَةٌ بَرُّهَا وَفَاجِرُهَا
 وَأَصْحَرَتْ بِالثَّقَى بِصَائِرُهَا

(١) ذو الرئاستين هو الفضل بن سهل وزير المأمون وصاحب تدييره، اتصل به في صباه وأسلم على يده وصحبه قبل أن يلي الخلافة، فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش معاً فلقب بذي الرئاستين، (الحرب والسياسة). وكان حازماً عاقلاً فصيحاً.

وأحمدُوا منك سيرة جلت الـ
 واستجمعت طاعة برفك للمـ
 وأنت سمعَ في العالمين له
 فاشكر لذي العرش فضل نعمتي
 واحذر فداء لك الرعية وألـ
 لا تردن غمرةً بنفسك لا
 عليك ضحضاها فلا تلج الـ
 والقصدُ أنَّ الطريق ذو شعبٍ
 أصبحت في أمةٍ أوائلها
 وأنت سُرسورُها وسائسها
 أذب رجالاً رأيت سيرتهم
 وامدد إلى الناس كف مرحمة
 أمكنك العدلُ إذ هممت به
 وأبصرَ الناس قصدَ وجههم
 تشرع أعناقها إليك إذا الـ
 كم عندنا من نصيحة لك في الله
 وحرمة قريت أياصرها
 سعي رجالٍ في العلم مطلبهم
 دونك غراء كالوذيلة لا
 لا طمعاً قُلتها ولا بطراً
 سيرها الله بالنصيحة والـ
 جاءتك تحكي لك الأمور كما
 حملتها صاحباً أختة

يبدو أن هذه الملحمة البغدادية قد أرسلت إلى الرجل الأول والعقل المدبر في حاشية
 المأمون ذي الرئاستين الفضل بن سهل، وربما لم يكن في نية ناظمها، الخزمي، عندما بدأ

بنظمها أن يرسلها إلى الفضل، بل كانت له دوافعه النفسية للتعبير عما يخالجه من شجون لما أصاب مدينته ولا يزال يصيبها، فاسترسل في الحديث عن ذلك حتى بلغ مبلغاً كبيراً، ثم رأى أن يتوجه بكلامه إلى الفضل بن سهل صاحب الرأي الحاسم الحازم في الدولة الجديدة التي بدأ يلوح للناس أنها هي التي ستكون صاحبة الحول والطول في القابل من الأيام، ليرفع أمرهم إلى المأمون في استعجال البت وتثبيت الأمر.

المأمون وولاية العهد

قتل الأمين سنة ١٩٨هـ وبذلك صفت الأمور للمأمون وأصبح الخليفة غير المنازع. وكان عليه أن يبت أول ما يبت. بأمر ولاية العهد، وهذه هي السنة الطبيعية لكل الملوك في كل العصور.

ولكننا نرى المأمون يخرج على هذه السنة فلا يبت بأمر ولاية العهد، وتظل الدولة بلا ولي عهد طيلة ثلاث سنين، وقد كان في تصرفه هذا تعريض للمملكة لخطر مريع، فلو طرقة الموت وهو بدون ولي عهد لتوالت إلى وراثة سلطته المتوالتون، وقامت الفتن أي قيام...

وأى خليفة - ولو لم يكن في مثل عقل المأمون وحنكته - كان يدرك هذه الحقيقة، ويعرف أن تربيته بتعيين خلف له فتح لباب من الفتن لا يعرف غير الله كيف يمكن أن يغلق. والغريب في الأمر أنه في مثل حال المأمون، وفي سيرة من تقدمه من الملوك، منذ معاوية بن أبي سفيان وصولاً إليه هو، ليس في الأمر ما يوجب التردد ويقتضي التريث، فقد جرت عادة الملوك أن يكون أولياء عهودهم الأكبر سناً من أولادهم، والمأمون ليس عقيماً، فعنده ولده العباس، وهو ولي العهد المنتظر لولاية العهد منذ الساعة التي أعلنت فيها خلافة المأمون.

ولكن المأمون لم يعلن ولده ولياً لعهد، فماذا ينتظر؟ وماذا وراء هذا التواني في تسمية ولي عهده؟

لقد ورث المأمون مملكة مترامية الأطراف، وأمبراطورية تشمل رقعة كبيرة من الأرض، وجمعاً من الناس، تجعلها المهابة المرهوبة.

لقد بلغت هذه الأمبراطورية ذروة قوتها في عهد أبيه الرشيد، ووصلت إليه بعد فتنة لم يصعب عليه قمعها، وها هي الآن في يديه بلا منازع ولا معارض، وها هو في قوة شخصيته وشدة مراسه وحسن تدبيره ممسك بزمامها متصرف بأمرها.

إن المملكة التي بدت في عهد الرشيد في ذورة القوة، كانت في نفس الوقت تنطوي على مكانن الضعف .

وإنها، وهي في مظاهر التماسك والتوحد، كانت في واقعها في مزلق التفكك والتمزق .

ففي بلاد الشام قام سنة ١٧٤هـ تمرد عنيف، وفي سنة ١٨٠هـ قامت فيها ثورة لم يمكن إخمادها إلا بإرسال جعفر البرمكي . وكذلك قامت في الجزيرة سنة ١٧٨هـ حركة الوليد بن طريف الخارجي التي شكلت خطراً حقيقياً على الدولة، ولم ينته الخطر إلا بإرسال يزيد بن مزيد الشيباني، كما قامت حركات خوارجية أخرى كحركة العطف الأزدي وحركة عبد السلام وحركة حمزة بن عبد الله الأزدي .

وفي الديلم قامت حركة يحيى بن عبد الله الحسيني واشتدت إلى الحد الذي اضطر معه الرشيد أن يرسل لإخمادها حملة فيها خمسون ألف مقاتل .

وفي مصر قامت حركة تمرد سنة ١٧٨هـ لم تنته إلا بإرسال حملة بقيادة هرثمة بن أعين . وفي السنة نفسها قام فيها تمرد آخر . وفي خراسان قام تمرد أبي الخطيب وهيب بن عبد الله النسائي .

إلى غير ذلك من الأحداث والثورات .

وخطا الرشيد نفسه الخطوة الأولى في تمزيق الدولة حين ولّى إبراهيم بن الأغلب بلاد أفريقيا على أن تكون ولايتها وراثية في أعقابه، مما كان مؤداه استقلال هذه البلاد وفصلها عن الدولة . ثم أتم الرشيد تقطيع الأوصال بتقسيم الدولة بين ولديه إلى قسمين استقل كل منهما عن القسم الآخر، فعادت الدولة الواحدة دولتين .

ثم قامت الحرب بين الأمين والمأمون وأورثت ما أورثت من التمزق والتفكك .

وجد المأمون نفسه على رأس أمبراطورية واسعة، لها كل مقومات الأمبراطوريات من جيوش وولاة وإدارات وخزائن أموال .

ولكنه بنظره البعيد رأى أنه ينقصها الشيء الذي إذا لم تحظ به، فهي سائرة إلى الاضمحلال، ولن تفيدها كل مظاهر القوة والعظمة، وكل ما لها من اتساع الرقعة وامتداد الحدود وكثرة الأموال والجنود .

هذا الشيء هو التماسك بين أجزائها، والالتحام بين قواها . لقد كان هو بقوة شخصيته

وحزمه وحسن تدبيره كفيلاً باطراد سيرها اطراداً لا يعيقه عائق، وكفيلاً كذلك بأن لا تتشقق أطرافها، ولا تتمزق قواعدها، ولكن من له بمن يضمن لها ذلك بعده؟

لقد كان أحوج ما تحتاجه الدولة هو القيادة ذات الكفاءة المتعددة الجوانب، كفاءة في الإدارة، وكفاءة في الأخلاق وحسن السيرة.

لو أن رجلاً غير المأمون ورث ذلك الملك العريض الذي ورثه المأمون، لما كان شغل تفكيره من يتولى الأمر بعده، فالقاعدة التي سنها معاوية بقيت قاعدة الحكام منذ عهده حتى عهد الرشيد، فالأبناء هم الذين يجب أن يرثوا الآباء في حكم المسلمين، ولو كانوا في مستوى يزيد بن معاوية.

لقد كانت المشكلة محلولة منذ البداية، أو بالأصح لم تكن هناك مشكلة ما دام للمأمون ابن لا يقل في شخصيته عن من كانوا قبله أولياء عهود منذ يزيد.

إن الأمر الطبيعي هنا أن يعهد المأمون بولاية العهد لولده العباس، ولم يكن في تفكير أحد أن الأمر سيكون غير ذلك.

ولكن المأمون كان طرازاً خاصاً بين الحكام. كانت مصلحة الدولة هي التي تهتمه ومستقبل الدولة هو الذي يشغله، كان ذلك عنده فوق مصلحته ومصلحة ولده ومصلحة أسرته.

لقد رأى بعين البعيد النظر، العميق الاستنتاج، أن الدولة لكي تظل دولة قوية مترابطة متقدمة يجب أن تقودها يد حازمة صالحة رشيدة، وأن تكون على رأسها زعامة خارقة تستطيع أن تسير بها سليمة في الخضم المتلاطم الذي ينتظرها.

ولم ير في ابنه كفاءة القائد الذي يتخيله في هذا الطرف الاستثنائي الخطر، فتجاوز ابنه إلى من هم أقرب إليه من غيرهم، إلى إخوته، فلم ير فيهم الرجل المؤمل.

لقد كانت مصلحة الأمة هي التي تشغل المأمون، ومستقبل الوطن هو الذي يثير تفكيره. من هو الرجل المنقذ؟ من هو رجل الساعة في هذا الموقف الدقيق الذي يصير إليه أمر الإسلام والمسلمين؟

من هو الربان الذي يستطيع أن يقود السفينة سالمة في البحر العاصف المتواثب الذي ينتظرها؟

من هو الزعيم الذي يستطيع أن يموت المأمون قرير العين على الشعوب الإسلامية إذا سلم إليه زعامتها.

لقد ظل المأمون يدرس ويفكر ويستعرض الرجال ثلاث سنين بقي فيها منصب ولي العهد شاغراً، والدولة مهددة بالفوضى الدموية إذا طرأ طارئ على حياة المأمون.

ثم أعلن قراره بتنصيب علي بن موسى بن جعفر الذي اشتهر باسم (علي الرضا) ولياً للعهد. فكانت المفاجأة الكبرى التي لم تخطر في بال إنسان^(١).

إنه علي بن موسى بن جعفر، إنه الذي تتجمع فيه كل صفات ما نطلق عليه في عصرنا الحاضر لقب رجل الدولة من إيمان وسيرة نقية وإرادة صلبة، وعزم وحزم وعلم.

إنه بطل الإسلام المنشود في زمن هو في أمس الحاجة إلى البطولات.

إن المأمون عرف كيف يضمن للدولة سيرها التقدمي بلا تعثر ولا تعسف حين عزم على تسليم زمامها بعده إلى علي بن موسى بن جعفر (ع).

قد كان يوم الإسلام في تلك الفترة يوماً شديداً عصيباً تقف فيه الدولة الإسلامية على مفترق طرق، فإما أن تجد من يقودها صعوداً إلى القمم العالية وإما أن تزل بها الأقدام في المنحدرات منحدرًا بعد منحدر.

وها هو المأمون يهديه الله إلى رجل الإنقاذ. وهنا تتجلى حقيقتان طوتهما عن الأنظار تلك السطحية التي عولجت ولا تزال تعالج بها قضية ولاية العهد هذه.

الحقيقة الأولى: عظمة علي الرضا، عظمته لا كإمام فقط تُتلقى عنه تعاليم الدين، فيفيض علماً وتقى وهداية وصلاً؛ بل عظمته أيضاً إنساناً، إنساناً تتجمع فيه قوة القيادة الشعبية، وقوة القيادة السياسية، وقوة القيادة الإدارية.

عظمة الزعيم والقائد والحاكم.

الحقيقة الثانية: إخلاص المأمون للأمة الإسلامية إخلاصاً لم يسبقه به سابق ولم يلحقه به لاحق، إخلاصاً ضحى فيه المأمون تضحية لم يعرفها التاريخ من قبل. فقد عرفنا الملوك يولون ولاية العهد لأولادهم مهما كان أمر هؤلاء الأولاد. هم أولياء اليهود سواء كانوا أقوىاء أو عاجزين، صالحين أو فاسدين. بل لقد عرفنا أكثر من ذلك، عرفنا أن بعض الملوك كانوا يعهدون بولاية العهد لأكثر من ولد واحد من أولادهم واحداً بعد الآخر، فيعمل من يصير إليه

(١) عمم المأمون خبر اختياره علياً الرضا ولياً لعهد على جميع البلاد الإسلامية. يقول المقرئزي في خطبه (ج، ١، ص ١٧٩): «فلما كان في المحرم سنة اثنتين ومئتين ورد كتاب المأمون، إلى (والي مصر)، يأمره بالبيعة لولي عهد علي بن موسى الرضا».

الملك على إزالة أخيه المعهود إليه بعده من أبيه، يعمد إلى إزالته ليحل ابنه محله.

فبعد الملك بن مروان مثلاً عهد بولاية العهد لابنه الأكبر، (الوليد)، على أن يتولى الأمر بعده أخوه سليمان، وبعد سليمان بقية الإخوة.

ولكن الوليد بعد أن صار الحكم إليه قرر عزل أخيه سليمان عن ولاية العهد، وجعل ابنه مكان أخيه وبدأ الإعداد لذلك بعد أن مهد له مع الولاة والقواد، ولكن الأجل عاجله فمات قبل إتمام الأمر.

وقام بنفس العمل الخليفة العباسي المنصور إذ كان الخليفة العباسي الأول، أبو العباس السفاح، قد عهد بولاية عهده إلى أخيه المنصور على أن يكون ولي عهد المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى. ولكن لما صار الأمر إلى المنصور أزاح عيسى عن ولاية عهده وجعلها لولده المهدي على أن يكون عيسى بعده، ثم إن المهدي خلع ابن عمه عيسى من ولايته وعقدها لولده الهادي.

وكذلك فعل الأمين فقد خلع أخاه المأمون من ولاية عهده وجعلها لولده. أما المأمون فقد كان الأمر بيده وكان ولي عهده الطبيعي ولده العباس، ولكن الدولة تحتاج إلى رجل أقوى من العباس، فتجاوز المأمون ولده وضحي به من أجل مصلحة الدولة ثم تجاوز إخوته بعد أن تجاوز ولده، تجاوز ولده وإخوته إلى من كان الكفي كل الكفي لقيادة الدولة فيما ينتظرها من زعازع. تجاوزهم جميعاً إلى الرضا علي بن موسى بن جعفر، وذلك إخلاص وتلك تضحية لم يسبق المأمون إليهما سابق، ولم يلحقه بعدهما لاحق . . .

وبعد أن شاءت إرادة الله أن لا يتم ما قصد إليه المأمون، فمات الإمام الرضا قبل المأمون ظل المأمون على إخلاصه وتضحيته، فوازن بين ابنه العباس وبين أخيه المعتصم، فوجد أن أخاه، مهما كان شأنه، يظل أكفأ من ابنه فنحى ابنه وجعل أخاه ولياً لعهده. وتلك هي تضحية أخرى ينفرد بها المأمون على مدى التاريخ.

لقد شاءت مشيئة الله - ولا راد لمشيئته - أن لا يلي أمر المسلمين علي الرضا، وتحققت مخاوف المأمون وأخذت الدولة بالتدهور منذ وفاة المأمون وتولي المعتصم.

ولم يكن أحد أكثر شعوراً بالفاجعة التي حلت بالمسلمين بوفاة الرضا، من المأمون، ولم يحزن على الرضا أحد أكثر مما حزن المأمون، ولم يفض دمع أحد على علي بن موسى أكثر مما فاض دمع المأمون.

إنه لم يفجع بالرجل الذي أحبه حباً شخصياً فقط، بل فجع كذلك في أماله بإنقاذ مستقبل الدولة الإسلامية، وتلك هي أكبر الفواجع . . .

قدوم الرضا (ع) إلى مرو

قال الطبري: في هذه السنة، أي سنة ٢٠٠هـ، وجه المأمون رجاء بن أبي الضحاك وهو عم الفضل بن سهل وفرناس الخادم لإشخاص علي بن موسى بن جعفر بن محمد ومحمد بن جعفر.

وروى الصدوق في العميون بسنده عن رجاء بن أبي الضحاك قال: «بعثني المأمون في إشخاص علي بن موسى الرضا من المدينة وأمرني أن أخذ به على طريق البصرة والأهواز وفارس ولا أخذ به على طريق قم وأمرني أن أحفظه بنفسي بالليل والنهار حتى أقدم به عليه فكننت معه من المدينة إلى مرو». وجاء في أعيان الشيعة: «يأتي عن أبي الفرج والمفيد أنه كان المتولي لإشخاصهما الجلودي واسمه عيسى بن يزيد ويبعده أن الجلودي كان من قواد الرشيد وكان عدواً للرضا فلم يكن المأمون ليعثه في إشخاصه، وأورد المفيد في الإرشاد بعض ما أورده أبو الفرج الأصفهاني والظاهر أن ما اتفقا فيه نقله المفيد من المقاتل لأن نسخته كانت عنده بخط أبي الفرج كما صرح به في موضع آخر من الإرشاد فما اتفقا فيه نقلناه عنهما وما انفرد به أحدهما نقلناه عنه خاصة، قالوا: كان المأمون قد أنفذ إلى جماعة من آل أبي طالب فحملهم إليه من المدينة وفيهم الرضا علي بن موسى عليهما السلام فأخذ بهم على طريق البصرة حتى جاء بهم وكان المتولي لإشخاصهم المعروف بالجلودي قال أبو الفرج: من أهل خراسان».

وروى الكليني أن المأمون كتب إلى الرضا (ع) لا تأخذ على طريق الجبل وقم وخذ على طريق البصرة والأهواز وفارس. وفي رواية الصدوق: كتب إليه المأمون: لا تأخذ على طريق الكوفة وقم فحمل على طريق البصرة والأهواز وفارس وهي شيراز وما والاها. وذلك لأن الذهاب من العراق إلى خراسان له طريقان، أحدهما، طريق البصرة - الأهواز - فارس؛ والثاني طريق بلاد الجبل وهي كرمانشاه - همذان - قم.

وقال الحاكم في تاريخ نيسابور: أشخصه المأمون من المدينة إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى نيسابور إلى أن أخرجه إلى مرو وكان ما كان.

قال أبو الفرج والمفيد في تمة كلامهما السابق: فقدم بهم، أي بالجماعة من آل أبي

طالب، الجلودي على المأمون فأنزلهم داراً وأنزل الرضا علي بن موسى عليهما السلام داراً قال المفيد: وأكرمه وعظم أمره.

البيعة

قال المفيد: وجلس المأمون للخاصة في يوم خميس وخرج الفضل بن سهل فأعلم الناس برأي المأمون في علي بن موسى الرضا عليهما السلام وأنه قد ولاه عهده وسماه الرضا، وأمرهم بلبس الخضرة والعود لبيعته في الخميس الآخر على أن يأخذوا رزق سنة. فلما كان ذلك اليوم ركب الناس على طبقاتهم من القواد والحجاب والقضاة وغيرهم في الخضرة وجلس المأمون ووضع للرضا وسادتين عظيمتين حتى لحق بمجلسه وفراشه وأجلس الرضا عليهما في الخضرة وعليه عمامة وسيف ثم أمر ابنه العباس بن المأمون أن يبايع له أول الناس، فبايعه الناس ووضعت البدر وقامت الخطباء والشعراء فجعلوا يذكرون فضل الرضا (ع) وما كان المأمون في أمره، ثم قال المأمون للرضا (ع): اخطب الناس وتكلم فيهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: «إن لنا عليكم حقاً برسول الله ﷺ ولكم علينا حقاً به فإذا أنتم أديتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم». ولم يذكر عنه غير هذا في ذلك المجلس. وروى الصدوق في العيون والأمال: صعد المأمون المنبر ليبايع علي بن موسى الرضا (ع) فقال: أيها الناس جاءكم بيعة علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب والله لو قرئت هذه الأسماء على الصم والبكم ليرثوا بإذن الله عز وجل. وروى الصدوق في العيون: كانت البيعة للرضا عليه السلام لخمسة خلون من شهر رمضان سنة ٢٠١هـ.

وقال المفيد وأبو الفرج: وأمر المأمون فضربت له الدراهم وطبع عليها اسم الرضا (ع) وخطب للرضا (ع) في كل بلد بولاية العهد. قال أبو الفرج: وقال المفيد: روى أحمد بن محمد بن سعيد قال حدثني يحيى بن الحسن العلوي قال حدثني من سمع عبد الحميد بن سعيد يخطب في تلك السنة على منبر رسول الله ﷺ بالمدينة فقال في الدعاء له: اللهم وأصلح ولي عهد المسلمين علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

سنة آباء هم ما هم أفضل من يشرب صوب الغمام

عهد المأمون للرضا

كتب المأمون بخطه ومن إنشائه عهداً للرضا (ع) بولاية العهد وأشهد عليه، وكتب

عليه الرضا (ع) بخطه وذكره عامة المؤرخين. قال علي بن عيسى الإبلي في كشف الغمة: وصل من مشهده الشريف أحد قوامه ومعه العهد الذي كتبه المأمون بخط يده وبين سطره وفي ظهره بخط الإمام عليه السلام وما هو مسطور فقبلت مواقع أقلامه وسرحت طرفي في رياض كلامه وعددت الوقوف عليه من منن الله وإنعامه ونقلته حرفاً حرفاً وهو بخط المأمون:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب كتبه عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين لعلي بن موسى بن جعفر ولي عهده أما بعد فإن الله عز وجل اصطفى الإسلام ديناً واصطفى له من عباده رسلاً دالين عليه وهادين إليه يبشر أولهم وآخرهم ويصدق تاليهم ماضيهم حتى انتهت نبوة الله إلى محمد ﷺ على فترة من الرسل ودروس من العلم وانقطاع من الوحي واقترب من الساعة فحتم الله به النبيين وجعله شاهداً لهم ومهيماً عليهم وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد بما أحل وحرم ووعد وأوعد وحذر وأذر وأمر به ونهى عنه لتكون له الحجة البالغة على خلقه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ فبلغ عن الله رسالته ودعا إلى سبيله بما أمره به من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة التي هي أحسن ثم بالجهد والغلظة حتى قبضه الله إليه واختار له ما عنده ﷺ فلما انقضت النبوة وختم الله بمحمد ﷺ الوحي والرسالة جعل قوام الدين ونظام أمر المسلمين بالخلافة وإتمامها وعزها والقيام بحق الله فيها بالطاعة التي بها تقام فرائض الله وحدوده وشرائع الإسلام وسننه ويجاهد بها عدوه فعلى خلفاء الله طاعته فيما استحفظهم واسترعاهم من دينه وعباده وعلى المسلمين طاعة خلفائهم ومعاونتهم على إقامة حق الله وعدله وأمن السبيل وحقق الدماء وصلاح ذات البين وجمع الألفة وفي خلاف ذلك اضطراب جبل المسلمين واختلافهم واختلاف ملتهم وقهر دينهم واستعلاء عدوهم وتفرق الكلمة وخسران الدنيا والآخرة فحق على من استخلفه الله في أرضه واتمنه على خلقه أن يجهد الله نفسه ويؤثر ما فيه رضى الله وطاعته ويعتد لما الله موافقه عليه ومسائله عنه ويحكم بالحق ويعمل بالعدل فيما حمله الله وقلده فإن الله عز وجل يقول لنبية داود (ع) ﴿بِنَدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الدِّينَ يَبُيِّضُ لَوْنَهُ عَنِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال الله عز وجل: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْلُقَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٧) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وبلغنا أن عمر بن الخطاب قال: لو ضاعت سخلة بشاطيء الفرات لتخوفت أن يسألني الله عنها، وإيم الله إن المسؤول عن خاصة

نفسه الموقوف على عمله فيما بينه وبين الله ليعرض على أمر كبير وعلى خطر عظيم فكيف بالمسؤول عن رعاية الأمة وبالله الثقة وإليه المفزع والرغبة في التوفيق والعصمة والتسديد والهداية إلى ما فيه ثبوت الحجة والفوز من الله بالرضوان والرحمة وأنظر الأمة لنفسه أنصحهم الله في دينه وعباده من خلافته في أرضه من عمل بطاعة الله وكتابه وسنة نبيه عليه السلام في مدة أيامه وبعدها وأجهد رأيه ونظره فيمن يوليه عهده ويختاره لإمامة المسلمين ورعايتهم بعده وينصبه علماً لهم ومفزعاً في جمع ألفتهم ولمّ شعثهم وحقن دمائهم والأمن بإذن الله من فرقتهم وفساد ذات بينهم واختلافهم ورفع نزع الشيطان وكيدهم فإن الله عز وجل جعل العهد بعد الخلافة من تمام أمر الإسلام وكماله وعزه وصلاح أهله وألهم خلفاءه من توكيده لمن يختارونه له من بعدهم ما عظمت به النعمة وشملت فيه العافية ونقض الله بذلك مكر أهل الشقاق والعداوة والسعي في الفرقة والتربص للفتنة ولم يزل أمير المؤمنين منذ أفضت إليه الخلافة فاختر بشاعة مذاقها وثقل محلها وشدة مؤنتها وما يجب على من تقلدها من ارتباط طاعة الله مراقبته فيما حمله منها فأنصب بدنه وأسهر عينه وأطال فكره فيما فيه عز الدين وقمع المشركين وصلاح الأمة ونشر العدل وإقامة الكتاب والسنة ومنعه ذلك من الخفض والدعة ومهناً العيش علماً بما الله سائله عنه ومحبة أن يلقي الله مناصحاً له في دينه وعباده ومختاراً لولاية عهده ورعاية الأمة من بعده أفضل ما يقدر عليه من ورعه ودينه وعلمه وأرجاهم للقيام في أمر الله وحقه مناجياً له تعالى بالاستخارة في ذلك ومسألته الهامة ما فيه رضاه وطاعته في آناء ليله ونهاره معملاً في طلبه والتماسه في أهل بيته من ولد عبد الله بن العباس وعلي بن أبي طالب فكره ونظره مقتصراً ما علم حاله ومذهبه فهم على علمه وبالغاً في المسألة عمن خفي عليه أمره جهده وطاقته حتى استقصى أمورهم معرفة وإبلى أخبارهم مشاهدة واستبرى أحوالهم معاينة وكشف ما عندهم مساءلة فكانت خبرته بعد استخارته لله وإجهاده نفسه في قضاء حقه في عباده وبلاده في البيتين جميعاً علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لما رأى من فضله البارِع وعلمه الناصع وورعه الظاهر وزهده الخالص وتخليه من الدنيا وتسلمه من الناس وقد استبان له ما لم تزل الأخبار عليه متواطية والألسن عليه متفقة والكلمة فيه جامعة ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعاً وناضياً وحدثاً ومكتهلاً فعد له بالعهد والخلافة من بعده واثقاً بخيرة الله من ذلك إذ علم الله أنه فعله إثارة له وللدِين ونظراً للإسلام والمسلمين وطلباً للسلامة وثبات الحق والنجاة في اليوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين ودعا أمير المؤمنين ولده وأهل بيته وخاصته وقواده وخدمه فبايعوا

مسرعين مسرورين عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعة الله على الهوى في ولده وغيرهم ممن هو أشبك منه رحماً وأقرب قرابة وسماه الرضا إذ كان رضاً عند أمير المؤمنين فبايعوا معشر أهل بيت المؤمنين ومن بالمدينة المحروسة من قواده وجنده وعامة المسلمين لأمر المؤمنين وللرضا من بعده علي بن موسى على اسم الله وبركته وحسن قضائه لدينه وعباده بيعة مبسوطة إليها أيديكم منشرة لها صدوركم عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها وآثر طاعة الله والنظر لنفسه ولكم فيها شاكرين الله على ما ألهم أمير المؤمنين من قضاء حقه في رعايتكم وحرصه على رشدكم وصلاحكم راجين عائدة ذلك في جمع ألفتكم وحقن دمائكم ولمّ شعنتكم وسدّ ثغوركم وقوة دينكم واستقامة أموركم وسارعوا إلى طاعة الله وطاعة أمير المؤمنين فإنه الأمر الذي إن سارعتم إليه وحمدتم الله عليه عرفتم الحظ فيه إن شاء الله وكتب بيده في يوم الاثنين لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين .

وكتاب الرضا (ع) على ظهر العهد

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الفعال لما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وصلاته على نبيه محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين . أقول وأنا علي الرضا بن موسى بن جعفر إن أمير المؤمنين عضده الله بالسداد ووفقه للرشاد عرف من حقنا ما جهله غيره فوصل أرحاماً قطعت وأمن نفوساً فزعت بل أحياها وقد تلفت وأغناها إذ افتقرت مبتغياً رضى رب العالمين لا يريد جزاء من غيره وسيجزى الله الشاكرين ولا يضيع أجر المحسنين وإنه جعل إليّ عهده والإمرة الكبرى إن بقيت بعده فمن حل عقدة أمر الله بشدها وفصم عروة أحب الله إيثاقها فقد أباح حريمه وأحل محرمة إذ كان بذلك زارياً على الإمام منتهكاً حرمة الإسلام بذلك جرى السالف فصبر منه على الفلتات ولم يعترض بعهدتها على العزمات خوفاً من شتات الدين واضطراب جبل المسلمين ولقرب أمر الجاهلية ورصد فرصة تنتهز وبانقة تبتدر وقد جعلت الله على نفسي إذ استرعاني أمر المسلمين وقلدني خلافته العمل فيهم عامة وفي بني العباس بن عبد المطلب خاصة بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وأن لا أسفك دماً حراماً ولا أبيع فرجاً ولا مالاً إلا ما سفكته حدود الله وأباحته فرايضه وأن أتخير الكفاة جهدي وطاقتي وجعلت بذلك على نفسي عهداً مؤكداً يسألني الله عنه فإنه عز وجل يقول ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ وإن أحدثت أو غيرت أو بدلت كنت للغير مستحقاً وللنكال متعرضاً وأعوذ بالله من سخطه وإليه أرغب في التوفيق لطاعته والحوول بيني وبين معصيته في عافية لي وللمسلمين ﴿ وَمَا آدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ لكني

امتثلت أمر أمير المؤمنين وآثرت رضاه والله يعصمني وإياه وأشهدت الله على نفسي بذلك وكفى بالله شهيداً وكتبت بخطي بحضرة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه والفضل بن سهل وسهل بن الفضل ويحيى بن أكثم وعبد الله بن طاهر وثمامة بن أشرس وبشر بن المعتمر وحماد بن النعمان في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين .

الشهود على العهد

شهد يحيى بن أكثم على مضمون هذا المكتوب ظهره وبطنه وهو يسأل الله أن يعرف أمير المؤمنين وكافة المسلمين بركة هذا العهد والميثاق، وكتب بخطه في التاريخ المبين فيه عبد الله بن طاهر بن الحسين أثبت شهادته فيه بتاريخه شهد حماد بن النعمان بمضمونه ظهره وبطنه وكتب بيده في تاريخه بشر بن المعتمر يشهد بمثل ذلك .

رسم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه هذه الصحيفة التي هي صحيفة الميثاق نرجو أن يجوز بها الصراط ظهرها وبطنها بحرم سيدنا رسول الله ﷺ بين الروضة والمنبر على رؤوس الأشهاد بمراى ومسمع من وجوه بني هاشم وسائر الأولياء والأجناد بعد استيفاء شروط البيعة عليهم بما أوجب أمير المؤمنين الحجة على جميع المسلمين ولتبتل الشبهة التي كانت اعترضت آراء الجاهلين وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه وكتب الفضل بن سهل بأمر أمير المؤمنين بالتاريخ فيه .

هذا ما ذكره صاحب كشف الغمة وقال سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص : ثم قرىء العهد في جميع الآفاق وعند الكعبة وبين قبر رسول الله ﷺ ومنبره وشهد فيه خواص المأمون وأعيان العلماء فمن ذلك شهادة الفضل بن سهل كتب بخطه شهدت على أمير المؤمنين عبد الله المأمون وعلى أبي الحسن علي بن موسى بن جعفر بما أوجبا به الحجة عليهما للمسلمين وأبطلا به شبهة الجاهلين وكتب فضل بن سهل في التاريخ المذكور وشهد عبد الله بن طاهر بمثل ذلك وشهد بمثله يحيى بن أكثم القاضي وحماد بن أبي حنيفة وأبو بكر الصولي وبشر بن المعتمر في خلق كثير .

صورة الدرهم الذي ضرب في عهد الرضا (ع) بأمر المأمون

كما أورده صاحب كتاب مطلع الشمس واستشهد على ذلك جماعة من العلماء والمجتهدين ووضعوا خطوطهم وخواتيمهم وأصل الصورة بالخط الكوفي ونقشت أيضاً بالخط النسخ وهذه صورة الخط النسخ .

كتب على أحد الجانبين في الوسط في سبعة سطور هكذا:

الله

محمد رسول الله

المأمون خليفة الله

مما أمر به الأمير الرضا

ولي عهد المسلمين علي بن موسى

ابن علي بن أبي طالب

ذوالرياستين

وكتب على الجانب الآخر في الوسط في أربعة سطور هكذا:

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

المشرق

وكتب على أحد جانبي الدرهم بشكل دائرة هكذا:

محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وعلى الجانب الآخر بشكل دائرتين داخلة وخارجة فعلى الداخلة هكذا:

بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة أصبهان سنة أربع ومائتين.

وعلى الخارجة هكذا:

في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون.

ومما ينبغي التنبيه له أن كتابة هذا الدرهم تؤيد أن وفاة الرضا سنة ٢٠٦هـ وتوهن ما قيل

إن وفاته سنة ٢٠٣هـ أو أقل. وضرب نقود الدولة باسم الرضا هو تطبيق عملي لولاية العهد.

الإمام الرضا (ع) ودعبل الخزاعي

وقدم الشاعر دعبل الخزاعي على علي الرضا فأنشده القصيدة التالية:

تجاوبن بالإرنان والزفرات نوائح عجم اللفظ والنطقات

بخبرن بالأنفاس عن سر أنفس أسارى هوى ماض وآخر آت

صفوف الدجى بالفجر منهزمت
سلام شج صب على العرصات
من العطرات البيض والخفريات
ويعدي تدانينا على الغربات
ويسترن بالأيدي على الوجنات
يبسيت لها قلبي على نشوات
وقوفي يوم الجمع من عرفات
على الناس من نقص وطول شتات
بهم طالباً للنور في الظلمات
إلى الله بعد الصوم والصلوات
وبغض بني الزرقاء والعبلات
أولو الكفر في الإسلام والفجرات
ومحكمه بالزور والشبهات
بدعوى ضلال من هن وهنات
وحكم بلا شورى بغير هداة
وردت أجاجاً طعم كل فرات
على الناس إلا بيعة الفلتات
بدعوى تراث في الضلال بنات
لزمت بمأمون على العشرات
ومفترس الأبطال في الغمرات
وبدر وأحد شامخ الهضبات
وإشاره بالقوت في اللزبات
بشيء سوى حد القنا الذريات
عكوف على العزى معاً ومناة
وأذريت دمع العين بالعبرات

فأسعدن أو أسعفن حتى تقوضت
على العرصات الخاليات من المهى
فعهدي بها خضر المعاهد مألماً
ليالي يعدين الوصال على القلى
وإذ هن يلحظن العيون سوافراً
وإذ كل يوم لي بلحظي نشوة
فكم حسرات هاجها بمحسر
ألم تر للأيام ما جر جورها
ومن دول المستهزئين ومن غدا
فكيف ومن أنى يطالب زلفة
سوى حب أبناء النبي ورهطه
وهند وما أدت سمية وابنها
هم نقضوا عهد الكتاب وفرضه
ولم تك إلا محنة كشفتم
تراث بلا قربى وملك بلا هدى
رزايا أرتنا خضرة الأفق حمرة
وما سهلت تلك المذاهب فيهم
وما قيل أصحاب الفعيلة جهرة
ولو قلد الموصى إليه زمامها
أخي خاتم الرسل المصطفى من القذى
فإن جحدوا كان الغدير شهيده
وآي من القرآن تتلى بفضله
مناقب لم تدرك بخير ولم تنل
نجي لجبريل الأمين وأنتم
بكيث لرسم الدار من عرفات

وفك عرى صبري وهاجت صبايبي
مدارس آيات خلت من تلاوة
لآل رسول الله بالخيف من منى
ديار علي والحسين وجعفر
ديار لعبد الله والفضل صنوه
وسبطي رسول الله وإبني وصيه
منازل وحي الله ينزل بينها
منازل قوم يهتدى بهداهم
منازل كانت للصلاة وللتقى
منازل لا فعل يحل بربعها
ديار عفاها جور كل منابذ
فيا وارثي علم النبي وآله
لقد أمنت نفسي بكم في حياتها
قفا نسأل الدار التي خف أهلها
وأين الأولى شطت بهم غربة النوى
هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا
إذا لم نناج الله في صلواتنا
مطاعيم في الإعسار في كل مشهد
وما الناس إلا غاصب ومكذب
إذا ذكروا قتلى بيدر وخيبر
فكيف يحبون النبي ورهطه
لقد لاينوه في المقال وأضمروا
فإن لم تكن إلا بقربي محمد
سقى الله قبراً بالمدينة غيشه
نبي الهدى صلى عليه مليكه

رسوم ديار قد عفت وعرات
ومنزل وحي مقفر العرصات
وبالبيت والتعريف والجمرات
وحمزة والسجاد ذي الشفونات
نجي رسول الله في الخلوات
ووارث علم الله والحسنات
على أحمد المذكور في السورات
فتؤمن منهم زلة العشرات
وللصوم والتطهير والحسنات
ولا ابن فعال هاتك الحرمات
ولم تعف للأيام والسنوات
عليكم سلام دائم النفحات
وإني لأرجو الأمن بعد مماتي
متى عهدا بالصوم والصلوات
أفانين في الآفاق مفترقات
وهم خير سادات وخير حماة
بأسمائهم لم يقبل الصلوات
لقد شرفوا بالفضل والبركات
ومضطفنون ذو إحنة وترات
ويوم حنين أسبلوا العبرات
وهم تركوا أحشاءهم وقرات
قلوباً على الأحقاد منطويات
فهاشم أولى من هن وهنات
فقد حل فيه الأمن بالبركات
وبلغ عنا روحه النحفات

وصلى عليه الله ما ذر شارق ولاحت نجوم الليل مبتدرات

أفطم لو خلت الحسين مجدلاً
 إذا للطمت الخد فاطم عنده
 أفطم قومي يا ابنة الخير واندبي
 لقد آمنت نفسي بكم في حياتها
 قبور بكوفان وأخرى بطيبة
 وأخرى بأرض الجوزجان محلها
 وقبر ببغداد لنفس زكية
 فأما الممضات التي لست بالغأ
 قبور بجنب النهر من أرض كربلا
 توفوا عطاشى بالفرات فليتني
 إلى الله أشكو لوعة عند ذكرهم
 أخاف بأن اذارهم فتشوقني
 تقسمهم ريب المنون فما ترى
 اخلان منهم بالمدينة عصابة
 قليلة زوار سوى أن زوراً
 لهم كل يوم تربة بمضاجع
 تنكب لأواء السنين جوارهم
 وقد كان منهم في الحجاز وأرضها
 حمى لم تزره المدنيات وأوجه
 إذا وردوا خيلاً بسمر من القنا
 وإن فخرُوا يوماً أتوا بمحمد
 وعدوا علياً ذا المناقب والعلی
 وحمزة والعباس ذا الهدى والتقى

وقد مات عطشاناً بشط الفرات
 وأجريت دمع العين في الوجنات
 نجوم سماوات بأرض فلاة
 وإنني لأرجو الأمن بعد مماتي
 وأخرى بفتح نالها صلواتي
 وقبر بباخمري لدى الغربات
 تضمنها الرحمن في الغرفات
 مبالغها مني بكنه صفات
 معرسهم فيها بشط فرات
 توفيت فيهم قبل حين وفاتي
 سقتني بكأس الشكل والفظعات
 مصارعهم بالجزع فالنخلات
 لهم عقوة مغشية الحجرات
 مدينين أنضاء من اللزبات
 من الضبع والعقبان والرخمات
 ثوت في نواحي الأرض مفترقات
 ولا تصطليهم جمرة الجمرات
 مفاوير نحارون في الأزمات
 تضبيء لدى الأستار في الظلمات
 مساعير حرب أقحموا الغمرات
 وجبريل والفرقان ذي السورات
 وفاطمة الزهراء خير بنات
 وجعفرأ الطيار في الحجبات

سمية من نوكى ومن قذرات
 وبيعتهم من أفجر الفجرات
 وهم تركوا الأبناء رهن شتات
 فبيعتهم جاءت على الغدرات
 أبو الحسن الفراج للغمرات
 أحباي ما داموا وأهل ثقاتي
 على كل حال خيرة الخيرات
 وسلمت نفسي طائعا لولاتي
 وزد حبهم يا رب في حسناتي
 وما ناح قمرى على الشجرات
 وإني لمحزون بطول حياتي
 لفك عناة أو لحمل ديات
 فأطلقتهم منهن بالذريات
 وأهجر فيكم أسرتي وبناتي
 عنيد لأهل الحق غير مواتي
 فقد آن للتسكاب والهملات
 وإني لأرجو الأمن بعد وفاتي
 أروح وأغدو دائم الحسرات
 وأيديهم من فيثهم صفرات
 أمية أهل الفسق والنبعات
 وينت رسول الله في الفلوات
 ونادى منادي الخير بالصلوات
 وبالليل أبكيهم وبالغدوات
 وآل زياد تسكن الحجرات
 وآل زياد آمنوا السربات

أولئك لا منتوج هند وحزبها
 ستسأل فعل عنهم وفعلها
 هم منعوا الآباء عن أخذ حقهم
 وهم عدلوا عن وصي محمد
 وليهم صنو النبي محمد
 ملامك في آل النبي فإنهم
 تخيرتهم رشداً لنفسي إنهم
 نبذت إليهم بالمودة صادقاً
 فيا رب زدني في هواي بصيرة
 سأبكيهم ما حج لله راكب
 وإني لمولاهم وقال عدوهم
 بنفسي أنتم من كهول وفتية
 وللخيل لما قيد الموت خطوها
 أحب قصي الرحم من أجل حبكم
 وأكتم حبيكم مخافة كاشح
 فيا عين بكيمهم وجودي بعبرة
 لقد خفت في الدنيا وأيام سعيها
 ألم ترني مذ ثلاثين حجة
 أرى فيأهم في غيرهم متقسماً
 فكيف أداوى من جوى لي والجوى
 بنات زياد في الخدور مصونة
 سأبكيهم ما ذر في الأرض شارق
 وما طلعت شمس وحان غروبها
 ديار رسول الله أصبحن بلقعاً
 وآل رسول الله تدمى نحورهم

وَأَلَّ زِيَادَ رَبَّةِ الْحِجَلَاتِ وَأَلَّ رَسُولَ اللَّهِ تَسْبِيَّ حَرِيمِهِمْ
وَأَلَّ زِيَادَ حَفَلِ الْقَصْرَاتِ وَأَلَّ رَسُولَ اللَّهِ نَحْفَ جَسُومِهِمْ
أَكْفَأَ عَنِ الْأَوْتَارِ مَنْقِبِضَاتِ إِذَا وَتَرُوا مَدُّوا إِلَى وَاتْرِيهِمْ
تَقَطَّعَ نَفْسِي إِثْرَهُمْ حَسْرَاتِي فَلَوْلَا الَّذِي أَرْجُوهُ فِي الْيَوْمِ أَوْ غَدِ
يَقُومُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتِ خُرُوجِ إِمَامٍ لَا مُحَالَةَ خَارِجِ
وَيَجْزِي عَلَى النِّعْمَاءِ وَالنَّقَمَاتِ يَمِيزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلِ
فَغَيْرَ بَعِيدٍ كُلُّ مَا هُوَ آتِي فَيَا نَفْسَ طَيِّبِي ثُمَّ يَا نَفْسَ أَبْشِرِي
أَرَى قَوْتِي قَدْ آذَنْتِ بِثَبَاتِ وَلَا تَجْزَعِي مِنْ مَدَّةِ الْجُورِ إِنْنِي
وَأَخَّرَ مِنْ عَمْرِي وَوَقْتِ وَفَاتِي فَإِنْ قَرَبَ الرَّحْمَنُ مِنْ تِلْكَ مَدَّتِي
وَرَوَيْتِ مِنْهُمْ مَنْصَلِي وَقِنَاتِي شَفِيتِ وَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِي غَصَّةَ
حَيَاةٍ لَدَى الْفَرْدُوسِ غَيْرَ تَبَاتِ فَإِنِّي مِنَ الرَّحْمَنِ أَرْجُو بِحُبِّهِمْ
إِلَى كُلِّ قَوْمٍ دَائِمَ اللَّحْظَاتِ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْتَاحَ لِلْخَلْقِ إِنَّهُ
وَعَطَّوْا عَلَى التَّحْقِيقِ بِالشَّبَهَاتِ فَإِنْ قَلَّتْ عَرْفًا أَنْكَرُوهُ بِمَنْكَرِ
كَفَانِي مَا أَلْقَى مِنَ الْعِبْرَاتِ تَقَاصِرُ نَفْسِي دَائِمًا عَنِ جِدَالِهِمْ
وَإِسْمَاعِ أَحْجَارِ مِنَ الصَّلْدَاتِ أَحَاوَلُ نَقْلَ الصِّمِّ عَنِ مَسْتَقْرَمَا
تَرَدَّدَ فِي صَدْرِي وَفِي لَهْوَاتِي فَحَسْبِي مِنْهُمْ أَنْ أَبُوءَ بِغَصَّةِ
تَمِيلُ بِهِ الْأَهْوَاءُ لِلشَّهَوَاتِ فَمَنْ عَارَفَ لَمْ يَنْتَفِعْ وَمَعَانِدِ

قال أبو عمرو الكشي بلغني أن دعبل بن علي وفد على أبي الحسن الرضا (ع) بخراسان فلما دخل عليه قال إني قد قلت قصيدة وجعلت في نفسي أن لا أنشدها أحداً أولى منك فقال هاتها فأنشد قصيدته التي يقول فيها:

ألم ترني مذ ثلاثين حجة أرواح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيأهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيثهم صفرات

فلما فرغ من إنشادها قام أبو الحسن (ع) ودخل منزله وبعث إليه بخرقه فيها ستمائة دينار وقال للجارية قولي له يقول لك مولاي استعن بهذه على سفرك واعذرنا فقال دعبل لا والله ما هذا أردت ولا له خرجت ولكن قولي له هب لي ثوباً من ثيابك فردها عليه أبو

الحسن (ع) وقال له خذها وبعث إليه بجمعة من ثيابه. وروى الصدوق في العيون هذا الخبر بوجه أبسط فروى بسنده عن عبد السلام بن صالح الهروي قال دخل دعبل بن علي الخزاعي على أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرور فقال يا ابن رسول الله إني قد قلت فيكم قصيدة وآليت على نفسي أن لا أنشدها أحداً قبلك فقال: «مدارس آيات»، البيت، فلما بلغ إلى قوله «أرى فيأهم»، البيت، بكى أبو الحسن وقال صدقت يا خزاعي فما بلغ إلى قوله:

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم أكفأ عن الأوتار منقبضات
جعل أبو الحسن يقلب كفيه ويقول أجل والله منقبضات. فلما بلغ إلى قوله:
لقد خفت في الدنيا وأيام سعيها وإنني لأرجو الأمن بعد وفاتي
قال الرضا عليه السلام أمنك الله يوم الفرع الأكبر.

وفي تاريخ دمشق أن المأمون لما ثبت قدمه في الخلافة وضرب الدنانير باسمه أقبل يجمع الآثار في فضائل آل الرسول فتناهى إليه فيما تناهى من فضائلهم قول دعبل:

مدارس آيات خلعت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات

فما زالت تردد في صدر المأمون حتى قدم عليه دعبل فقال له أنشدني قصيدتك التائية ولا بأس عليك ولك الأمان من كل شيء فيها فأنا أعرفها وقد رويتها إلا أنني أحب أن أسمعها من فيك فأنشده حتى صار إلى هذا الموضع:

ألم ترني مذ ثلاثين حجة أروح وأعدو دائم الحسرات
أرى فيئهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله نحف جسمها وآل زياد غلظ القصرات
بنات زياد في الخدور مصونة وبنات رسول الله في الفلوات

بكى المأمون حتى اخضلت لحيته وجرت دموعه على نحره.

ويروي دعبل ما جرى له عند مغادرته مرو عائداً إلى العراق قال:

وكررت إلى العراق فلما صرت ببعض الطريق خرج علينا أكراد يعرفون بالشاذنجان فسلبوني وسلبوا القافلة وكان ذلك في يوم مطير فاعتزلت في قميص خلق قد بقي عليّ وكبر أسفي على الثوب والمنشفة التي وهبها لي الرضا عليه السلام وجعلت أحدث نفسي أننى

أسألهم إياها فينا أنا في غمرة الفكر إذ مر بي أحد الأكراد فلما رأى نهاب القافلة أنشد :

أرى فيثهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيثهم صفرات

ثم بكى توجعاً لأهل البيت عليهم السلام واستمر في إنشاد القصيدة وهو يبكي فلما رأيت ذلك عجبت من لص كردي يتشيع وطمعت في القميص والمنشفة فدنوت منه فقلت يا سيدي لمن هذا الشعر فقال ما أنت وذاك ويلك، قلت لي فيه سبب أخبرك به قال هذه القصيدة صاحبها أشهر من أن يجهل. قلت فمن هو قال دعبل شاعر آل محمد صلوات الله عليهم وجزاه خيراً. قلت فأنا والله دعبل وهذه قصيدتي فقال أتدري ما تقول قلت الأمر أشهر من ذلك سل من أحببت من أهل القافلة يخبرك بصحة قلبي قال إذاً والله لا يذهب لأحد من القافلة خلال فما فوقه والحمد لله الذي أقدرني على قضاء حقلك يا شاعر آل محمد. ثم نادى في الناس من أخذ شيئاً فليرده على صاحبه فرد عليّ وعلى الناس جميع أموالهم حتى لم يضع لأحد منا عقال فلما وصلت قم أعطيت بالمبطنة ألف دينار فقلت لا والله ولا خرقة منها فلما خرجت منها وقف لي بعض أحداث قم فقطعوا علي الطريق وأخذوا المبطنة فعدت إلى قم وناشدتهم بصاحب المبطنة فاعترفوا لي بها وقالوا لم نفعل هذا إلا رغبة في التبرك بها وما كنا نطوي عنك علم ما فعلنا فخذ الألف دينار وأعطنا أي القشرين شئت فاخترت البطانة لقربها من جسمه ﷺ وأعطوني ألف دينار ثمن الظهارة».

مظاهرة مرو

ومن العجيب تحويل نتيجة مظاهرة مرو في اليوم الذي طلب فيه المأمون من الرضا أن يصلي بالناس صلاة العيد، تحويل نتيجة هذه المظاهرة العظمى عن أهدافها الحقيقية إلى نتيجة عكسية.

فقد قالوا: إنه لما بلغ المأمون ما قوبل به خروج الرضا للصلاة من حماسة الناس وعواطفهم، قال الفضل بن سهل للمأمون إن بلغ الرضا المصلى على هذا السبيل افتتن به الناس فأنفذ إليه يرجع، فبعث المأمون يطلب إليه الرجوع وأن يصلي بالناس من كان يصلي بهم، فرجع الرضا ولم يصل بالناس.

الحقيقة هي أبعد ما تكون عن هذا الخيال العجيب:

لقد كان للمأمون معارضون في تولية عهده للإمام الرضا لأسباب نعرفها كلنا، وحاول هؤلاء المعارضون أن يثيروا معارضة شعبية على المأمون، حاولوا ذلك في بغداد وغير بغداد.

فأراد المأمون أن يرد عليهم بنفس سلاحهم وأن يبرهن لهم بأن الشعب يؤيده فيما أقدم عليه وأن للرضا بين جماهير الشعب من المنزلة ما ليس مثلها لغيره وأن الرضا إذا كان مرشحاً لولاية العهد، فهو في الوقت نفسه مرشح الشعب. وجاء العيد فوجد المأمون فرصته للبرهنة على ذلك، فدعا الرضا للصلاة بالناس بالعيد، وانتشر الخير بين الناس.

وتسامعوا بنبأ عزم الرضا على أن يؤم الجموع بصلاة العيد، فبكرت الجماهير كلها إلى الشوارع والطرق والمسالك لتحية الرضا والتبرك بطلعته، وخرج بتواضع وبساطته، وكبر وكبر مواليه معه ثم مشى حتى وقف على الباب الأكبر، فأعاد التكبير هناك.

يقول راوي الخبر: وكبر الناس معه فخيّل إلينا أن السماء والحيطان تجاوبه، وترعزت مرو بالبكاء والضجيج لما رأوا أبا الحسن وسمعوا تكبيره.

هذه الصورة الوجيزة الرائعة التي رواها شاهد عيان تعطينا حقيقة ما جرى.

لقد كان ظهور الرضا للجماهير، ثم هتافه: الله أكبر - لقد كان ذلك كافياً لأن يشير في الجماهير أقصى حماستها، ويبعث فيها أخلص عواطفها فاندفعت إليه بحبها وولائها يحاول كل واحد فيها أن يستطيع الوصول إليه فيلمس ثوبه إذا لم يستطع تقبيل يده، وأن يفوز عن قرب بالتطلع إلى وجهه والنظر إلى عينيه وجبينه وكل كيانه.

لقد كانت الجماهير تملأ الشوارع والميادين والدروب، وكلها تحاول الاقتراب من الرضا. ولما حاول الرضا أن يشق طريقه إلى المسجد كانت الجموع بحماسها واندفاعها تسد عليه كل طريق، فعجز عن أن يتحرك من مكانه وخشي أن تفوت الناس صلاة العيد، فأرسل إلى المأمون من يبلغه حقيقة الواقع، وأنه لا يستطيع أن يخترق تلك الحشود الحاشدة، العاكفة عليه وإن على المأمون أن يكلف بإمامة الناس بالصلاة من كان يؤمهم من قبل.

هذا هو الصحيح فيما جرى يومذاك.

الصدى في بغداد

أرسلت سلطات الخلافة ما يمكن أن نسميه باصطلاحنا الحاضر بلاغاً رسمياً إلى بغداد بإعلان ولاية العهد للرضا طالبة إلى من فيها تنفيذ محتواه. وكان البلاغ يتضمن ما يلي:

إن أمير المؤمنين المأمون قد جعل علي بن موسى بن جعفر بن محمد وليّ عهده من بعده، وذلك أنه نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أروع ولا أعلم منه وأنه سماه الرضا من آل محمد.

ثم يأمر البلاغ متولي الحكم في بغداد بطرح ليس السواد ولبس ثياب الخضرة، وأن يأمر من قبله من أصحابه والجند والقواد وبني هاشم بالبيعة له وأن يأخذهم بلبس الخضرة في أقيتهم وقلانسهم وأعلامهم، ويأخذ أهل بغداد جميعاً بذلك.

وكان متولي الحكم في بغداد عيسى بن محمد بن أبي خالد منتدباً لذلك من الحسن بن سهل الذي كان قد تلقى هو بلاغ الخلافة، وكان إذ ذاك خارج بغداد فأبلغه إلى عيسى.

فدعا عيسى أهل بغداد إلى ذلك على أن يجعل لهم رزق شهر والباقي إذا أدركت الغلة. كان هذا الأمر لدى البغداديين مفاجأة غير متوقعة، فبعد انتظار ثلاث سنوات كان فيها موقع ولاية العهد معطلاً، وأنظار الناس منصرفة إلى العباس بن المأمون، متعجبين من تأخر تنصيبه ولياً للعهد، إذا بهم يفاجؤون بما لم يخطر لهم على بال...!

ولم يكن من السهل تسليم جميع الناس بهذا الواقع المفروض فانشطروا شطرين: شطر سلّم وأقر وقال: نبايع ونلبس الخضرة؛ وشرط تمرد وأبى وكان على رأسه بنو العباس، فقال: لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس. ونسب هذا الفريق ما جرى إلى سعي الفضل بن سهل به إلى المأمون وإقناعه بتنفيذه.

ومضت أيام كان الإنكار فيها فردياً، فرأى العباسيون الغاضبون أنه لا بد من الاجتماع والتداول وتقرير ما يجب اتخاذه من مقاومة عملية، فاجتمعوا وقرروا خلع المأمون وتولية أحدهم مكانه، وكان رأس العباسيين الناقلين المتكلمين في ذلك الأخوين إبراهيم ومنصور ابني المهدي، عمي المأمون.

وبعد المداولة تقرر مبايعة إبراهيم بالخلافة مكان المأمون على أن يكون ولي عهده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي.

وهنا يظهر واضحاً ما قلناه من قبل من فقدان الرجال الأكفاء في العباسيين، وأن ذلك كان من دوافع المأمون لنقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين. فحين لا يجد العباسيون المعارضون أكفاً من إبراهيم بن المهدي وحين يكون هذا أكفاً مرشح منهم، يكون المأمون فيما فعله على صواب.

فإبراهيم بن المهدي كان كل ما برز فيه في المجتمع هو أنه صاحب صوت جميل جعله ينصرف منذ نعومة أظفاره إلى الغناء، فكان معروفاً بأنه مغنٌ.

ولم تكن كلمة الفن والفنان، قد عرفت في ذلك الوقت ليلطفوا كلمة مغنٌ بكلمة فنان كما يفعلون اليوم. ونحن مع احترامنا للفن وللفنانين لا نحسب أنه يمكن أن ينتقل أخذ بقفزة واحدة من عرش الفن إلى عرش الخلافة ويكون أهلاً للعرش الثاني.

فاختيار العباسيين لإبراهيم بن المهدي كان من حاجتهم للرجال، وربما كان تفضيله لأنه الأكبر سناً.

وقد كان اختيار إبراهيم للخلافة موضع تندر شعري وثرى، فمن ذلك قول دعبل الخزاعي:

سبق ابن شكلة بالعراق وأهله فهفا إليه كل أخرق مائق
 إن كان إبراهيم مضطماً بها فلتصلحن من بعده لمخارق
 وكان مخارق مغنياً من الدرجة الثانية، وابن شكلة: المقصود به إبراهيم. وقوله أيضاً:
 يا معشر الأجناد لا تقنطوا وارضوا بما كان ولا تسخطوا
 فسوف تعطون حنينية يلتذها الأمر والأشمط
 والمعبديات لقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
 وهكذا يرزق قواده خليفة مصحفه اليربط^(١)

وذلك أنه قلّ المال عند إبراهيم فخرج رسوله إلى الناس وقد اجتمعوا فصرح لهم بأن لا مال عنده، فقال بعض الغوغاء الظرفاء: أخرجوا إلينا خليفتنا ليغني لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات فتكون عطاء لهم.

وقد كان الاحتفال بتنصيب إبراهيم أول المحرم يوم الجمعة في المسجد الجامع فصعد إبراهيم المنبر فكان أول من بايعه العباسيون.

ومن الملفت للنظر أن الساعين في ترتيب ذلك وفي حشد الناس له كانوا من غير العرب، من أمثال السندي وصالح صاحب المصلى ومنجاب ونصير الوصيف وسائر الموالي. وهكذا فإن الموالي، كل الموالي غير العرب، في بغداد، هم الذين خلعوا المأمون ونصبوا مكانه خليفة آخر.

(١) الحنينية نوع من الألحان منسوب إلى حنين المغني، والمعبديات ألحان منسوبة إلى معبد المغني، واليربط آلة موسيقية هي المعروفة اليوم بالكنجة.

وبعد أن تمت البيعة كان لا بد من استرضاء الجند فوعدهم بأن يعطيهم أرزاق الأشهر الستة . ولكنه عجز عن ذلك فلم يكن في خزائنه ما يقوم بذلك .

فلما طالبوا وألحوا بالطلب دافعهم، فلما رأوا ذلك شغبوا عليه، فأعطاهم مئتي درهم لكل رجل، وكتب لبعضهم إلى قرى السواد بقيمة مالهم حنطة وشعيراً .

وعندما انتشروا في القرى لمطالبه المزارعين بما كتب لهم لم يمتروا بشيء إلا انتهبوه . ويبدو أن خروجهم كان في الصيف، موسم استخراج الحنطة والشعير، فكانوا يستولون على كل ما يجدونه على البيادر، فيأخذون نصيب الحكومة ونصيب المزارعين!

وهكذا بدأت خلافة (الفنان) إبراهيم بن المهدي، أول ما بدأت، بالتهب .

واستطاع إبراهيم السيطرة على الكوفة والسواد كله وعسكر بالمدائن . وقسم بغداد إلى قسمين شرقي وغربي وجعل لكل قسم والياً مستقلاً .

ويقول الطبري إن إبراهيم قال في تلك الحال هذا البيت :

ألم تعلموا يا آل فهر بأنني شريت بنفسي دونكم بالمهالك

على أن الطبري لم يبين لنا ما إذا كان هذا (الفنان) الكبير قد ألقى هذا البيت مجرد إلقاء، أم أنه لحنه ثم غناه بصوته الجميل . . .

غير أن المهالك التي تحدث عنها مفاخرأ، إذا كانت له نهاية، فقد كانت بداية للشعب الذي انتهب جنود إبراهيم أمواله واستولوا على أرزاقه .

أصولية

إذا كنا اليوم نعيش عهد أصولية إسلامية متصلة لها أحداثها وقائعها مع السلطة، فقد برز في تلك الفترة في بغداد أصولي عنيد نرى أن لا نغفل ذكره ونحن نستعرض أحداث الصراع على السلطة . ففي ذكره تأكيد على أن الأصولية المتشددة ليست بنت اليوم، بل لها جذورها الضاربة في كل زمن .

فقد كان في بغداد رجل اسمه سهل بن سلامة، كان يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله، فاجتمع عليه عامة أهل بغداد . وقد كان الخليفة (الفنان) إبراهيم قد همّ بقتاله ثم شغلته عنه أمور .

وكان أصحاب سهل قد بايعوه على العمل بالكتاب والسنة وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولما تجردت السلطة للتخذييل عنه ثم لقتاله وتمكنت من القبض عليه سيق إلى

إسحاق بن موسى الهادي وهو ولي عهد عمه إبراهيم الذي كان غائباً عن بغداد، فكلمه وحاجه وجمع بينه وبين أصحابه وقال له: حرضت علينا وعبت أمرنا. وكان بذلك يتهمه بأنه مؤيد لولاية عهد الرضا. فتنصل من ذلك وقال: إنما كانت دعوتي عباسية وإنما كنت أدعو إلى العمل بالكتاب والسنة، وأنا على ما كنت عليه، أدعوكم إليه الساعة، فلم يقبلوا منه، ثم قالوا له اخرج إلى الناس فقل لهم: إنما كنت أدعوكم إلى باطل.

فأخرج إلى الناس وقال: قد علمتم ما كنت أدعوكم إليه من العمل بالكتاب والسنة، وأنا أدعوكم إليه الساعة. فلما قال ذلك وجؤوا عنقه وضربوا وجهه.

فلما صنعوا به ذلك قال: المغرور من غرتموه. فأخذ وأدخل إلى إسحاق فقيده، وفي اليوم الثاني خرجوا به إلى إبراهيم بالمدائن. فلما دخل عليه كلمه بما كلمه به إسحاق، فرد عليه مثل ما رد على إسحاق.

وقد كانوا أخذوا رجلاً من أصحابه، فضربه أبراهيم وبتف لحيته وقيده وحبسه... وهكذا فإن الخليفة (الفنان) وضع عقوبة جديدة للمغضوب عليهم هي: نتف اللحي!...

فلما أخذ سهل حبسه أيضاً، وكان بين خروج سهل وحبسه اثنا عشر شهراً. والله أعلم كيف أنهوا أمره بعد ذلك.

تولية الحسن بن سهل

في أول الإجراءات التي اتخذها المأمون بعد أن دان له الأمر، كان إرساله الحسن بن سهل والياً على قسم كبير من المملكة حدده الطبري بما يلي: كُور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن.

بقي أن نعرف ما المقصود هنا بـ(الجبال). بلاد الجبل أو بلاد الجبال، كما يعرفها معجم البلدان هي: «ما بين أصفهان إلى زنجان وقزوین وهمدان والدينور وقرميسين، (كرمنشاه)، والري، (طهران)، وما بين ذلك من البلاد الجبلية والكُور العظيمة».

هذا المدى الواسع كان يعرف في عهد البويهيين باسم بلاد الجبل، ولما جاء السلاجقة بعد البويهيين سموه عراق العجم. ويقول حمد الله، (١٢٨١ - ١٣٤٩م)، في كتابه نزهة القلوب إن حدوده: آذربيجان، كردستان، خوزستان، فارس، المفازة الكبرى، قومس، كيلان، وإن أشهر مدنه: أصفهان، همدان، قم، الري، السلطانية، قزوین، ساوه، الطالقان، كاشان، جرباذقان، نهاوند، يزد وغيرها.

ويعترض ياقوت في معجم البلدان على تسميته بالعراق فيقول: «إن ذلك غلط لا أعرف سببه، وهو اصطلاح محدث، وقد ظننت أن ملوك السلجوقية كان أحدهم إذا ملك العراق دخلت هذه البلاد في ملكه فكانوا يسمونه سلطان العراق، وهذا أكثر إقامته بالجبال، فظنوا أن العراق الذي منسوب إليه ملكه هو الجبال»^(١).

قلنا إن المأمون ولّى الحسن بن سهل حكم ما مرّ ذكره من البلاد على أن يدير ذلك من بغداد؛ كما ولّى طاهر بن الحسين حكم الموصل والجزيرة والشام والمغرب، على أن يدير ذلك من الرقة.

والواقع أنه كان على هذين الرجلين أن يوطدا حكم المأمون وأن يبسطا سلطته فيما وليا من بلاد إذا نظرنا إليها اليوم على الخريطة فإننا نرى أنها هي الدولة، وأن ما خرج عن حكمهما هو جزء من القسم الشرقي بقي تابعاً لسلطة الخليفة مباشرة، يديره من مرو.

نقول سلطة الخليفة باعتبار وجوده هو نفسه في مرو، وإلا فإن الحاكم الفعلي لهذا القطع هو الفضل بن سهل.

أما المأمون فهو المشرف على الجميع.

ولم تكن مهمة الحسن بن سهل مهمة سهلة، فقد واجهته أول ما واجهته حركة محمد بن إبراهيم بن طباطبا في الكوفة مدعومة، أو بالأحرى منبعثة، من تدبير أبي السرايا القائد الغاضب.

(١) من الطرائف في هذا الموضوع قول أبي دلف العجلي، وقد فرق في شعره بين (الجبال) وبين (العراق):

وإني امرؤ كسروي الفعال
وأبس للحرب أثوابها
وبلغ هذان البيتان إلى عبد الله بن طاهر، وكان سيء الرأي في أبي دلف فقال:

أصيف الجبال وأشتوا العراق
وأعتنق الدارعين اعتناقاً
إلى أرض بابل قبلاً عتاقاً
طوراً حزوناً وطوراً رقافاً
قلوب رجال أرادوا النفاقا
تصيف الجبال وتشتو العراق
وأنت أبا دلف ناعم

فلما وقف أبو دلف على هذه الأبيات آلى على نفسه لا يصيف إلا بالعراق ولا يشتو إلا بالجبال، وقال:

ألم ترني حين حال الزمان
سمرم المصيف وبرد الشتاء
فصبراً على حدث النائبات
حنانيك حالاً أزالتك حالا
فإن الخطوب تذلل الرجالا

وقد كانت حركة خطرة لم يمكن إخمادها إلا بعد وقائع ومعارك، كما قامت حركات أخرى في عدة أمكنة اقتضى إخمادها جهوداً عنيفة ووقائع دامية.

على أن تمرداً واجه الحسن بن سهل في بغداد نفسها، وكان الحسن قد اتخذ مقره في المدائن وجعل علي بن هشام والياً على بغداد، واشتد التمرد إلى الحد الذي استطاع معه المتمرّدون إخراج علي بن هشام من بغداد، وإحلال منصور بن المهدي مكانه، بعد أن راودوه على الخلافة فامتنع عليهم، ورضي بأن يتولى أمر بغداد على أن يدعو للمأمون.

ولما وصلت هذه الأخبار إلى الحسن بن سهل ترك المدائن - القريبة من بغداد - ولم يقف إلا عند واسط، وتقدم المتمرّدون إليه في واسط فحدث بينه وبينهم قتال دام، وتطورت الأمور في غير صالح الحسن حتى اضطر إلى ترك واسط إلى المبارك وأقام بها.

وظلت الفتن تهب في مكان وتهمد في مكان، حتى جاء الخبر إلى بغداد بتولية المأمون ولاية العهد لعلي الرضا (ع)، وكان من الأمر في بغداد ما تقدم ذكره.

وعندما وصل هذا الخبر كان الحسن بن سهل في، (المبارك)، مقيماً في معسكره، فأثارة أمر المأمون بلبس الخضرة وأن يبايع لعلي بن موسى بن جعفر بولاية العهد ويأمره بأن يتقدم إلى بغداد حتى يحاصر أهلها.

فنفذ الحسن أمر المأمون وتقدم لحصار بغداد بعد أن كتب لأحد قواده لحصارها من جانب آخر.

وكان إبراهيم قد خرج بقواته من بغداد حتى وصل المدائن فعسكر فيها. ولكن الأحداث تطورت في بغداد إلى الحد الذي أدى إلى أن يُخلع إبراهيم من الخلافة وأن تُصلى الجمعة فيها ويُدعى للمأمون. وبدأ الأنصار يتفرقون عن إبراهيم، وبعد معركة عند جسر نهر دبالى هزم إبراهيم، وأخذ من كان قد بقي معه من العباسيين والقواد يلتحقون بالفريق الآخر واحداً بعد واحد، ثم شعر بأن من بقي معه يحاولون القبض عليه وتسليمه فاستطاع النجاة بنفسه والتواري عن الأنظار. وظل مختفياً حتى جاء المأمون من مرو إلى بغداد، فلم يظهر له أثر.

وفي إحدى الليالي التقى ليلاً حارس أسود في بغداد بثلاث نسوة متنقيات، فقال من أنتن؟ وأين تردن في هذا الوقت من الليل؟ وكان إبراهيم أحد المتنقيات، فخاف أن يكتشفه الحارس فأعطاه خاتم ياقوت كان في يده له قدر عظيم ليخليهن ولا يسألهن.

فلما نظر الحارس إلى الخاتم استراب بهن، وقال هذا خاتم رجل له شأن فساقهن إلى رئيسه، فأمرهن أن يسفرن، فتمنع إبراهيم، فجذبه الرجل فبدت لحيته، فلم يعرفه، لذلك ساقه إلى من هو أعلى منه فعرفه فذهب به إلى باب المأمون فأعلم به، فأمر بالاحتفاظ به في الدار.

فلما كان في الغد أقعد في دار المأمون لينظر إليه العباسيون والقواد والجند، وصيروا المقنعة التي كان متنقياً بها في عنقه، والملحفة التي كان ملتحقاً بها في صدره ليراه الناس ويعلموا كيف أخذ.

ثم حوله المأمون إلى إحدى دور قواده ليحبس عنده. ثم أخرجه المأمون معه حين خرج إلى الحسن بن سهل بواسط.

ثم خلى سبيله وصيره عند أحد قواده وصير معه اثنين يحفظانه، إلا أنه موسع عليه، عنده أمه وعياله ويركب إلى دار المأمون والاثنان معه يحفظانه. ولا شك في أن يكون المأمون قد أطلقه بعد ذلك.

ويروى أنه لما دخل على المأمون قال له هيه يا إبراهيم فقال يا أمير المؤمنين وليُّ الثأر محكِّمٌ في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مدَّ له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك. قال بل أعفو يا إبراهيم فكبر ثم خر ساجداً. وقيل إن إبراهيم كتب بهذا الكلام إلى المأمون وهو مختفٍ فوق المأمون في حاشية رقعته «القدرة تذهب الحفيظة والندم توبةٌ وبينهما عفو الله وهو أكبر ما نسأله» فقال إبراهيم يمدح المأمون:

يا خير من دَمَلتْ يمانيةً به	بعد الرسول لايس ولطامع
وأبرَّ من عبدِ الإله على التقى	عيناً وأقولَه بحقِّ صاعدِ
عسل الفوارع ما أطعت فإن تهج	فالصَّابُ يُمزج بالسمام الناقع
متيقظاً حذراً وما يخشى العدى	نبهانٌ من سنَّات ليل الهاجعِ
مُلئت قلوب الناس منك مخافة	وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
بأبي وأمي فديةً وبنيهما	من كل معضلة وريب واقعِ
ما ألين الكنفَ الذي بوأتني	وطناً وأمَرَغَ رتعه للراتعِ
للمصالحات أخاً جعلت وللتقى	وأباً رؤوفاً للفقير القانعِ

والوذ منك بفضل حلم واسع
 رَفَعَتْ بِنَاءَكَ بِالمحل الیافع
 وَسُحُّ النّفوس من الفعالم البارع
 عفوّ ولم یشفع إلیك بشافع
 ظفرت یداك بِمُستكین خاضع
 وعویل عانسة كقوس النازع
 جهد الألیة من حنیف راکع
 أسبابها إلا بنیة طائع
 بردئ إلی حفر المهالك هائع
 فوقفت أنظر أی حتف صارعی
 ورعُ الإمام القادر المتواضع
 ورمی عدوك فی الوتین بقاطع
 نفسی إذا آلت إلی مطامعی
 فشكرت مُصطنعاً لأكرم صانع
 وهو الكثیر لدی غیر الضائع
 أهلاً وإن تمنع فأعدل مانع
 فی صلب آدم للإمام السابع
 وحوی رداؤك كلّ حبر جامع

نفسی فداؤك إذ تضلّ معاذری
 أملاً لفضلك والفواضل شیمة
 فَبَدَّلْتَ أفضل ما یضیق ببذله
 وعفوت عمن لم یكن عن مثله
 إلا العلو عن العقوبة بعدما
 فرحمت أطفالاً كإفراخ القطا
 اللّه یعلم ما أقول فإنها
 ما إن عصیتك والغواة تقودنی
 حتی إذا علقت حبال شقوتی
 لم أدر أنّ لمثل جرمی غافراً
 ردّ الحیة علیّ بعد ذهابها
 أحیاك من ولاك أطول مدّة
 كم من ید لك لم تحدّثنی بها
 أسدیتها عفواً إلیّ هنیئة
 إلا یسیراً عند ما أولیتنی
 إن أنت جدت بها علیّ تكن لها
 إن الذی قسم الخلافة حازها
 جمع القلوب علیك جامع أمرها

فذكر أن المأمون حين أشده إبراهيم هذه القصيدة قال أقول ما قال يوسف لإخوته ﴿لَا تَتَّزِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

هذا الفنان الذي أراد أن يعيش فنه، وأراد أن يكون للفن دولة وسلطان . . . هذا الفنان لا ندري ماذا كان شأنه مع فنه خلال تلك الفترة التي مضت بين صعوده منبر المسجد الجامع لتلقي البيعة بالخلافة، وبين القبض عليه متنكراً بثياب امرأة؟

هل استطاع أن ينسى فنه فلا يرسل صوته الرنان بالغناء الرقيق، أم رأى أن ذلك يتنافى مع وقار الخلافة فصمت عن الغناء؟!

لقد مرت به أدوار يستحق كل دور منها أن يتعالى فيه صوته غناء، دور حماسي وهو يقود الكتائب إلى القتال، لقد كان من حق هذه الكتائب عليه أن يفعمها حماسة بأناشيده... !
ودور تصبّر وتفجع وهو يرى الأنصار يخذلونه بعد أن استشعروا ضعف موقفه، لقد كان من شأن هذا الدور أن يثير أساه فيردد الأغاني الحزينة... !

ودور خوف دائم وهلع مستمر... هذا الدور وحده هو الذي يُسكت أبلغ البلغاء، ويصمت أشجى المغنين!... فإذا صمت فيه فلا لوم عليه... !

إذا كانت خلافته قد مرت بهذه الأدوار الثلاثة، فإن الناس كل الناس من عهده هو حتى هذا العهد وحتى كل عهد لم يروا فيها إلا ما يضحك:

حين اقترح الغوغائي الظريف عليه أن يعيض الجنود عن المال بإنشادهم ثلاثة أصوات وحين نظم دعبل له أبياته اللطيفة... .

وحين عاقب الخارج عليه بنتف لحيته... .

وحين قُبض عليه متخفياً بزى امرأة... .

وحين عُرض للناس وفي عنقه المقنعة وعلى صدره الملحفة... .

لقد أراد أن يكون خليفة عظيماً، فإذا به خليفة مضحك... .

لقد كان يمكن أن يذكر في التاريخ عظيماً لو أنه استمسك بالفن ولم يتجاوزه إلى المنبر والعرش، لو ظل يضرب بالعود ولم يحاول الضرب بالسيف... .

من مرو إلى بغداد

كان الفضل بن سهل هو المشرف على شؤون الدولة في مرو، وكانت أخبار نقمة العباسيين على إخراج الخلافة منهم، وتحول هذه النقمة إلى ثورة وإلى خلع للمأمون ومبايعه إبراهيم بن المهدي. كانت هذه الأخبار تصل أول ما تصل إلى الفضل بن سهل. ويبدو أن الفضل لم يشأ أن يشغل بها المأمون لأنه كان يرى أن الثورة لا يمكن أن يشتد أمرها، وأن من السهل إخمادها، لذلك لم يوصل الأمر على حقيقته إلى المأمون.

على أن ولي العهد علياً الرضا كان متنبهاً لكل ما يجري، وكانت له وسائله التي تجعله يراقب مراقبة تامة كل ما يحدث في أرجاء المملكة. فكان على علم بحقيقة الثورة في العراق، وعلم بالأحداث الأخرى، فأخذ بالحزم وتصرف تصرف رجل الدولة المسؤول، وقصد إلى المأمون، وأطلعه على الحقائق وأن حرباً حقيقية تجري بين قوات إبراهيم بن المهدي المبايع

بالخلافة، وبين القوات الشرعية. وأن هناك نقمة عامة في العباسيين وفي جمهور من الشعب على ما أقدم عليه من بيعته له بولاية العهد. وأن الفضل بن سهل لا يوصل إليه الأخبار على حقيقتها، بل يوصلها ملطفة مخففة معتمداً على أن أخاه الحسن بن سهل يستطيع القضاء على كل تمرد، مبيناً للمأمون أنه ليس مكانهما هو والمأمون هنا في مرو ولا يمكن أن تكون عاصمة بديلاً عن بغداد، فلا بد من الانتقال إلى بغداد وممارسة الحكم منها، لا سيما في هذا الظرف بالذات، حيث إن الخليفة وولي العهد يجب أن يكونا على مقربة من الأحداث.

ويعد أن تحقق المأمون مما أخبره به الرضا قرر الأخذ برأيه والرحيل إلى بغداد. هذا الموقف الذي وقفه الرضا نستطيع أن نعتبره الموقف البارز فيما وصلنا من أخباره خلال الفترة التي مارس فيها ولاية العهد في مرو.

أقول: فيما وصلنا، إذ لا شك أن هناك الكثير مما لم يصلنا، مما لم يعن بتدوينه المدونون، ولو حرصوا على تدوين الكثير لعرفنا الكثير مما كنا نحب أن نعرفه عن شخصية رجل الدولة الكبير علي الرضا. على أن في هذا الموقف وحده ملامح واضحة من تلك الشخصية التي أثبتت أن المأمون كان بعيد النظر عميق الفراسة حين اختارها لإنقاذ الدولة مما يهددها من تدهور بعده.

كان تسيير الحكم الفعلي متروكاً للوزير الفضل بن سهل الذي برهن على كفاءة عالية منذ الساعة الأولى التي التحق فيها بالمأمون، وراح يشير عليه بالرأي الصواب.

والآن بعد أن استتب الحكم وأصبحت خلافة المأمون أمراً قائماً، كان المأمون يتولى الإشراف العام على شؤون الحكم، والتوجيه الذي لا بد منه في الشؤون العامة.

أما الإجراءات الفعلية، والتفاصيل العملية فقد كانت متروكة للفضل بن سهل الذي عهدت إليه وزارة المأمون.

ويجب أن نذكر هنا أن الفضل بن سهل هذا كان المشجع الأول للمأمون على اتخاذ القرار الخطير الذي اتخذه بمبايعة الرضا بولاية العهد لذلك فقد كان يرى نفسه مسؤولاً عما يمكن أن تؤدي إليه هذه المبايعة من نتائج سلبية أو إيجابية.

ومن هنا كان عندما وصلته أنباء ثورة بغداد وخلع المأمون فيها ومبايعة إبراهيم بن المهدي - من هنا كان يوصل هذه الأنباء مخففة إلى المأمون مما يوهم أن الأمر ليس أمر ثورة وخلع وتولية، بل مجرد تمرد لا خطر فيه لا سيما وأن المتولي لإخماد تلك الثورة هو أخوه

الحسن بن سهل الذي كان مطمئناً إلى كفاءته وحسن تدييره، فهو يريد له أن ينجح وحده في القضاء على الثوار.

هنا يبرز رجل الدولة العتيد، رجل الدولة الذي لم يكن له من الصلاحيات - باعتباره ولياً للعهد - ما يخوله التدخل فعلياً في تسيير الأمر، وما يدفعه إلى معاناة المشاكل المعقدة والأحداث المربكة.

ولكن الرضا لم يكن رجلاً عادياً كغيره من الرجال، ولا ولي عهد كمن تقدمه من أولياء العهود، كل ما يهمه في ولاية العهد الزهو والاستمتاع وخفض العيش وبسط النفوذ. . . .
لقد اختير ولياً للعهد لمهمة معينة هي الحؤول دون تدهور الدولة وتمزقها، ثم قيادتها في معارج التقدم والترقي والعلاء.

إذاً فإن عليه أن يتحمل مسؤوليته منذ الآن، لذلك تجاوز الوزير وصلاحياته، وتقدم إلى الخليفة بالذات مقدماً له تقريراً شفهاً عما يجري في بغداد، طالباً اتخاذ مخطط عملي لإنقاذ الموقف، أول مادة فيه الانتقال إلى بغداد والإشراف من كئيب على الأحداث، وإدارة مكافحة الأخطار إدارة مباشرة.

فكان له ما أراد ونفذ الخليفة منهاجه تنفيذاً حرفياً فأمر بالرحيل إلى بغداد، بعد أن أقام في مرو حوالي ست سنوات ما بين وال وولي للعهد وخليفة.

هذا - فيما وصل إلينا من المواقف - هذا هو الموقف البارز الذي مارس فيه الإمام الرضا (ع) - كما قلت فيما تقدم من الكلام - ولاية العهد خلال الإقامة في مرو.

إننا من هذا الموقف وحده نستطيع التعرف على رجل الدولة المعد للأمر الخطير في الغد.

منه نعرف أنه كان محيطاً إحاطة كاملة بما يجري داخل المملكة. وفي هذه الإحاطة ما فيها من حسن التدبير في اختيار الأكفيا يرفعون إليه كل شاردة وواردة من أمور الدولة التي سيتولى في الغد الآتي زمامها.

ثم هذا التقويم السليم لما يجري، ثم هذا الرأي السديد فيما يجب البدء به من عمل، ثم هذا الحزم في تنفيذ رأيه. كل ذلك يرينا ملامح الرجل العظيم، رجل الدولة الإسلامية الذي سيكون عليه حفظها من التضعع، ثم السير بها قدماً فيما يجب أن تسير إليه من آفاق.

ويخيل إليّ - وأنا في هذا البعد الساحق عن الأحداث - يخيل إليّ بعد أن قرأت ما

قرأت من تاريخ تلك الأيام - يخيل إليّ أن الرضا قد عزم منذ تلك الساعة على أن يتولى الأمر بنفسه وأن يقود الدولة بيده بمجرد أن يصل بغداد.

ولكن لسوء حظ الدولة وسوء حظ العرب والمسلمين شاءت إرادة الله أن يموت الرضا قبل أن يصل إلى بغداد.

ثم رأينا الدولة بعد ذلك تأخذ بالتدهور بمجرد موت المأمون، ثم تستمر بالتدهور إلى ما نعرفه في صفحات التاريخ. فتحقق ما توقعه المأمون وأراد تلافيه بتعيين الرضا لولاية العهد.

وكان من أخطر ما واجه الدولة: الحركات الانفصالية التي بدأت باستقلال محمد بن عبيد الله بن زياد ببلاد تهامة وتأسيسه فيها الدولة الزيدية، ثم استقلال بني يُعفر ببلاد الجبال في اليمن.

ثم توالى الانفصالات فترة بعد فترة، فانفصل الأغلبة في تونس، وكان انفصالهم قد بدأ سنة ١٨٤هـ - ٨٠٠م انفصلاً محدوداً ثم تجذرت وتم، والطلولونيون في مصر والشام، (٢٥٤هـ - ٨٦٨م)، والأخشيديون، (٣٢٣هـ - ٩٣٥م).

وأقام الطاهريون كياناً خاصاً لهم في خراسان (٢٠٥هـ - ٨٢٠م) ثم أعقبهم الصفاريون، (٢٥٤هـ - ٨٦٨م)، ثم السامانيون، (٢٦١هـ - ٨٧٤م)، ثم الغزنويون، (٣٥١هـ - ٩٦٢م).

وسيطر العلويون على طبرستان، والزياريون على جرجان وما حولها، والبويهيون على فارس والحمدانيون على بعض مناطق الجزيرة وعلى شمال سوريا . . .

وفاة المأمون

توفي المأمون سنة ٢١٨هـ وهو خارج عاصمته في البذندون، فنقل جثمانه إلى طرسوس فدفن فيها. وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، سوى سنين كان دعي له فيها بمكة، وأخوه الأمين محصور في بغداد. وكان مولده سنة ١٧٠هـ.

يقول ابن الأثير في الكامل، (ص ٤٣٠. ج ٦. ط ١٩٦٥): ثم دعا المعتصم حين اشتد الوجع وأحس بمجيء أمر الله فقال له: هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم وأقبل من محسنهم ولا تغفل صلواتهم في كل سنة عند محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى.

المعتصم

يقول الدكتور فاروق عمر في كتابه الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية (ص ٤٠) من الطبعة الثانية عن المعتصم:

«لم يكن المعتصم في نظر التاريخ خليفة بعيد النظر قديراً في إجراءاته السياسية، بل شب على الرماية والولع بالصيد وركوب الخيل واستعمال السيف والرمح. ولعله أراد بتقريبه للأتراك تقوية الدولة التي بدأت علائم تصدعها بالظهور، ولكنه أخطأ في هذا التقدير حيث لم يستطع أن يسيطر على الجند الأتراك، واختل التوازن بينهم وبين فرق الجيش الأخرى، كما أن بناء لسامراء، كان له عواقب على الخلفاء من بعده الذين أصبحوا في عاصمة نائية أشبه ما يكون بمعسكر يحيط به الأتراك، وأصبح بقاؤهم في الخلافة رهناً برضى الأتراك عليهم.

ولم يكن المعتصم يهتم باختيار وزرائه فكان أكثرهم قليلي الثقافة ومن غير طبقة الكتاب».

ونزيد نحن على قول الدكتور فاروق قائلين:

كان المعتصم شبه أمي يقرأ ولا يكتب، لأنه كان له عبد صغير يتعلم معه في الكتاب، فمات العبد، فقال له الرشيد مات غلامك. قال: نعم واستراح من الكتاب. فقال له: بلغ الحال من كراهة الكتاب أن تغبط غلامك على الموت لأنه استراح من الكتاب. وأعفاه من الذهاب إلى المعلم. فخرج يقرأ ولا يكتب، لهذا لما كتب بعض العمال إلى المعتصم كتاباً فيه لفظ (الكلأ) لم يفهم معناه، فسأل الوزير فلم يعرفه، فقال المعتصم: خليفة أمي ووزير جاهل، كيف تصلح على هذا حال؟! فسأل بعض الكتاب عنه ففسره، فعزل الوزير واستوزر الكاتب.

ويعود الدكتور فاروق إلى الكلام قائلاً:

«ولكن اصطناع الخليفة للأتراك أدى إلى سخط بغداد وجند بغداد عليه، فقد ضاقت المدينة بمن جاء إليها من الأتراك البدو الحفاة الذين لم يحسنوا التصرف تجاه البغداديين. كما شعر الجند من الفرق الأخرى بالحسد تجاه الأتراك المقربين إلى الخليفة والمتمتعين بامتيازات كثيرة».

نهاية العباس بن المأمون

في مسير المعتصم إلى غزو عمورية حدثت تصرفات أدت إلى استياء بعض القادة

وأثارت نعمتهم فاتصلوا بالعباس بن المأمون للقيام بانقلاب يستهدف اغتيال المعتصم وبعض كبار قواده وأحكموا أمرهم في ذلك، فلما دخل المعتصم الدرب في قلة من الناس أشار أحد القادة المتآمرين على العباس أن يتم التنفيذ هنا بأن يثب العباس بالمعتصم فيقتله ويرجع إلى بغداد، فإن الناس يفرحون بانصرافهم إلى بغداد من الغزو. فأبى العباس ذلك وقال: لا أفسد هذه الغزاة. وطلب تأجيل التنفيذ إلى ما بعد الفتح.

وانتهى الأمر بفتح عمورية. وفي تفاصيل لا تعينا كثيراً اكتُشف أمر المؤامرة وبلغ خبرها إلى المعتصم، فأمر بالقبض على العباس وعلى القواد المتآمرين. ولما جيء بأحدهم إلى المعتصم - وكان العباس موجوداً قال المعتصم للقائد: يا ابن الزانية! أحسنت إليك فلم تشكر، فقال القائد: ابن الزانية هذا، وأوماً إلى العباس، لو تركني ما كنت الساعة تقدر أن تجلس هذا المجلس وتقول هذا الكلام.

ودفع العباس إلى الأفيشين أحد القواد المواليين، وفي طريق العودة عند مدينة منبج طلب العباس الطعام فقدم إليه طعام كثير ومنع عنه الماء.

ويصف ابن الأثير إمامته بهذه الصورة: وأدرج في مسُح فمات في منبج.

ويقول في معجم لسان العرب عن المسح: إنه الكساء من الشعر، وإنه البلاس، ويفسر البلاس: بأنه المسح، وأن أهل المدينة يسمون المسح بلاساً، وأن من دعائهم أراييك الله على البلس، وهي غرائر كبار من مسوح يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به وينادى عليه. ومهما يكن من أمر فإننا لا نستطيع إلا أن نذكر للعباس رفضه إفساد الغزاة ولو تعارض ذلك مع مصلحته.